القـــرآن الكـــريم

ســـورة التوبـــة

التحليـــل الروائـــي

عبـد البـاقي يوسـف

اسم الكتاب : القرآن الكريم
سورة التوبة
التحليل الروائي

التصنيف : دراسات – تفسير – قرآن

تأليف : عبد الباقي يوسف

تصميم الغلاف : فارس إيهاب

إخراج فني : هيام فهيم

رقم الإيداع : 2020 / 19830

الترقيم الدولي : 978-977-85787-3-7

الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256
Scribe20199@gmail.com
scribe2019 – اسكرايب للنشر والتوزيع
scribe2019 – اسكرايب للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

بســـم الله الـــرحمن الـــرحيم

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ
يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ
وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ
يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا
فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي
ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ
وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا
تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ

أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ
وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ
وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ
لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي
ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ
ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا
يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ
مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ
٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى
ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ
وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا
وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ
ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ
حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا
رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ
جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا

يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ
ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ
أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ
وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ
وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ
وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ
ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ
ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ
يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى

ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا
قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟
بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ
عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ
عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟
لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن
لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ

ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا
أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن
تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا
وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ
بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ
مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا
رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ
حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ
وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ
لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ
لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا
تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ
مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ
يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ
كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ
فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ
ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ
وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ
أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا
أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤ * وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ
لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ
بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ
ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا
تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ
يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ
إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ
رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ
قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ
بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ
بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ
وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ
أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ

عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ
لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ
كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ
ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ
وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩
وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ
وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
١٠٠ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ
نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ
عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ
صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ
فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦
وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ
فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن
يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَمۡ
مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
١١٠ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ
أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١
ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢ مَا
كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن
مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٌ ١١٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ
١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ
أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ
حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ
ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ
لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١ ۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا

نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ
يَحۡذَرُونَ ١٢٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ
غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ
هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ
يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا
مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا
عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩

صـــدق الله العظـــيم

مقدمة

تقترنُ التَّوبَةُ بالذَّنْبِ، ولا توبةَ منْ غيْرِ ذَنْبٍ، كما لا ذَنْبَ لا تتّسِعْهُ التَّوبَةُ، وَكُلُّ ذَنْبٍ يَحْتاجُ تَوْبَةً كي تَمْحوه، كما لو أنَّه لَمْ يَكُن، وتقي الإنسانَ عواقِبَه.

مع هذه السُّورةِ الكَريمَةِ نَتَعرَّفُ على التَّوبَةِ، نتعرَّفُ على أهمّيّتِها في حياةِ الإنْسانِ، وبذلك نتعرَّفُ على الذُّنوبِ التي يرتَكبُها الإنْسانُ، وكيفَ أنَّ التَّوبةَ تُتْيحُ له أنْ يتبرَّأَ من ماضيه السَلبي، ويفتحَ صفحةً جديدةً ناصِعَةً في حياتِه، وقد فَصَلَته التَّوبةُعن ذاك الماضي الملوَّث تَماماً، وهيَّأته للنَّجاة في الدُّنيا، وفي الآخرة، من عواقبَ ما ارتَكَبَهُ من تجاوزات. فَرُغْمَ كلِّ تَجاوزاتِه لحدودِ الله، فإنَّ اللهَ يستُرُه، ويجعلُ التوبَةَ بينَه وبينَ فضْحِ أمرِه، ثم بينَ تلقّي عقابِ تلكَ التجاوزات، فتكونُ التَّوبَةُ كذلك حصانةً له.

تركّزُ سُورةُ التَّوبَةِ على هذا الأمرِ الحَيوي المتجدِّد بالنسبةِ لإنسانِ كلِّ زمانٍ ومكان، فلا أحدَ يمكنُ له أن يدّعيَ بأنَّهُ بلا ذنوبٍ، ولا يحتاجُ إلى التَّوبَةِ، حتى لو ادّعَى أيُّ إنْسانٍ ذلك، فإنَّ كلامَه لا يكونُ دقيقاً.

والذنوبُ لا تنحصرُ في أعمارٍ محدَّدة، ويمكنُ لها أنْ تُرتَكَبَ في أية مرحلةٍ عمريّةٍ يكونُ فيها الإنسانُ، ولا تكونُ بالنسبةِ لفئاتٍ محدَّدَةٍ، بل تكون لجميعِ الفئاتِ البشريَّة، ومَهْما ارْتَقى الإنسانُ في تلقّي العلمِ وغَدا عالِماً مُميَّزاً بعِلمه وحِجّته، ومهما غدا ناضِجاً في تجارِبِه الحياتيَّة، فإنَّه مايلبث أنْ يخضعَ للذُّنوبِ حتى لو تجاوزَ قَرناً من عمره.

لكنَّ الذُّنوبَ هنا درجات، فمنها كبائرُ، ومنها صغائرُ، ومنْها ما بينَهُما بدرجاتٍ متفاوتَةٍ، ولبيانِ هذهِ الحقيقةِ البشريَّةِ، نرى أن القرآنَ يوثّقُ لنا بعضَ التَّصويباتِ على الأنبياء والرُّسُلِ، بل حتَّى على أولي العزْمِ من الأنبياء والرسل، انتهاءً بخاتَمهم، صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن هنا فإن الإنسانَ يرتقي على قَدْرِ ما تخفّ لديه الذُّنوبُ، وتكثرُ لدَيْه الطَّاعات، وينحَدرُ على قَدْرِ ما تكثرُ لديْه الذنوب، وتقلُّ لديه الطَّاعات. وها هنا تكون التوبةُ بمنزلة السُّلَّم الذي يصعد المذنبُ على درجاته من قاعِ ذنْبِه إلى فسحةِ الارتقاء.

من خلالِ ذلك، تتيحُ لكَ السُّورةُ كي تتعرفَ على حقيقةِ الابتلاء، فما هو الابتلاءُ، وكيف تُميِّز بينَه وبينَ العقاب؟. هذه التفاصيلُ الدَّقيقةُ التي هيَ منْ أكثر ما تحتاجُها في حياتِكَ اليوميةِ، تعرِّفُك علَيْها آياتُ السُّورةِ، فتجعلكَ في دهْشةٍ وأنت تكتَشفُ هذه التفاصيل التي لم تكنْ تُثِر انتباهَك، وكانت تسبّبُ لك القلقَ، وتجعلكَ في شيءٍ من غمُوض. فتُبدّدُ السورةُ هذا الغموضَ، وتُقدّمُ لك البَيانَ التَّفصيليَّ الدَّقيقَ الذي ينشرحُ له صدرُكَ، وتستَرِدُّ به صفاءَ ذهْنِك، وتركُنُ من خلالِه إلى سَكينةِ نفسِك، فترى كيفَ أنَّ آياتِ السُّورَةِ تجعلُكَ تَرْتَقي في مسلكِ حياتِكَ، وأنتَ تستنيرُ بِهَذه القَبَساتِ الإلَهيَّة الثَّمينَة، فتُصبِحُ أفضلَ مِمّا كنتَ قبلَ قراءَتِها.

أجل إنَّها تجعلُك أكثرَ وضوحاً، أكثرَ نقاءً، أكثرَ نُضوجاً، أكثرَ توازناً، أكثرَ طيباً، أكثرَ تواضعاً، أكثرَ إيماناً. هكذا توضّح لك السورةُ الكريمةُ حيثيّاتِ العلاقةِ بينكَ وبين الله، تبيِّنُ لكَ كيفَ أنَّه يختبرُك ويمتحِنُك حتى يضَعك أمامَ حقيقَتك وجهاً لوجْهٍ أولاً، حقيقَتَك الفعليَّة، لا القوليَّة. فأنت تقولُ للنَّاسِ بأنَّك أمينٌ، وتقول للهِ بأنك أمينٌ. هنا يتيح اللهُ لك فُرَصاً يمكّنك فيها الحصول على أمْوالٍ غيرِ مَشْروعةٍ، وييسِّرُ لك أمر أخذها في مأمن. فترى بأنك لو أخذتها، لن ينكشف أمرك، وهي ستُغيّر لك حياتَك نحوَ الأفضَل بكثير، وستنعمُ مع عائِلَتِكَ بهذه الثروَةِ التي لم تبذُل بِها جهداً، ولو أخذتَها، سيحدث ذلك بسرّيّةٍ تامّةٍ، ولن يكشفَ أحدٌ أمْرَك.

وتقول بأنك إنسانٌ عادلٌ، وهنا يجْعلك اللهُ في موضعٍ أنتَ فيه مسؤولٌ عن بعض الناس الذين يعملون تحت إمرتك، ويتيحُ لك بعضَ المزايا التي تكون تحتَ تصرُّفِك بشأنِ هؤلاء، فهل ستوزّعُ هذِه المَزايا بالعَدْلِ، أم ترجّحُ كفّةَ بعضِهِم على بعضٍ بسببِ بعضِ العلاقاتِ

المقرّبةِ، أو المصالِحِ، أو قد تعطي شيئاً من هذه المزايا لأناسٍ آخرينَ بحكمِ بعضِ علاقاتِكَ بهِم رغمَ أنَّهُم مِنْ غيرِ المُسْتَحقّين لهذه المزايا.

ويرزُقُكَ اللهُ بمالٍ تتوجَّبُ عليه الزَّكاة، هل تعملُ وفق ما شرّع اللهُ في إيصال هذه الزكاة إلى مستحقّيها، أم تلمس بعضَ المخارجِ للانحرافِ عن التَّشْريعِ، وتُعْطِي لِمَن لكَ معَهُم مصالح أو مآرب، فتجْعَل الزَّكاةَ وسيلةً لكَ لتحقيقِ تلكَ المصالح أو المآرب. فهذا الشخص لم يستجبْ لمطالبِ طلَبَتِها منه، ولذلك أخَذَتَ منْه موقِفاً وربَّما امْتَنَعَت حتَّى من إلقاء السلام عليه، فتحرِمُه من حقّه في الزكاة ، وهو أَوْلَى وفق درجات التشريع، ثم تعطي استحقاقَه لشخصٍ دون الأولويَّةِ التي عيّنها الله، لأنه يستجيبُ لخدماتٍ تطلُبُها منه بينَ حينٍ وآخر.

تقول بأنك عفيفٌ، فيجعلُ اللّهُ ظرفاً طارئاً، يتيحُ فيه حصولَ خلوةٍ بينَك وبينَ امرأةٍ جميلةٍ في بيتك، فتثيرُك بحركاتٍ ما، وقد تجاوزَ اللَّيل منتصفَه، وهي ستنامُ في بيتِك بسبب ذاك الظرف الطارئ.

تقول بأنَّكَ داعيةٌ لوجه الله تعالى، فيتيحُ لك الله تقرّباً من أحد أولي الأمر، لتبرهنَ عن مدى مصداقيتك بالدعوة لوجه الله تعالى، أم تستغل ذلك ، وتُصبحُ رجلاً من رجالِ وَليّ الأمر ذاك، تمتدِحُهُ في كلِّ مجلسٍ كي يغدقَ عليك بمالٍ، أو حصانةٍ، أو تأمُل منه منصباً.

تبيِّنُ لك السورةُ الكريمة كيف أن اللهَّ يختبرُكَ ليضَعَكَ أمامَ حقيقةِ نفسِكَ، وأنك لا تستطيع أن تخدعَ الله، وهو يعرف حقيقَتَك، قبل أن تعرفها. ولذلك يستدرجك حتى يضعك أمام حقيقة معدنك. فهنا لستَ أميناً، بل سَطَوتَ على أموالٍ غير مشروعة لمجرَّد تمكّنك منها، والحقيقة: إنك لم تكن أميناً، بل إنك لم تكن متمكّناً من السَّرقة. وأنتَ لستَ عادلاً، لأنَّ الله لم يضعْ رزقَ أحدٍ بِيدك، وعندما مكَّنَكَ من أرزاق الناس، لم تعدلْ، بينهم.

وتقول بأنّك تُخرج زكاة أموالِك، والحقيقةُ أنت لا تعطيها لمستحقّيها، بل تُعطيها لِمَن لك مصالحُ ومآرب شخصيَّةٍ معَهم، وما تعطيه هو نظيرُ ما تُحصّلْه منهم من مصالحِك ومآربك، وليسَ زكاةً. وأنتَ لستَ عفيفاً، بل إن الظروف لم تُتَحْ لكَ كي تَزْنِي، ولمجرّد إتاحَة ظرفٍ، أقبلتَ على الزّنا. وما تقوله بأنَّك تدعو إلى الدينِ لوجْهِ اللهِ تعالى، ليسَ صَحيحاً، بل أنتَ تستغِلُّ الدينَ لتحصلَ من خلالِه على أموالٍ ومزايا.

سورة التوبة تضَعك أمام معْدنك الخالصِ، وتبيِّن لك كيفَ أنَّ اللهَ يسترُك أحياناً، ويفضحُك أحياناً، يتيحُ لك أن ترتكبَ الآثامَ أحياناً، ولا يتيحُ لكَ ارتكابها أحياناً حتى وأنتَ في ذروةِ استعدادِك وإقبالِك عليها، وتكون الظروف كلّها ملائمة، ولكن يحول بينك وبين ارتكابها في اللحظات الأخيرة. ثم تبيِّن لك: لماذا يحصل ذاك، ولماذا يحصل هذا.

وما هو مهمٌّ جدّاً هنا، أن السُّورةَ الكريمةَ تبيِّن لك بأنَّ كلَّ ذلك اختباراتٍ يمتحِنُك الله بها، لا ليعرفَ، لأنه يعرفُ الحقيقةَ قبل الاختبار وبعده. بل ليقيمَ عليكَ الحجّةَ والدليلَ العَمَلي على حقيقتك التي يُخبِرها الله، وهو لم يدعْك في ازدواجيّتك، بل اختبرَكَ ليتيحَ لكَ أن تُصلحَ من شأنِ نفسك.

هكذا يقوّي اللهُ أواصرَ العلاقةِ بينَه وبينك، وأنتَ في محرابِ قراءَتِك سورةَ التوبة، وفي هذه السورة ترى الاختبارات الكُبرى التي امتحنَ اللهُ بها الصحابةَ (رضوانُ الله عليهم)، وعندما لم ينجحوا في هذه الاختبارات، أتاحَ لهم التوبَةَ كي يصلِحوا ويبدأوا من جديد كما لو أنَّ شيئاً لم يكن. وهذا هو جَوهَر القرآن، فهو لم يأتِ إلى الصالحين، لأن الصَّالحَ كان صالحاً قبل القرآن، ومن ثم فإن القرآن لايضيفُ شيئاً إلى صلاحِه، بل أتى من أجْلِ أنْ يسّنُّ للناس أواصرَ حياتهم، ويجعلُهم في صلاحٍ من أمْرِهم. ولذلك اختُتِمَ الوحيُ بفتح بابِ التوبةِ أمامَ الناس جميعاً، بعد بيان كل تلك التفاصيل، وحثّهم على التوبة.

وهذا ماحصلَ مع الأنبياء والرُّسل الذين حمَلوا رسالات الله إلى الناس، فهم قبل نزول هذه الرسالات، ليسوا كما كانوا قبلَ نزولِها، وقد تحسّنَت حياتُهم بها، وصَلُح بها أمرهم.

فمن هنا، ليس انتقاصاً ولا مؤاخَذةً على أحدٍ قط أن يتعلم يوماً بيوم، ويتحسّن شهراً بشهر، وتصلح حياته سنة بسنة. فمهما كان الإنسان على ذنوبٍ كبيرةٍ أو صغيرة، الآن مَرَّرَه الله باختبارات، فاتّعَظَ بها، وآب إلى القرآن يستنيرُ منه، ويتعلّم منه، وغدت حياتُه بالفعلِ أفضلَ ممّا كانَت.

أمرٌ آخرٌ بالغ الأهميّة تُبَيّنُه لك السُّورة الكريمة، وهو الابتلاء، فإلى جانب الاختبار، يأتي الابتلاءُ الذي من شأنِه أن يُظهِرَ لك حقيقتَك بشكلٍ عمليٍ، وليس بشكلٍ نظريٍ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ وَلا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلاءُ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأَرْزِ لا تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ"[1].

ولكن ماهو الابتلاء.. كيف تميّز بينه وبين العِقاب، فربما ما يصيبك يكون عِقاباً، وليس ابتلاءٍ. وهذا مهمٌ جداً، ولا بدّ لك أن تميّز بين الحالَتين حتى تعرف ما الذي أنتَ فيه، وكيف تتصرَّف مع كل حالة، لأن التصرّف مع الابتلاء، يختلف عنه مع العِقاب.

في سورةِ التَّوبة، يعرّفك الله عز وجل على كلِّ هذه التفاصيل، من خلال آيات هذه السورة الكريمة، وبعد قراءتها تستطيع أن تميّز بين الابتلاء، والعِقاب، ومن ثم ما الذي تفعله حيال الابتلاء، وما الذي تفعله حيال العِقاب، فتكون بذلك تعرّفتَ على أركانٍ أساسيّةٍ تقوم عليها حياتُك. ألاّ تنغرَّ بالمظاهر، سواء مظاهر الأشخاص، أو مظاهر الأماكن، فترى بأنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) يهدمُ مسجداً بأمرٍ من الله، لأنَّه كان في المظهر مسجداً، ولم يكن يَمُتُّ إلى المسجد بشيءٍ في الجوهر.

وهنا تتعرَّف على أسباب عدم بدء هذه السُّورة بالبسمَلَةِ دون غيرها، وبذلك فهي السُّورةُ الوحيدةُ في القرآن التي تُقرأ من غير بسملةٍ، وما الذي يميّزها حتى استُثنَت البسملةُ منها، خلافاً لجميع السورِ القرآنية.

---

[1] صحيح مسلم

الأمرُ الآخرُ، هو الأسماءُ العديدةُ التي سُميَّت بها هذه السورةُ، وهذا أيضاً يميّزُها عن بقية السُّور القرآنيةِ بكثرةِ أسمائِها، ولكل اسمٍ أسبابُه، ودلالاتُه وأحداثُه التي تعرّفك بها السورةُ تفصيلاً. وهذا أمرٌ بالغ الدقّة والأهميّة، لأنَّ هذه المواضيعَ التي انبثقت منها هذه الأسماء، هي مواضيعُ حيويّةٌ متجدّدةٌ في الإنسانِ عبر الزمنِ، فتطلعُكَ آياتُ السورة آيةً آيةً على كل موضوعٍ على حِدا، وتبيِّن لك تفاصيلَه، ثم تجعلُكَ ترَى وتلمس كيف أن هذه المواضيعَ تتفاعلُ معكَ، وتتفاعلُ من حولِكَ مع الآخرين.

وقد سُميَّت هذه السُّورة بأسماء عديدةٍ، وكل هذه الأسماء مُستَخرجةٌ من مضامينها، وتُعدُّ هذه السورة من أكثر سورِ القرآن أسماءً. وإذا نظرنا إلى هذه الأسماء، نراها بشكلٍ عامٍ تدعو إلى التوبة، ولذلك عُرِفَت باسم التوبة. ثم:

- **براءة، هذهِ هي الكلمة الأولى من السورةِ، حيثُ افتُتِحَت بها.**
- **الفاضِحة: عن سعيد بن جبير قال: (قلت لابن عباس سورة التوبة قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم حتى ظنُّوا أنها لن تبقيَ أحداً منهم إلا ذكر فيها)[1].**
- **سورةُ العذابِ، المُقَشْقَشةِ: تبيِّن شخصيّةَ المؤمنِ الخاليةِ من النفاق.**
- **المُنَقِّرَة: لأنها تَنْقُرُ على الأوتار الحسَّاسة في القلوب.**
- **البحوث: بمعنى تبحَثُ في شخصيّةِ المنافقِ وتبيِّنُها للعلَن.**
- **الحافرة: بمعنى التعمّق في إظهارِ التفاصيل الخفيّة عن المنافقين.**
- **المثيرة: تثيرهم كي يتوبوا. المبعثرة، تبعثر أسرارهم.**
- **المدمدمة: المحذّرة من عواقب التجاوز على حدد الله.**
- **المخزية: تبيِّن كيف أنَّ النفاق ينتهي بصاحبه إلى الخزي.**
- **المنكلة: بمعنى تبيِّن عقابَ النفاق.**
- **المشردة: بمعنى التي تفرّقُ الذين يجتمعونَ على المعاصي عن بعضهم بعضاً.**

---

[1] صحيح البخاري

تقع هذه السورةُ الكريمةُ في الترتيب التاسع، بين الجزأين العاشر والحادي عشر، ولكنها في ترتيب النزول تقعُ بعدَ سورةِ المائدة، فتكون بذلك مع المائدة، من أواخرِ ما أُنزِلَ من القرآن. وهي سورةٌ مدنيَّةٌ باستثناءِ الآيتَين الأخيرتَين منها، وقد أُنزِلَت في السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة، بعد معركة تبوك.

تحضّ السورة أيضاً على أهميّة العلم ونشرِهِ بين الناسِ ليستنيروا بِه، ويكونُ من أساسيّات حياتهم، ومن هنا يمكنُنا اعتبار سورةِ التوبة بأنها سورة النضوج، وأوَّل ما يعلمه قارئها منها هو النضوج، لأنها أُنزِلَت في مراحل كمالِ الدين، أي بعدَ نحو واحدٍ وعشرين سنةٍ من نزول أوّل آيةٍ قرآنيةٍ. فهي من البياناتِ القرآنيةِ الأخيرةِ للناس. ولذلك نراها تغتني بأحداثِها وشخصيّاتِها ومواضيعِها وأحكامها وكمالها، لأنها أُنزِلَت في مرحلة الكمال. وهذا أمرٌ مهم للغاية. فهي سورة (التوبة) بامتياز، كما أنها سورة (براءة) بامتياز، فأنتَ أمام كلمتَين تتكامل إحداهما بالأخرى ففي النهاية أنتَ إنسانٌ بريءٌ، وعليك ألاّ تبتعدَ كثيراً عن براءَتِك، لأنَّ بُعدَك عنها يُحدِثُ خللاً في شيفرتِك البشريّة.

دوماً أنتَ بريءٌ، وصفحةُ البراءةِ تبقى مفتوحةً أمامَك مهما أغلقْتَها، وتبقى الأقربَ إليك، مهما ابتعدتَ عنها. ولذلك بقي بابُ التوبة مفتوحاً في أي وقتٍ من الأوقات أمامَك، مهما أسرفتَ على نفسك، ومهما تعاظمَت ذنوبك، ففي أيةِ لحظة تُقبل فيها إلى التوبةِ، تكونُ بذلكَ قد تبرأتَ من كل ماضيكَ المقيتِ، وبدأتَ صفحةً بريئةً جديدةً في حياتكَ وفقَ البَرَاءَة التي خلقَكَ اللهُ عليْها. ومنذُ آدم عليه السَّلام، كلُّ إنسانٍ هوَ بريءٌ، ويمكنُه العَوْدَة في أيِّ وقتٍ إلى براءَته، لكنْ يمكنُهُ أيْضاً الإصْرارَ على الضّلال ورفضَ البَرَاءة بعِنادٍ شَدِيد، فيعيشُ بذلك ضالاًّ بعيداً عن كل بَرَاءة، من خلالِ استكبارِه على التَّوبَة. ولذلك كانَ اسمُ (التَّوبَة) هو الاسمُ الأشهرُ لهذه السُّورة، ثم اسم (براءة) الذي هو الاسمُ الأشهرُ الثاني لها.

وإنْ كانَتِ التَّوبَةُ تعني رحمةَ اللهِ من خلالِ قبولِ التَّوبة، فإنَّ براءةً في وجهها الآخر، تعْني إخراجَ الإنسانِ المستكبِرِ من رحمَتِه، أي براءَة التَّوبَة منهُ أمامَ الله، على أساسِ براءَته منْها واستكبارِه عليها.

وهنا مع قراءَتك لآياتِ هذه السُّورة والولوجِ إلى رحابةِ عالمِها الغَنِيِّ، تتعرَّف على تفاصيلِ كيف أنَّكِ يمكنُ أنْ تبقَى في عنايةِ اللهِ، وعندها يتولّى اللهُ عزَّ وجلَّ أمرَك، فترى كيفَ أنَّه يجعلُك تتسرَّعُ في بعض المواضعِ في قولِ بعضِ الكَلِمات، أو تتسرَّع في اتّخاذِ بعضِ المواقفِ، وبعدَ ذلك تندمُ وتقولُ: ليتَني لم أتسرَّع في ذلك، كانَ عليَّ الانتظارُ قليلاً.

لكن فيما بعد سيجْلو لك كيف أنَّ ذاكَ التسرّعَ أصبحَ أساساً لخيرٍ كبيرٍ أصابك، أو مانعاً لأذى كبيرٍ كان سيصيبك. فهذا ما نسمّيه بالترتيبات الإلهيّة لِمَن أولوا أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى، وتوكّلوا عليه. فهو جلّ شأنه يرتّب لهم مقوّمات حياةٍ طيّبةٍ، ويجنّبهم أهلَ الشرِّ والطغيان الذين يحيكونَ مخطّطات الفتك بهم. ولكنَّ العِناية الإلهيةَ لا تلبث، مانعةً إيّاهُم من تنفيذ ذلك، ولو في اللَّحظات الأخيرة والنجاة بأعجوبةٍ، لأنهم يعيشونَ في حصانَة الله.

هذه من المواضيع الحيويّة اليوميّة التي تعرّفك السُّورة على حيثيّاتها، وتجعلُك تنتبِه إلى ما لم تكن منتبهاً إليه. وهكذا تجعلُك السورةُ تعيشُ لحظاتٍ ذهبيةً معها في متعةِ الاكتشاف الثمين، تلو الاكتشاف الثمين، وأنتَ تضعُ يدكَ على هذه البيانات الذَّهبية التي كانت مبهمةً لك، أو لم تكن قد خطرَت لك البتةَ، وتقول: هاهي ذي. وأنتَ تزداد استنارةً، وتزداد معرفةً، وتزدادُ إشراقاً، وتزداد إيماناً بالله. بل قد تكتشف في ذلك شيئاً غايةً في الخطورة، وهو أنك لم تكن بالأصل مؤمناً بالله، بل كنتَ تتكهَّن الإيمانَ، وهو في حقيقته لم يكنْ إيماناً البتة، بل إنك كنتَ ملحداً رغم كل ما كنتَ تؤدّيه من فرائضَ وسننِ الإيمان. أجل فهذا أيضاً ممّا تتيحُ لك هذه السورةُ معرفته، وأنت تقرأ آياتها بذهنية منفتحة.

فأنتَ كنتَ قد رسمتَ تكهّنا لله في مخيّلتك، فتجعله يوافقُك على هذا، ولا يوافِقك على ذاك، يبيحُ لكَ هذا الانتهاكُ على حدوده، يبيحُ لك هذا التجاوزَ على أموال الناس وأعراضهم ؛ فبعد قراءتك الاستنارية تُدرك بأن ما تؤمنُ به هو ليسَ رب العالمين، بل هو إلهٌ وثنيٌّ صنعته أنتَ في مخيّلتك، أو صنعه لك بعضهم، وجعلك تؤمن به على أنه ربُّ العالمين. فتوقظُك السورةُ على حقيقة ما أنتَ فيه من وَهْمٍ، وأنكَ في الواقع إنسانٌ وثنيٌّ، أو إنسانٌ منافقٌ. وهكذا تراك تنتقلُ من وهمٍ كبيرٍ إلى حقيقةٍ كُبرى، فتكشفُ لك السُّورةُ الحقيقة من غير حرجٍ، وتأخذ بيدكَ وهي تنقذك من غفلتك التي كنتَ في متاهاتها.

سورة التوبة تمتلك مقدرةً هائلةً كي تنقّيك من داخلك، وتُطهّرك من آثامك، وتُحسّن لك آفاق حياتك بشكلٍ لم تكن تتخيَّله، تجعلُك تستشعرُ بمدى دنُوِّك من الله، ومدى دنوِّه منك، إنّها توثّق علاقَتك بالله وتُعرّفُك على ما لاتعرفُ من بركاتِ ربكَ.

بذلك فإن سورة التوبة تضعُ مخطّطاً لحياتك كفردٍ تقود أسرتَك، تقود نفسَك، تقود علاقاتِك الاجتماعيةَ، تقود عملَك بمهارةٍ، وتحقّق نجاحات. كذلك فهي تضع مخطّطاً لقيادة الدولةِ، وتضع أساسياتِ دولةٍ مدنيَّةٍ متقدّمة. هذه الدولةُ التي يعيش فيها أتباع معتقدات مختلفة، فترشدُ إلى كيفيّة التوافق ما بين المسلمين، وبين تلك الأطيافِ التي تعيشُ في دولةٍ مسلمةٍ. هذه السورة تضع لِبناتِ وأساسيّات هذه العلاقة السليمة بين سائرِ مواطني هذه الدولةِ المسلمة.

تبيِّن لك السورةُ كيفيّة التعامل مع الأمور في بداياتها حتى تتكلَّلَ بالنجاح، فالبداياتُ غايةٌ في الأهمّية، لأنَّ ما سيأتي سيكونُ مبنيّاً وقائماً عليها. وهنا تبيِّن السورة ما قام به المسلمون في العهد المكّي عندما بدأوا في نشرِ الدعوة، هذه البداية التي ضمنت لهذه الدعوة مستقبلَها الزاهرَ، فترى كيف استمرّ الإسلامُ مبنيّاً، وقائماً على تلك البداياتِ الصحيحةِ، وكان الصبرُ أهم مقوّماتها. فلم ينجرّوا خلف ردود الأفعال، أو التسرّع، ولم يشكّلوا جيوشاً قتالية، ولم يعتدوا على أحدٍ، بل لبِثوا سلميين رغم كل ما كانوا يلقونه من اعتداءاتٍ عليهم.

وفي النهاية عندما اشتدّ الاعتداء عليهم، ورأوا أنهم إمّا أن يُقاتِلوا، أو يستسلموا، اختاروا الحلَّ الوسطَ بين القِتال والاستسلام، بأن تركوا مكّة كلها، وانسحبوا بهدوءٍ من بيوتهم وأموالهم وذكرياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وتغرّبوا إلى المدينة حقناً للدماء. وهناك استمرّوا في نشر شريعة الله في الناس بالحكمةوالموعظة الحسنة، فأتت هذه البداياتُ السليمةُ أُكُلها فيما بعد، وانتشرَ الإسلامُ في أصقاعِ الأرض.

ولذلك نرى أنَّ أيَّ انحرافٍ عن هذه القواعِدِ السلميّة، ينعكسُ سلباً على المسلمين، فيُصابون بالوهن، وعندما يعودون إلى تلك القواعِد الأساسيّة، تعودُ إليهم قوّتهم التي خسروها، ويتمتَّعون بالقوّةِ مرة أخرى.

فكما أن هذه السورةَ هي سورة ترسيخ البدايات الصحيحة، فهي سورة القواعد السليمةِ كذلك للانطلاق نحوَ تحقيقِ النَّجاحات الكُبرى، بعد اجتياز البِدايات بنجاح.

وهذا أمرٌ بالغ الأهمّية لأنَّ السُّورةَ الآن ومع نزولِها، وقد أصبحَ المسلمونَ قوةً عُظمى لايُستهان بها، وأصبَح لهم جيشُهم، وأصبَحت لهم دولتهم، ونحن الآن في ترتيب المصحفِ بعد سورة الأنفال، وكان عدد جيشِ المسلمين في المدينة ١١٣ شخصاً. أمّا الآن فقط أصبح ثلاثين ألفاً من القوّات الاسلامية المسلّحة.

هنا تبيِّن السورةُ المسلكَ السليمَ عندما تكون قويّاً أيضاً، فالقوّة ليست ضمانةً للنصر، فقد كانوا ضعافاً وعددُهم قليلٌ، إلاّ أن اللهَ نصَرهم على جيش قويٍّ كان بنحو ألف شخصٍ. هاهم المسلمون وبعد كل ذاك الزمن، يتمتّعونَ بجيشٍ قوي، ولذلك لابدّ من المُقارَنة لبيان بأن القوةَ لاتكونُ سبباً للنصرِ بعيداً عن التمسّك بالمسلكِ السَّليم، بل عندما تكونُ على حق وتتصرَّف بحكمة ودون تسرّع أو ردود أفعال.

وعلينا أن نأخذ بالاعتبار كثرة المنافقين الذين كانوا ضمنَ هذا الجيش، وهذا تنبيهٌ بألاّ يغترّ الإنسانُ بالكثرةِ، فقد تتشتّت هذه الكثرةُ في أوقاتٍ حرِجةٍ، وليس هذا فحسب، بل قد تنقلبُ كثرتُك عليك. ولذلك فإن قوّتَك الحقيقيةَ تكمُن بِمقدارِ ما تكون على حقٍّ

مهْما كانت قوّةُ الآخَر كبيرةٌ عدداً، وأن ضعفَك يكمُن في مفاصِل ظلمك، وسيُنتَصَر عليك مهما كنتَ في مظاهرِ القوّة.

هذه السورةُ الكريمةُ تضعك أمام حيثيّات هذه الحقيقة، فقد ظهرَ منافقون كثر في صفوفِ جيش المسلمينَ، ولكنَّهم رغم ذلك انتصروا. وأمّا من أسباب أنها وردتْ دون بسملةٍ، أنَّها مع سورة الأنفال تكادُ تمضِي في ذات السياقِ، حتى رأى بعضُ الصَّحابة أن تكونا في المصحفِ سورةً واحدةً، حيث وقَعَت الأَنفال في (٧٥) آية، والتوبة في (١٢٩) آية، والاثنتان معاً تشكِّلان سورة من الطِّوالِ تقَع في (٢٠٦) آية ولكن لمْ يحصلْ ذلك، فورَدت بشكلٍ استثنائي، من غير بسملةٍ، ولكنها لبثت تتمتّع بترقيم آياتِها كسورةٍ مستقلّة.

الباب الأول | صفحة البراءة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ١

افتُتِحَت السُّورَةُ الكَرِيْمَةُ بكلمةٍ تبعثُ الطّمأنينةَ على المستقْبلِ البشريِّ بشكلٍ عام، فالإنسانيةُ تمضي نحْو التحسُّن، والله هو الذي يُمنْهِجُ هذا التحسّنَ للنَّاس.

من هنا فإنَّ البَشَرِيّةَ تكونُ في نِهايةٍ أَمِيْنةٍ مَهْما تَفَشّى الجورُ في أي زمانٍ ومكان، فاللهُ الذي هو القوّةُ العُظْمى، لايكونُ داعماً للجور، ثم رسولُه ،سواء من خلال القرآن، أو من خلال السُّنّة، وبذلك فإن الذين يتّبعون ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ في القرآنِ والسنّةِ، لايكونون داعمينَ لأيِّ شكلٍ من أشكالِ الجُور.

آيةٌ قصيرةٌ، ولكنَّها مُتعاضدةٌ ومُتماسكةُ الكَلمات، وكلماتُها مكثّفةُ المعاني والدِّلالات، وكلُّ كلمةٍ تتكاملُ مع غيرها: ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ بمعنى عدم المؤازرة﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ القوى العظمى ﴿ وَرَسُولِهِۦٓ﴾حاملُ منهجِ البراءة في الأرض﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ ﴾تركيزٌ على فئةٍ معيَّنةٍ من الناس﴿ عَٰهَدتُّم ﴾أجريتم معهم عهداً﴿ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾هي الفئة التي تم التركيز عليها التي يتبرّأ ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ ممّا هي فيه من انحراف. واستناداً إلى ذلك، فأنتم أيضاً الذين تمثّلون ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ في الأرض، تكُونُونَ أبرياء من فئةِ الانحراف في أيِّ زمانٍ ومكان. ومعنى هذا، أنَّه على المُسْلم أن يكونَ داعِماً للحَق، ولا يكون داعِماً للباطل، أي يبرّئ نفسَه من الباطل، مهما تمظْهَر هذا الباطلُ من لونٍ أو شكل، وبذلك ينضَمّ إلى صحابةِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم). تقول: أنا بريءٌ منك. أي من أفعالك السيّئة، وأنا لا أوافقك عليها مهما كانت الصلة بينك وبيني. ﴿ عَٰهَدتُّم ﴾بمعنى: يامَن أنتم صحابةُ رسولِنا. فالرسول عليه صلوات الله وسلامه يُعاهِد بصفتهِ، يقودُ الدولةَ الإسلامية الفتيّة، لأننا في وقت نزول هذه السورة، في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد فتح مكة بسنة،

وأن ثمّة دولةً إسلاميةً فتيَّةً تتشكّل للتّو، وهي تضعُ قوائِمَها على الأرض بعد نحو عقدَين من نشرِ الدعوةِ لقيامِ هذه الدولة، وكلُّ تلك الأحداث التي وقَعَتْ. فها هي ذي دولةُ الإسلامِ الأولى تظهرُ إلى الوُجود، هاهو ذا رسولُ الإسلام (عليه الصلاة والسلام)، يضعُ دَعائمَ هذه الدَّولة وفق ما يتلقّى من آياتٍ في مَرْحَلة نِهايات التَّنزِيل الحَكِيم. وأصْبَحنا في مرحلةِ تفعيلِ الكمال على الأرض من أجل مستقبلٍ بَشَرِيٍ أفضل، فقبلَ الآن كانَ العملُ الشاقّ من أجل نشرِ بيانات الدَّعوةِ لاستقطابِ الناس كي يَنْضَمّوا إلى هذه الدَّعوة ويؤازِروها وفق مختلفِ الطُّرقِ السّلميّة، دون الاصطدام مع الطَّرف الآخر الذي يقود المنطقة كلّها، ورَغْمَ مُحاوَلاتِ الطَّرفِ الآخر لتتحوَّلَ المسألةُ إلى نزاعٍ مسلّحٍ من خلال قتلِ بعضِ المنضمّين إلى هذه الدعوة، والتنكيلِ ببعضهم، وإلحاق الأذى بالآخرين، فإنهم لم يستجيبوا لذلك، وحافظوا على سلميّةِ نَشْرِ الدعوة من خلال نشر ما يتلقّونه من بيانات لهذه الدعوة الجديدة. ورغمَ أنَّ الطَّرَفَ الآخر كان يحملُ السِّلاحَ، فإنهم لبثوا يحملونَ آيات الله من غير أن يمدّوا أيَاديهم إلى السِّلاح، حتى إنهم، وكي يلبثوا محافظين على سِلميّة نشرِ ديْن الله، ترَكوا المكانَ، وانتَقلوا إلى مكّةَ، وبذلك انتقلَ التنزيلُ أيضاً من مكةَ ليستمِرَّ في المدينةِ، حيثُ مهجرُ رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم)، وصحبةُ الكرام (رضوان الله عليهم). وبذلك غَدَتْ ثمَّة معاهداتٍ للهدنةِ والتهدئَة، والمسلمونَ هم الذين عاهدوا المشركينَ بعد أن أخَذوا الموافقةَ من النبي (صلى الله عليه وسلم). ومادام النَّبي (صلى الله عليه وسلم) قد وافَقَ، فإنَّ ذلك يكونُ بموافقةِ الله، ولكن عندما نقضَ المشركون العهدَ، باستثناء بعض بني ضمرة، وبني كنانة، جاء الأمر بالبراءة من هذا العهد. والبراءةُ هنا هي إلى الناكثينَ بالعهد، ولذلك جاءَ الخطابُ إلى المسلمين الذين عاهدوا.

الآن، وفي وقت نزولِ هذه السورةِ الكريمة، أصْبَحْنا في السنة التاسعة للهجرة، وقد اختلف الأمر تماماً بالنسبة للمسلمين. فهاهي ذي أفواج الناس تؤازرهم وتعتنق الإسلام حتى أصبحوا أقوياء، وبذلك عادوا إلى مكّة فاتحين. وهذا دليل وهن الطرف الآخر الذي كان مستبدّاً ،عندما اضطرّ المسلمون لتركِها، فلو كانوا أقوياء كما كانوا، ولبثَ المسلمونَ ضعفاءَ كما كانوا، لَما استطاعوا أن يأتوا إلى مكّةَ ولو زائرين.

أما الآن فقد أصبحت مكة تحت سيطرة محمّد صلى الله عليه وسلم، وسيطرة المسلمين الذين يؤازرونه بكل ما يملكون مادياً ومعنوياً، بل حتى أقطابٌ من الطرف الآخر، بدأوا يقتنعون بالدعوة ويعتنقون الإسلام. وهكذا ومع هذا الواقع الجديد، بدأت فكرة تأسيس دولة إسلامية، لتنتشر الفكرة إلى أصقاع العالم، فتتكاثر الدول الإسلامية بحسب استقطاب الناس بالحكمة والموعظة الحسنة للإيمان بهذه الدعوة.

هنا ومع التأسيس الفَتي لوضع منهاج الدولة الفتية، رأوا أنفسهم إزاء مقوّمات بدأت تُربِكُهُم وتُعيقُهم عن وضع القواعد السَّليمة لبنيانِ دولتهم، ومن ذلك أنَّ المشركينَ لبثوا يمارسون ذات الطقوس الوثنيّة عند الكعبة، ويحضرون نساءً ورجالاً وهم عُراة، يرفعون أصواتهم بشعائرهم الوثنيّة على مرآة من المسلمين الذين يحجّون معهم في ذات الوقت، فأصبح المشهد تناقضياً، فهل الكعبة لهؤلاء، أم لهؤلاء. وما يُعيق المُسلمين للتدخّل هو وجود مُعاهدة هدنة بينهم وبين المُشركين. وبالفعل تحمّلوا كل تلك المَظاهر التي كانت أحياناً تُريد أن تُفسدَ عليهم أساسيّات معتقدهم، لأن المُعاهدة في بعض مواضعها كانت مفتوحة ولم يُحدَّد زمنٌ فيها. فهي مُعاهدة دائمة، وهل سينكث الرسول صلى الله عليه وسلم بعهده وهو يرى الواقع الذي استجدّ بحكم التغييراتِ الجديدة. وأنَّ ما يفعلُه الطرفُ الآخر بات يُشكّل —أحياناً— استفزازاً لمشاعر المسلمين وهم يرون مظاهر العُري نساءً ورجالاً حول الكعبة، ويسمعون ترديد الشعارات الوثنية. لكنه لبث يحتمل دون أن ينكث بالعهد، رغم مقدرته على منعهم من ذلك بالقوّة المسلّحة، إلاّ أنه لبث على المُعاهدة. ومع بقاء النبي صلى الله عليه وسلم، وبقاء صحابته الكِرام رضوان الله عليهم، في حالة الصَبر لكل الاستفزازات مِمَّن كانوا يضطهدونهم سابقاً وهجّروهم من ديارهم، والآن غدوا ضُعفاء، ورغم ذلك يمارسون ذات الأشكال الاستفزازية، ولعلّهم يتعمّدونها في أوقاتٍ معيّنة يجتمع فيه المسلمون للحج، أو لعبادات أخرى، متذرّعين بالمُعاهَدة. والأمر الآخر، فإن الواقعَ الجديدَ الراهنَ أصبحَ بالغَ الحساسيّة، كونَهم أمام تأسيس دولة، بعد أن كانوا فقط جماعة، كما أن النبي (عليه الصلام والسلام)، بات يتهيّأ ليأتي حاجّاً في موسم الحج. وهؤلاء سوف يظهرون بمظاهر العُري، وينادون بشعائرهم أمام الكعبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هنا جاء الأمر المُباشَر من الله سبحانه وتعالى بعد أن نجحَ المسلمونَ في الامتحان، وحافَظوا على القِيَم الإسلامية بالحِفاظ على العهد، وصبروا على ذلك، وتحمّلوا كل أشكال وألوان الاستفزاز: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ليُصبحَ هذا الأمر الإلهي بمنزلة التنفيسِ للمسلمين، ويجعل لهم مخرجاً شرعياً من هذا الإرباك، ما بين نكث العهد، أو تحمّل الاستفزازات على مضض في مشاعرهم المقدّسة، من قلّةٍ ضعيفةٍ تستغل بنود المُعاهَدة، رغم أنهم أنفسهم ينكثون ببنودٍ أخرى من المُعاهدة. ورغم ذلك فإن الأمر الإلهي –إذا تمعّنا فيه جيداً– يكون بالأصل لمصلحة المشركين، أكثر مِمّا يكون لمصلحة المسلمين، لأنَّ بقاءَ الأمرِ على ما هو عليه، يعني بأن اللهَ يرْضى لهم أن يلْبَثوا في انحرافِهم، والدليلُ أنه لم يُنزل بشأنهم ما يؤذيهم. وإصدار الأمر الإلهي من شأنه أن يجعلَهم يَنْتَبِهون إلى ما هم عليه من جورٍ، يصلحون من شأنهم، أو على الأقل يكفُّون عن استفزاز المسلمين في مشاعرهم المقدّسة، ولا يتقصَّدون الاصطدام معهم. ولعلّه تصدر بادرات فردية يتجاوز بها بعض المسلمون بنود المُعاهَدة كردود أفعال متسرّعة من شدّة الاحتقان، هذا كلّه وارد.

فأنتم بِمُقْتَضى هذا الأمر الإلهي الجديد في الآية، تُمارسون حياتكم الطبيعيَّةَ، ويحقّقُ لكم المسلمونَ الأمانَ، وأنتم في أعمالكم وبيوتكم، ولكن كفّوا عن التدخّلِ بشؤونِ عقيدة المسلمين ،وهم يضَعون دستور دولتهم، ولا تعيقوهم في بناء أركانِ دولَتِهم وأنتمْ تستغلّونَ المُعاهَدة، وفي الوقتِ ذاته، تنكُثُون ببعض بنودها. يُروى أن رَسُولَ اللَّه (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَعَثَ أَبَا بَكْر أَمِيراً عَلَى الْمَوْسِم سَنَةَ تِسْع، وَبَعَثَ (عَلِيَّ بْن أَبِي طَالِب) بِثَلَاثِينَ آيَة أَوْ أَرْبَعِينَ آيَة مِنْ بَرَاءَة، فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاس، يُؤَجِّل الْمُشْرِكِينَ أَرْبَعَة أَشْهُر يَسِيحُونَ فِي الْأَرْض، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَرَفَة أَجَّلَهُمْ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْحَجَّة وَالْمُحَرَّم وَصَفَر وَشَهْر رَبِيع الْأَوَّل وَعَشْرًا مِنْ رَبِيع الْآخِر، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلهمْ وَقَالَ: لَا يَحُجَّنَّ بَعْد عَامنَا هَذَا مُشْرِك وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَان). وجاء عن مُجاهد: (بَرَاءَة مِنْ اللَّه وَرَسُوله إِلَى أَهْل الْعَهْد خُزَاعَة وَمُدْلِج وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد أَوْ غَيْرهمْ، فَقَفَلَ رَسُول اللَّه (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ تَبُوك حِين فَرَغَ، فَأَرَادَ رَسُول اللَّه (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْحَجّ ثُمَّ قَالَ "إِنَّمَا يَحْضُر الْمُشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ عُرَاة فَلَا أُحِبّ أَنْ أَحُجّ حَتَّى لَا يَكُون ذَلِكَ").

الباب الثاني | بين فسحة الأرض وفسحة النفس

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٢

عندما يتمادى إنسانٌ على دسْتورِ الدَّولةِ، يُصدِرُ عليهِ القضاءُ حُكْماً بالحَجِر، ويُضَيِّقُ عليه الأرضَ، وقد يمنَعُهُ من السَّفَر. لكنَّ الحُكْمَ الإلَهِيَّ يَختلفُ عن الحكم البَشَري، لأنَّ فيه سِعةً، ويتعامَلُ مع الناسِ جميعاً دون تَمْييزٍ، لأنَّهُم جميعاً أخوةٌ على مختلِفِ مشارِبِهم، ومآرِبِهم، ومعتقداتِهم، وألوانِهم، ولُغاتِهم، وأمَمِهم.

الكلامُ هُنا مَعطوفٌ على الآيَةِ الأوْلَى بِحَرفِها الافتتاحِي الأول، وهو إلى الطَّرَف الآخر الذي يُسبّبُ بَلْبَلَةً للمسلمينَ في مشاعرِهِم المقدّسة. وليس إلى المسلمين بأن: ضَيّقوا عليهم، أو احجروهم، أو انتقموا منهم، أو عاقبوهم، أو..أو.

وجّه الحقُ سبحانه وتعالى قَولَه إلى المشركينَ أنفسَهُم، كما لو أنَّهُ جلَّ شأنهُ يقول لهم: أنتم عِبادي ،كما أنهم عِبادي، ولكن لا تتدخّلوا في شؤون تشريعي، ولا تعيقوا إخوانَكُم المُسْلِمين في نشرِ آياتي وتعاليمي ولا تستفزّوهم، فَأنا لمْ أوجّه خِطابي إليْهم بل أوجّهه إليكُم وأقول لكم: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ﴾. وهذه رخصةٌ مِنّي لا يستطيعُ أحدٌ أن يمنعُها عنكُم لكن أبيِّن لكم﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ جيداً ولا تنسوا بـ ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾. أنني لسْتُ عاجزاً عن اتّخاذ أي إجراء آخر بحقّكم فهناك أناسٌ لايخافونني ولايرحمونكم من غير المسلمين، يمكن أن أسلّطهم عليكم، ويمكن أسلّط بعضكم على بعضٍ كعِقابٍ تستحقّوه نتيجةَ تَماديكم، وإنني لا أمكّن منْكم كثيراً من الأوبِئَةِ والمَخاطِرِ التي تحيطُ بِكُم، ويمكنُ أن تفتكَ بكم إذا أذنتُ لها، فأنتُم عِبادي وأنَا ربّكم، ولكن عنْدما تُصرّون على العِناد والاستكبار، وتسيؤون إلى إخوانِكُم المسلمينَ الذين ينشرونَ شَريْعتي وتَعاليمي في عِبادي في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها ؛ فاعْلَموا جيداً أنّي لنْ أسمحَ لكم بذلك﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وهذه رخصة مني لكم حتى

لا تصطدموا مع المسلمين، ولا يصطدموا معكم، وبينكم وبينهم مُعاهَدة ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

فسحة ﴿ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

الكلمة دقيقة جداً، فلم يقل جل شأنه: سيروا، أو امضوا. رغم أنه تعالى ذكره في مواضع أخرى يقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الأنعام١١. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ النحل٦٩. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ العنكبوت٢٠. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ الروم٤٢.

لكن ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هنا أكثرُ قوّةً وأكثرُ دلالةً بالنسبة لهؤلاء في هذا الأمر المُركَّز. والكلمةُ من السِّياحة، والسَّائح هو غير السَّائر لشأنٍ ما، فهناك يكونُ السَّيرُ لهدفٍ ما مثلما جاء في الآيات الأربع التي استشهدنا بها. أمّا هنا، فالسياحة فيها فُسحةٌ للتأمّلِ والتفكّرِ، ومُراجعةِ الذات. ﴿فَسِيحُوا۟﴾. أي امضوا في فسحة الأرض الفسيحة وراجعوا أنفسكم بهدوء، ومعكم أيضاً فسحة جيدة من الوقت: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾. ما هوَ مهمٌّ لقارئِ القرآن، أنَّ ذلك يبقى مفْتوحاً لإنسان كل زمانٍ ومكان، فهنا يعلِّمك القرآنُ بأنك إذا أحسَستَ بشيءٍ من اضطرابٍ سواء مع نفسِك، أو مع غيرِكَ، فاعْلَم بأنك تجدُ العلاجَ في فسحةِ الأرض. ومهما كان حجم ضيقك كبيراً، فإن سعة الأرض تتّسعه ولاتضيق به، فلا ضيق قط يكون أكبرَ من سعةِ الأرض. ولمجرّدِ أنَّك تركْتَ المَكان وسحت ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ – وأيضاً الوقت هنا مهمٌّ للغاية–، فـ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ كفيلة بأن تجعلك تعود إلى بيتك إنساناً جديداً، وتكون نفسيّتك قد تغيَّرَت، وأصبحتَ في سعةٍ من أمرك. ونرى أن هذا الزمن الذي حدّده الله سبحانه وتعالى بـ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، يكون للاضطرابات والنزاعات الكبيرة. وكلّما كانت الأسباب أقل، قلّت الفترة الزمنية. والإنسان قد يواجه اضطراباً فكرياً في معتقده، في إيمانه، أو في تسوية علاقته بأهله، أو أقربائه، بجواره، بزملائه في العمل. وهنا ترشد الآية الكريمة باللجوء إلى قلب الطبيعة، وأخذ فسحةٍ

جيدةٍ من الوقت تجنّباً للوقوع في أخطاءٍ كُبرى نتيجة ردود أفعال متسرّعة. فعلى الإنسان أن يمنح نفسه فسحةً من الوقت، وأن يغيّر النمَط الذي هو عليه في حياته اليومية، وحتى الوجوه التي يلتقيها كل يوم، ويسيح ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليرى أماكن جديدة، وجوهاً جديدةً. وهنا تأتيه أفكارٌ جديدةٌ ينشرح صدره لها، ويمكن أن يعود وقد اتّخذ قرارات متأنيّة سليمة.

ثم لننظر إلى الجملة التالية المعطوفة﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾. أي: كونوا على يقين ﴿ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾. فلا تنغرّوا بِما أنتم فيه من سلطةٍ، أو نفوذٍ، أو إمكانات. وتذكّروا دوماً بأن ما لدى الله هو أكبر، وكل ما تتمتّعون به من إمكانات، فإن الله شاءها لكم، وهو قادرٌ أن يستردّها منكم ويجعلكم أذلاّء. فلا تبطروا، ولا تتمادوا، ولا تستفزّوا الناس حتى لو كانت بينكم وبينهم مُعاهدة. فالإمهال ليس لضعف، بل حتى تصلحوا. ومن ناحية أخرى فهذه المدّة يمكن أن يغتنموها. والمعنى الآخر الذي يمكن استنتاجه من: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ ﴾. أنهم يمكن أن يستغلّوا هذه المدّة ويسعوا إلى قوّةٍ أكبر من خلال الاستعانة بغيرهم، لأن لا أحد يستطيع أن يمنعهم أينما ذهبوا. فقد ترك الله لكم حرّية التنقّل لكن ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ مهما حشدتم من قوّة﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، بل هو قادرٌعلى أن يُعجِزُكم حتَّى وأنتُم في ذروةِ قوّتِكم. فلا تستفزّوهُم بالمعاهَدة، وهاهم أصبحوا قوّة فاقَت قوّتكم، ويستطيعون أن ينتقموا منكم ردّاً على ما ارتكبتم بحقّهم من انتهاكات عندما كانوا ضُعَفاء في مكّة. وعندما تركوا لكم كل شيء وهاجروا، لم تدعوهم أيضاً في حال سبيلهم، فطاردتموهم بجيوشِكم إلى حيثُ ذهبوا وقاتلتموهم. الآن أصبحوا أقوياء، وكثرت أعدادهم، وعادوا إلى موطنهم مكّة، وأصبحوا قادة لها.

عندما كنتم أقوياء، كنتم تقودون، أمّا الآن فقد صاروا هم الأقوياء، ويقودون ديارهم، فلا تتدخّلوا في شؤون إرساء قواعد قيادتهم لديارهم، ولا تَبُثُّوا الفتنَ والنَّعَراتِ في صفوفهم، وأنتم تتذرَّعونَ بالمعاهدةِ، وفي الآن ذاتِه ينْقضُها كثيرٌ منكم.

الباب الثالث | إيصال الأذان إلى الآذان

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ٣

الأذان: إعلامٌ، أي أن هناك شيئاً ما يتم إعلامه، وهنا جاءتِ الكلمةُ بالِغَةَ الدقّةِ والتَّرْكيز.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾. تُذكّر الكلمة بالأذن، بمعنى أنَّ هذا الإعلامَ عليه أن يصلَ إلى آذان المَعنيّين الذين نَزلَت الآيةُ فيهم، وسيتولّى الصَّحابةُ رضي اللهُ عنهُم عمليّةَ الإيصالِ إلى الآذان، بعد أن يوصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آذانهم.

جاء عن الشَّعْبِيّ: (حَدَّثَنِي مُحْرِز بْن أَبِي هُرَيْرَة عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْت مَعَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب (رَضِيَ اللَّه عَنْهُ) حِين بَعَثَهُ النَّبِيّ (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُنَادِي فَكَانَ إِذَا صَحِلَ نَادَيْت، فَقُلْت بِأَيِّ شَيْء كُنْتُمْ تُنَادُونَ؟ قَالَ بِأَرْبَعٍ لَا يَطُوف بِالْبَيْتِ عُرْيَان وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْد عِنْد رَسُولِ اللَّه (صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَعَهْدُه إِلَى مُدَّتِه وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ وَلَا يَحُجّ بَعْد عَامِنَا هَذَا مُشْرِك).

والإعلامُ بحلولِ وقتِ الصَّلاة، هو أيضاً أذانٌ، وهذا الإعلامُ عليه أن يقعَ على آذان الناسِ من خلال مكبّراتِ الصَّوت في المساجِد. والمؤذّنُ يؤدّي مهمَّةَ إيصالِ مواعيدِ إقامةِ الصَّلاة إلى النَّاس، حتى ينتبهوا بأن الموعدَ قد حان. ولا يكونُ الإعلامُ حَصْرياً ليأتوا إلى المسجدِ للصَّلاة، بل وفق الظُّروفِ التي يكونون فيها. وفي وقتنا صارَ صوتُ المؤذّنِ يصلُ الناسَ جميعاً، أينما كانوا؛ حتَّى وهم في الصَّحارى، أو في وسائط النقل، وذلك من خلالِ وسائلِ الاتّصالِ الحديثة. والمؤذّنُ عادةً مايكون صوتُه جميلاً ومؤثّراً.

عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ، أنَّ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ، جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ"[١]. وعن أبي هريرة، قال:

---

[1] صحيح البخاري

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُغْفَرُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَّ صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَشَاهِدُ الصَّلَاةِ يُكْتَبُ لَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ، وَيُكَفَّرُ عَنْهُ مَا بَيْنَهُمَا"[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : "الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ، اللَّهُمَّ أَرْشِدْ الْأَئِمَّةَ، وَاغْفِرْ لِلْمُؤَذِّنِينَ"[2]. عن معاوية بن أبي سفيان: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3].

إذن، افتُتِحَت الآية الكريمة التي بدَأت تُدخِلنا إلى رحابة أجوائها بكلمة: ﴿ وَأَذَٰنٌ ﴾. أي وإعلامٌ. مِمَّن هذا الإعلام؟ قالت: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾. إلى مَن موجّه هذا الإعلام؟ قالت: ﴿ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾. متى وأين يتم هذا الإعلام؟ قالت: ﴿ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾. ولعلّه ﴿ يَوۡمَ ﴾ الوقوف في عرفة، لأن هذا اليوم يشهدُ ازدحامَ الحُجّاج، وعليهم جميعاً أن يكونوا على صعيدِ عرفة في هذا اليوم، وبذلك يكون الإعلام قد بلغ آذانهم جميعاً. وقد أوصل النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) هذا الأذانَ إلى آذانِ ﴿ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ في مكة من خلال بعض الصحابة.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾. جاءت كلمة ﴿ بَرِيٓءٞ ﴾ لأنّهم كانوا يدّعون بأنّهم يحجّون لله، وأنّهم على صواب، وأن ما يقوله محمّدٌ (صلى الله عليه وسلم)، يُخرجهم مِمّا هم فيه من صواب. وهنا يُنزل الله تعاظمَ شأنه بياناً خاصّاً لهم من السَّماء على رسوله حتى يوصِل إلى آذانهم كلامَ الله في ذلك اليومِ المعلوم الذي يجتمعونَ فيه هم أيضاً لأداءِ شعائرِ الحج.

وتبيِّنُ الآيةُ بأن لا بُرهانَ لديهم في هذا الادّعاء، وهذا المُعتَقَد، بل يتّبِعُون ما كان يتّبع آباؤُهم وأجدادهم. وكان ذلك قبل نزولِ الوحي، أمّا الآن فقد بعثَ اللهُ خاتمَ أنبيائِه ورسُلِه لبيانِ الحقِّ من الباطلِ، وأنَّ كلَّ ما يقومونَ به، هو إثمٌ، وليسَ طاعةً، كفرٌ وليس عبادةً. وبالتالي لا ينفعُهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يتلقون فيه الأذى في الدنيا وفي الآخرة.

---

[1] رواه أحمد
[2] رواه أبو داود
[3] صحيح مسلم

ولذلك فإنَّ مضمونَ هذا الأذانِ ثقيلٌ وكبيرٌ، وعليه أن يبلغَ أسماعَهُم بشكلٍ جيدٍ حتَّى لا تبْقى لهم حُجّةٌ على﴿ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾. فجاء البيان في مفتتح السورة الكريمة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾وهنا: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾. فالآن اتضَحَ ما لمْ يكنْ واضحاً، في المبتدَأ البَراءَة من العَهدِ الذي كانَ بينَ المسلمينَ والمشركينَ، والآن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾. أي ﴿ مِّنَ ﴾هذه الشعائر التي يؤدّونها، ليسَت لله، وهو يُعلِم براءَتَه ومِنْها، وكذلكَ بَرَاءَةُ رَسُوله. ولذلك جاءَتَ الجُملةُ التاليةُ بفاءَ العَطْفِ على ما سَبَق: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ﴾ عنْ كُلِّ ما بَدَرَ مِنْكم سَابقاً مَهْما كان: ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من استِمْرَارِكُم فيْما أنتُم فيه. أيّ ستَلْقون الخيرَ من الله في الدُّنيا، وفي الآخرة، ومن ثَمَّ، فإن هذا يعْنِي بأنَّ ما تقُومون به لا خيرَ لكم فيه.

﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾تجاهَلْتم هذا البيانَ، كما لو أنّكُم لم تسْمَعوه، وقد أوصَلْناه إلى آذانكم بالصَّوت، ولبِثْتُم فيما أنْتم فيه من عصْيان وشِرك: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾.

لو لبِثْتُم فيما أنْتُم فيه، لا يضرُّ اللهُ شيئاً، بل يضرَّكم، كما أنّكم لو اسْتَجَبْتُم وعبَدْتُموه، لن ينفعَ اللهُ شَيئاً، بل ينفعُكُم. إذن: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنتمْ وليسَ لله. واللهُ يرشِدُكُم إلى ما فيه خيْرُكم، وقدْ أوصلَ الكلامَ إلى أسْماعِكُم، وأنزَلَ منْ أجْل خيرِكُم، آياتٍ بيّناتٍ من السماء: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ استجَبْتُم ووحّدْتُم اللهَ، ﴿فَهُوَ﴾ التوحيد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه خيركم وصلاحُ أمْرِكُم.

ثم ينتقلُ الخطابُ في خاتمةِ الآيةِ الكريمَةِ إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم: يامحمّد ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بعد وصولِ هذا البيان إليْهم﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. من الألمِ، وهو ألَمٌ نفسِيٌّ، وألَمٌ عضوي. يبيِّنُ اللهُ سبحانه وتَعالى بأنَّ الذي يَنْحَرِفُ عن فِطْرَةِ الإيمان، لابدّ له أنْ يتألّمَ، أي لايكونَ مُرْتاحاً، فدوماً هناك ما يوخِزُهُ، ويوجِعُهُ في نفْسِهِ وفي بَدَنِه.

فهْو لايكونُ مستمتعاً بحياته، مثل المُؤمن، لأنَّ هناك جرحاً في الأعْماق، هو جرحُ اللّا إيمان بوحْدانية الله. لماذا؟ لأن الوحدانيةَ تُجَنّبُ الإنسانَ تشتّتَ الذّهن. فعلاقَتُكَ هي مُباشَرةٌ مع الله، ولا تحتاجُ وسائط لتقرّبك إلى الله زلفى كما يقول أهل الشِّرك، بل تتقرَّب إلى الله زُلفى من خلالِ علاقَتِكَ المُباشَرة به، فتكونُ بين يدَيه وتطلبُ منه ما تَشاء. ففي أيِّ وقتٍ وأي ظرفٍ كنتَ فيه، وأيِّ مرحلةٍ من عمْرِك، يمكن لك أنْ تطرقَ بابَ الله دونَ وسائطَ، فتراهُ مفتوحاً بانتظارِك. وصوتُك يصل إلى ربكَ في ذات اللّحظَةِ التي تُناجيه فيها. بل حتّى لو لمْ تصدُر مِنْكَ نَبْرَةُ صوتٍ واحدةٍ، وانتَ تُناجيه بصَمتٍ في قرارةِ نفسِك، فإنَّ هذه الكلمات تصلُ إليه، فهو –تعاظمَ شأنُه– أقرب منك إليك: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ق١٦.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الإحْسَانُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ"[1]. وليس هذا فحَسْب، بل كلُّ شعورٍ تشعُرُه، يصلُ إليه، كلُّ نظرةٍ تنظُرُها، تصلُ إليه، ففي، حياتكَ اليوميَّة إذا أردتَ أن توصِلَ كلامَك إلى حاكِمِ البِلاد، قد تمْضي أوقاتاً طويلةً، وأنتَ تتقدَّمُ بالطلبِ تلوَ الطلب، ولا يصلُ إليه. لماذا؟ لأنَّ هناكَ مَن يقفُ بينَك وبينَه، ومن الأفضلِ لكَ ألاّيكونَ بينَك وبينَه أحَدٌ، فيَسْمعُكَ وأنتَ تشْكو له، وأنتَ تكونُ قد تحقَّقتَ بأنه سَمِعَكَ، فتطمئِنّ. وهذا هو حال المُشرِكِ، فإنَّ اللهَ (سبحانه وتعالى) يرْفَعُ الوسَطاء بيْنَه وبين الإنسانِ، ويُطمئِنُه بأنَّ علاقَتَه المُباشَرة، هِي مَعَه، ولكنَّ المُشركَ ينحرفُ ويقولُ بأنه لايريدُ إلاّ أنْ تكونَ العلاقةُ من خلال وسطاءَ، ثم ينصبُ وسطاءً، ويعتقدُ بأنَّهم سَيوصِلوا ما يريْدُ إلى الله. وفي ذاتِ الوقْتِ، فإنَّ هذا المُشركَ، يَنْتَقِد الحاكمَ لأنَّه يجعلُ بينه وبين الناسِ وسطاءَ، فلا يوصلون أصواتَ الناسِ إليه. وإن كان الأمر في ظاهرِهِ هكذا، إلاّ أنَّه يتطوَّر حتى يبدأَ فيعبدُ هؤلاءِ الشُّركاء لأنَّه يعقُدُ علَيهم آمالاً كبيرة، وأنَّهم بالفعل يستطيعونَ أن يقدّموا له نفعاً، أو يجنّبهم ضرّاً.

فلو جعلَ الله عزَّ وجل بينهُ وبينَ النَّاسِ وسطاءَ، لما كان ذلكَ من مصلحةِ الناسِ، لأنَّ القلقَ كان سيَبْقى يساوِرُهم، فهلْ أوصَلوا الكلامَ إلى الله، أمْ لا. وحينَها حتّى العِبادة

[1] صحيح البخاري

كانت ستفتقدُ الكثيرَ من الخُشوعِ، لأنَّ الإنسانَ عندها يُدركُ بأنَّه ليسَ بين يدَي الله عند العِبادة، وأنَّ اللهَ لايسمعُ الدعاءَ، وقد لايصلُ بعدَ سنَة، أو حتى لايصل.

وهكذا عندما لا يكونُ الإنسانُ واثقاً من نفسه، فإنه يلجأُ إلى المُنحَرفات، فهاهوذا بابُ الحاكِمِ مَفْتُوحٌ أمامَك، فادخل وقدّم له مَظلَمَتك، لأن لا أحد يستطيعُ أن يُعبّر عن حقيقةِ ما بكَ أكثرَ منك، حتَّى لو اعتقدتَ بأنَّ شخصاً ما هو ابنُ الحاكِمِ، أو شخصٌ مُقرَّبٌ منه. فما بالكَ وأنتَ في حضرةِ الله أحكم الحاكمين، وهو الذي ملأ القرآن بالعفو والمغفرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله (صلَّى الله عليه وسلم) قال: " إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ"[١].

يُرشدك اللهُ عز وجل كي تتقدَّم إليه، وتقول ما تريد، وهو يستقبلك بكل ما بكَ من ذنوب، ويُطهّرك منها، ويمْحُوها جملةً واحدةً من تاريخِك كما لو أنَّك لم ترتَكِبْها قط. ويُتيحُ لكَ أنْ تبدأَ صَفْحةً جديدةً بريئةً من حياتِك في أيَّة مرحلةٍ عمريَّةٍ كنت، ثم يجعلك مُقرَّباً منه، بل يجعلك وليّاً من أوليائه الصالحين.

وتذكَّر أنَّ مِن كبار الصَّحابة (رضوان الله عليهم)، كانوا مِن كِبار المُشْركين، وكِبار الذين حارَبُوا النبيَّ (صلى الله عليه وسلم)، وكِبارِ الذين أنكَروا القرآنَ، وفَتَكوا بالنبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وبصحابته الكرام رضي الله عنهم، طوالَ فترةِ نزول القرآن، وحتَّى أواخر النزول، أي حاربوه يوماً بيومٍ خلال نحوَعِقدَين منْ نزولِ الوَحي. لكن رغمَ كلِّ ذلكَ، تركَ اللهُ بابَ الهدايةِ مفتوحاً أمامَهم، لأنَّهم عِبادُ الله، فاهتدُوا في لحظةِ إيمانٍ تحوّليَّةٍ كُبرى في حياتِهم، ولو متأخّراً، وتابُوا إلى الله عمّا قد سَلف، وأيقَنوا بأنَّ اللهَ يستَقبِلُ عِبادَه دون وسطاء، مهما كانوا قد أسرفوا على أنفسهم. فتركوا الأوثان والشرك، ولجؤوا إلى باب الله المَفتوح. فقبِّلَهم اللهُ، وحسّنَ لهم حياتَهم نحوَ كلِّ ما هو أفضَل، وجعلَهم من المقرَّبين منه، ومن صَحابة رسولِه، ومن أوليائِه الصَّالحين، ومن طيّبي الذِّكر. ومَحا عَنْهُم كلَّ ما قد سَلَف جملةً واحدةً، وأتاح لهم صفحة بريئةً جديدةً ناصعةَ البياضِ، لابقعةَ دنسٍ فيها، كما لو أنَّهم وُلِدوا للتو من أمهاتهم.

---

[١] صحيح البخاري

نكونُ بهذا الشَّرْحِ قد وضَعْنا أيادِينا على دعائمَ هذه الآيةِ الكريمةِ، ونحنُ نستكشفُ نفحاتِ البَرَكات الإلَهية في ثنايا كلِماتِها وحروفِها وحركاتِها.

لِننظرْ إلى كلماتِ الآيةِ ونحن نُجدّد القراءةَ، وورودِ كلماتها تتفتّحُ أمامَنا وتفوحُ عِطراً لَمْ نشمّه قطّ من وردةٍ من قبل: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ لم تنتهِ الآية هنا، وكان يمكنُ لها أن تنتهي، لكن استأنَفَت على الفور، فعطَفت قولَه جُلَّ شأنه: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾. الخيرُ الكثيرُ الذي لايخطرُ على بالِ مخلوق. لكن﴿ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ وأصرَرْتُم على التولّي واستَكْبَرْتُم على التَّوبة،: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾. كونوا على يقينٍ أنَّ ذلك ليسَ لصالِحكم بأي حالٍ من الأحوال،﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيقِنوا بأنّكم إن أشرَكْتُم جميعاً، أو وَحّدتُم، لاينفعُ اللهَ بشيءٍ، ولا يضرّه بشيء. ولكنَّكم عِباد الله، وهو يريدُ لكم الخيرَ والصلاحَ، ويكونُ معَكم، ومن أجْلِكُم أخرجَ إبليسَ من الجنة.

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ بأن اللهَ ليس عاجزاً عن توجيه العِقاب لكم، وليسَ عاجزاً كي يجعلكم تؤمنوا رغْماً عنكم. ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ يا محمّد: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وهنا جاءت كلمة ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ أيضاً رقيقةً متناغِمة مع أجواء الآية التي بلغنا ضفّتها الأخيرة.

﴿ وَبَشِّرِ﴾. البِشارة عادة تكون لإخبارٍ سارٍ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ البقرة٢٥. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ يونس٢. ﴿ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾الحج٣٤. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾الأحزاب٤٧.

وقد بشّر النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أمُّ المؤمنين الكُبرى خديجة (رضي الله عنها) ببيتٍ من القصب في الجنة، كما بشّر العشرةَ من صحابته الكِرام رضوانُ الله عليهم بالجَنة.

بذلكَ نكونُ قد أصْبحنا مع هذه الآية الكريمة مع ثلاثةِ أنواعٍ من الإخبارِ، كلُّ نوعٍ يتكامل بالآخر: ﴿ وَأَذَٰنٌ﴾ ثم ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ ﴾ ثم﴿ وَبَشِّرِ﴾.

فحريٌ بالإنسانِ أنْ يجعلَ نفسَه أهلاً لتلقّي بشارةِ النَّفع، وليسَ لتلقّي بشارةَ الأَذى، وعندما يؤمنُ الإنسانُ ويتفاعَلُ مع إيمانِه بالعملِ الصالحِ، يكونُ بذلكَ قدْ أخرجَ نفسَهُ منْ مُنْعَرَجات الاعوِجاج، إلى استواءِ الاستقامة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾هود١١٢.

وبذلك فإنَّ بشاراتِ الخيرِ تُزَفّ إليه في الدنيا، وفي الآخرة.

﴿ وَبَشِّرِ﴾ –بعد كل هذا البيان يا محمد–: حذّر ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إذا استمرّوا في كفرهم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الباب الرابع | أحبّاء الله

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

هذا هو الاستثناءُ الجميلُ الذي دوماً يتزيَّنُ به القرآنُ، فالغَدرُ لايواجَه بالغَدرِ في الخفاء، بل يواجَه بإعلان فَضّ المُعاهَدة، بسببِ أنَّ الطَّرَفَ الآخرَ هو الذي نقضَ العهدَ. لكن قد يكون مِمَّنْ رفضوا ذاك النقض هم من الطرف الآخر، وهنا تبيِّنُ الآيَةُ بأنَّ التعاملَ معَ الكافِرِ المُحافِظِ على العهد، لا يكون كالتعامل مع الكافر الذي نقضه. ولذلك افتُتِحَت الآية مباشرةً بالاستثناء: ﴿إِلَّا﴾. فأولئكَ لاذنبَ لهم، بل هم أوفياء.

الآن، نريدُ أنْ نعرِفَ ما هو مضمونُ هذه المُعاهَدةِ، ولماذا كلُّ هذه الآيات حولَها؟.

عندما نزلَ الوحيُ على قلبِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم)، أنكرَ المشرِكونَ ذلك، لكنْ ليسَ بشَكلٍ عامٍ، بل بدأَ بعضهم يؤمن ويخرج عمّا كان عليه، وينضمّ إلى الدعوة الجديدة. ومع تكاثر أعداد الموالين لهذه الدعوة الجديدة، بدأ التضييق الشديد عليهم، وصار المشركون يرتكبون فظائع لا أخلاقية، ولا إنسانية بحق أولئك الذين خرجوا عن الشرك وباتوا يوالون محمّداً صلى الله عليه وسلم. ولم يستثنوا من ذلك حتى النسوة، وفي النهاية أجمعوا في دار الندوة على ثلاثة خيارات بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إيقافه عن نشر الدعوة، وعدم استقطاب المزيد من المؤيّدين له، وكمنت هذه الخَيارات في: الحبس، أو النفي، أو الاغتيال. ثم رجّحوا الخَيار الثالث في نهاية الأمر، وقرّروا أن ينفّذوا جريمتهم بحقّه من خلال التصفية الجسدية المُباشَرة. وهنا كانت الهُجرة مَنعاً للاصطدام معهم، وحقناً للدماء، وقد وصلوا إلى ذروة التصعيد، لأنَّ مثلَ هذا العملِ من شأنِهِ أن يُفاقِمَ الاشتباكَ الدَّمويَّ المُباشَرَ مع هؤلاء.

وبعدَ الهِجرَة إلى المدينةِ، وعندما أصبَحَ المسلمونَ قوّةً لايُستَهانُ بها، ورأوا أن المسلمينَ الذين لبِثوا في مكّةَ يتعرّضُونَ لِألوانِ الانتهاكات. هنا وُلِدَت فكرةُ المُعاهَدة التي بموجِبِها عدمُ جوازِ أيِّ طرفٍ الاعتداءَ على الطرفِ الآخرِ بسببِ المُعْتَقَد. وبذلكَ تمَّ تأمينُ المُوالين

للإسْلام إذا كانوا تحتَ سُلطةِ المشْركين، وكذلك تمَّ تأمينُ المشركينَ إذا كانُوا تحتَ سلطةِ المسلمين. وتبقى حريّةَ المُعتَقد مكفولةً للنَّاسِ جميعاً دون إكراه، وألاّ يُعتَدى على أيِّ شخصٍ بسببِ مُعتَقَده أيّاً كان هذا المُعتَقَد. وتقضي هذه المُعاهَدة بين جميعِ الأطيافِ بالتعايشِ وتطبيعِ العلاقاتِ، والتعاونِ فيما بينَ بعضهم. وتمَّ التعاهُد بذلكَ في الحديبيّة لمدّةِ عشرِ سنواتٍ، وكانت هناك تسهيلاتٌ كبيرةٌ قدّمَها النّبي (صلى الله عليه وسلم) للمشْركين، حتى استغْرَب بعض الصحابةِ لذلك من كثرِ ليونةِ النبي (صلى الله عليه وسلم) معهم.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (فَلَمَّا الْتَأَمَ الْأَمْرُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكِتَابُ، وَثَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَوَلَيْسَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الذِّلَّةَ فِي دِينِنَا؟!!، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا عُمَرُ الْزَمْ غَرْزَهُ حَيْثُ كَانَ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ. قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَشْهَدُ. ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَسْنَا بِالْمُسْلِمِينَ؟ أَوَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: "بَلَى"، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الذِّلَّةَ فِي دِينِنَا؟، فَقَالَ: "أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي". ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ، مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ، مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْراً).

والذي حصلَ أنَّ أهلَ الكتابِ عقدوا اتّفاقاً معَ المشْركينَ، فنكَثوا العَهْدَ، ودخلَت (خزاعةُ) في عهد النَّبي (صلى الله عليه وسلم)، ودخلتْ بَكْرٌ في عهدِ قُرَيْش. ثمَّ اعتدَت الثَّانيةُ على الأولى، فمدَّتْها قريشٌ بالسِّلاح ناقضينَ العهدَ، وكانَ ذلكَ من أسبابِ عودةِ الحَرْبِ بينَ المسلمين وبينَهم، وقد أدّى ذلك إلى فتحِ مكّةَ في السَّنةِ الثامنةِ للهجرة. ورغمَ أنَّ المشركينَ أصْبَحوا ضُعَفاءَ، والمسْلِمين أصْبَحوا أقْوياء، إلاّ أنَّهم كانُوا يتعرّضُون للمسْلمين، ولكنْ بِحُكْم بُنودِ المُعاهَدة فإنَّ المُسْلمينَ لا يستطيعونَ الردَّ، لأنَّ ذلكَ يؤدّي بهم أيْضاً إلى نقضِ هذه المُعاهَدة.

وهنا جاءَ البَيانُ الإلَهي بما جاءَ في هذه الآياتِ التَّفْصِيْليّة الدّقِيقة، والكلامُ متّصلٌ مع بعضِه بعضاً في نسق تكاملي واحد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. جاءت الآية كما لو أنها جملةٌ واحدة، والاستثناءُ هنا يكونُ من كلِّ ما تضمّنته الآياتُ الثلاثُ التي

سَبَقَتْ بشأنِ هذه المُعاهَدة. فهؤلاء لا علاقةَ لهُم بكلّ ما بدَرَ من غيرِهم. والشَّرْعُ الإلهي قائمٌ على: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ويبقى هذا العَمُود الفَقري في الإسلام قائماً في جميع الظُّروف والأَحْوال، والذي يزر ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. يكونُ ذلك بموجبِ تصرّف شَخْصي خارج عن التَّشْريع الإسْلامي، مهما تمَظْهَر هذا الشَّخص بمظهرِ الإسْلام، وادّعى ادّعاءات إسْلامِيَّة. فهؤلاء يسعونَ لإحداثِ انشقاقاتٍ وتفرّعاتٍ وفتن، وهم يتذرّعون بالدِين، والله عز وجل هو الذي يُفتي، والذي يُريد الفتوى الصَّحيحة، يجدْها في كِتاب الله سبحانه وتعالى، وفي سنّة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

امّا كثيرٌ مَنْ هؤلاء الذين يدّعُون الفُتيا، فهم ينْطلقونَ من غاياتٍ شخصيّةٍ، ويسْعُون إلى تحقيقِ مآربِهم من خلال الفُتيا، وبذلك يأكُلون الدُّنيا بالدِّين، ويعتاشون، ويتدرّجون في المراتبِ من خلال الدِّين. وهم عادةً يكونونَ من المتَطفّلين الذين لايمتلكونَ مهارات في المِهَن، ويكونُون منبوذين ومنعزِلين اجتماعياً، وفي ظروف ما، يجدون لأنفسهم بعض المداخل إلى الدِين، فيلجون إليها، ليصبحَ هذا الفاشل الذي لامهنة لديه، والعاطل عن العمل، خطيباً، أو إماماً، أو مفتياً، أو شيخاً، ومع قليل من الوقت يتم وضعُ حرفِ الدَّال بجانبِ اسمه.

ورغمَ كلِّ الوضوحِ الذي يتجلّى في الشَّرعِ الإلهي، فإنَّ هؤلاءِ يلتفّونَ عليه، ويقحمون أشياءً لاعلاقة لها بالشَّرع لامن قريب ولا من بعيد، ويدسّون سمومَ مآربهم في عَسَل الدِين. فيشتّتوا الناسَ ويجعلونهم في فِرَقٍ، وكل فرقةٍ تدّعي بأنها هي التي تمثّلُ اللهَ، والأخرى كافرة. ولا يمكنُ لأحدٍ أن يؤسّس لذلك سوى هؤلاء، وهمْ أعمدةُ إحداثِ هذه الوَيلات التي تصيبُ الناسَ. وهم أصبحوا يمثّلوا كثرةً في زمانِنا، وينتشرونَ كالفيروسَات في كل مَكانٍ، وهم يتمَظْهَرون بالدِين، مثل ارتداء الجُبَبِ والعَماماتِ، وإطلاق اللُحَى، أو المُداوَمة على ترديدِ بعض العِبارات الدينيّة، والبكاءِ في البَرامِج، ووسائلِ الإعلام، وعلى بعضِ المَنابِرِ، والزُعاق، وإظهارِ علامةٍ في الجَبْهَة لإعطاءِ صورةٍ أنَّ ذلك يحدثُ من كُثر السُّجود. وبعضهم ينشئ قنواتٍ متلفزةً، و بعضَ الإذاعات، وأحياناً يتحوّلون إلى مصْلحينَ اجتماعيين، أو معالِجين نفسيِّيْن، ومن خلالِ ذلك تتّسعُ علاقاتُهم، وعلى الأغْلبِ فإنَّ

هؤلاءِ لا يكتفونَ بزوجةٍ واحدةٍ، بل لا يكتفون بأربعِ زوجاتٍ، حيث يُطلّقونَ الرابعةَ ليتمكّنوا من الزَّواجِ بالخامِسَةِ، وعلى هذا النَّحو، يتزوّجُون في كل عامٍ أحياناً أكثرَ من زوجتَين. وبعضَ النِّسوة، وخاصةً في المجتمعاتِ المنغلقةِ أو المُحافِظةِ، يعتقدْنَ أنَّ مجرَّدَ الزَّواجِ من هذا (العالِم) أو (الشيخ)، يكون طريقاً إلى الجنَّةِ، فيصْطَدِمْنَ بذلكَ، وهنَّ يَكْتَشِفْنَ نقيضَ ذلك تماماً، فيحدثُ الانفصالُ، وفيما بعد يتحدّثْنَ، ويروِيْنَ أهْوالاً عن هؤلاء، وعن انْحِرَافاتِهم وتجاوزاتِهم الأخلاقيةِ، والإنسانية. ولعلّ بعض النسوة ينحرفن بعد هذه التجربةِ المريرةِ، والصَّدمَةِ في فَشَلِ الزَّواج، ويقفْنَ مواقِفَ سلبيّةً من الدِّين. وعلى هذا النحو لا يكتفي هؤلاء بإلحاقِ الوَيْلاتِ بالناسِ، بل يتسبَّبُوا في تفشّي حالات الإلحاد بين الناس. وكل ذلك لايشفي غليلَهُم من الحِقدِ، بل يتمادُون أكثر، وَهُم يُمارسُونَ أسْوأَ أشكالِ السَّاديَّة، ويحرّضُون الناسَ على قتلِ بعضهم بَعْضاً بشكلٍ علنيٍ. فمُفْتي كتيبةِ (جنودُ الله)، يحرّض على قتلِ جنود (لواء رسول الله)، ومفتي جبهةِ (الحقِّ المُبِين)، يحرّضُ على قتلِ جنودِ (فيلقِ نصرةِ الإسلامِ)، ومفتي (جيش المسلمين)، يحرّضُ على قتل جنودِ (حركةِ الجهاد الإسلامي)، وما إلى ذلك من أسماءٍ برّاقةٍ، وهم ينتهكونَ أساسيّاتِ التَّشْريعِ الإسلامي، ويقْصِفونَ الأحياءَ السَّكنيَّةَ لبعضهم بعضاً وسط تداخل أصواتهم المرتفعة بـ (الله أكبر) بصيحات الضحايا الذين أسقطوا عليهم بيوتهم، فينظرونَ إلى الكارثَةِ الإنسانيَّةِ المُرَوِّعَة، وهمْ يهْتُفونَ بساديَّة: (الله أكبر). ويستمرّون بكلِّ ما يتمكّنوا من إلحاقِ أفدحِ أشكالِ الويلِ بالنَّاس، فيتسبّبون في حِصارِ المَدنيِّين، وتجْويعِهِم حتى يتحوّلوا أمام أنظارِهِم إلى هياكلَ عظيمةٍ، وهم ينظُرونَ إليهِم من غير أن يحرّكَ ذلك بهم ساكناً، ويُكبّرون لذلك، وهم في ذروة نشوتهم السَّادية، بل الذي يحاولُ من هؤلاء الضحايا أن يلوذَ بالفرار من المكان، يصفّونه جسديَّاً بأسوأ أشكال التَّصفية أمامَ أنظارِ المُحاصَرين، بل أمامَ أنظارِ أبنائِهِم وآبائِهم وأمهاتِهم وأخوتِهم، حتَّى يكونَ عِبرةً لغيرِهِ، فيتحوّلُ الناسُ أمامَ أنظارِ هؤلاء إلى هياكلَ عظميةٍ جوعاً وعطشاً. على هذا النحو يتلذّذونَ بممارسَةِ ساديَّتهم المَقيتة سواء عَن قُرب من هؤلاء الضَّحايا، أوعن بُعد، حيث يحرّضونَهم على بعضهم بعضاً من خلال وسائل الإعلام.

على هذا النحو يُقحِمون الشِعارات الدينيّة لتحقيق مآربهم الشَّخصيّة، وممارسَة الاستمتاع السَّلبي لبعضِ النَّزْعاتِ العدوانيةِ لديهم. وهم يرتَكبونَ أفظعَ الانتهاكاتِ الإنسانية، ويحرقونَ حتى أجسادِ الأطفال بكيماويّاتٍ حارقة. والحقيقة هي نزاعات اقتصادية، أو قومية، أو وصولية، أو طائفية، ولكنَّها تتمظهَرُ بالطَّابَع الدِّيني، ويتم إقحامُ الشِّعاراتِ الدِّينية عليها. فهذه الجماعةُ الإسلامية، تفتكُ بتلك الجماعة الإسْلامية، بدافعٍ قوميٍّ، أو طائفيٍّ، فهي تنتقي أبناءَ قوميّةٍ محدّدة، أو طائفةٍ محدّدَة لتفتكَ بهم، أو تُقاتلَ جنودَ النِّظام القائِم حتى تزيْحَه، وتتولّى هي قيادةَ البلاد، أو تقاتلُ جماعةً تكونُ في موضعٍ غنيٍّ بالثَّروات، فتبادرُ إلى قِتالِها بشعاراتٍ دينيّة، حتى تزيحَها من ذاك الموضع، وتستَولي على الثَّروات. فالأصلُ في كل ذلك يعودُ إلى هؤلاء الذين يُصدرونَ الفتاوى، وإذا نظرتَ إلى تاريخ هؤلاء، ترى بأن لا علم لدى كثيرٍ منهم، ولعلّ بعضَهم لم يقرأْ عشرةَ كتبٍ بشكلٍ جيدٍ. ورغم ذلك يُقدَّم على أنه عالِمُ زمانه، وهكذا ضجَّت الطرقاتُ بعلماء زمانِهم حتى ضاقَت بهم وسائلُ الإعلام، والمنابر من كُثر تواجُدِهم وازدحامِهم فيها.

والحقيقةُ فإن العالِم هو الذي يكون لديه مشروعٌ علميٌّ تَرَكَ أثراً على العالَم، وبذلك يكون عِلمُه عالمياً، فيكون هو عالِماً من خلال عالميّة علمه. يتّسم هذا العالِم بالتبحّر في العِلم، وتكون لديه مؤلَّفاته المؤثّرة التي أحياناً تكون أطولَ من قامَتِه، وتكون مُتَرجمة إلى لغاتٍ عديدة في العالَم، وقد تركتْ أثراً طيّباً على الناس وحَسَّنَت لهم حياتِهم.

إذن، لننظرْ إلى إشراقات القرآن، ولننهلْ من عَين الفَتوى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

لننظرْ إلى الكلمةِ الأولى: ﴿إِلَّا﴾. وإلى الكلمةِ الأخيرة: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. فدوماً ثمة ﴿إِلَّا﴾ استثنائيّة إيْجابيّة حتَّى وأنتَ تواجِه أعْتَى أعْدائِك، ولا يجوزُ التَّعميم بأي حالٍ من الأحوال، فكيفَ بكَ وأنتَ تفْتي بقصْف مجمّعٍ سكنيٍ ساعةَ الفجر لمجرَّد أنه يحتوي على بعضِ المسلمينَ الذين لا يُوالونَ جماعتك. أوتسْتولي على حيٍ سكَنيٍ بقوّة السِّلاح، وتتسبَّب في حصَار سكّانه. ﴿إِلَّا﴾. باستثناء: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. أقمْتم معهُم معاهدةَ سَلامٍ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾. ورَدَتْ هاتانِ الجُملتان كإضافة

شرحٍ إلى الآيةِ الأولى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾لأنَّ البراءةَ فيها مفتُوحـةٌ للمشْـركينَ بشـكلٍ عـامٍ. وعلـى هـذا المفصـل يكمُـن مضـمون ﴿إِلَّا﴾. فـ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ليس بشكلٍ عامٍ، بل﴿إِلَّا﴾. ومَن هم الذين استثناهم الله بـ ﴿إِلَّا﴾؟. هم المشركون الذين: ﴿ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾. لَبِثُوا ملتَزمين ببنودِ معاهَدَتهم معَكم دون أي نقصٍ، وعلى التَّمام والكمالِ. إضافةً إلى ذلك: ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾. الكلمةُ دقيقةٌ جداً، وهي من الظَهر، فلَم يُصْبِحوا ظَهراً لأحدٍ عليكُم، سَواء الذين نَكثوا بمُعاهَدَتِهم معكم، أو الذين يُعادونكم من غيرهم. فهم لايشدّون ظهرَ أحدٍ عليكم. فهؤلاء في الحِياد، ولا يحوزُ لكم أن تمسّوهم بأيِّ شكلٍ من أشكالِ الأذى، أو التضـــــــــــــييق علـــــــــــــيهم. رغـــــــــــــمَ أنَّهـــــــــــــم لا يؤمِنون بِما تدعون إليه من الحَق، بل يُشركون بالله، عليكم التَّعايش مَعَهُم بشكلٍ سِلمي ماداموا لا يؤذونكم: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾. المسْلم يكون مسْلماً بقدر ما يكون سِلماً سواء مع المسْلمين، أو مع غيرهم. ثم اختُتِمَت الآيةُ الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. التَّقوى هنا هي حذرك وتجنّبك من التعامِل مع الغدّار، كالتعامل مع الوفي، وألاّ تأخذ الوفي بذنب الغدّار بذريعة أنه غير مسلم. فإن كنتَ مسلماً حقاً، فعلى غير المسلمِ أن يرَى منك السلمَ والأمان. وحتَّى عند إتمامِ المُعاهَدة بينك وبين غير المسلمِ، فمن التقوى ألاّ تتعامَل معه تعاملكَ مع غيرِ المسْلم الذي يُحارِبك ويغدُرُ بك، فهذا رغمَ أنّه لا يؤمِنُ بالإسلام، لايجوز لك أن تؤذيه، أو تُعامِلَه بإساءة إذا كانَ يعيش معكَ في ديارٍ واحدةٍ، أو إذا هربتَ من أذى المسلمين في ديارك ولجأتَ إلى ديارهم وكفّوا عنك أذى المسلمين، وحقّقوا لك الأمان وأكرموا نُزُلك، فلايجوز لك أن تغدرَ بهم بذريعة أنهم لا يعتنقون الإسلام. فتُفخّخُ أماكنُهم، وتعتدي على أناسِهم، لأنك هربتَ من انتهاكاتِ المسلمين بحقّك، إلى ديارٍ غير إسلامية، وليس إلى ديارٍ إسلاميَّة. فلا يجوز لك أن تُرغِم الإسْلامَ على أهلِ تلك الدِّيار غير المسلمين، أو تبرّر لنفسِكَ أيَّ شكلٍ من أشكال الاعتداء عليهم. فهم استقبلوك لاجئاً كحالةٍ إنسانيةٍ، بصرفِ النَّظر عن مُعتَقَدك. وبالمقابلِ

عليكَ أن تردّ عَلَيهم هذا التعامُل الإنساني بالمِثل، بصرفِ النَّظر عن مُتَقَدهم. وهكذا تكونُ مسلماً تقيّاً، وتكون حبيبَ رب العالمين الذي قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

الباب الخامس | رخصة الإمهال

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ٥

﴿فَإِذَا﴾ مضتْ شهورُ المُهلةِ الأربعة، ورغمَ ذلك لَبِثوا في مساعِيهم لإلحاقِ الأذى بِكُم، ولبِثوا يُقاتلونكم ويغدُرونَ بِكُم، حِينئذٍ: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾. وليسَ القتلُ بهدفِ القَتْلِ، بل بهدفِ منعِهم من قتلِكم جميعاً وأنتُم مستَسْلمون دون أن تبدُرُ منكم مُقاوَمة. فقد نفذَت كلُّ الوسائلِ الأخرى دون أن تجدي معَهم، بل ازدادوا عداءً وفتكاً بكم. التوجيهُ الإلهيُّ في الآيةِ بالغُ الدقّةِ، وشديدُ التَّركيزِ على الحالة الاستثنائيّةِ، ومُشترَطٌ كلُّ الاشتراط عليها. أما غير ذلك فيكون خارجَ هذا الاستثناء الدَّقيق جدّاً، والمُركِّز جدّاً على الحالة، ومِن ثَمَّ يكونُ خارجَ القرآن. ولذلك ،فإنَّ أيّةَ فتوَى تجتزئُ قولَه تعالى: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾. من سِياق الحَدَث المُتماسِك مع بعضِه، ومن الشُّروط، فإنها تكونُ مُخالِفةً للمنهجِ القرآنِي الذي يأمُرُ المسلمينَ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾البقرة ١٩٠. ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة ١٩١. ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ البقرة ١٩٢. ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ البقرة ١٩٤.

وَمِنْ ثَمَّ تكونُ فتاوى ضالّةً حتَّى وهْي تستَشْهِدُ بكثيرٍ من المُفسّرينَ والفقهاء. فالفَتوى هي فتْوى الله، والذي يُفتي عن الله، يجعلُ نفسَه متحدّثاً عن الله، ولا يكونُ ذلك من غير التبَحُّرِ في علومِ القرآنِ والسنّة والفقه، وأنْ يكونَ متقدّماً في دَرَجات مَعْرِفَةِ الله، حتى يتسنّى له أن يكونَ ناطقاً عن الله لعبادِه من خلال إصدارِ الفتاوى. والواقع الذي نحن فيه يبيِّن أنَّ كثيراً من هؤلاء لا يرتقون إلى هذه الدرجاتِ الرفيعة من العِلم فيكونون بذلك علماءَ دنْيويين،

يسعونَ إلى درجاتٍ عند الناسِ، وليسوا علماءَ ربّانيين، يسعونَ إلى درجاتٍ عند الله. ولذلك كثرَ المفتونَ في زمانِنا بحيث أصبح لكلّ فرقةٍ مفتيّها، فكانَ من الطبيعي أن تنبثِقَ عن ذلك، الألويةُ، والفيالقُ، والكتائبُ، والعُصبُ، وما إلى ذلك من أناسٍ يفتكونَ ببعضهم بعضاً. وامتدّ ذلك ليشملَ أيضاً بعضَ الدُّولِ الإسلاميّةِ أن تُقاتلَ بعضَها بعضاً، وتُقحم على عملياتها أسماء إسلامية، وعلى جيوشها أوصافاً إسلامية، فجيش هذه الدولة الإسلامية هو جيشُ رسولِ الله، وبذلكَ يقتحمُ هذا الجيشُ دولةً إسلاميَّة أخرى، يفتكُ فيْها بالمسلمين، ولا يَسْلمُ من ذلكَ حتَّى الأطفال الرضّع. كلُّ ذلكَ يحدثُ وفقَ فَتاوى تحريضيَّة من هؤلاء المفتين العُدوانيين، ومنهم مَن يَظهرُ علانيةً في وسائلِ الإعلامِ ويؤجّجُ الناسَ على بعضهم بعضاً، ويُحرّضُ الدولَ الإسلامية على بعضها بعضاً، فيحقّقُ بذلك مآربَه الدّنيويَّة، إلى جانبِ تحقيقِ نزعاته العُدْوانيّة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ"[2].

إذن، يكونُ الالتزامُ، كلَّ الالتزامِ بدقّةِ التَّركيزِ على الحالةِ التي كانَتْ سبباً في نزولِ الآية: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾. جاءتِ الكلمةُ بالغةَ الدقّةِ، فالسَّلخ هو انفصالُ الشَّيء عنِ الشَّيءْ، فإذا أثبتَ هؤلاء بأنَّهم انفصلوا تماماً عن القُبول بفكرةِ التعايش معكم، وانفصلوا عن واقعهم، واستمرّوا في قتالكم ورفضِكم وفصلِكم عن ديارِكم، بعدَ مُهْلة أربعةِ أشهرٍ لمراجَعَةِ النفسِ، وفق ما جاء في الآية الثانية: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾وقد جاء جمع شهر في هذا المقام بـ ﴿ أَشْهُرٍ﴾وليس بـ (شهور) رغم أنهما جمعٌ لـ (شهر). والقرآن الكريم يجمع الشهر بـ﴿ أَشْهُرٍ ﴾ عند قلّة الشهور:

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ ﴾البقـــــــرة١٩٧. ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ ﴾ البقــــــــــــرة٢٢٦. ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾٢٣٤. ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ ﴾الطـــلاق٤.

ولكنْ عندَ الكثرةِ يُجمعُ بـ (شهر). وقد وردَت هذه الصِّيغةُ مرةً واحدةً في عوم القرآن، في الآية٣٦ من سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. ويرتكـزُ مـنهجُ الإسـلامِ علـى السِـلم: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾الأعـــراف١٩٩. ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾الأنفـــــال٦١. ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ النحــــــــــل١٢٥. ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ الحجر٨٥. ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾الزخرف ٨٩.

الآيةُ الكريمةُ تُدخِلنا إلى قلبِ الحدثِ، حيثُ يبدأُ المسلمونَ بنشرِ آيات الله في الناسِ، وهناك مَن يعْتَدونَ عليهم بكلِّ وسائلِ الاعتداءِ المروِّعة حتى يمنعوهُم من ذلك. والأمر شديدُ الخصوصيةِ بهدفِ إيقافِ الاعتداء فقط، وليس لإرغام الإيمان عليهم، كما هم يفعلون من خلال إرغام الشرك عليهم، وحرمانهم من حريّة المُعتقَد. والقاعدة القرآنية تكفل حريّة المُعتقَد: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ البقرة٢٥٦. ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ يونس٩٩.

إذن، لانريدُ منكُم شيئاً سوى أن تَدعونا وَشَأْننا، وتكفّوا عن قتالِنا، وقد صبَرْنا طِوالَ السَّنواتِ الماضِيَةِ على ظلمِكم لنا، حتَّى إنَّنا تركنا ديارَنا تفادياً للصِدام معَكم، وهاجَرْنا. والآن تكاثَفَ الناسُ مَعَنا لأننا نقدّم لهم قيماً إنسانية أفضل، وحياة إنسانية أرقى، فانضمّوا إلينا، ونجحنا في نشر آيات الله التي تُحسّن للناس سبل تعاملهم الإنساني مع بعضهم البعض. أصبحنا قوّةً تفوق قوّتكم، ورغم ذلك لن نُعامِلكم بالمثل لأن قيمنا الإسلامية لا تسمح لنا أن نفرض عليكم الإيمان بالقوّة، وإن فعلنا ذلك، سنكون قد خرجنا عن تعاليم

دِيننا. فأنتم تتمتّعون بكل حقوقكم في دولتنا الجديدة التي أنشأناها على أرضنا، أرض آبائنا وأجدادنا، ولا نحجز حريّاتكم، ولا نرغم عليكم الإقامة الجَبريّة، بل: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ ﴾ كل أرض الله مفتوحة أمامكم دون أي قيد أو شرط، فراجعوا أنفسكم خلال ذلك، وفقط كفّوا عن قتالنا واستفزازنا في مشاعرنا المقدّسة.

وهذا شبيه بشخصٍ لايؤمن بالقرآن، لكنه قريبٌ منك بحكم القرابة، أو الجوار، أو العمل، حيث تراه بشكلٍ مستمرٍّ، ولا تتدخَّل في شأن عقيدته، لكنه لا يُعامِلك بالمثل، بل يستفزّك في عقيدتك، ويستهزِئُ بما تقومُ به من شعائرِ إيمانِكَ، فتصبِر عليه، ونظيرُ ذلك يلبثُ يَتَمادى عليك، فيتجاوزُ الأدبَ في حديثه عن الرسولِ الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وعن صحابته الكرام رضوانُ الله عليهم. فتقولُ له: يا أخي دَعني في شأنِ معتقَدي. فلا يكفّ عنك، بل يتمادى أكثر، ويعتدي عليكَ بالضربِ طالباً منكَ أن تتركَ دينَك، وتُصبحُ مثلَه في المُعتَقَد، وإن لم تفعلْ ذلك، سوف يقتلُك. ورغمَ ذلك تفوّض أمرَك لله وتكظُمُ غيظَكَ، وأنتَ تصبرُ صبراً على صبرٍ، وفي النهايةِ تتركُ مسكنَكَ بشكلٍ سِلميٍ كي لا تصطدمَ معه. لكنك تتفاجأ به يتواصل مع أناسٍ في مسكنك الجديد، ويحرّضهم عليك، ويمدّهم بأموالٍ حتى يُقاتلوك. وبعد عشرين سنةٍ من صبرِكَ وجلَدِكَ، يشاءُ الله فتُصبحُ قويّاً وتمتلكُ شعبيةً كبيرةً في موضِعك الذي تركته، وكذلك في موضِعك الذي أتيتَ إليه، وهذا الشخص قد أصبحَ واهناً مقارنةً بقوّتِك التي غدوتَ عليها. فتعودُ إلى ديارك، ورغم ذلك تراه لا يكفّ عن عداوتكَ واستفزازِكَ، ويحرّضُ الناسَ عليك، وعلى كلِّ مَن يواليك، فتقول له: كفى، دعنِي وشأني، ورغم أنني قادرٌ على أن أردّ عليك بالقوّة، لكن لن أفعلَ ذلك، بل أمنحُك وقتاً حتى تفكّرَ جيداً، وتسيحُ في الأرض بحرّيّتك، لعلّك تكفُّ عني، وأنا لن أكرِهْكَ على مُعتَقدي، بل أحقّقُ لك ولأهلك الأمنَ، وأتيحُ لكم فرصاً للعمل، ونبقى جميعاً على تواصلٍ بيننا دون أن نقاطعَكم. ولكن بعد قضاء هذا الوقت، لن أسمحَ لك بالاعتداءِ علي، أو على الذين يوالونني، أو تستهزئُ بمشاعرنا المقدّسة أمام أنظارنا. وبعد انقضاءِ المهلة، تراه قد جمع حوله أناساً وشكّلوا عصابةً، وغدوا يستقوون عليك، ويحيكون المؤامرات لقتلك، وقتل أصحابِكَ. هنا هل تقفُ مكتوفَ اليدَين وتخنعُ له حتى ينفّذ ما يُريد، أم أنك تمنعَه من

ذلك. فهذا هو الاستثناءُ الشَّديد التَّركيز، والشَّديد الخصوصيّة في القتل، فقط حتى تمنَعه من تماديه، وتوقِفَه عند حدّه، وهو في ذروةِ هيجانِ لحظات القدوم للتجاوز عليك بالقتل. مثل شخصٍ فجأة تراه أمامَك وهو يشهرُ السِّلاحَ، وتمتلكُ وسيلةً للردّ عليه ومَنْعه، فما الذي تفعله وقدانوضعت أمام هذا الخَيار المُحرج، رغم تاريخك الذي حرصتَ فيه ألاّ تؤذي ولو حيواناً صغيراً، وكل إدانتك لأشكال الظلم والاعتداءِ على الناس. أجل هذه هي حقيقة آيات القِتال في القرآن التي لم تُقدَّم التقديم الجيّد في غالبية كُتب التفسير، وغالبية كُتب الفقه، ومن ثمَّ تمخَّضَت عنها تلكَ الفتاوى المُنحرفة عن أساسيّات وشروط هذه الآيات. وبذلك فإن المسلمين الذين اضطروا لمواجهة الاعتداء، لم يكونوا سُعداء قط وهم يدفعونهم عن قتلهم بالقوّة، بعد استنفاذ كل الوسائل السلميّة بصبرٍ لا نظير له، ثم الصبر على الصبر بمزيدٍ من صبرٍ حتى اللحظات الأخيرة، لأن المسلم كما أنه يعزّ عليه أن يقتل مسلماً، يعزّ عليه أن يقتل أي شخصٍ غير مسلم، لأنَّ هذا الشخصَ له أم، وأب، وأخوة، وزوجة، وأبناء. والقتل ليس سهلاً، بل يسبّبُ الجرحَ لعشرات الأشخاص، ولذلك يكون الحرص كل الحرص ألاّ يصل المسلم إلى هذه النهاية في المواجهة ما أمكن.

من هنا نرى كيف أنَّ الآيةَ تُعدّدُ وائل المواجهة حتى في تلك اللحظات، لأنهم رغم كل ذاك التاريخ، قد يخطر لهم أن يتراجعوا ولو في آخر لحظة. فلم تقلْ: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. من أجل أن يقتلوهم، بل: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. وهنا يُصبح المسلمُ في لحظةٍ حاسمةٍ بحيث رفعَ المشركُ يدَه كي يوقع عليه الضربةَ القاتلةَ، فيكونُ ردّه دفاعاً عن النفس. فقد دخلَ عليه بيتَه وأشهرَ عليه السلاحَ، ويريد أن يفتكَ به وبعيالِه، ولكنه يتمكَّنُ من الردّ ويدفع عنه هذا المُعتَدي. وهنا يتبيَّن عدم جواز المسلمِ إلى بيت المشركِ، أو الملحد، أو أي شخصٍ لايؤمن بالإسلام، ويُبادرُ بالاعتداءِ عليه في بيتِه، أو عملِه، أو أي موضعٍ يكون فيه آمناً، بل يتعايش معه بصرف النظر عن مُعتَقَده. فإذن نحن مع حالةٍ شديدة الاستثنائيّة، ولذلك نرى عدم جواز مثل هذا الإجراء إذا لم تقع هذه اللحظة الحاسمة من قِبَل الذي أتى ليغدر. فهو إن استطاع الهروبَ، ولحقته، فلا يكونُ هذا الإجراء، أي تقتله وقد غدا أسيراً بين يدَيك حتى لو كان من أعتى أعدائِك. بل تُكرِمه وتعظه وتُطعِمه مِمّا تأكل، وتتعاملُ معهُ تعاملَ الأسرى، حتى

وإن كان الطرفُ الآخر يسيءُ التعاملَ مع أسراك، فهو يتعامل وفق منهجه، وانتَ تتعامل وفق منهجِك، وعليك أن تأتي به إلى منهجِك، لا أن يأخذَك إلى منهجه. فوجّه الله سبحانه وتعالى بحق هؤلاء وهم عِباده رغم كل ما بَدَر منهم، والناس جميعاً هم أخوة: ﴿وَخُذُوهُمْ ﴾. الأخذ هنا بمعنى توقيفهم حتى لا يقتلوكم، فتضعونهم في إقامة جبريّة ولا تسمحوا لهم بالخروج. وإذا لم تتمكّنوا من توقيفهم: ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾. وهنا يكونُ الإجراءُ أخفَّ من التوقيف، فالحصارُ يكون من خلالِ منعِهم من الحضور في تجمّعات المسلمين في شعائِرهم، وعدم التشويش عليهم، وعدم التواجد عراةً أمام الكعبة المُشرَّفة. ثم بشكلٍ أخفٍ أكثر: ﴿ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. المرصدُ، من الرَصد، أي تترصَّد شيئاً، ومن ذلك ما يُعرَف في زماننا بالأرصاد الجويّة. فالراصدُ هنا يترقَّب ويتتبّع بدقةٍ رصدَه لتقلّبات الجو. وهنا يكونُ هؤلاء تحتَ المُراقَبة دون التضييق عليهم ما دامُوا لا يتدخّلون في شؤون بُنيانِ الدولة الجديدة.

﴿ فَإِن تَابُوا۟﴾. هنا يتبيَّن الهدفُ من خلال كل تلك الإجراءات، وهو أنَّ الإنسانَ يمكن له أن يتراجع عمّا هو عليه من اعتداء على الآخرين والغدر بهم. فإذا أثمرَت هذه الإجراءات وندموا على ما قد سلف: ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. عندها﴿ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أوقفوا كل تلك الإجراءات، سواء الذين أسرتموهم، وقد ضبطتموهم بالجرمِ المشهود، أو الذين منعتموهُم منالحضور في جموع المسلمين في أماكن العبادة، أو الذين وضعتموهم تحت المراقبة. فارفَعوا عنْهم كلَّ ذلك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. يغفرُ للإنسانِ ما قد سَلف إذا ندم وتاب، وهو رحيمٌ بعباده، ورحمتهِ تكونُ غالبةً على عقابه. هؤلاء يُصبحون مثلَكم، وتتعامَلون معهُم كما لو أنَّهم لم يفعلوا شيئاً بحَقّكُم من قبل.

الباب السادس | الاستجارة

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ ٦

هنا بيانٌ شديدُ الوضوحِ، يُدينُ بشدّةٍ قتلَ المُسلمِ لأعدائِه في حال تمكّنه منهم. فالآنَ نحن في ذروةِ أجواءِ حالةِ الطَّوارئ، وفرضِ حالةِ الطَّوارئِ في القرآنِ دقيقٌ جداً، ومشترطٌ جداً، وهو إعطاءُ مهلةٍ للمتمرِّدين على نظامِ الدولة كي يتراجَعوا، ليسَ بشَرط أن يتراجَعوا عن منْهج المُعارَضة الذي يتّبعونه، فلهُم في ذلك الحريّةُ المكفولةُ، ولكن حتَّى يكفّوا عن أذى الناسِ،فأنتَ هنا تتعامَلُ مع أناسٍ يُلحقون الأذى بالعاملين في مؤسّسات الدولة، ويرتكبونَ بحقّهم الانتهاكاتِ المروعةَ، وليس بأشخاصهم فقط، بل حتى بنسائِهم وأطفالهم. ورغم كل ذلك البطشِ الذي هُم عليه يمهِلُهم القرآن كي يَسيحوا﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾. حتى يُراجعوا أنفُسَهم ويتحاوَروا فيما بينَهم، من أجلِ عدمِ الاستمرار في إلحاقِ هذه الانتهاكاتِ المروّعة بحق العاملين في مؤسّساتِ الدولة. وما قد سَلَف، يُعفى عنه جملةً واحدةً: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ يَوۡمَ. جاءك نادماً عمّا كان عليه: ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ من خلال أن تُسمعه آيات الله التي تفيضُ بروحِ الأخوّة الإنسانيّة لأبناءِ آدم جميعاً، وأن الناسَ هم عائلةٌ بشريّةٌ واحدة، وأنَّ شعارَ التسامُحِ هو الشعارُ الأخويُّ الأولُ بينَهم إذا تجاوزَ بعضُهم على بعضٍ، ثم تراجَع وأصلَح. وهنا لم يشترطْ دخولَ الإسلامِ، بل كفَّ أذاهُ عن المسلمين. أمسَكَ بيدِه، برفْقٍ، وأخرجه من الظَّلام إلى النُّور، واقرأ له آياتِ الله

التي هي لَه كما هي لَك، وحقّهُ عليك أن تُسمعَه إيّاها كونَك علِمتَها قبلَه، واستَوعبْتَها قبلَه. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن تفعلَ ذلك: ﴿أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾. حققْ له الأمانَ في مسكنِه ومعمله، ذات الأمان الذي تُحققه لنفسك، دون أي نقصان. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾. وانتَ تعلّمهم من القرآن ما لا ﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

رغمَ ذلك، فإنَّ غالبيةَ كتبِ التَّفسيرِ والفَقه، تُجمعُ بأن هذه السورةَ الكريمةَ جاءتْ من غير بسملةٍ؛ لأنَّها تحتوي كثيراً على آيات القِتال. والحقيقةُ هي آياتُ تنظيمِ العلاقةِ الإنسانيةِ والحِفاظِ عليها في حالِ نشوبِ حربٍ بين المسلمينَ وبين غيرِهم، وهي آياتٌ تأمرُ المسلمينَ بألاّ يخرُجوا عن قواعِد إنسانيّتهم عندما يتعرّضونَ للحربِ في ديارِهم، وأن يتّبِعوا إرشادَ القرآن، وألاّ ينجرّوا خلفَ حميَّة الجاهليّة أو منحرفاتِ التعصّب، وتكونُ كفّة التهدئَة راجحةً على كفّة التصعيد.

ومن أركانِ وأساسيّات هذه الأوامر القرآنيةِ الدقيقة، عدمُ التعرّض للمدنيينَ بمختلف أعمارهم، رجالاً ونساءً، وعدم التعرّض للكهنةِ وهم في معابدهم. فسورةُ التوبة، هي سورةُ التسامحِ الإنساني بامتياز، سورةُ الاستجابةِ لاستجارة المخطئ، سورةُ إتاحة المزيد من الفُرَص للمخطئين كي يصْلحوا، سورة التأنّي في اتّخاذ القرارات الحاسمة، سورة التآخي الإنساني، سورةُ بقاءِ أملِ التوبة قائماً بالآخر المُعتدي.

وأمّا ما اكتظّت به كُتَب التفسيرِ بأنها سورةٌ تحضّ على العِقاب، حتى إنَّها وردَت من غيربسملةٍ، وقد تمخّضَت عن تلك التفاسيرِ فتاوى القِتال التي ألحَقَت الويلَ بالمسلمينَ قبل غيرهم، فهي محضُ اجتهاداتٍ، وبعضُها كانت ردّاً على بعض المُستجدّات، ولكن مع الزمن تبيَّن غير ذلك. وشيءٌ من هذا حصلَ في وقتنا الحديث، فعند ظهورِ التلفاز، قال كثيرٌ من المفسّرين والفقهاء والمفتين، بأنه حرام، ولا يجوز إدخالُه إلى بيوتِ المسلمين. لكن بعد ذلك، أصبحَ بعضُ الذين قالوا بالتحريمِ، يمتلكونَ قنواتٍ، ليست

أرضيةً فقط، بل فضائية، ويظهرونَ فيها أكثرَ من أهل الفنِّ، والأدبِ، والسياسة. ومنهم مَن قال بتحريمِ شرب القهوة، أو ركوبِ الدراجات، ثم استخدموها فيما بعد. وبعضهم قالَ بتحريمِ التَّصوير، ولكنهم بعد ذلك، لم يكتفوا بتصويرِ صورٍ شخصيّة لأغراضٍ اضطراريّةٍ، بل صاروا ينشرونَ صورَهم على صفحات الجرائدِ والمجلاتِ، وأغلفَة الكتبِ، ومنْهم مَن قالَ بتحريمِ ما قامَ به عباسُ بن فرناس، ولكنهم بعد ذلك صاروا يُفضّلون ركوبَ الطائرة، ليس للذهابِ إلى الأماكن البعيدة، بل أحياناً من مدينة إلى مدينة ضمنَ الدولة، والأمثلة عديدة عمّا حصل بمثل هذه الاجتهادات.

كذلك الأمر مع ما ورد في بعض التفاسير والفتاوى من مختلف العصور، لكن بعضهم مايزال يعملُ بها بها رغم كل ما تُحدثه من ويلات بحق المسلمين. فقد أصبحْنا أمامَ حشودٍ من المفتين الذين يُحرّضون المسلمينَ على بعضِهم بعضاً، وفق تفسيرٍ ورد منذ ألف سنة، أو أكثر، أو أقل.

والحقيقةُ؛ فإنَّ كلَّ هذه الحشود من المفتين لا لزومَ لهم. والدولةُ بأكملها يمكن أن يفتي فيها مفتيٌ واحدٌ يكونُ المرجعُ الأساس لكل مدُنِها وضواحيها، فيكون هو مفتي الدولة. وما نتجَ عن كل هذه الحشود، أنها شتَّتَت لمّ المسلمينَ، وبثَّت فيهم الفِتَن والنعرات، ومن ثَمَّ بات الآخرونَ يتقدّمون في المنجزاتِ الحضارية، والمسلمونَ يتأخّرون عنها تحت ذريعةِ التفرّغ لعلوم القرآن، ولا يكون الإنسانُ عالِماً إلاّ إذا كان مختصّاً بعلوم القرآن. فصارت المدنُ تضجّ بهذه المظاهرِ التديّنيّة، وانحرَم كثيرٌ من أطفال المسلمين من الإبداعِ في الفنون، أوالآداب، أوالجغرافيا، أوالطب، أوالفلك، أو العمارة، أو التكنولوجيا، أو الكيمياء، أو الهندسة، أو الفيزياء، أو الرياضيّات. فهؤلاء يُصوّرون للناس بأن اجتهاداتِهم هي دِينٌ، ومن ثَمَّ بات الناسُ يعملونَ بها على أنَّها بالفعل دِين. وهي محضُ اجتهادات، لأن العالِمَ مهما ارتقى في علمِه، فهو لا يكونُ رسولاً يُوحى إليه. إلى جانب ذلك فبعضُ هذا الإنتاجِ لا يزيدُ عن كونه محضَ تكهّنات لا يرتقي إلى مرتبةِ الاجتهاد، لأنه يصدرُ من أشخاصٍ غير متبحّرين في علومِ القرآن.

ولذلك جاءَ الأمرُ الإلهيُّ فقط بطاعةِ الرسولِ، لأنه ينطقُ عن الله بمقتضَى الوحي الذي يتلقّاه من الله. وما دون الوحي فهو اجتهادٌ، حصلَ وفقَ ظرفٍ ما، اجتهد به عالمٌ ما مهما كان متبحّراً في علمه، ومهما كان حجّةً في علمِهِ، فهو نتاجُ فكرٍ بشريٍ يخضع للخطأ بدرجات فادحةٍ، كما أنه يخضع للصَّواب بدرجاتٍ متقدّمة، فهو غيرُ معصومٍ من الخطأ، ولا يمكنُ له أن بأي حالٍ من الأحوال أن يرتقي إلى صحّة القرآن المطلقة، وصحّةِ الحديثِ النبوي المطلقةِ الذي صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من هنا فإن كثيراً من هذه الاجتهاداتِ تفصُلُ المسلمين عن تفاصيل واقعهم الذي يعيشون فيه، وغدتْ الطرقاتِ تكتظ بالذين يتمظهرونَ بالمظاهرِ التديّنيّة، فلا يمتهنونَ مِهَنا، ولا ينتجونَ شيئاً، وفقط يستهلكونَ، ويدفعونَ الناسَ إلى الاستهلاك. فكانتِ النتيجةُ الطبيعيةُ

في تفاقمِ البطالة، وانتشارِ الجوع، وتفشّي الجهل، وبالتالي التخلّف عن ركْبِ الحضارةِ البشريةِ حتى بات المسلمونَ يعتمدونَ في غالبيّة مقوّمات حياتِهم على ما ينتجُهُ غيرُ المسلمين. ثم أخذ هؤلاء يوظّفونَ الطاقاتِ الشبابيّةَ العاطلة عن العملِ، والجاهلةَ، والجائعَة، في الغلو والتطرّف من خلال حروبٍ أهليّة، وقتل بعضهم بعضاً بدمٍ باردٍ تحت هيمنةِ هذه الفتاوى، وبذرائعَ قوميّة أو عقيديّة، لأن غالبيّةَ الدولِ الإسلامية تتكوَّنُ من أناسٍ متعدّدي الأعراقِ والمعتقدات. ونتيجة ذلك يحدث الاشتباك مع رجل الأمن يؤدّي إلى خسائرَ بشرية وماديةٍ في المجتمع، وكذلك زعزعةُ الأمنِ، أو الفلَتانِ الأمني في بعض المراحل، ودفع الناسِ إلى ترك بيوتهم واللجوء إلى دولٍ آمنةٍ. إذن، فحتى تكونَ جزءاً من العالم، عليكَ أن تقدّمَ منتجات تُنافس بها الأسواقَ العالمية، وتُحقّقُ ارباحاً طائلةٍ لشعبك.

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. كلمة: ﴿أَحَدٞ﴾. هنا ميَّزَت بين المشركِ الغادرِ، والمشركِ غيرِ الغادر، فغيرُ الغادر بطبيعة الحال لا يتعرَّضُ له المسلم. والكلام هنا غيرُ المسلم الغادر الذي يُقاتل المسلمينَ ويؤذيهم،: ﴿وَإِنۡ﴾. في حال﴿ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. ﴿مِّنَ﴾ جملة هؤلاء الذين يعتدونَ عليكم ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾. الاستجارةُ هنا بمعنى أصبح دخيلاً عليك، ولعلّه تركَ جماعةَ الغدر رغم أنه ما يزال مُشركاً، ولكنه يغدو مثل المُشركين الذين أوفوا بعهودهم معَكم، ولم يغدروا بكم، ولم يطعنوكُم في الظَهر. يأتي الأمر الإلهي في هذه الحالة بشكلٍ مباشَرٍ: ﴿فَأَجِرۡهُ﴾. أي رحّب باستجارته بك، ولا تخذله، وأعِنْه حتى تؤمِّن له مسكناً جوارك، ما دام من تلقاءِ نفسِه جاء طالباً الجيرَة، فأهلاً بجارٍ غير مسلمٍ لا يؤذيك ولا يستفزّك في عقيدتك ومشاعرِك المقدّسة، ولا يتظاهرُ عليكَ بأن يأتيَ بأناسٍ إلى بيته الذي بجوارك ويحيكوا المؤامراتِ حتى يلحقوا الأذى بكَ وبعيالك.﴿فَأَجِرۡهُ﴾. لماذا؟ -: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. وهنا أمرٌ بالغُ الدقّة: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. فأيُّ كلامٍ آخرٍ مهما تمظهَر بمظاهِر﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فإنه لا يُغْني عن﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. والأصل هو: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. وأيُّ اجتهادٍ لا يؤخَذ به إلاّ بعد أن يُعرَض على عموم ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. ولا يُكتَفى باجتزاءِ جزءٍ من آية، أو حتى بآيةٍ كاملةٍ، لأن﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

يتكاملُ بعضه ببعضٍ من خلال عموم القرآن. ﴿فَأَجِرۡهُ﴾. جاءَ الكلامُ أمراً، ثم جاء التوجيهُ الإلهيُّ الجميلُ: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. ولم يقلْ: (واسمعه) ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾. أي لا تفرضْ عليه الإيمانَ، فهو بشكلٍ طبيعي ما دام قد أصبحَ جارَك، سوف ﴿ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾. و﴿ حَتَّىٰ ﴾. في هذا السياق بمعنى أن الاستجابةَ للاستجارة، ستتيح له أن يَسۡمَعَ منكم ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾. قال: ﴿ ثُمَّ ﴾ أي بعد ذلك: ﴿ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾. والكلامُ هنا وهو في ذروة شركه وعدم إيمانه بالإسلام، ﴿أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾.حقّق له الأمنَ والحمايةَ، بحيث تكونُ سلامتُه من سلامتِك. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾. كونهم ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الذي علِمته، لم يسمعوا ﴿ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ الذي سمِعته.

فهنا فسحةٌ جميلةٌ للتعايشِ بين سائر المكوّنات العقيديّة من أجلِ بناءِ البلادِ في مشاعرَ إنسانيّة ووطنيّة مشتركةٍ، وبالتالي الوقوف صفاً واحداً للدفاع عن الأمن، وعدمِ السماحِ لأحدٍ أن يأتي ويزحزحَ الأمن في الناس. فحيٌ إسلاميٌّ واحِدٌ بمقتضى هذه الآية، يتجاوَرُ فيه خليطٌ من المسلمينَ، والملحدين، واليهود، والمسيحيين، وما إلى ذلك من معتقدات. والجميعُ يقدّمون خدماتِهم للمجتمع، وفقط الذي يخون ويغدر بهذا التعايشِ، ويبثّ الفِتَنَ ليُشتّتَ هذا التماسكَ الاجتماعيَّ، ويُحرّضُ الناسَ على قتلِ بعضِهم بعضاً، هو الذي يتلقّى العقابَ من غير أن يطالَ ذلكَ أحداً مهما كانَ مقرباً منه.

الباب السابع | سلوك الاستقامة

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ٧

دعاةُ التشتّتِ الاجتماعيّ، يتشبّثونَ بعنادهم واستعلائهم، ولا يفونَ بعهودِهِم مهْما عاهَدوا، فهُم يحقدونَ على كلِّ ما هو مستقيم، وما هو إنساني. وهؤلاء يكونونَ منبوذينَ حتَّى من المشركينَ أنفسِهم، ومن سائر المُعتقدات، لأنْ لا أحدَ يأمَنُ غدرَهم. ولذلك فَصَلَت الآية بين المشركينَ، وجَعَلَتهم في صفَّين، صفٌّ قد استوى في طُغيانه، ولا يأبهُ بأي عهدٍ ولا يبدرُ منْه سوى الأذَى، وصفٌّ يكتفي بمعتقَدِه الشّركي دون أن يؤذي أحداً، أو يحقدَ على أحد، ويفي بعَهده إذا عاهَد، ويكون مُسالِماً فعّالاً في العَمار، وينتفعُ منه المجتمع.

وهذا يكونُ بياناً متّصلاً بالآية الأولى من السُّورة، والكلمة الأولى منها: ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾. أي: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. الذين نكثوا بعهْدهم معكُم ﴿مِّنَ﴾ عموم ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين عاهدتموهم على السِّلم.

واستناداً إلى ذلك: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين بالعهْدِ ﴿عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾. وتم إثباتُ هذا البيانِ في استئنافِ الجملةِ القرآنيةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. فتمَّ التذكيرُ مرةً أخرى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ ﴾، بعدمِ التَّعميم. ففي الآية ٤: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾. وهنـــــا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ودوماً تأتي الـ﴿إِلَّا﴾ الاستثنائيّة لتكونَ سنّةً في التشريعِ الإسْلامي: ﴿إِلَّا﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾. هؤلاء يُستَثنَون من: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾. لأنَّهُم لم ينقُضوا بالعهدِ الذي أُبرِمَ يومَ الحُديبيّة بينهُم وبين المسلمين، وأوفوا به، فامَرَ اللهُ جلّ شأنَه المسلمين:

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾. لا تجعلوهُم يكونون أكثرَ استقامةً منكم وفاءً بالعهد، ﴿ فَمَا﴾ --كلّما- ﴿ ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ ﴾. كلّما كانُوا طيبيِّن معَكم، كونوا طيبيِّن معهم، كلّما كانُوا نافعينَ لكُم، كونوا نافعينَ لهم. حتى لا يقولوا: ياربِّ هذه هي حالُنا مع المسلمين، نفِي بعهْدِنا مَعَهُم، يغدرونَ بِنا، نكونُ طيّبين معَهُم، يسيؤونَ إليْنا، نكونُ نافعينَ لهم، يلحقونَ بنا الضرر، نحرص على أعراضِهم، و يسبونَ نساءنا، نحرص على أطفالهم، ويشرِّدونَ أطفالَنا. فكيفَ تريدُنا أن ندعَ استقامَتنا ونكونَ مسلمينَ مثلَهم، ألسْنا أكثرَ استقامَةً وأكثرَ قِيَماً منهم. ﴿ فَمَا ﴾ كلّما ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ ابْقوا مستقيمْينَ معَهم، مادامُوا يواظبونَ على استقامَتِهم معكُم.

واختُتِمَ البيانُ الإلهيُ في الآيةِ الكريمةِ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. فهذه هي استقامةُ التقوى التي إذا اتّبعَها الإنسانُ، أحَبّه اللهُ، فيُصبحُ الإنسانُ باتُباعها حبيبَ الله عزَّ وجل. لكنْ لماذا جاءَ الحُبُّ هنا؟. جاء الحبُّ لأنَّ المسلمَ الذي لا يسمحُ لغيرِ المُسلمِ أنْ يأخذَ نظرةً سيّئةً عنْه، ولا أنْ يستمسكَ عليه حجّةً سلبيَّةً في إسلامَه، يكونُ حريصاً على سمعةِ الإسلامِ أكثرَ من حرْصِه على نفسِه. والآيةُ تتحدَّث عن حُسن استقامةِ المسلمِ في علاقتِه بغيرِ المسلمِ الاستقامَةُ ما بينَ المُسلمِ، وهنا يثيْبه اللهُ بأنَّ يجعلَه حبيبَه.

الباب الثامن | أخذُ الحذرِ من الفاسِقين

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ٨

هذه الآيةُ الكريمةُ تحذّرُ المسلمَ بألاّ يُقابلَ الغدرَ بالغدرِ، لأنه عند ذاك سيكونُ مع الغادرَ سواءً في الغدر، ويكون الغادرُ قد نجحَ في استدراجِه إلى الغدرِ. فقد بيّنَت الآيةُ السابقةُ ما بدرَ من غيرِ المسلمينَ تجاه المسلمين، وأرشدتِ المسلمينَ إلى كيفيَّةِ التَّعاملِ معهُم كي يُحافِظوا على القِيَم الإسلامية. فكلّما استقامَ المسلمُ في علاقتهِ بغير المسلمينَ سواء أكانوا على وفاءٍ، أو كانوا على غدرٍ، كلّما حافظَ على قِيَمه الإسلاميَّة، وعلى إيجابيَّة شخصيَّته الإسلاميَّة. وبذاتِ الوقتِ يكون قد أدانَ سلوكَ عدمِ الوفاءِ في الآخرِ إذا بدرَ منهُ غدرٌ، وأثبتَ له في حالِ الوفاءِ أيضاً بأنَّه وفيٌّ. فيرى هذان الصنفان من غير المسلمين كيف أن المسلمَ استطاعَ أنْ يكونَ وفياً مع الغادرِ، ومع الوفي أيضاً من غيرأن يُستَدرَجَ إلى الغدرِ، لأنَّ قِيَمه الإسلاميَّةِ تنهاه عن ذلك.

فبعدَ كلِّ تلكَ الإرشادات الجميلةِ التي تلقّاها المسلمُ في الآيات السابقة، الآن: ﴿كَيۡفَ﴾. أتت هنا تعجبيَّة واستفهاميّة معاً، ويبدو التعجّبُ أولاً، ثم الاستفهام ثانياً. وهذه حالات نادرة تحصلُ، فالغالبُ أن الاستفهامَ يكون أولاً، ثم يليه التعجّبُ. والقرآن لا يحتوي على علامات، ولكن يمكن استنباطُ هذه العلامات من السِّياق القرآني. بعد ﴿كَيۡفَ﴾. جاءت: ﴿وَإِن﴾. وهي بمنزلة الضوءِ الأحمرِ الذي يشتعلُ وينطفئ، يشتعلُ وينطفئ، كإنذارٍ على وجودِ خطرٍ ما. وهذا الخطرُ تُفصحُ عنهُ العبارةُ التي تليها: ﴿يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾. وقد جاءَ الإنذارُ تنبيهياً دقيقاً، فعند تعامُلِكم الحَسَن مع الغادرين، كونوا على حذرٍ شديدٍ منهم، فقد يستغلُّون طيبَكُم، ويتمكَّنون منكم. فتقولوا: ربَّنا وفقَما وجّهتنا، فحصل لنا ما حصل من أذى.

الآن يبيِّن الله بأنَّ ذلك لم يكنْ كلَّ شيء، بل له تتمّة، وهذه التتمّةُ تكمنُ في الإنذار التنبيهيّ الدَّقيق بالاّ تجعلوهم: ﴿ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾.فيكون تعامُلكم الحَسَن معهم مبنياً على حَذَر، حتى لا تُصْبِحوا ضحايا لهذا التعامُلِ الحَسَن.. الآن يتبيَّن لك استواءَ الجملةِ القرآنيةِ متكاملةِ المعنى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾. ﴿ وَإِن﴾ اسْتِسْهلتمُوهم سوف ﴿ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾. فهذا سيكون ﴿ عَلَيْكُمْ﴾، وليسَ (لكم). فهمْ سيُصبحونَ آنذاك﴿ عَلَيْكُمْ﴾. وكلمةُ ﴿ يَظْهَرُواْ ﴾، الدَّقيقةُ هنا تتضحُ أكثرَ، فيكونوا على ظهورِكُم، ويتولّوا أمركم، فتُصبِحوا تحتَ إمرتهم وولايتِهم، وتكونوا أنتُم قد مكّنتموهُم من ذلك.

وعندها: ﴿ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. وكما لو أنَّ الآيةَ الكريمةَ نزلتْ للتّو في الواقعِ الذي نعيشُ فيه، فعندما يتنازلُ المسلمونَ لغيرهم، ويستجلبونهم إلى ديارهم، ظانّين بأنهم سيستقوونَ بهم على بعضهم بعضاً، عندها سيأتون ولكنهم: ﴿ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. و﴿ إِلًّا﴾ هنا يمكنُ أن يكونُ بمعنى الإيمانِ، فهؤلاء لا إيمانَ يردعُهُم عن الفتْكِ بِكم، ﴿ وَلَا ذِمَّةً﴾ تنهاهُم. والذي لا يكونُ مؤمناً باللهِ الذي في السَّماء، لاشيءَ في الأرضِ يمكنُ أن ينْهاه، فجاءَت ﴿ وَلَا ذِمَّةً﴾. أي﴿ وَلَا﴾عهْد. فلا يتعاملون معكُم وفقَ الإيمان، ولا وفقَ الوفاءِ بالعَهْدِ، ولذلك: ﴿ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. جاءت الجملةُ التاليةُ في كشْفِ المزيدِ عن ازدواجيَّتِهم: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾. عهودهُم لكُم هي عِبارة عن كلماتٍ يتفوّهُون بها كي ﴿يُرْضُونَكُم ﴾. وهي لا تتجاوَزُ أن تكونَ ألفاظاً شِفاهيَّة يتلفَّظونَ بها ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ كي يتمكّنوا منكُم أكثرَ فأكثَر. ﴿وَتَأْبَىٰ ﴾ تنكر ﴿قُلُوبُهُمْ ﴾ في ذات الوقتِ تلك الألفاظُ الشفاهيَّةُ التي يتلفّظونَها لكم ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾. فما في ﴿قُلُوبُهُمْ ﴾ هو نقيض ما يلفظونه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾. ثم اختِمَت الآية الكريمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. كلمة﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ تجعلُ بعضَ الاستثناءات، وأن التعميمَ في ذلك لا يجوز، فهناكَ مِن هؤلاءِ مَن يُدينون تصرّفاتِهم السلبيّةِ بحقِّكم، ولكنهُم قلّةٌ عدداً

وقوّةً، ولذلك تكونُ الإداناتُ فقط، من غير أن يتمكّنوا من منعِهم كونَهم الأكثرية عدداً وقوّةً. ولذلك استثناهُم الله سبحانَه وتعالى من وصف﴿فَٰسِقُونَ﴾. وهكذا فإن القرآنَ يلمُّ بكلِّ التَّفاصيل، ولا يتركُ شيئاً دونَ بَيان حتَّى يكونَ الأمرُ جلياً، ويكونَ الإنسان في بيّنةٍ من أمره.

الكلمةُ الأخيرة ﴿فَٰسِقُونَ﴾ من الآية الكريمة، تُحيلُنا إلى الكلمة الأولى﴿كَيۡفَ﴾ فيها، بعد أن حصلَ هذا الترابطُ في فحوى ﴿كَيۡفَ﴾. فعليكَ أن تستفهِمَ، ولا تأخذَ الأمرَ عامَّاً، وهناك استثناءاتٌ في كل زمانٍ ومكان، وفي كل مجتمعٍ من المجتمَعاتِ البشريّة. فحتى لو أتيتَ إلى أفسَق قريةٍ في الأرضِ، فلا بدّ أن ترى فيْها بعضَ الذين توجَدُ لديهم بذورُ الصَّلاحِ، ويستنكرونَ ما يحصلُ من فسوقٍ في تلك القرية. وهؤلاء يحتاجونَ إلى شيءٍ من التنميةِ والمؤازَرة حتَّى تزدهرُ بذورُ الصلاحِ لديْهم، فإيّاكم أن تُعاملوهُم أيضاً كما تُعاملونَ أهلَ الغدرِ، حتَّى لو كانُوا من نسيجِ هؤلاء، وفي ظهرانِيهم. فهؤلاء يرونَ الوجهَ الآخرَ لصلاحِ نفوسِهم فيكم، وستجدونَ الوجهَ الآخرَ لصلاحِ نفوسكُم فيهم. فلا تمزّقوا هذا الخيطَ الذي هو بينَكم وبينَهم مهما بدا رفيعاً، فهو يمكنُ بتآزركم أن يُصبحَ قويّاً وعصيّاً عن التمزيق. وليس هذا فحسب، فيمكن لهذا الخيطِ الرَّفيع أن يُصبحَ حَبلاً سميكاً بمؤازَرتكم، فيكون وسيلةً بينكم وبينهم تلتقون من خلاله، وكذلك من خلاله يتمكَّنُ هؤلاء من زرعِ بذورِ الصَّلاح في تلك القرية، ويصبحون من أئمة الصلاحِ ودعاتهم فيها.

الباب التاسع | شراء الدنيا بالدِين

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾

عندما تشتري سلعةً فإنكَ تدفعُ ثمنَها، ومن غير الدفعِ، لايكون الشِراءُ، فالعمليّةُ أنّك تدفعُ شيئاً لتحصلَ نظيره على شيءٍ آخر. وفي كلِّ زمانٍ ومكان ثمّة مَن يحوّلون الدِينَ إلى سلعةٍ يتداولونَها فيما بينهم. هذه الآيةُ الكريمة تثير هذه المسألةَ البالغَةَ الدقّةِ والحساسيّة: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. آياتُ الله هي آيات هِدايةٍ، ومن ثَمَّ لاثمن لها، وحتى لو بِيعَت بكلِّ ما في الأرضِ من ثرواتٍ، فإنَّ ذلكَ يكونُ ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. فلا شيءَ قَطّ أثمنُ من هذه الآيات، وهي أثمنُ من كلِّ ثَمينٍ.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. والآياتُ هي الدلائلُ الواردةُ في القرآن،فكم من أناسٍ يشترون ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. فهذا يدّعي بأنّه يَشفي المَرضى﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾. وذاك يدّعي بأنه يفكّ السِحرَ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾. ومَن يتمظهرُ بمظاهرَ تدينيّةٍ وهو يشتري ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. وَمَن يُنشئُ وسيلةَ إعلامٍ دينيّة حتى يشتري﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. ومنهم مَن يشنّونَ حروباً على الناسِ، وهم يرفعونَ راياتٍ دينيّة، فيشترون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. ومَن يستحلّونَ أموالَ النَّاسِ وأعراضِهم بذرائعَ دينيّةٍ،فيشترون ﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. فهؤلاء من خلال ذلك يستخدمونَ هذه الآيات ويُردِّدونَها، وبذلك فإنَّهم يكونون قد ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾. تحوّلوا إلى نُشَطاء كي يصدّوا المؤمنينَ عن الدِين فـ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ الغدرَ بالوفاء، ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ البخسَ بـــــالثمينِ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾البقرة١٦. الخسارة هنا تكونُ فادحةً، ولذلك: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾.

عن أنسٍ بن مالكٍ عن النبي (صلى الله عليه وسلم): "من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ، وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ ،وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ"[1].

وعن عمار بن ياسر عن النبي (صلى الله عليه وسلم): "مَن كان له وَجهانِ في الدُّنيا، كان له يومَ القِيامةِ لسانانِ مِن نارٍ"[2].

فنحنُ الآن في أجواءِ توافدِ الناسِ وهم ﴿ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾النصر٢. وفي أجواءِ فتحِ مكةَ، وقيامِ أركانِ الدولةِ الإسلاميَّةِ الفتيةِ. الصدّ هنا بمعنى أنَّ ذلك لم يرقْ للبعض، فصاروا يسعونَ إلى منع الناسِ من هذا الإقبالِ على الإسلام. ﴿إِنَّهُمۡ ﴾- الأشخاصُ الذين فعلوا ذلك، والذينَ يحذونَ حذوَهُم في كل زمانٍ ومكان-: ﴿سَآءَ﴾ بئس ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾. فمَهما بلغوا من منافعَ دنيويَّة، فهي منافعُ بائسةٌ، ولا تتحسَّنُ بها حياتهم، بل تسوء. وإذا نظرتَ إلى هؤلاء سترى هذه الحقيقةَ جليّةً، فهم ينتهون إلى السوءِ والبؤس. تبيِّن الآيةُ الكريمةُ في نهايتها: ﴿إِنَّهُمۡ ﴾ بذلك ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾. يتوهّمون النفْع، وهو في واقعه ضَرٌ يُصيبهم، يتوهّمون أنهم يُحسّنون حياتَهم، والواقع أنهم يسيِّؤونها، فتنتهي بهم إلى سوء.

---

1 أخرجه الترمذي

2 أخرجه أبو داود

الباب العاشر | منهجُ الاعتداء

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ ⑩

تقدّم معنا في الآية ما قبل السّابقة: ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. والآن: ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. وهذا يشيرُ إلى أن هؤلاء لا يُعادونكم لأشخاصِكُم، بل لإيمانِكُم، فهؤلاء لو ذهَبوا إلى بقاعٍ أخرى مهما كانتْ بعيدةً عنكم، ورأوا أشخاصاً يؤمنونَ بِما تؤمنون به، لكنّوا لهم ذاتَ العداء.

إذن، في السابقِ ومع بدايات نشرِ الدعوةِ التي انطلقتْ منكم،، أنتم حملتُم رايتَها، كانوا: ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. والآن وقد اتَّسَعَت رقعةُ الدعوةِ وأصبَحت لها شعبيّةٌ واسعةٌ، فهم أيضاً يوسّعون رقعةَ عدائهم، فـ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾. لمجرَّد ﴿ مُؤْمِنٍ﴾ فقط: ﴿ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. وهذا يُخرج الصراع من محلّيّته بكون الدعوة خرجت من محلّيّتِها وفق أمرِ الله الذي أرسلَ رسولَه: ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾الأنبياء ١٠٧. وأمَرَ المسلمينَ أن يُبشّروا بالدعوةِ في رحابِ العالم بشكلٍ سِلمي: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾النحل١٢٥. ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾فصلت٣٤. ولا جوازَ للإكراه بأي حالٍ من الأحوال﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ البقرة٢٥٦. إذن، أهل العِناد الشديد هم الذين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.

ولا يجوز للمسلمينَ أن يبيحُوا لأنفسِهِم فيكونُوا مثلهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي ﴾ غيرهم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. لكن الواقعَ فإنَّ بعضَ المسلمينَ ليس ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي ﴾ غيرهم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. بل ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ ﴿فِي ﴾ المسلمين ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾. فاعلمْ بأنَّ ذلك لايجوزُ حتى مع غير المسلم، فكيف به مع المسلمِ، مهما ادّعى الفاعلُ بأنهُ مسلمٌ، ومهما تمظهرَ

بمظاهرِ الإسلام. وهو بذلك يكون قد اشترى﴿ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾. ويكون قد صدّ ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾. وهذا ما يحصلُ حيث ينتجُ عن ذلك أن بعضَ الناسِ يتّخذون مواقفَ سلبيّةً من الدِين، أو يعلنون إلحادَهم. الآية الكريمة هنا تنبه بأن هؤلاء ليس بالضرورة أن يكونون أعداءً علنيين لكم، بل قد يكونون أعداءً خفيين، ويعيشون في ظهرانيكم بحكمِ أنهم ابناءُ أو أحفادُ المسلمين، وهم يتزيّون بزيِّ الإسلام، ويكونونَ من المقرَّبين لكم، لكنَّهم يحمِلون الغلّ تّجاه صدق إيمانكم، فاحذروا أن يطعنوكُم في الظهر، ويتسبّبوا في إلحادِ ابنائكم، وصدّهم عن الدِين. والحذر هنا هو بيان حقيقة الدِين، ونشرُ هذه الحقيقة ما أمكن في الناس، وأنَّ هؤلاء لهم مآرب شخصية فيُقحمونَ الدِينَ عليها حتى يستدرجُوا الناسَ لمؤازرتهم والتعاطفِ معهم، ومن خلال ذلك يحقّقوا تلك المآرب.

وعلى هذا النحو يتكامَلُ سياقُ المضمونِ مع الآيةِ ما قبل السابقة: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾. في حالِ تمكّنهم منكم: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ ولذلك حذَر اللهُ جلّ شأنه، المؤمنينَ من هؤلاء في ذات الآية: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾. فما على ألسنتِهم كلامٌ معسولٌ، وما في قلوبهم نقيض ذلك. فيتبيَّن بأن اللهَ سبحانه وتعالى لايتركُ عبادَه في غفلةٍ، بل يُكرمُهم بنوره. فالمؤمنُ عندما ينظر إلى شخصٍ ما، يمكنُ أن تبلغَه بعضُ الإشارات الذي لا تبلغ غيره، وذلك وفق درجات ومراتبِ إيمانه.

كمْ مرَّةً كنتَ تريدُ أنْ تطلبَ شيئاً من شخصٍ، لكن نظرَكَ إلى عينيه هو الذي شجَّعَك أن تقدِمَ إلى ماتريد، أو تتراجعَ قبل أن تلفظَ حرفاً واحد اً، وكأنك ولجتَ موضعاً عن طريق خطأ.

كم من العيونِ باحَتْ لك بأسْرار؟، نظراتٌ علّقَت في أرشيفِ ذاكرتِك ليس بوسعك نسيانَها، نظرات لاتملكُ قوةَ نفوذِ البقاءِ لحظةً واحدةً، أشخاصٌ لاتتذكرُ منهم إلا نظراتِهم.

ويمكنُ أن تبلغَ المؤمنَ بعضُ الإشارات من خلال الصَّوت فقط، دون أن يرى الشخص رأي العَين، فعندما يسمع صوته سواء في الهاتف، أو في تسجيل، تبلغه إشارات ما من خلال نبرات الصوت، فلا يطمئن له مهما كان الكلام الذي يسمعه جيداً. وعند ذاك، مهما سعى ذاك الشخص إلى إرضائه كي يوافق على أمرٍ ما، فتراه يتردَّد رغم أنه لم يره رأي العَين

قط. فهذه من حصانةِ اللهِ لعِبادهِ المؤمنين. ويمكنُ أنْ يكونَ أيضاً من خلالِ نبراتِ الصَّوت، فتظهرُ على نبراتِ صوتِه علاماتٌ مِمّا ارتكبَ من أفعالٍ، وبعضهم يمكنُ أن تَصلَه إشاراتٌ من خلال تلك النبرات.

هذه هي ثقافةُ القرآن التي تجعلُ المؤمنَ في بيّنةٍ من أمرهِ، فيعلمُ الرشدَ من الغيِّ، وبذلك لا يمكنُ استدراجَه من قِبَل أولئك الذين يُقحمُون الشعاراتِ الدينيَّةَ على مآربِهم، لأنه يكون قد تحصَّن حصانةً سليمةً بالقرآن. فحتى النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما اجتهَدَ من غير وحي، وأخفى في نفسه شيئاً، لم يدعْه اللهُ سبحانَه وتعالى في ذلك، بل بيَّن له هذه الحقيقة التي مفادُها أن اللهَ يُطلع بعضَ المؤمنين على شيءٍ من الغيبِ من خلال علاماتٍ ما: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾الأحزاب٣٧. وقد بيَّن اللهُ عزَّ وجل في الآية بأنه هو الذي تولّى أمرَ زواجه من زينب (رضي الله عنها)، وهي أم المؤمنين الوحيدةُ التي حظيت بهذا التَّكريم الإلهي الاستثنائي: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ نحنُ تولّينا أمرَ زواجِك منه و ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. لماذا؟ لأنَّ المؤمنين وجَدوا حَرَجاً في الزواج من ﴿أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ المُطلّقات. فما وجَدَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) نفسه فيه وبسببِ ذلك أخفاه، يمكنُ للصَّحابة أيضاً أن يواجِهوا ذلك. فمادام هو لا يفعلُ، فهم أيضاً لايفعلون. فرفَعَ اللهُ هذا الحرجَ ليس بشكلٍ خاصٍ للرسول وزينب فقط، كحالة استثنائية، بل لجميع الرجل والنساء معاً: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ﴾. ثم انتهت الآيةُ بأمرِهِ الحاسِمِ في هذه الحالة: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. أي يتحوَّل إلى فعلٍ فيكم دونَ حَرَج.

أجرينا هذا التقارنَ القرآنيَّ حتى نبيِّنَ أنه حتى رأسَ المسلمين وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم)عندما يُخفي شيئاً في نفسه، فإن الله يُبديه. وبذلك فمهما أراد الإنسان أن يُخفي الحقيقة، فإن الله يُبديها، ولكن ليسَ كلُّ الناس يمكن أن تبلغهم هذه العلامات، بل أناسٌ حَباهم الله، دون غيرهم.

ودوماً فإن العودةَ إلى أسبابِ النزول، وزمنِ النزول، ضروريّة للغاية، فنحنُ مع تشكيل شخصيّة الإنسانِ المسلمِ، وهي شخصيّةٌ جديدةٌ تماماً، كونها قائمة على أسسٍ قرآنيةٍ. والقرآن بدأ في النُّزول منذ عدّة سنوات، وما يزالُ طورُ النزولِ ونحنُ في ذروة هذه الأحداث، وما تزالُ الآياتُ ترسّخ القِيَم القرآنيةَ الجديدةَ في شخصيةِ الإنسانِ المسلمِ من خلالِ شخصيةِ رسولِ الإسلامِ، سواء في علاقاتِه العامةِ، أو حتَّى في تفاصيلِ حياتِه الشديدةِ الخصوصية.

على هذا النحو، يكونُ الأساسُ السليمُ لأجيالٍ إسلاميةٍ ناضجةٍ في كل زمانٍ ومكان، ومن هذا المنطَلَق يكونُ المسلمُ قد تخلَّصَ من أشكالِ وعواقبِ الازدواجية، فيكون طبيعياً، ويقطفُ زهوَ الحياة الطبيعيةِ التي يعيشها. فأحياناً تكون على خطأ، وشخصُ مقرَّبٌ منك يعلمُ هذا الخطأ، لكنه لا يُحذّرك منه، بل على العكس، قد يثْني عليك، وفي قرارةِ نفسه يدينُك. فما الذي تأمله من هكذا شخص، وهو يؤذيك بفعلِه هذا، وأنتَ تشجّعه على ذلك، بل وتمنعُه من انتقادِك أو تحذيرك في خطأ ما. ويحصل هذا أحياناً لأنَّ الطرفَ الآخرَ يكونُ شديدَ التَّعالي، ولا يقبل بأن يُقال له: لستَ على صواب. وعندها قد تبدرُ منه ردّةُ فعلٍ عنيفةٍ غير متوقّعة تّجاهكَ، ويكون ذلك على أساسِ احتمالَين، أحدهُما أنه على درايةٍ بالخطأ، لكنَّه ينتفع من استمرارِه فيه، ويعتقدُ بأنك تريدُ أن تحرمَه مِمّا يُصيبُه من نفعٍ جراءَ استمرارِه في ذاك الخطأ الفادح، ولذلك يجمع حولَه المُزدَوَجين النفعيين أمثاله، الذين يؤيّدونه نظيرَ ما يتلقّون منه من نفعٍ، وهم يعلمونَ جيداً بأنه على خطأ، ولا يواجهُونه به، لأنهُم يعلموا أن عاقبةَ المواجهة لا تكون محمودةً.

ونحن في رحابة هذه التفرّعات ما نزال في أجواء ما تنيرنا به آيتنا القصيرة المكتنزة المعاني والدلالات، فهؤلاء النفعيون: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾.

إذن، والاحتمالُ الثاني، أنَّه لا يعلمُ بأنه على خطأ، ولا يجدُ مَن ينبّهه، وعندما يجدُ الذين حولَه يخفونَ عنهُ الحقيقةَ، بل ويثنونَ عليه نظيرَ ما ينتفعون منه، وأنه لو انتبَه، سوف يستقيم، ومن ثمَّ سيتوقَّف عنهم النفع. ولذلك يأتون له ببعض الأمثلة التي لا تكونُ في موضعها، أو حتى يجتزؤون بعضَ الآيات القرآنية من سياقِها، أو بعض جملٍ مُجتَزأة من أحاديث نبوية، ليكون ظاهرُ الجملة المُجتَزَأة عن سياقها، مُتوافِقاً مع انحرافِ هذا الشخصِ

الذي ينتفعونَ منه ما لبث في انحراف. فهؤلاء أيضاً: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾. فالآية الكريمة تُرشد المُسلمَ كي يرقبَ مع المسلمِ ومع غير المسلمِ الإلّ والذمة، أي يكون أهل إيمان، وأهل ذمة، والذمةُ هنا هي قريبةٌ من الضميرِ، أي يكون ضميرَه يقظاً في تعاملِه مع سائر الناس.

وهنا وقد أشرفنا على نهايات هذه الآية الكريمة، نستخلصُ بأن الإنسانَ مهما كان موقعُه، فإنه إن أرادَ أن يعلمَ الحقيقةَ، فعليه أن يصْغي إلى منتقدِيه، كما يصغي إلى مؤيّديه، فلعلّ المنتقدَ صادقٌ في انتقاده لك، ولعلّ المؤيّدَ منافقٌ في تأييده لك حتى يُبقيك على الخطأ، لأن ذلكَ يردُّ عليه نفعاً. ولذلك جاءت خاتمةُ الآية مبيّنةً معادن هؤلاء الحقيقيّة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾. فاعلموا بأنَّ هؤلاء يعتدونَ عليكم مهما أسمعُوكم من عبارات التأييدِ والثناء، فهُم من خلال ذلك يجدونَ منفذاً كي يعتدوا عليكم. ودوماً فإن هذه الآيةَ مُستكملةٌ للآية٨: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾. فالحذر أن تجعلوهُم يتمكّنون منكُم، ويؤثّرونَ على قراراتكم، وتستطيبون الاستماع إليهم، وهم في حقيقةِ الأمرِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

الباب الحادي عشر | حُسنُ الظنِّ في صلاحِ الآخر

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾

مهما كانَ الآخرُ شديدَ الكُفرِ، وشديدَ الظُّلمِ، فإن بابَ التوبةِ يبقى مفتوحاً أمامَه في أي مرحلةٍ من مراحلِ عمره، وأنه يمكنُ أن يتوبَ ويكونَ صالحاً. فلا تفقُد الأملَ في صلاحِه، والأولويّةُ تكونُ في الأملِ بصلاحه، لكن بشرطٍ دقيق جداً كما بيَّنَت الآيةُ السَّابقةُ، ألاّ تجعلَه يتمكَّنُ منك، وألاّ تجعلَ مفاتيحَ قراراتِك في يده. فإذن الأشخاصُ الذين كانوا في الآية السابقة، وقبلِها في الآية٨، إذا كشفتَ أمرَهم، لاتكن معهُم عنيفاً، بل لا تقطعْ علاقَتَك بهِم، وكُن مُسالِماً معهم حتى لا تُصبحَ في ذات الموضعِ الذي كانوا همْ فيه معك. وبذلك فلا تُثني على ما هم فيه، ولا تؤيّدهُم، بل تتحدَّثُ لهم عن منافعِ الاستقامةِ بالكلمةِ الطيّبةِ. تبيِّنُ لهم بأن الإنسانَ يمكنُ له أن يُخطئ في أية مرحلةٍ من مراحلِ عمره، لكن يمكنُ له أن ينتبِهَ ويتراجعَ، ويتوبَ إلى الله، وأن اللهَ يتقبَّل التوبةَ من الإنسانِ مهما أسرفَ على نفسه. والقنوطُ من رحمةِ الله، لايكونُ صواباً مهما كانتِ الذنوبُ كبيرةً: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾الزمر٥٣.

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بـ: ﴿فَإِن﴾. وهي كلمةٌ سلميّةٌ تشيرُ وتؤكّدُ بأن احتمالَ الصَّلاحِ واردٌ، وغير مُستبَعَد: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾. بمعنى ممكنٌ لهم أن يَتوبوا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. وممكنٌ لهم أن يُقيموا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأن يُؤتوا ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهمْ الذين كانُوا ناكرينَ لهما. فالتوبةُ تُصلحُ الإنسانَ وتغسلهُ من ذنوبِه حتى لو كانت كزَبَدِ البحرِ، وعندها: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. جاءت كلمةُ الأخوّةِ لتُعبِّرَ عن مدى التقاربِ، أي تكونونَ ضمنَ عائلةٍ واحدةٍ هي عائلةُ الدِّين، وتجمعُ بينَكم رابطةُ أخوّةِ الدين. ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. كلُّ هذه التفاصيلِ الدقيقةِ التي تدخل صلبَ وقائعِ حياتِكم اليوميَّةِ، ينتفعُ بها الذين يتدبّرونَها، ويعلمون من خلالها ما لم يكونوا يعلمون من قبل.

الباب الثاني عشر | الحذر من الانجرار إلى العنف

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ ١٢

هذهِ هي رحمةُ اللهِ التي وسعَت كلَّ شيءٍ، ودوماً يبقى أملُ الإنسانِ معقوداً على سعةِ شموليّةِ هذه الرحمة التي مهما تخيّلَها الإنسانُ، فإنه لا يبلغُ إلاّ النُّـزُرَ اليسيرَ منها، ولذلك فإنَّ ما لايعلمُه عن هذه الرحمةِ، يفوقُ بكثيرٍ عمّا يعلمُه.

في هذه الآيةِ الكريمةِ، يوجّه الله تعالى شأنَه، إلى أهميّة التمسّكِ بأواصرِ الأخوّة الإنسانيةِ الواحدةِ بين سائرِ عبادهِ من غير أي استثناء بمختلفِ مشاربِهم ومآربِهم، بمختلفِ معتقداتِهم مهما كانت متناقضةً مع بعضِها بعضاً. فالأولويّةُ أنَّ هذا إنسانٌ مثلَك، كما أنتَ إنسانٌ مثلَه، سواءٌ أكنتَ مؤمناً تُريد أن تؤذي كافراً لكفرِه، أم كنتَ كافراً تُريدُ أن تؤذي مؤمناً لإيمانه.

وأنكَ لا تستطيعُ أن تُمارسَ خِصالَ ومزايا إنسانيّتك إلاّ بمقدارِ ما تتقدَّمُ في درجات مشاعرِ الأخوّة الإنسانية تّجاه الناسِ جميعاً، ودون ذلكَ فإنَّكَ سوفَ تعيشُ محروماً من الاستمتاعِ بممارسةِ خِصالٍ ومزايا إنسانيّتك، ومحروماً من دفءِ مشاعر الانتماءِ إلى العائلةِ الإنسانيّة، وتلبثُ تعاني صقيعَ وحشةِ الاغترابِ حتى لو كنتَ وسط عائلتِك الصغيرةِ، ودوماً توخِزُكَ أشواكُ اللا انتماء فتلبثُ مضطرباً كما لو أنَّك تركضُ حتى لوكنتَ مستلقياً في فراشكَ. وما ذلك إلاّ لأنكَ أنتَ الذي قمتَ بتجريدِ نفسِك من هذا الانتماءِ الطَّبيعي الجميلِ إلى العائلةِ الإنسانيّةِ. ولذلك فإنَّ الإنسانَ الذي يبيحُ له أن يعتدي على أيِّ إنسانٍ، فإنه لا يكونُ له ذلك قبل أن يُجرّدَ نفسَه من مشاعرِ الأخوّة الإنسانية، وعندها، لا يتردّدُ بالاعتداء حتَّى على أقرب الناس إليه، لأنَّ الناسَ جميعاً بالنسبةِ إليه أصبحوا سيَّاناً. فعلى قدرِ ما تشعر بانتمائِكَ إلى العائلة الإنسانيةِ الكبيرة، تشعرُ بالانتماءِ إلى عائلتكَ الصغيرةِ، وعلى قدرِ ما تشعرُ بالانتماء إلى عائلتِكَ الصَّغيرةِ، تشعرُ بالانتماءِ إلى العائلةِ الإنسانيةِ الكبيرة.

تُنبّه الآيةُ الكريمةُ الإنسانَ المسلمَ أنّه قبلَ قدومِه بالاعتداء على أيِّ شخصٍ، مهما كان شكلُ هذا الاعتداء، أو حتى يُحرّض للاعتداءِ عليه، فإنَّ له أمّاً، وله أخوة، وأخوات، وقد تكون له زوجةٌ، وأبناء ينتظرونَ عودتَه إلى البيت. وأنَّ هؤلاء جميعاً سيُفجَعونَ بهذا الاعتداءِ عليه. أن يضعَ كلَّ هؤلاءِ نصبَ عينَيه قبل أن يُبيحَ لنفسِه هذا الاعتداء، أو يُحرّضَ غيرَهُ عليه.

فاللهُ عزَّ وجَلَّ لم يخلقِ الناسَ ليقتتلوا فيما بينَ بعضِهم بعضاً، بل ليتسامَحوا مع بعضهم بعضاً، ليتحابُّوا، ليتكاتَفوا، ليستمتِعوا بدفءِ القُربِ من بعضهم بعضاً، لا أن ينفُروا من بعضهم بعضاً، ويعيشوا في صقيعِ المشاعرِ الإنسانيةِ تجاهَ بعضهم بعضاً، وكلّما كان المسلمُ عفوّاً، كان أقربَ للتَّقوى. وأن القتلَ جريمةٌ مروعَةٌ تُحيلُ مُرتكبَها إلى مُجرمٍ، وما الذي يتبقّى في الإنسان من خِصالٍ إنسانيّةٍ إذا أمسى مُجرماً. من هذا المُنطَلَق يتبيَّن لنا كم أنَّ الفتاوى التي تُحرّض على القتل، تُبعدُنا عن القرآن، بل وتُفصلنا عن تعاليمِه تماماً، ولا يمكن أن ترتَقي هذه الفتاوى إلى درجةِ التقديسِ، لأنها ليسَت دِيناً، بل هي محضُ تصوّراتٍ، ووجهاتِ نظرٍ شخصيّة تُصوّرها، أو اجتهدَ بها أناسٌ في أحسنِ الأحوال، وهي ليسَت وحْياً، حتَّى وإن كانَ المُفتي علّامةً في علمه. والأمرُ الآخر أنَّ هذه الفَتاوى يمكنُ لها أنْ تتعرَّضَ للتحريفِ؛ لأنَّنا لم نكنْ في عهدِ الطِّباعة، وأنَّ الأشخاصَ الذين ينسَخون يمكن أن تحصلَ معهُم بعضُ الأخطاء، أو يكونَ هناكَ دسٌ مقصودٌ لغايةٍ ما، وفي وقتٍ ما. والذي يُحرّف الكِتابَ المُنزَل التوراة، أو الإنجيل، هل يعجزُ عن تحريفِ فتوى في إحدى كُتب الناس. فلا شيءَ يضمنُ بأن هذه الفتاوى مُحصَّنةٌ عن التحريفِ. وما هو محصّن فقط القرآنُ وفق الضمانة الإلهية بذلك: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر٩.

فإذا نظرْنا إلى كثيرٍ من فتاوى ابن تيمية على سبيل المثال، نراها تحريضيّة بامتياز على القتل، فهي تجعلُ من المسلمِ قاتلاً، أو مقتولاً.

ومن ذلك: (الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْجَهْرُ بِلَفْظِ النِّيَّةِ لَيْسَ مَشْرُوعًا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فَعَلَهُ أَحَدٌ مِنْ خُلَفَائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَمَنْ ادَّعَى أَنَّ ذَلِكَ دِينُ اللَّهِ وَأَنَّهُ وَاجِبٌ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَعْرِيفُهُ الشَّرِيعَةَ وَاسْتِتَابَتُهُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى ذَلِكَ قُتِلَ بَلْ النِّيَّةُ الْوَاجِبَةُ فِي الْعِبَادَاتِ كَالْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالصَّلَاةِ

وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)، (ومن قال: إنه يجب على كل مسافر أن يصلي أربعاً فهو بمنزلة من قال: إنه يجب على المسافر أن يصوم شهر رمضان، وكلاهما ضلال، مخالف لإجماع المسلمين، يستتاب قائله، فإن تاب وإلا قتل).

(من جحدَ حلَّ بعض المباحات الظاهرةِ المتواترةِ كالخبزِ واللحْمِ والنكاحِ، فهو كافرٌ مرتد يستتاب فإن تابَ وإلاّ قُتل). (من قال: إن الفطرَ لا يجوز إلا لمن عجزَ عن الصيام فإنه يستتابُ، فإنْ تابَ وإلا قتل). (مسألةٌ: في رجلٍ قال: إن اللهَ لم يكلمْ موسى تكليما. وإنما خلقَ الكلامَ والصوتَ في الشجرة، وموسى – عليه السلام – سمعَ من الشجرة، لا منَ الله، وإن اللهَ عز وجل لم يكلمْ جبريلَ بالقرآن، وإنما أخذَه من اللوحِ المحفوظِ، فهل هو على الصّواب أم لا؟ الجواب: الحمدُ لله، ليس هذا الصوابُ، بل هو ضالٌّ مفترٌ كاذبٌ باتِّفاقِ الأمَّةِ وأئمَّتها. بل هو كافر يجب أن يستتابَ، فإن تابَ وإلا قتل).

(من قال: إنَّ مَن سَلِم في الرباعية من ركعتين ساهِيا استوجَب غضبَ اللهِ، وأقلّ ما يجبُ عليه أن ينزلَ عليه نارٌ من السماءِ وتحرقُه، يستتابُ من ذلك القولِ، فإنْ تابَ وإلا قتل).

(والوقوفُ بعرفاتٍ لا يكونُ قطُّ مشروعًا إلاّ في الحَجِّ باتفاق المسلمين، في وقتٍ معين على وجهٍ معين، فمن قال: أَقِفُ ولستُ بحاجّ فقد خرجَ عن شريعة المسلمين، بل إن اعتقد ذلك دينا لله مستحبًّا فإنّه يُستتابُ، فإن تابَ وإلاّ قُتِلَ. وإن قال: ليس بدينٍ لله ولا هو مستحب، قيل له: إنما فعلتَ على وجهِ التديُّن والتعبد به، وهذا لا يجوز. وإن كنتَ فعلتَه على سبيل التنزه والتفرُّج فهذا شَرٌّ وشَرٌّ). (التزيُّن يومَ عيد النصارى من المنكرات، وصنعةُ الطعامِ الزّائدِ عن العادَة، وتكحيل الصبيان، وتحميرِ الدوابِّ، والشجرِ بالمغرة وغيرها، وعمل الولائِم وجمعِ الناس على الطعام في عيدهم. ومن فعلَ هذه الأمورَ يتقربُ بها إلى الله تعالى راجيًا بركتَها فإنه يُستتاب، فإن تابَ وإلاّ قُتِل). (لو سُئِلَ العالمُ عمَّن يعدو بين جبلَين: هل يُباحُ له ذلك؟ قال: نعم. فإذا قيلَ: إنَّه على وجْه العبادةِ كما يَسعى بين الصَّفا والمَروة. قال: إن فعلَه على هذا الوجهِ حرامٌ منكرٌ، يستَتاب فاعلُه، فإن تابَ وإلا قُتل). (من لم **يقلْ إنَّ اللهَ فوق** سمواتِه على عرشه، فإنّه يُستتاب فإن تاب وإلاّ قُتل). (من جهرَ بالنيَّةِ في الصلاة وأصرَّ عليها، يُستتابُ فإنْ تابَ وإلاّ قُتِلَ).

الآية الكريمة التي نحن بصدِدها دقيقةً جداً، وهذا هو الحذر الشديد الذي يكون في القرآن الكريم، عندما يكونُ الحديثُ عن القتل، ذلك أن غالبيةَ القرآن، دعوةٌ إلى الحياة، إلى التسامحِ، إلى الأخوّة الإنسانيّة. والتعدّديّة في حريّة المُعتَقَد مكفولة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾البقرة٢٥٦. فلا أحدَ يجوزُ له أن يُكرِهَ أحداً على اعتناقِ مُعتَقَده، ومن ثَمَّ فإن الإكراهَ لا يكون إيماناً مهما تلفَّظ الإنسانُ المُكرَه من ألفاظِ الإيمان، أو أدّى شعائرَ الإيمان مكرَهاً: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾يونس٩٩. بل أنْ يكونَ التعاونُ بين أصحابِ المُعتقداتِ المُختلفة، وأن يكونَ المسلمُ على علاقَةٍ تواصليّة جيدة معهم: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾الممتحنة٨.

فالآيةُ تتحدَّثُ عن الذين يتمادونَ على مُعتقداتِ بعضِهم بَعضاً، وإذا نظرْنا إلى عموم القرآن، نرى بأنَّ الآخرين هم الذين يستخدمونَ القوّة لثنْي المسلمين عن معتقدهم، ومنعِهم من أداء عبادتِهم، وأنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يُحذّر المسلمينَ من الانجرارِ إلى ساحاتِ القِتال، وتكونُ الأولويّةُ لمائدةِ الحوار، وإذا لم يرتدّ الآخرون، فيكتفون بصدّ العُدوان عنْهم، فدوماً ترى بأن القُرآن الكريمَ، يحضّ المسلمينَ على ضبطِ النَّفس تِجاه هؤلاء ما أمكن، وألاّ يمدّوا أيديهم إلى السلاحِ إلاّ إذا وقع الهجومُ عليهم في ديارِهم.

أمامَ هذه الحقيقةِ القرآنية، نرى أن بعضَ الفتاوى تُحرّض المسلمينَ الآمنينَ، وتؤجّجهم على بعضهم بعضاً، من جهة، ومن جهةٍ أخرى، تُحرّضهم وتؤجّجهم ليذهبوا إلى بلاد غير المسلمين ويفتُكوا بغير المسلمين الآمنينَ في ديارهم، فيكونُ ردّ فعلِ هؤلاء أن يعتقِلوا مَن يتمكَّنون منهم، ويقدِّمونهم إلى المحاكم. ثم إنَّ بعض هذه الدول ومع تصاعدِ هذه الهجمات من المسلمينَ عليهم في ديارهم، أرادوا أن يفتعِلوا ما يجعلُ المسلمينَ ينشغلون فيما بين بعضهم بعضاً ليكفّوا هذه الاعتداءات على غيرهم. وقد حصلَ ذلك حيثُ تدخّلوا ووجّهوا المسلمينَ لقتال بعضِهم بعضاً، واستجاب لهم بعض المسلمين، فبدأت دولٌ

إسلامية تُقاتل دولاً إسلاميّة سواء بشكلٍ مُباشَرٍ أوغير مُباشَرٍ من خلال تقديمِ الدَّعم لإحداها على الأخرى، أو لجماعةٍ إسلاميةٍ ضد جماعةٍ إسلامية أخرى في تلك الدولة.

وذلك من خلال انفصالٍ عن القرآن والسنّة، واتّباعِ بعض الفتاوى التي غدت تنشُطُ وتتمخَّضُ في ساحات القِتال. فنرى حجمَ الازدواجية التي يعيشُها هؤلاء، والتي تظهر حتى على سِماتهم، حيث تفتقدُ نور الإيمان، وتحتقن بظلمة الحقد.

لذلك نرى الدقةَ البالغةَ في الآية: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾. فهؤلاء الذين يذهبُ المسلمون إلى ديارِهم والاعتداءِ عليهم، لا عهودَ بينَهم وبين المسلمين، ولم يـ ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ معهم، بل إنهم يُكرمونهم ويستقبلونهم كلاجئين، ويمنحونهم الجنسيّات والاقامات والامتيازات، ولكنهم يخونون الثقةَ التي تُمنَح لهم من غير المسلمين، ويغدرون بهم، فيطعنونهم في الظَهر، ويقتلونَ نساءهم، وأطفالهم، وشيوخهم بأكثر أشكالِ الاعتداءِ عنفاً، مثل أن يستولوا على طائرةٍ مدنيةٍ بكامل ركابها المدنيين من مسلمين وغير مسلمين، ويجعلوها تصطدمُ بأبنية يعمل فيها مدنيون، فيتسبّبوا في قتل آلاف الأبرياء، إضافة أنهم يقتلون أنفسَهم، وما إلى ذلك من أشكال الغدر التي يمارسونها على مَن استقبلوهم، وأكرَموهم، وعلّموا أطفالهم، وحقّقوا لهم الأمنَ والضمانَ الصحيَّ، والسكنَ، والرواتب، وحريةَ الرأي، وحريةَ التنقل، مثل أن يطعنوا أشخاصاً في بعض الأزقة، أو يدهسوا أشخصاً بالسيارات في بعض التجمّعات، أو يرهنوا بعض المدنيين، أو يُفخّخوا بعض السكك الحديدية، أو القطارات. وهم في ذروة نقضهم بالعَهد الذي عاهدوا به تلك الدول بالحفاظِ على الأمن والقانون.

فهذه هي الآيات التي يرد فيها القِتال وهي قليلة وفي حالاتٍ استثنائية، وهذه الآية تحمل في طياتها الفسحةَ حتى من خلال الكلمة الأولى فيها: ﴿وَإِن﴾. في حال حصل ذلك و: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾. فنحنُ أمام عهدٍ بين هؤلاء وبين المسلمينَ بعدم اعتداء أحدهِما على الآخر، لكن: ﴿وَإِن﴾ حصلَ الغدرُ منهم و﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ بمضمون هذا العهد الذي عاهدوه معكم. وليس هذا فحسب، بل تمادوا أكثر: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾. صاروا يسيئون إلى مقدّساتكم، ويضطهدونكم في عباداتكم. وإذا نظرنا إلى الواقع، نرى بأن الغرب

غير المسلم، لا يمنع المسلمين في تلك الديار من الصلاة، أو الصيام، أو الزكاة، أو حتى بناء المساجد في تلك الديار غير الإسلامية ولم يمنعوا أحداً من مواطنيهم إذا أراد أن يخرجَ عن معتقده ليعتنقَ الاسلامَ، وبل ويُصبحَ من دعاةِ الاسلام في تلك المجتمعات. فالقتالُ يكونُ وفق الآيةِ في هذه الحالةِ الحرجةِ الشديدةِ الخصوصيّة: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾. وكلُّ ذلك ليسَ بكونِكم تعيشونَ في ظهرانيهم كلاجئين وكلائذين بهم من بعضكم بعضاً، بل إن أتوا إلى دياركم وأساؤوا إلى مقدّساتكم، وهدمُوا مساجدكم، وأحرقوا مصاحفَكم. عندها لا تقفوا مكتوفي الأيدي، ورغم ذلك يكون الأمرُ بالغَ الدقة عندما تمتدّ يد المسلم إلى السلاح. قال تعالى ذكره: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾. والكلمة دقيقة جداً، ليس: (فاقتلوا)، بل: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾. صدّوهم بالسّلاح نظير السلاح ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾. ليس المدنيين، ولا النساء والشيوخ والأطفال، بل بشكلٍ مركّزٍ: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾. فقط العسكريين الذين يحملونَ الأسلحةَ بشكلٍ مباشرٍ وقد اقتحموا عليكم ديارَكم: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾. أثبتوا بأنهم لا يحفظونَ العهدَ الذي عاهدوه معَكم، وقد غدروا بكم. لكن لماذا جاء ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾. دون (فاقتلوا). الإجابة تكمن هاهنا في نهاية الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾. يتراجعُون عنكم، و ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ من خلال صدّكم لهم ﴿يَنتَهُونَ﴾ من كل ما يلحقونه بكم من أذى. عندها انتهوا أنتم أيضاً، ولا تلحقوا بهم إلى بيوتهم، فقد واجهتموهم بالسّلاح، وتراجعوا، فدعوهم وشأنهم.

الباب الثالث عشر | مُباركةُ الصَّدّ

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ١٣

﴿أَلَا﴾ تتصدّون لهؤلاء الذين استسهلوكم ونقضوا عهدهُم معكم، وتجاوزوا عليكُم. كما لو أنك ترى جاراً يتجاوَز جارُله على كل أعرافِ الجيرةِ، ويغدرُ به، فتقول: ما لك لا تصدُّ هذا المعتدي عنكَ، لقد تمادى كثيراً، وأضعفُ الإيمان أن تصدَّه.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ وليس﴿أَلَا﴾ تقتلون. وعادةً يكونُ القتالُ مع الذي أتى لقتلِك، فتدفعُه عنكَ. أمّا إذا جاء: ﴿أَلَا﴾ تقتُلون. فكان ذلك سيعْني ذهابَك إلى حيثُ ما يكون لتقتُله. وهذا ما لم يجزْه الله، حتى إذا نقضَ عهدَه معك، لأنه اكتفى بالنقضِ، ولبث في بيتِه، فتدَعُه بشأنِه. لكن هنا فإنَّ كفارَ قريشٍ لم يكتَفوا بنقضِ العَهد، بل حرَّروا حلفاءَهم من بني بكر، وأعانوهُم على خزاعةَ، حلفاءِ النَّبي (عليه صلوت الله وسلامُه، بحسبِ ما وردَ في بعض أسبابِ التنزيل.

إذن: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾. بمعنى: قاتِلوا الذين يتجاوَزون حدودَهم معكُم، وادفعوهُم عنكُم، حتى لا يُقال بأنّكم جُبناء، وقد استسْلمتم لهم، فيفعَلوا بكم ما شاؤوا. فهؤلاء: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾. كذلك: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾. الهمّ بمعنى المحاولة، وقد حصَلت هذه المحاولةُ سابقاً، وتمَّ التخطيطُ لها في دارِ النَّدوة كما تقدّم معنا في الآية ٣٠ من سورة الأنفال: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾. ويُحتمَل أن ذلك قد تكرَّر في المدينة، وأن الذين أبرَموا المُعاهدة مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ونكَثوا بها، قد خطّطوا لإخراجِه من المدينةِ أيضاً. ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾. وهذا تأكيدُ بأهميَّةِ الوفاءِ بالمعاهَدَة حتى مع أشدّ الناسِ عداوةً، وتبيِّنُ الآيةُ بأنَّ المسلمينَ أوفوا بعهدِهم، ولكن: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾.

فبعدَ كلِّ هذا الذي حصلَ إذا سكتّم، وجعلتموهُم يفتكونَ بكم وبأهليكم ويسيؤونَ إلى مقدّساتكم، سيكونُ ذلك استسلاماً وجُبناً منكم. فجاء قوله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾. لم يبقَ سوى أنّكم تخافونَهم إذا لَبِثتم جالسين في بيوتِكُم تنظرونَ إليهم، وهُم يعْتَدون أمام أعيُنِكم على أهليكم وعلى مقدّساتكم. ثم جاء بيانُ عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ عليكم أن تخشَوا اللهَ في دِينكم وفي عيالِكم، وألاّ تسْمَحوا لأحدٍ أن يتجاوزَ على مقدّساتِكم، وأضعفُ الإيمان أن تُقاوِموا بِما هو ميسَّرٌ لديكُم، وتصدّوهم حتَّى لو صَرَختم بأعلى أصواتِكم في وجوهِهِم، واستخدمْتم أيديَكم وأقدامَكم وأنتم تُقاوِمُونهم مهما كانت قوَّتُهم تفوقُ قوَّتَكُم عدّةً وعَدداً. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. بمعنى من غير ذلك لن تكونوا ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾. فتصديقُ الإيمانِ هو أنْ تُثْبِتوا بأفعالِكُم أنَّكم تخشَون اللهَ أكثر من خشيتِكم الناس. تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بأن على المؤمن ألاّ يَجبَن في مختلفِ الظُّروفِ، وهو يكونُ قوياً بقدر قوّةِ إيمانه، وضعيفاً بقدر ضعفِ إيمانه. فإنْ أرادَ أن يُبتَّ إيمانُه، عليه أن يَبقى مُقاوماً للاعتداءِ وفق المُستطاعِ، ويبقى رأسُه مرفوعاً. ذلك أن إيمانَه القويَّ باللهِ يجعلُ خوفَه من اللهِ ﴿أَحَقُّ﴾ من خوفِهِ من الناسِ، وأنَّ خوفَه من اللهِ عِبادةٌ، في حين أنَّ خوفَه من الناسِ جُبنٌ يُبعدُه عن العِبادة. وهذا لا يعْني أن يكونَ الإنسانُ متهوّراً، لأن الآيةَ دقيقةٌ، وهي تتحدَّثُ عن حالاتٍ استثنائيَّةٍ، عندما تتفاجأ بشخصٍ أو أشخاصٍ قد ائتَمَنْتَهم وأدخلتَهم بيتَك، فتراهم يخونون ثقتَك ويغدرونَ بك. هنا توجّهك الآيةُ بأهمية المواجهة وضرورتها لإيقافهم عند حدودِهم. فإنْ، كان واحداً، فأنتَ له، وإن كثروا، فأنتَ أيضا لك مَن يؤازرُك ويعينُك عليهم، ثم هناكَ قانونٌ يمكن أن تلجَأَ إليه. وفي جميعِ الأحوالِ عليك أن تبقَى مُقاوماً، وتطلبَ المَدد من الله سبحانه وتعالى. بعد هذا الشرحِ، نعودُ الآن إلى قراءةِ الآيةِ وقد علِمنا بعضَ الجوانبِ التي لم نكنْ نعلمُها من قبل: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. فلا تكنْ مُغفَّلاً، وكم من غفْلةٍ أودَتْ بمغفَّلين، بل أودَتْ حتى بعائلاتِهم كاملةً نتيجةَ غفلة الأب. فعليكَ أن تكونَ أميناً على عائلتكَ، وعلى إيمانكَ، وتكونَ مقاتلاً إذا دعَت الضرورةُ وتعرَّضتَ لخطرٍ. وهكذا تثبتُ بأنكَ جديرٌ بالإيمان.

الباب الرابع عشر | إدانة الخنوع

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ١٤

لا تَقِفُوا خانعينَ، مستسلمينَ، يائسين،مكتوفي الأيْدي، وهم يعتَدونَ علَيكم في دياركم، بل: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾.دافِعوا عن أنفسِكم وردّوهم عنْكم: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾. فما دامَ اللهُ أمرَكُم بهذِه المواجهةِ مع المعْتدين، فهو يتولّى عذابَهم ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾. وهذا يُذكّر بقولِه تعالى لرسولِه: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾الأنفال١٧. الكلمةُ هنا بالغةُ الدقّةِ، فضربَتُكُم التي تقع عليهِم هي ضربةُ الله من خلالِ أيديكُم، وهذه الضربةُ تكون موجعةً، وتُسبّب لهم ألماً بحيثُ تجعلهُم يتراجَعون وينشغلون بأبدانِهم، ويكفّوا عنكم، فتبقى أبدانُهم تتوجَّع نتيجة هذه الضربات التي تلقّتها، وهذا تأديبٌ من اللهِ لهم، حتى يصدّهم عنكم، ولعلّهم يتّعظون ويتوبون إلى الله، ليكونَ معَهم أيضاً، لا عليهم، كما هو معكُم، لا عليكُم. ولكن إن عاندوا وأصرّوا، يأتي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾. عندما ينهَزمون وهم ينشغلونَ بأوجاعِ أبدانِهم، يشعرونَ بالزَّي أمامَ أنفسِهم، وأمام بعضهِمْ بعضاً. لأنَّهم كانوا يتوقّعونَ شيئاً، ووقعَ ما هو نقيضٌ لتوقّعاتهم، وهكذا يُمنُون بالخزي. والخزيُ هنا هو ألمٌ نفسيٌّ يُضاف إلى ألمِهم البدني. ثم قال جلّ ثناؤه: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾. وهذا وعدٌ من اللهِ سبحانَه وتعالى، بأن الإنسانَ عندما يُدافعُ عن حقّه في وجهِ الظُّلمِ، ولا يستسلمُ، ولا يخنَعُ، ولا ييأسُ، ولا يقفُ مكتوفَ اليدَين جباناً، فإن اللهَ عزَّ وجل ينصرُه على الظّالم، ومهما كانَ الظالمُ قويّاً ومتمكّناً، فإنه سيُمنى بخزيِ اللهِ له، وبهزيمةِ الله له. في حين أنَّ المؤمنَ مهما كانتْ إمكاناتُه محدودةً، فإنه سيحظَى بنصرِ الله له، وبعزّة الله له. ﴿وَيَشۡفِ﴾ الله بذلك ﴿ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾. بمعنى ﴿وَيَشۡفِ﴾ غليلَهم بهؤلاءِ الذين بطَشوا بالبِلاد والعِباد، دون أن يردَعُهم أي رادع، فتدخَّل الله تعالى

ذكرَه، في شأنهم بأن جعلهم ينتهون إلى العذاب والخزي والهزيمَة. فالمظلومُ يكونُ صدرُه ممتلئاً بالكربِ جرَّاء الظلمِ الذي ألحقَهُ به هذا الظالم، ويبقى يترقَّبُ هذا الجائرَ العِقاب حتى يكون عِبرةً لغيره. وعندما يحصلُ ذلك، ويسمعُ به أو يراه، فيكونُ بِمَنْزلة البُشرى السارّة له، وعندَ ذاك يتشفّى صدرُه من كلِّ كربٍ، كما لو أن يداً امتدَّت إلى صدرِه ،أخرجت منه كلَّ كربٍ كانَ متراكِماً فيه. وهذا الكربُ كانَ مَرَضاً بالنسبة إليه، هذا المرضُ الذي لا علاجَ له سوى أن يرى أو يسمعَ بأن الحقَّ أحقُّ على هذا الجائر، ولقيَ مصيرَه الذي يستحقّه. ولذلك جاءت الكلمة بليغةً في وصف الحالة: ﴿وَيَشۡفِ﴾. والشفاءُ يكونُ للمرض، وهاهو ذا مرضُ صدرِ المظلومِ يشفيهِ الله، فيتشفّى بشفاءِ الله، ويتعافَى بعافية الله له: ﴿وَيَشۡفِ ﴾. عهدٌ قاطعٌ من الله بهذا الشَّفاء، وأنه لا يتركُ هذا الكربَ كاتماً على ﴿صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾. يتنفّسونَ الصُّعداء، ويشعرونَ بأن صخرةً ما قد انزاحَت عن صدورِهم.

فإذن، سيحصلُ مالا تتوقعونه، ومالا يتوقَّعونه، لأنَّهم سيكونون في مواجهةٍ مع الله، وليسَ معكم، وهي مواجهةُ الله لهُم من خلالِكم. فتقع ضرباتُ الله عليهم ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾. ويُستَنتَجُ من الآية الكريمةِ بأنَّ مؤازرةَ الله المباشَرةَ للمظلومين لا تقتصِر على أناسِ زمانٍ ومكانٍ دونَ غيرهِم، بل هي مفتوحَةٌ لأناس كل زمانٍ ومكان، ويفكّ الله بها المظلومَ من براثنِ الظَّالم: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾. بهذه المؤازرةِ الإلهية.

الباب الخامس عشر | مَحوُ الغيظِ من القلوب

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾

الآية مُستأنفةٌ لسابقَتِها بواو العطف، وقد انتهت بـ: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾. لكن رغمَ ذلك قد يبقى شيءٌ من الغيظ في القلبِ، لأنَّ الإنسانَ عندما ينظرُ إلى الذي سبَّبَ له الكوارثَ، ورغم أنه قد مُنِيَ بالهزيمةِ النَّكراءِ، قد يلبثُ مغْتاظاً منه. وهكذا يبْقَى قلبُه ممتلئاً بالقَهْر الذي عبَّرت عنه الآيةُ بـ غَيۡظَ والغيظُ هو أعلى درجاتِ القهرِ، كونه يجعلُ الإنسانَ مُحْتَقناً مهما لقي من مسرّات، لأنَّ قلبَه يكونُ مكتوماً بالغيظِ من ذاك الظَّالم الذي جارَ عليه من غير وجهِ حقٍّ، وألحقَ به كلَّ ذاك الأذى، سَواءٌ مادّياً أو معنوياً بأنْ يكونَ افترى عليه وأشاعَ عنه شائعاتٍ كاذبةٍ نالتْ من سمْعَتِه، أو من عرضِه، أو أنَّه ألحقَ به خسائرَ مادّيةً، أو أدخلتْه السجنَ، وما إلى ذلك. فرغم أن صدرَه قد تشفّى به تماماً وقد لقيَ العِقابَ، إلاّ أن الغيظَ لبثَ في قلبه. مع هذه الآية المُرادِفة، وكما أنَّ اللهَ عز وجل، تدخَّلَ في أخذِ حقِّ المظلومِ المادّي من الظالمِ، وأيضاً أخذَ منه حقّه المعنوي والنفسي: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وهذا نظيرُ الهزيمةِ الماديَّةِ والمعنويةِ للمعتدي من خلالِ العذابِ البدني، والخزي. ولنستذكرَ سياقَ الآية: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾. الآن، فإنَّ اللهَ يجعلُ المظلومَ في حالةِ صفاءٍ، ويستخلصُ قلبَه حتَّى من شعورٍ ولو للحظاتٍ بالغَيظِ نتيجةَ ما أصابَه، بل إنَّ الواقعَ الجديدَ، يجعلُهُ يَنْسى كلَّ ما أصابَه كما لو أنَّه لم يكُنْ بقدرةِ الله عز وجل. ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾. فلمْ يَعُدْ يشعرُ بأيِّ غيظٍ أيضاً تّجاهَ ذاك الظالمِ. فالغَيظُ يكونُ قد بقيَ في الآيةِ السَّابقة رغم استشفاءِ القلبِ بِما آلَ إليهِ الظَّالمُ الجَائرُ من مصيرٍ مخزٍ. ومُدخَل الآية: ﴿وَيُذۡهِبۡ﴾. يعني شيئاً موجوداً، فمادام قد قال ﴿وَيُذۡهِبۡ﴾. فثمّة غيظٌ موجودٌ في القلبِ، والذهابُ يكونُ

لهذا الغيظِ الموجودِ بالفعلِ في القلب. إذن: ﴿وَيُذْهِبۡ﴾ يمحو تماماً ﴿غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾. فتُصبحُ القلوبُ بقدرةِ الله عز وجل خاليةً تماماً من أيَّة ذرة غيظ. وكما لو أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول لعبدهِ المظلومِ: هاقد أخذتُ لك حقّك من هذا الذي عجزتَ أن تأخذَ حقّك منه، وشفيتُ صدرَك، وأَذهبتُ غيظَ قلبك.

فيقولُ العبدُ المظلومُ وقد انشرحَ صدرَه، وانفرجَ غيظَ قلبِه: اللهُ حقٌّ.. الله غالبٌ.. سبحان الله.. الحمدُ لله.. لا إله إلاّ الله.. لاقوّة إلاّ باله.. الحمد لله الذي شفى صدري وأذهبَ غيظ قلبي.

الآن، جعلتك الآيتان في واقع يمكن لك أن ترى نفسَك فيه في أي وقتٍ، فترى شخصاً يظلمُك ويجورُ عليك. فما هو الإرشادُ الإلهي لك في هذه الحالة؟ الإرشادُ الإلهي هو ألاّ تخنعَ وألاّ تجبنَ، وبذات الوقت ألاّ تتهوَّرَ بردّاتِ فعلٍ سريعةٍ، لأنَّ الظالمَ قد يكونُ نافذاً ومتمكّناً، فيلحقَ بك وبأهلِك أفدحَ الأضرار. فتكون مقاومتُك بحسبِ المُتاح، حتى في أضعفِ الإيمانِ أن تكونَ مُقاوَمةً نفسيّة، فتكونُ مُقاوِماً جَلداً في نفسك، لأنَّ هذا الأساسَ ستنبني عليه إمكاناتُ المُقاوَمةِ التي سيمدّك اللهُ بها في حينِها. وهذا وعدٌ إلهيٌ لا يمكنُ له إلاّ أن يتحقَّقَ، والأمر البالغ الأهميّة هنا هو أنه مُقترَنٌ بك، ففي بعض الأزماتِ التي تواجهها في حياتِك، يمكن أن تستسلمَ، وتنحدرَ إلى قعر الفسادِ، حتى تُصبحَ إنساناً فاسداً بامتياز، فتكونَ بذلك قد أفصحتَ عن شخصيِّتك الانهزامية الهشّة، في حين أن شخصاً آخر، واجهَ الأزمةَ وتصدّى لها، ولم يستسلمْ، فترى بعد حينٍ أن يصعدَ إلى الانتصار، في حين تتهاوى في الفشلِ الذريعِ. وهنا أيضاً مسألةٌ هامّة وهي أنكَ يمكنُ أن تعودَ إلى جادَّة الصَّواب بعد أخطاءٍ فادحة تكونُ قد ارتكبتَها نتيجةَ تلك الأزمة، فبابُ الصلاحِ يبقى مفتوحاً أمامَك، والتوبة تُطهّركَ من الأخطاء التي ارتكبْتَها مهما تكونُ قد أسرفتَ على نفسِك. وبذلك فرغْمَ فشلِك في الامتحان، فإنَّ اللهَ عزَّو وجل يُعيدُ لك الامتحانَ مادمتَ تريدُ إعادتَه، فتُصلح من شأنِ نفسِك، وتصبرُ وتقاومُ الأزمةَ، وتعتبرُها امتحاناً من الله، وتثبتُ لله أنَّك تبذلُ كلَّ ما باستطاعتك حتى تتفادى الفشَلَ في هذا الامتحان. وعندها تأتيكَ مؤازَرَةُ الله، فتنقُلك من واقعٍ إلى واقعٍ أفضل ،ربما لم تكن تتخيَّلُه، وتنتصر على كل الذين ألحقوا بك الظلمَ والأذى، وتراهُم كيف يُمنون بالخِزي. ويُكرمْك الله تعالى بأن يُخرجَ الغيظَ من قلبِك تّجاه

مَن ألحقوا بك الظلمَ والأذى. ولكن لماذا يُخرجُ الغَيظَ من قلبك؟ تجيب الآية على هذا السؤال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾. فذهابُ غيظكَ عنه يكونُ على أساسٍ أنه قد يتحوَّلُ إلى صديقٍ وفيٍ لكَ بعد عداوةٍ، ويحصلُ هذا بمقتضى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾.

فهنا، مهما كنتَ صالِحاً، فهذهِ التوبةُ قد تجعلُه أكثرَ صلاحاً منك. وهنا أيضاً تحذيرٌ بألاّ تحقدَ على الناس وتحكمَ عليهم أحكاماً نهائيّة لا رجوع فيها، بل قد تعودُ أنتَ من صلاحِكَ، وتُصبحُ في الموضع الذي كان هو فيه من الفساد، ويُصبحُ هو في الموضع الذي كنتَ فيه من الصَّلاح. فكم من صالحٍ انقلب بين ليلةٍ وضحاها إلى فاسدٍ بعد تاريخٍ من الصَّلاح، وكم من فاسدٍ انقلب بين ليلة وضحاها إلى صالحٍ بعد تاريخٍ من الفساد.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. هذه الجملة الختاميةُ تبيِّنُ لك بأن ما يعلمه اللهُ، لا تعلمه، وهو يعلم أشياءً خافيةً عنك. و﴿حَكِيمٌ﴾. بمعنى أن الحكمةَ تكون فيما يرشد الله إليه، فالحكمةُ استمدَّت كماليتها من علم الغيبِ المُطلَق. وبالنتيجة فإننا نكون أمام وصفةٍ إلهيّةٍ لنتعاملَ بموجبها مع أولئك الذين يحقدون علينا، ويسعونَ لإلحاق الأذى بنا. فنكتفي بالصدّ كما في الآية السابقة، ولا نزيدُ عن ذلك كما في هذه الآية. وحينها تكون النتائجُ محمودةً وسليمةً بضمانةِ اللهِ عزَّ وجل.

الباب السادس عشر | الوليجة

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾. بمعنى: لا تحسَبُوا أنّكم تعيشونَ في غفلةٍ عن الله، فهذِه حساباتٌ غيرُ صائبةٍ إذا حسبتموها، فاحسبوا الحسبةَ الصحيحةَ، وهي أنَّكم تحتَ أنظار الله وتحتَ سمعه. فلا تحسبُوا ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾. واحسَبوا أنكم لنْ ﴿تُتۡرَكُواْ﴾. ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ القيامة٣٦. والتركُ هنا بمعنى: لا تحسَبوا أنَّ اللهَ قد خلقَكم وتركَكُم ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾. إذن: ﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ما ﴿جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾.

من هنا، فإنَّ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾. هي نفيٌ لأي حسبةٍ تحسبونَها من هذا القبيل، وإن ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾، فإن حسبتَكم ما هي إلاّ تكهّناتٍ لا أساسَ من الصحّة لها، وأنَّكم توهِمُون أنفسَكم بها.

والجهادُ هنا هو كلُّ عملٍ تقومُ به من أرضيّةٍ إيمانيّةٍ، أي تعلمُ وتيقن بأنك لستَ منسياً من الله، وأنَّه خلَقَكَ، ويتتبّعك لحظةً بلحظةٍ، ونَفَساً بنَفسٍ، وهو أقربُ إليكَ منك. فتستمدّ قوّتك وحيويّتك ونشاطَك من هذا اليقين الإيماني المترسّخ في قلبِك. وهذا ما يجعلُكَ إنساناً طبيعياً لا يقربُك ازدواجٌ، ولا تقربُك الهلوسات، فتكون متّزناً، متواضعاً، حقيقياً، واضحاً، طيّباً، تعيش حياةً جميلةً دون منغّصات.

كل هذا يتحقَّقُ لك لأنك لم تحسِب أنك متروكٌ ومنسيٌ من الله، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ ما تقومُ به في تفاصيل وقائعِ حياتِكَ اليوميَّة، يدخل ضمن الجِهاد. والأمر الآخر، فإن هذا اليقين السليم يُكسبك النضوج، ويُذيقك حلاوة القرب من الله عز وجل. عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ

قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: "بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا"[١].

فالمؤمن يشعر بطمأنينةٍ على قدر توكّله على الله.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ"[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ"[٣].

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ"[٤].

عن أم سلمة رضي الله عنها: (ما خرج النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم من بيتي قَطُّ إلا رفع طَرْفَه إلى السماءِ فقال: "اللهم أعوذُ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ")[٥].

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (كَانَ رَسُولُ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَلَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ، مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ"[٦].

---

1 رواه أحمد

2 صحيح مسلم

3 صحيح البخاري

4 صحيح مسلم

5 أخرجه أبو داود

6 رواه أحمد

عن شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ، قَالَ: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِكَفِّي فَقَالَ: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي")[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: (كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ")[2].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذْنَا مَضْجَعَنَا أَنْ نَقُولَ: "اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ")[3].

وهكذا فإن المؤمن يكون مستقرّاً في حياته، فعندما يقول: لا إله إلا الله. يتنفّس بطمأنينة. وعندما يعاتب نفسه يقول: أستغفر الله. وعندما يصيبه كرب يقول: الحمد لله. وعندما يرى عجباً يقول: سبحان الله. وعندما يحزن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويتجنّب الحسد بقوله: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. والأم الصالحة إذا فقدت أحد أبنائها الصغار، تُصبّر نفسها وهي تقول: هناك في الآخرة سأطرق باب الجنة سيفتحه لي.

وشابٌ مؤمنٌ يقول: كلّما مررتُ بجانب فتاة متبرّجة، كتمتُ من أنفاسي حتى لا أجد من ريحها، فتُكتَب زانية.

فالجهادُ هو أنْ تتفاعَلَ مع إيمانِكَ بالممارسَة، فيتكلَّلُ هذا الإيمان بالعَمل، وتقطفُ نتاج هذا العملِ في الدنيا، والآخرة. ولذلك: ﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾. وإلاّ لكان فاعلُ الخيرِ وفاعلُ الشَّرِّ سيّان: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾القيامة٣٦. فيكمُن التحذيرُ في الآية الكريمة من مغبّةِ الاعتقاد: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

[1] رواه الترمذي

[2] صحيح مسلم

[3] صحيح مسلم

جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾. ثم جاءت الجملةُ الإكماليّة: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾. فتُخبِر الآيةُ أصحابَ هذا الاعتقاد: ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

الوليجةُ، كلمةٌ مكثّفةٌ بمعانيها ودلالاتها، وهذه المعاني والدلالات مُتقاربةٌ مع بعضِها بعضاً، والولوجُ بشكلٍ عامٍ، هو الدخول، تقولُ: وَلَجتُ الحَي. أي: دَخَلتُ الحَي. ولكنَّ الخلافَ بين الولوج والدخول، أنك عند الولوجِ تكونُ دخلتَ حيّاً غريباً، وتكونُ غريباً في الحَي. أمّا بالنسبة لحيّك الذي خرجتَ منه لقضاء حاجةٍ ما، أو ذهبتَ إلى عملِك، فعند عودتِك، لا تكونُ قد ولجتَ الحَي، بل عُدتَ إليه، فتقول: دخلتُ الحَي. وهذا يكون للبيت، فعندما تذهب إلى بيتٍ غريبٍ، فتلجُه، ولكن عندما تعود إلى بيتك، تَدخله.

إذن، الولوج هو إدخالُ ما هو غريبٌ إلى أصلِ الشيء، بمعنى أنك تكونُ قد أقحَمته عليه، وهو ليسَ منه، مثل أن تُدخِلَ إلى بدنِ مريضٍ دماً مُخالِفاً لزمرة دمه. فيجوزُ أن تكونَ الوليجةُ في الآية بمعنى البِطانة المُخالِفة للإيمان، ولذلك جاء: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ثم: ﴿وَلَا رَسُولِهِۦ﴾. ثم: ﴿وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾. أي: ولايةً وبطانةً لهم. ولذلك سَلموا من الاضْطِرابات التي يُعانيها المُزدَوجون الذين أوْلَجوا الحِسْبَةَ الخاطِئَة وأقْحَمُوها على الأصلِ السّليم في الحسْبَة.﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾الأعراف٤٠.

ومهما حاول ﴿ٱلْجَمَلُ﴾ فإنه لا يستطيع أن﴿يَلِجَ﴾ ﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾. ﴿فِى﴾ ثقبِ إبرةِ الخياطة. ولذلك ليسَ: (يُدخِل). بل: ﴿يَلِجَ﴾. دلالةً على غرابةِ الأمر. ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾سبأ٢. بمعنى يعلمُ عددَ البذورِ التي تُزرعُ في الأرضِ، ويعلمُ عددَ ما تنبتُ الأرضِ، فهو تعالى شأنه، يعلم كم عدد حباتِ القمحِ، أو الشّعيرِ، أو العدَسِ، أو الفولِ، وكم عددُ أوراقِ الشَّجَر على سطحِ الأرضِ، وكذلك كل ما يكونُ في باطنِ الأرضِ بالدقّة. وهذا أمرٌ غريبٌ يعجب له الإنسانُ، وليس بوسعِ أحدٍ قط أن يلمَّ بذلك سوى الله.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾الحج٦١.

﴿ٱلَّيۡلَ﴾ هو نقيض ﴿ٱلنَّهَارِ﴾، و ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ هو نقيض ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، لذلك جاء: ﴿يُولِجُ﴾. دون (يُدخِلُ).

وهذا يؤكّدُ بأنَّ هذا المُعتقَد الذي بيَّنَته الآيةُ الكريمةُ بتفاصيله وحيثيّاته، لا يحقّق السعادةَ أو الاستقرارَ لصاحبه، بل يجعلهُ تعيساً ومضطَرِباً لأنه يُقحِم شيئاً موبوءاً على فطرةٍ سليمةٍ. والإنسانُ ينفطرُ على فطرةِ الإيمان، ولذلك لا يُستبعَد أن الإنسانَ قبل أن يخلقهُ الله، يبيِّن له هذه الحقيقةَ، ويُخيّره بين أن يوافقَ أم لا. وبعد أن يُعاهِد الله على الإيمانِ، يخلقهُ الله وفق هذه المُعاهَدة، ووفقَ موافقَته بالمجيء إلى الحياة التي يصوّرها الله له، فلا يأتي به إلى الحياة رغْماً عنه، بل بإرادته وموافقته. فإذن الوليجة في الآية يمكن أن يُستفهَمَ منها بأنها خيانةُ للمُعاهَدة التي عاهَدَ بها الإنسانُ ربَّه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾الأعراف١٧٢. فالمؤمن لا يتّخذ: ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾. بل يؤمنُ بالله أولاً، ويطيعُ الرسولَ ثانياً، على قاعدة أن طاعتَه من طاعةِ الله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾آل عمران١٣٢. ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾النساء ٨٠. واستناداً إلى ذلك، وكونه يعيشُ في مجتمع، فلا بد أن تكونَ علاقاتهِ مع هذا المجتمع. فهو ينتهج ما تنتهجه جماعةُ المؤمنين في علاقاته ومصالحه ومعاشه وسائرِ مقوّمات حياته.

ولذلك فإن الإيمانَ فِطرةٌ سَليْمَة في الإنسانِ، ولكن يجنحُ البعض إلى الوليجة. ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾الروم٣٠. وفي الحديثِ النبويِّ الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ"[1]. ولم يقل: يسلّمانه. لأنَّ الفطرةَ هي الحنيفيةِ، وهو يولدُ على فطرة الإسلام.

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما

جاء في الحديث القدسي الذي رواه عياض بن حمار عن النبي (صلى الله عليه وسلم): "وإنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ به سُلْطَانًا"[1].

من هنا فإن الآيةَ الكريمة تُخبرنا بأن الإيمان ليس شيئاً غريباً يتم إقحامُه على الإنسان، بل هو شيءٌ من نسيج فطرته، وهو ينسجم معه تماماً، وتتحسّن حياته به تماماً. ولكن الالحادَ هو شيءٌ غريبٌ على فطرة الإنسان يُقحمُه الإنسانُ على فطرتِه الإيمانيّة، ولذلك لا ترى علاماتِ الإشراقِ على سمات المُلحد، بل ترى علامات الاحتقان. ولكنك ترى سمات المؤمن تنضح بالإشراق. وما ذلك إلاّ لأنَّ الملحدَ يعيشُ بعقيدةٍ مُقحَمةٍ عليه، بَيد أن المؤمن يعيش بعقيدةٍ متآلفةٍ مع فطرته.

ثم جاءَ مسْكُ خِتامِ الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. كلمة ﴿خَبِيرُۢ﴾ من الخَبَر، أي أنَّ اللهَ يخبرُ لحظةً بلحظة بكل ما ﴿تَعۡمَلُونَ﴾. وهذا يُحيلُنا إلى مُبتدأ الآية: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾. فاعلمُوا أنَّ اللهَ يعلمُ الخيّرَ من الشرير، النافعَ من الضار، الصالحَ من الفاسدِ. و يعلمَ الذي يتّخذ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾. من الذي لا يتّخذ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾.

جاءت كلة﴿خَبِيرُۢ﴾ مع كلمة﴿تَعۡمَلُونَ﴾. وهذا مصدره: ﴿تُتۡرَكُواْ﴾. وكذلك: ﴿جَٰهَدُواْ﴾. وكذلك: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾. فـ: لن﴿تُتۡرَكُواْ﴾ دون تمييز الطيّب من الخبيث،﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. أي يميز الله بين بعضكم البعض بأعمالكم التي يخبرها. وهذا لا يكون فقط في الآخرة، بل حتى في الدنيا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾ سواء في الدنيا، أو الآخرة. فاعلموا أن الله يكشف معادنكم الحقيقية ولا يترككم تنخدعُون ببعضِكم بعضاً.

---

[1] صحيح مسلم

ما يمكنك أن تستنتجَه من الآية، أن أيَّ إنسانٍ عندما يتلقّى حكمَ الله في العِقاب، لا يمكنُ أن ينتابَه مجرّدُ شعورٍ بأنه ظُلِم، بل دوماً ينتابُه شعورٌ بأنه يستحقُّ أكثَرَ مما هو فيه من العِقاب. وهذه الحقيقةُ تبقى مترسّخةً لديه في الدنيا، وكذلك في الآخرة. لماذا؟

-: لأنه يعجزُ أن يرفعَ عِقاب اللهِ عنه، وأن قوّةَ الله نافذةٌ عليه رغماً عنه، وهي قوّةُ عدلٍ وليست قوّةَ ظُلم. ونظيرُ هذا فإنَّ الإنسانَ المظلومَ أيضاً لا ينتابُه شعورٌ بأن الله لم ينصفْه، استناداً إلى ما جاء في الآية ما قبل السابقة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. وكذلك الآية السابقة: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾. فالمظلومُ يبقى يشعرُ بأنه ظُلِم مهما تخلّصَ من الظُّلم، عندما يرى الظالمَ مستمرّاً في ظلمِه، ورغم ذلك يستمتعُ برغد العَيش والقوّة والنفوذِ من غير أن يوقَف عند حدّه ويلقى القَصاصَ، ثم أنه كذلك في الآخرة يكون في الجنّة مع المظلوم. وها هُنا تبيّن لك الآية الكريمة بأن هذا لا يمكن له أن يحدثَ حتى بالنسبة للظالم، فإن حصلَ وراودَ الظالمَ مجرَّدُ شعورٍ ولو للحظةٍ واحدةٍ بأنَّ اللهَ ظَلَمَه، فإنه سيدركُ في تلك اللحظةِ بأنه لو دخلَ الجنة مع أولئك الذين ألحقَ بهم الظلمُ، وفتكَ بهم فتكاً في الدنيا، لا يكون الله قد عَدَلَ معهُم، ولم ينصفْهم، فهو في الحالَتين سيشعرُ بأن الله غيرَ عادلٍ حتى ولو دَخَلَ الجنة. هذا إضافةً إلى أن المظلومينَ أيضاً سيشعرونَ بعدم عدالة الله لهُم رغم أنَّهم في الجَنة، فكيف يستوي الظّالمُ والمظلومُ في منزلةٍ واحدةٍ عند الله تباركَ وتعالى. بل هذا لا يستوي حتى عندَ الحاكمِ العادل في الدنيا، والمظلوم والظالم معاً لا يشعران بعدالة الحاكمِ إلاّ عندما يصدر حكمَه العادلَ على الظالم. عن عبد الله بن أُنيس، رضي الله عنه قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

"يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -أَوْ قَالَ الْعِبَادُ- عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ قُلْنَا وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ

قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ")[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فحُمِلَ عَلَيْهِ"[2].

لكن هذا لا يسري على حقوقِ الله على عِباده، فهو جلّ شأنه يتجاوزُ عن حقوقه عمَّن يشاء من غير أن يكونَ من حقِّ أحدٍ أن يشعرَ مجرَّد شعورٍ بأن الله لم ينصف، بل أنه كريمٌ، ويُطمَع في كَرمه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3]. هذا إلى جانبِ أنه لا يتركُ شخصاً واحداً دون أن يأخذ له حقّه.

ونظيرُ ذلك لا يدعُ أحداً يدخلُ الجنةَ ولأحدٍ من أهلِ النار عندَه حقٌّ قبل أن يأخُذهُ له، وهو كذلك لن يدخلَ النارَ قبل أن يؤخَذ له حقّه مِن الذي يدخُل الجنة، لأنه بأخذ هذا الحق قد تُرجحُ كفّة حسناته، ولو بقليل، فيدخل الجنة. وهنا تُدرك بأن الأم مهما أحبَّت أبناءها، ومهما كانت عادلةً معهم، فإنها لا تكون أحبّ من الله لهم، ولا يمكن أن تكون أعدل من الله بهم. ومهما أحبّ الأبُ أبناءه، ومهما كان عادلاً معهم، فإنه لا يكونُ أحبَّ من الله لهم، ولا يمكن أن يكونَ أعدلَ من الله بهم. ذلك أن هذه المحبّةَ هي مُشتقّة من المحبّة الأصل التي هي محبّة الله، وهذه العدالة مشتقّة من العدالةِ الأصل التي هي عدالة الله. وعلى ذلك لا يمكن لأيّ أبٍ في الجنّة، وابنهُ في النار أن يعتريَه مجرَّد شعور بأن الله ظَلَمه، ولا يمكن لأي أمٍ في الجنة وابنها في النار أن يعتريها مجرَّد شعور بأن الله ظَلَمه. بل يعتريهُما شعورٌ بأن الله ما عَدَل لو أدخَله الجنّة قبل أن يلقى عِقابه تجاه أولئك الذين ظَلَمَهم، وهم لم يُسامِحوه، وسألوا الله أن يقتصّ لهم منه، ويستردّ حقوقهُم منه. لماذا؟

---

[1] رواه أحمد في مسنده

[2] صحيح البخاري

[3] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

-: لأنه دخلَ الجنةَ على حسابِ ظلمِ الآخرين مرتَين، مرة لأنه دخل الجنة بموجبِ حقوقِهم التي لم تؤخَذ منه، ولعلّه لو أُخِذَت، ما دخلَ الجنة بِما تبقّى لديه من حَسَنات. ومرة لأنَّ هؤلاء دخلوا النارَ بموجب عدمِ أخذِ حقوقِهم من هذا الظالم، ولو أُخِذَت لعلّهم ما دخلوا النارَ بموجب حَسَناتهم التي ستكونُ قد رجَحَت السيّئات. فلا يعتري الأبوَين أي شعورٍ بظلم الله لأبنائِهما إذا دخلوا النارَ، لأنهما يُدركان بأنَّ الله إذا أدخلهم الجنة، سيكونُ قد ظَلَم غيرَهم، وهكذا يلبث شعور الظلم لدى الأبوَين تّجاه الله، ولذلك يشعُران بقوّة عدالة الله حتى وهو يُدخل فلذّة كبدَيهما النار.

الباب السابع عشر | شهادة الكفر

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ ١٧

أسباب التنزيل تلبث متحرّكةً ومتفرّعةً، ولا تكون ثابتةً أو جامدةً. والله سبحانه وتعالى يُخاطِبُ مجتمعاً في زمانٍ ومكانٍ، وتكونُ أحداثُهم الراهنةُ ووقائعُ حياتِهم اليوميةِ محورَ هذه الآيات، لأنَّنا في مرحلةِ تأسيسِ نشرِ رسالة اللهِ الأخيرةِ إلى الناس كافّةً.

وهذا الواقعُ الرَّاهنُ هو الذي تنْبَني عليه عِمارة هذا التأسيس، وهؤلاء النَّاس هم الذين يشيدونَ لَبِنات هذه العِمارة. واستناداً إلى ذلك، فمن الطَّبيعي أن يرتكزَ التَّنزيلُ على تفاصيلِ وقائعِ حياتِهم اليوميةِ، ويكونونَ محاورَ هذا التنزيل الحكيم. لكن في الآن ذاتِه فإنَّ هذه المحاورَ هي بمنزلة الأمثلةِ القابلةِ للتجدّد والاستمرارِ، وقابلةِ للتفرّع.

إذن، أولئك المشركونَ ما كانوا ﴿يَعْمُرُواْ﴾، وما كانُوا يسمحون أن يعمِّرَ المسلمون أيضاً ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وهذا العملُ بذاته هو شهادةٌ منهم﴿بِٱلْكُفْرِ﴾. فهوَ خيرُ دليلٍ يؤكّد شهادتَهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾. والكفرُ في هذا السِّياق هو احتكارُ المُعتقَد وعدمُ السماحِ بالتعدّديّةِ وحريّة التفكير، أو حريّةِ اختيار المُعتقَد،: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ﴾٨. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾١٠. وبالطبع لا يجوزُ لك أن تُدين غيرَك في مسلكٍ، وبذات الوقتِ تسلكُه أنتَ، فتمنعُه عن غيرِك، وتبيحُه لنفسكَ. ولذلك ترى غير المسلمين يتمتّعونَ بحريّةِ ممارسَة معتقداتِهم في ديارٍ إسلاميَّة، وعندما رأتْ دولٌ غيرُ إسلاميةٍ هذه الحقيقة وهذا التآخي الإنساني بصرفِ النَّظَر عن المُعتَقَد، لم تدعُ المسلمينَ أكثرَ إيماناً بالتعدّديّة والتآخي الإنساني منها، فأذنَت هي أيضاً بعمارَة المَساجِد على أراضيها، وأن ينشطَ المسلمونَ بنشرِ الإسلامِ من خلالِ الكلمةِ الطيِّبة والموعظَةِ الحسَنة. ولكن عندما استغلّ بعضُ المسلمينَ هذه الفسحةَ في ديارِ الغربِ،

وأساؤوا استخدامَها، ولجأوا إلى العنفِ، منعهم الغربُ من هذا التجاوزِ على مواطنِيه، وأوقَفَهم عند حدودِهم، دون أن يتدخّلَ بشأنِ أهلِ الاكتفاء بالكلمةِ الطيّبةِ والموعظَةِ الحَسَنة، ولبثُوا آمنينَ سالمين يستأنِفون نشاطَهم الدَعوي، وأداءَ شعائرهم.

فنرى على سبيلِ المثالِ نواقيسَ الكنائسِ تتَعالى، والأناشيدَ الدينيةَ المسيحيةَ تنتشرُ في مكبّرات الصوتِ في هذه الكنائس في مدنٍ إسلاميّة، وقد ألِفَ الناسُ هذا، بل إنهم في مناسباتٍ اجتماعيّةٍ، يدخلونَ هذه الكنائسَ للمشاركة في هذه المناسبات. فقد أبقى الله سبحانَه وتعالى رابطةَ الأخوّةِ الإنسانيّةِ بين الناسِ:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾المائدة٥.

إذن، الآيةُ تتحدَّثُ عن أناسٍ شاذّين عن قاعدةِ التآخي الإنساني: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾. جاءت كلمةُ ﴿بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾. دقيقةً جداً، وهي تعني إضمارَ الشيء. وبعضهم يقول للقرية: (الكَفر). لأنَّها موضعُ إضمارِ البذورِ تحتَ الأرض، وبذلك يمكن أن نقولَ عن الفلاّح بأنه (كافر) أي بمعنى ضامِر، كونه يخفي البذورَ تحت التراب﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾الكهف٣٧. معنى أتُخْفي هذه الحقيقة. فالإنسانُ عندما يؤمنُ فإنَّه يُظهرُ الحقيقةَ من خلال إيمانِه وتفاعلِه مع مقوّماتِ هذا الإيمان. وعندما يكفُرُ، فإنه يُخفي الحقيقةَ من خلال كفره، وتفاعلِه مع مقوّمات الكُفر. من هذه القاعدة: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾. ففي كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لا يكتَفي البعض بالشِّرك أو الإلحادِ، بل يسعى إلى صدّ المؤمنينَ عن أداءِ شعائرِ إيمانِهم، ويرغَم عليهم ليكونوا مثله. فقالت الآية في سياق الاستئْنافِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾الذين يسيؤونَ إلى هذه المَحَجّة البيْضاء في الإنسانِ، وإلى هذا النَّسيج الإنساني الأخويّ بين الناسِ، ويقمعونهم في إيمانِهم بربِّ العالمين، ويستهزؤون

بشعائرِهم ومقدّساتِهم. وهذا يبث الشّقاق في سويّة العلاقة الأخوية بين سائر المكوّنات، ويُحدثُ الخَلَل في البنية الاجتماعية. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾. وهذا إخبارٌ من الله عزَّ وجل، بأن هؤلاءِ يعيشونَ حياتهم في دوّامة من الإحباطات، ويلقونَ النكسةَ تلوَ النكسةِ في مسارِ حياتِهم نتيجةَ هذه الأعمالِ التي يقومونَ بها، فتحبطُهم ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾. والإنسانُ المُحبَطُ، هو إنسانٌ ظلاميٌ يشعرُ دوماً بأغلالِ اليأسِ، ويشعرُ بظلمةٍ في أعماقِه، ويكونُ محروماً من لحظاتِ الإشراقِ التي يعيشُها ويستمتعُ بها الإنسانُ المؤمن. فهو كائنٌ مُنطفئٌ في أعماقِه، ويظهرُ هذا من علاماتِ الاحتقان في وجهِه، وهي تُشيرُ إلى الإحباطات المادّية والمعنوية التي يتجرّع علقمها على مَضض. وهي تلبثُ مضيقةً عليه حياتَه دون أن تنفكّ عنه، ما دام مصرّاً على كفره. فهو كائنٌ مسكونٌ باليأس، ولذلك لا يُستَبعَد أن تصدرَ منه أفعالٌ شاذة أو عدوانية بشكلٍ مباغتٍ غير متوقّع، كرد فعلٍ على ما هو فيه من عبثٍ في حياته، هذا العبثُ الذي يُعزّز في نفسه حالةَ اللاانتماء إلى المجتمعِ، وكذلك إلى المنظومةِ الإنسانيةِ، فتبدرُ منه هذه الانتهاكاتُ المروّعة التي ينفجعُ بها الناسُ. جاءت خاتمة الآية، وهي كذلك خاتمةٌ إخباريّةٌ: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾. فهم لا مناصَّ أن ينتهوا إلى الخزيِ في الدنيا إذا عانَدوا ولبثوا مصرّين على الكفر، كذلك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.في الآخرة.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾البقرة٥٧.

وهذه من الحقائقِ التي يُخبرُ بها القرآنُ الكريم، فالإنسانُ لا يمكنُ له أن يسعدَ بالكفر، ولكنه يسعدُ بالإيمان، ولا يمكنُ له أن يشقى بالإيمان، ولكنه يشقى بالكفر.

الباب الثامن عشر | عمَار المساجد

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ١٨

بدأتِ الآيةُ السَّابقة بـ: ﴿مَا كَانَ﴾. وتبدأ هذه الآية بـ: ﴿إِنَّمَا﴾. و: ﴿مَا كَانَ﴾. نفيٌ. و﴿إِنَّمَا﴾. تأكيدٌ. والحديثُ في الآيتينِ يدورُ حولَ المساجِدِ. وقد جاء في الآيتينِ الكريمتَين: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. دون: (المساجد). وفي ذلك إشارةٌ بليغةٌ بأنْ ليسَ كلُّ مسجدٍ من المساجدِ التي نراها هو مسجد الله. أي لم يُعمَّر لله، بل بُني لأشخاصٍ ما، مهما اتّسمَت هذه المساجدُ بفخامةِ البناء وأناقةِ الديكور. فهذا مسجدُ فلان، وذاك مسجد فلان. وهناك مآربُ دنيويّة تؤخَذُ بالحِسبان في بناءِ هذه المساجد، ولا تقتصرُ المنافعُ الدنيويّة على الذي قامَ بإشادة هذا المسجدِ فحسب، بل تمتدُّ إلى ذرّيّته أيضاً من بعده. وهذا ما يُخطّطُ له عندما يُباشَر ببناء مسجدٍ يُعرَف بأنه مسجدُ فلان ابن فلان. فعندما يمضي هذا الشخصُ في الطريق، أو يكون في مكانٍ ما، يُشار إليه بأنَّه قامَ ببناء هذا المسجدِ، وكذلك الأمرُ بالنسبة لأبنائه وحفدته، فهم ينتمون إلى فلانٍ الذي يحملُ المسجُ اسمَه. فهؤلاء تُنظَر إليهم نظراتٌ تديّنية خاصة، تلك النظرات التي كانت تُنظَر لأبيهم أو جدّهم. وقد يجلّهم بعضُ دراويشِ الناسِ ويأمُلون منهم شفاعةً، كما حصلَ مع أبيهم أو جدّهم. وبذلك فإنَّ هذا المسجدَ يبقى يدرُّ المكاسبَ الدنيويةَ على هؤلاء، ومع هذه النتائج تَرى شخصاً آخر أيضاً يقدِم على بناءِ مسجدٍ حتى يكونَ له ولأبنائِه وحفدَتِه مثل هذه المَزَايا الدنيويّة.

إذن هي ليسَتْ: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. بل هي ﴿مَسَٰجِدَ﴾الناس. ولذلك جاء الكلامُ بيانيّاً دقِيقاً: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. أي يكونُ العَمَارُ خالِصاً للهِ استناداً إلى إيمانِه الخالصِ بالله. ثم: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. من غير أي اعتبارٍ دنيوي مهما كانَ صغيراً أو كبيراً، مادياً أو معنوياً من أي شخصٍ كان، أو من، أية جماعةٍ كانت. ولكنَّه يسألُ اللهَ سبحانه وتعالى خيرَي الدنيا والآخرة، وقد عمَّر هذا المسجد. عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّ رسول

الله (صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ"[١]. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم)قال: "أَحَبُّ البِلَادِ إلى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ البِلَادِ إلى اللهِ أَسْوَاقُهَا"[٢].

ثم: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. الذي يُقيم ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، هو المصلّي الذي يتفاعلُ مع صَلاته، فيدخلُ عالمَ الصَّلاة، ويتفاعَلُ مع كلّ حركَةٍ يتحرّكُها بخشوعٍ، مع كل كلمةٍ صَلاتيّة يقولُها في حالةٍ يقينيَّةٍ تامّةٍ بأنه بين يدَي الله، ولا أحدَ يراه قط سوى الله. فهو حتَّى لو كانَ بينَ حشودٍ من الناسِ، وصلاتُه تُنقَل عبر وسائلَ إعلامٍ مرئيّة، فهذا كلّه لا يشغُلهُ طرفةَ عينٍ ولا طرفةَ قلب، وكما لو أنَّهُ في جوفِ الليلِ في حجرةٍ محكمةٍ يُقيم صلاتَه لربّه. فهكذا يكونُ المصلّي مُقيْماً لصلاتِه سواء أعمَّرَ مسجداً، أو لم يعمِّر. وما دون ذلك، يؤكّدُ المآربَ الدنيويّة لهؤلاء الذين يبنونَ المساجدَ، فيدعونَ الناسَ للصلاة فيها، وهم أنفسُهم قد لا يُصلّون، ولعلّهم يأتونَ في بعضِ المناسبات للصَّلاة في هذه المساجِدِ التي بنوها، حيث تكتَظُّ هذه المساجدُ بالناس، أو يتمُّ نقلُ الصَّلاة في بعض وسائلِ الاعلام، وبذلك يُظهرونَ للناسِ بأنَّهم يصلّون. فهو بذلكَ لا يكونُ قائماً للصَّلاة مهْما أدّى من حركاتِ الصَّلاة، كونَه يؤدّيها بحركةٍ أوتوماتيكيّةٍ. من هنا كانت الجملة بالغَةُ الدقّةِ: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ثم استأنفَت الآيةُ الكريمة: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾. لا يتركُ حقَّ الله في ذمّته، والزكاةُ حقٌ وضعَه اللهُ في مالِ الإنسانِ المُقتَدر حتى يوصِله إلى مستحقّيه. وهذا أيضاً متّصلٌ بمدخَلِ الآيةِ الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾. ومعطوفٌ عليه كما الأمرُ بالنسبة لإقامةِ الصَّلاة. وجاء ذِكرُ المال كعطاءٍ وليسَ كأخذٍ، لأن هذا العطاءَ يُزكّي نفسَ الإنسانِ من نزعاتِ الأنيّة، ويجعلُ المُقتَدرَ مُستشعِراً بالمُحتاجِ، ومعيناً له وهو يقدّمُ له العونَ الماديّ، وهذا بذاتِه يكون معنوياً أيضاً بالنسبة للاثنَين معاً، فالمعطي يشعرُ براحةٍ نفسيّةٍ وهو يُؤدّي حقّ الله، والآخذُ يشعر براحةٍ نفسيّةٍ لأنَّ حقّه قد وصل إليه. والزكاةُ ينمّي ويقوّي أواصرَ رابطةِ الأخوّة الإنسانية، كونَهُ لا يقتصرُ فقط على المسلمِ الذي يمرّ بضائقةٍ ماديّةٍ، بل يشملُ غيرَ المسلم أيضاً إذا كان بضائقةٍ ماديّةٍ. وكما أنَّ النفسَ تتزكّى بالزكاة، فالمالُ أيضاً يتزكّى بإخراجِ الزكاة منه، فيكونُ هذا المالُ مُبارَكاً ببركةٍ إلهيّةٍ. وهذه المُبارَكةُ تَقي هذا المال من النقصان، رغم أنَّه في الظاهر ينقصُ بعد إخراجِ الزكاةِ منه، ولكنه نقصٌ شَكليٌ وعَدديٌ فقط، دون أن يكونَ نقصاً كقيمةٍ ماديّةٍ

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] صحيح مسلم

له. فالمليونُ يبقى مليوناً، ويزيد عن المليون كقيمةٍ رغم إخراجِ الزكاة منه، وأنَّه كعددٍ بقيَ أقلَّ من مليون. ولكن إذا بقيَ هذا المليون من غير إخراج الزكاة منه، فإنه كقيمةٍ لا يبقى مليوناً، بل قد لا يبقى سوى ربع مليون، رغم أنَّه مليون كعدد. لماذا؟ -: لأنَّ حقَّ الله لم يُخرَج منه.

فإذا تاجَرَ شخصٌ لا يُزكّي بعشرةِ ملايين، وتاجَرَ شخصٌ يُزكّي بمليونٍ واحدٍ، فترى أن ربحَ صاحبِ المليونِ الواحدِ قد يوازي، أو يزيدُ عن ربحِ صاحبِ العشرةِ ملايين، سواء أكان قد تاجرَ بنفسِ البضاعَة، أو بغيرِها. ودوماً تكون هناك أسبابٌ، فلعلّ بضاعة الأوّل تتعرَّضُ للضَّرَرِ، كالحريقِ أو السَّطو، وما إلى ذلك. وهذا واردٌ بكثرةٍ، فترى أن الذي يعملُ بمالِه مُتجاوزاً شرعَ الله، حتى يكنزُ المالَ، يدخلُ في عمَلِه مع أشخاصٍ يقومونَ بسرقَتِه والاحتيالِ عليه، سواءٌ أكانوا شركاءَ معه، أو عمّالاً لديه. فهؤلاء يُلحقون به الضررَ الماديّ. وهذا يبيِّن بأنْ لا أحدَ يستطيعُ أنْ يأكلَ حقَّ الله، ويسلم. والزكاةُ أمانة الله تعالى أودعَها في مالِ المُقتَدر، وتلبثُ في مالِه حتى يُخرجَها متحرّياً الدقّةَ في إيصالِها إلى مستحقّيها وفق بيانِ الله لأهلِ الاستحقاق، دون أي مآربَ، وإلاّ فلا تكون زكاةً، بل يكونُ مأرباً. ولذلك فإنَّ الآيةَ الكريمةَ تتحدَّثُ عن الجَوهَر، لا عن المَظهَر، فكانتِ الأمثلةُ عن أمورٍ تتّسِم بظاهريَّتها. فعمارةُ المسجدِ، أمرٌ ظاهريٌ بائنٌ للعَيان، والصلاةُ تكون بائنةً للعَيان، وكذلك الأمر بالنسبة للزكاة. فشخصٌ يقول بأنه عمَّرَ مسجداً، ويُطلق عليه اسمه، أواسم نسبتِه، أو عشيرتِه، وشخصٌ يُقحم الصلاةَ في أحاديثِه ومواعيده، فهو بعد صلاة الفجر خرج من بيته، وعند صلاة الظهر وصل إلى تلك المدينة. أو أنه صلّى العصرَ ثم اتّجه على الفور إلى مكانٍ ما. وهذا أيضاً يكونُ في الزكاة، فدوماً يُقحِم الزكاةَ في حديثه، وأنه أخرجَ زكاته، ويذكرُ المبلغَ، أو يذكرُ أسماءَ الأشخاصِ الذين أعطى لهم. وأحياناً يبتزّ بها بعضَ العمّالِ الفقراء، فيأتي إلى عاملٍ تكونُ له عندهُ مصلحةٌ، فيقولُ بأنه غنِيٌّ، وأنَّ زكاتَه كثيرةٌ جداً، وسوف يحسبُ حسابَه منها.

فترَى العاملَ يخفضُ الأجرَ ما أمكنَ على نيّة أنّه سوفَ يعوّضُه من الزكاة، بل حتَّى لو عرضَ عليه هذا المُقتَدِرُ نصفَ الأجرِ، فإن العاملَ لا يردّه، ويقبلُ به على أملِ التعويضِ من الزَّكاة، ليس في هذه السنة فقط، بل في غيرِها أيضاً، وهذا يكونُ بمنزلة دخلٍ ثابتٍ له يعينُه بعضَ الشيء على نفقاتِ عيالِه. ولذلك يحرصُ كل الحرصِ على ألاّ يخسَره، ويرضَى منه بالأجرِ القليلِ، وأحياناً يقدّمُ له خدماتٍ تطوّعيّةً من غير أن يأخذ منه شيئاً. وهكذا فإنّهم يعطون الزكاةَ لبعض المحاويج نظيرَ أن يُقدّموا لها خدماتٍ طوالَ السنة. فالآيةُ الكريمةُ تبيِّنُ بأن المظهريين النفعيين الانتهازيين، وإن استطاعُوا أن يحتالوا على الناسِ، فإنَّهم لا يستطيعونَ أن يحتالوا على الله، وأنَّ اللهَ عالِمٌ

بمآربهم الحقيقيّة وكاشِفاً إيّاها أمامَ أنفسِهم وأمامَ الناس. ولذلك جعلَ اللهُ عزّ شأنه، الناسَ في استطاعةٍ كي يميزوا أهلَ المظهر، من أهل الجوهرِ. ثم قال: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾. فعند عدم خشية الإنسان ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾. سيمضي بثقةٍ دون أن ﴿يَخۡشَ﴾ يحسب حساباً لأحدٍ ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾. والخشية وردت هنا بمعنى الخوف المشبوب بالتبجيل، والأصل كما في بعض أسباب نزول الآية، أنها نزلت في الذين كانوا يخشون الأصنام، ويأملون منها الخير، ويخافون الأذى منها. ودوماً فإن أسباب التنزيل مع الزمن تتفرَّع. فالمضمون يبقى، ولكن بأشكالٍ مختلفة. وهنا يكتمل المظهر بالجوهر، فهذه المظاهر الطيّبة التي بدرت من هذا الإنسان في عِمار مسجد أو إقام الصلاة، أو إيتاء الزكاة، لا يرجو بها شيئاً من الناس، سواء مادياً أو معنوياً، بل فَعَلَ ذلك ابتغاء مرضاة الله، دون أن يحسب أي حسابٍ لأحدٍ غير الله. اختُتِمَت الآيةُ الكريمَة ببيانِه تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾. فهذه علاماتٌ كُبرى تُشيرُ إلى أن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، يمكن ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾. في سائر مقوّمات حياتِهم، ذلك أنَّ هذه اساسيّاتٌ سَليمةٌ للهِدايَة إن استأنَفوا حياتهم على هذه الأساسيّات. ولكن هذه ليست تأكيداً من الله بأنَّهم سيسْتَأنِفونَ على هذِه الأساسيّات، بل قد ينحَرِفون عنْها في أمورٍ أخرى. وهذا ما نَسْتَنْتجه من قولِه عزَّ وجل: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾. فلم يقلْ بأنَّهم ﴿يَكُونُواْ﴾ مُهتدِيْن. بل: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾. وهذا تنبيهٌ بأنَّ الذي يقوم بهذه الأساسيّاتِ، عليهِ أن يكونَ على حَذرٍ من الانحِراف، لأنَّ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾، تجعلَ هذا الانحرافَ ممْكِناً في. ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ هنا تنبيهيّة لـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. وكذلك عنهم.

الباب التاسع عشر | بين العبادة والعمل

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٩

هذه هي الآيةُ الثالثةُ التي تتحدَّثُ عن تكاملِ المظهرِ بالجوهر، تكاملَ اليقينِ بالتفعيلِ في ثلاثِ آياتٍ مُتتالياتٍ. وتُبيِّن هذه الآيةُ الخاتمةَ في هذا المِحورِ أن العبادةَ لا تقتصرُ على القيامِ بخدمةِ الحجّاجِ ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. أي على المؤمنِ ألَّا يبقى جامِداً متطفّلاً على المُنتجينَ، وعليهِ أنْ يكونَ مُساهِماً في حركةِ الإنتاجِ في مجتمعِه. فلا يكفي أن تزدحمَ الطُرُقاتُ بالذاهبينَ إلى المساجدِ، أو إلى الحَجِّ، أو العُمرة، بل أيضاً بالذاهبين إلى المعاملِ، والمصانعِ، والحقولِ، والمدارسِ. ولا يكفي أن يُقدّمَ المسلمونَ رجالَ تشريعٍ وفقهٍ فقط، بلْ رجالُ صناعةٍ، وطبٍ، وزراعةٍ، وسياسةٍ، وهندسةٍ، ورياضيّاتٍ، وفيزياءٍ، وكيمياءٍ، واقتصادٍ، وأدبٍ، وفنٍ. أي أنْ يكونَ المسلمون مُساهِمين في بناءِ الحضارةِ البشريَّة، ويشيدون لَبِناتِ المُنجزاتِ البشريّة على الأرضِ لخدمةِ ورفاهيةِ الناس، فيقدّمونَ نتاجاتٍ مادّيةً ملموسةً للناس، لاأن يكونوا مستهلكينَ فقط، ومتطفّلين على ما ينتجُه غيرهم.:

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾. بمعنى: لا تجعلوا ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. والعِمارُ هنا مختلفٌ عمّا وردَ في الآيتَين السابقتَين، حيثُ جاءَ ذكرُ المساجدِ جمعاً وبشكلٍ عام. أمّا هنا فقد تمَّ التَّخصيصُ بمسجدٍ واحدٍ وهو ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وهو قائمٌ، فالعمارُ هنا يعْني بعضَ أعمالِ الصيانةِ، أو الترميمِ سواءٌ في المسْجدِ، أو ما يتبعُ لهُ من حولِه، وتقديمُ المستلزماتِ له. فإنْ أردتَ ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. افعل، لكنَّ ذلكَ لا يُغنيكَ عن التفاعلِ مع إيمانِك ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أي تُمارسُ العملَ على قاعدةِ إيمانِكَ، وإذا عملتَ على قاعدة إيمانك، أصلحتَ العمَل، وأحسنتَ الانتاجَ. وكلُ عَمَلٍ يكونُ على قاعدةِ الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فإنَّهُ يكونُ جِهاداً ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ما يهمُّ ألاّ تكونَ عالةً على مجتمعِك، تستهلكُ فقط وتدّعِي بأنَّك تخدمُ الدِينَ، فإنْ أردتَ أن تخدمَ الدِينَ حقاً، فعليكَ أن تُقدّم نِتاجاً على الأقل يوازي استهلاكَك حتى لا تكونَ مُتطفّلاً على ما ينتجُه غيرَك ومُستَهلِكاً فقط، بل تُقدّم لهم ما ينفعُهم أيضاً. وبذلك فإنَّك تستمتعُ باستهلاكِ نتاجِ غيرِك، لأنَّك تُدركُ في تلك اللحظةِ أنَّ غيرَك أيضاً يستمتعُ بنتاجِك.
روى الطبري، والواحدي، عن النعمان بن بشير، قال: (كنتُ عند منبَر رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في نفرٍ من أصحابه فقالَ رجلٌ منهم: ما أُبالي أَن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلامِ إلاَّ أنْ أسْقي الحاجَ. وقال آخر: بل عمارةُ المسجدِ الحرامِ. وقال آخر: بل الجهادُ في سبيلِ الله خيرٌ ممّا قلتم. فزجَرَهم عمرُ بن الخطاب وقال: لا ترفَعُوا أصواتَكم عند منبرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صُلِّيَتْ الجمعة دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيتُه فيما اختلفْتُم فيه. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.
ويبدو أنَّ هذه الفكرةَ كانت مترسّخةً سواءٌ عند المشركينَ، أو بعضِ الذين دخلوا الإسلام، فكانوا يعتقدون بأنَّهم خيرٌ من المسلمين الذين هاجَروا وجاهدوا في سبيلِ الله، لأنهم يقومونَ بخدمَة بيتِ الله. وهذا بدوره عزّزِ لديهم شيئاً من التمْييز، فهم أهلُ الحَرَمِ وخادِموه، وهذه مزيّةٌ يتمتّعونَ بها دون غيرِهم. وقد استمرَّ ذلك حتى بالنسبة لبعضِ الصّحابة الذين دخلوا الإسلام. فقد رُوي أن العباسَ أرادَ أن يتركَ الهجرةَ، ويبقى في السِّقاية وخدمةِ المسجدِ الحرامِ، وكذلك عثمانُ بن طلحة. ويُروى أن حديثاً دار بين علي بن أبي طالب، وعمّه العباس، ويبدو أن الحديثَ بينهما أصبح ساخِناً، والعباس عمّه، وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد عاتب علي رضي الله عنه، عمّه العباس لأنَّه وقفَ ضدّ الدعوة. فقال له العباس: (إن كنتُم سبقتمونا بالإسلام والهجرةِ والجهاد، فلقد كنَّا نعمر المسجدَ الحرامَ ونسقي الحاج). ومما قال كذلك: (ما لكم لا تذكرونَ محاسِنَنا إنّا لنَعْمُر مسجدَ اللهِ ونحجبُ الكعبةَ ونسقي الحاج ونفك العاني). ومما قاله علي له: (يا عمّ ألا تُهاجرون، ألا تلحَقُون برسولِ الله). فقال: (ألستُ في أفضلِ من الهجرةِ أسقي حاج بيت الله الحرام).

فلما نزلت قال العباس: (ما أراني إلاّ تاركاً سقايتنا). ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أقيموا على سقايَتِكم فإنَّ لكُم فيها خيراً". وهذا يشيرُ بأن العملَ في ذلك فيه خيرٌ، ولكن ألاّ يعتبرُ العاملُ نفسُه أفضلَ من غيره.

والمسجدُ الحرام، هو بيتُ الله الذي أسّسه أبو الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم صلواتُ الله وسلامه، وقد بُني منذ اليوم الأوّل على عبادة الله الواحدِ الأحد الذي لا شريكَ له. وكبيانٍ على: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ﴾. جاء قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾. أي هم ليسوا: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. فهؤلاء هم الذين لهم السويّة ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾. ثم اختُتِمَت الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. الظلمُ هنا بمعْنى أن يبتدعَ الإنسانُ بعض التكهّنات، ويؤمنُ بها، سواءٌ أكان هذا الإنسانُ مؤمناً، أو كان كافراً. وفي اتّباع هذا التكهّن، يكونُ المؤمن مثل الكافر، ويكون الكافر مثل المؤمن. وخِتام الآية الكريمة بمنزلةِ التنبيه بألاّ يعتبرَ الذين يقومون بحماية أو صيانة الحرم، أو يُقدّمُون الخدمات للحجّاج بأنهم أفضلُ من غيرهم. وكذلك ألاّ ينظرَ إليهم المسلمون في أي مكانٍ، بأنهم أفضلُ منهم، بل قد يكون مسلمٌ يبعد آلافَ الأميال عن ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾. ولم يرَه قط رأيَ العين، أفضلَ عند الله من مسلمٍ يقوم بخدمَة هذا المسجد. وإذا اعتقد خادم الحَرَم، أو أي شخصٍ بشيء من هذا التَّمييز، فيكون بذلك قد ظَلَمَ نفسَه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الباب العشرون | مقوِّمات الفَوز

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

يكونُ الإيمانُ إيماناً على قدر ما يُترجَمُ إلى عملٍ، فيزيدُ بكثرةِ العملِ، وينقصُ بقلّتِه. والإيمانُ من غيرعملٍ يكونُ محضَ كلامٍ، ومحضَ إحساسٍ بوجودِ الله، لأنَّ العملَ الذي يقومُ به هذا المؤمنُ يُناقضُ هذا الكلامَ وهذا الإحساس.

فالمؤمنُ هو إنسانٌ كريمٌ شُجاعٌ، فيمكنُ له أن يتركَ ديارَه وأموالَه ويُهاجِرَ إذا رأى بأنه يتنازلُ عن مبادئِه الإيمانيّةِ إذا بَقي في موطنه لظروفٍ ما، سواء اجتماعيَّة، أو سياسية، أو ما إلى ذلك. فهذه الهجرةُ تجعلُه يرتقي في درجاتِ إيمانه بدلَ أن ينحَدرَ إذا بقي في ذاكَ الموضعِ بسببِ الظَّرفِ الذي طَرَأ. فبدأتِ الآيةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾. أي ضحّوا بكل شيءٍ في المكانِ الذي هم فيه ﴿وَهَاجَرُواْ﴾. وهذه الهجرةُ تكونُ هجرةً إيمانيّة خالصةً. ثم: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. جعلَهُم إيمانُهم يبذلونَ أموالَهم، وهنا بيانٌ بأن الإيمانَ الحقيقيَّ يُنقذُ الإنسانَ من آفةِ البخلِ، ويجعلُه سخيّاً. ثم: ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾. لا يكتفِي بالجودِ بمالِه فحسب، بل إذا اقتضَى الأمرُ، يجودُ بنفسِه أيضاً ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ للآيةِ الكريمةِ تفرّعاتُها، فلا يكتفي هذا المؤمنُ المُجاهِدُ أن يُنفقَ ماله فحسب، بأن يُرسِلَه مع أشخاصٍ ما، بلْ يقدمُ مالَه بنفسِه، فيكونُ بذلك قد جاهدَ أيضاً بوقتِه، وبذلَ المشقّةَ بنفسِه، وتحمَّلَ العناءَ حتى يوصلَ هذا المالَ. فإذا أردتَ أن تُقدّم حاجةً منزليّةً لعائلةٍ تمرُّ بضائقةٍ، ستكونُ قد جاهدتَ بمالِكَ إذا أرسلتَ لها هذه الحاجة. أمّا إذا ذهبتَ وابتعتَ هذه الحاجة، وأخذتَها بنفسِك إلى هذه العائلة، ستكونُ بذلك قد جاهدتَ بمالكَ وبنفسكَ. ففي الأولى، لم تبذلْ وقتَكَ ولا طاقتَكَ البدنيّةَ، وفقطْ بذلتَ مالَكَ الذي بذلتَ جهداً في تحْصِيله. وفي الثَّانية، تكونُ قد بذلتَ وقتَكَ وطاقتَكَ البدنيّة، وكذلك مالكَ الذي بذلتَ جهداً في تحصِيله. وقد تكونُ هذه

الحاجةُ ثقيلةً، فتحملُها وأنتَ تضعُها في السَّيارة، وتحمِلُها وأنتَ تُدخلها إلى بيت هذه العائلة. فكلُّ خطوةٍ تخْطوها، تكون خطوةَ جهادٍ لك، وكلُّ حَملٍ تحمِله، يرفعُ عنكَ حمْلَ ذنوبِك يومَ القيامة، يومَ يحملُ المذنبون ذنُوبَهم على ظهورِهم.

فالجهادُ هو كلُّ عَملٍ بذلتَ فيه جُهداً عضلياً، أو فكريَّاً، وينتجُ عن هذا العملِ نفعٌ للناس. فأيُّ إنسانٍ يُقدّم خدمةً نافعةً للناس، يكون مُجاهِداً، لأنه بَذَلَ ما بوسعِه من جهدٍ حتَّى أوصلَ هذا النفعَ للناس. فاللهُ جلّ ثناؤه، هو المالِكُ لكلِّ شيءٍ، ولا شيءَ لديكَ إلاّ ويكونُ اللهُ قد أعطاهُ لك، وكان قادراً ألاّ يعطيهِ لكَ مهما سعيتَ إليه، وهو قادرٌ أن يستردَه منكَ في أيِّ وقتٍ يشاء مهْما حرصتَ عليه. إذن فرغْم أنَّ اللهَ قد ملّكك هذا المُلك، فهو ما يزالُ في مُلْكِه، لماذ؟ -: لأنك أنتَ وما تملك في ملكه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾طه٦. فعندما تُقدّمُ خدمةً لمُحتاجٍ دونَ أيِّ غايةٍ سوى ابتغاءِ مرضاةِ اللهِ، فإن خدمَتك هذه تُصبحُ لكَ عند الله. ولا تبقى كما هِي، ينمّيها اللهُ لك، فتنْمو وتتكاثَر. فحتَّى لو أطعمتَ لقمةً واحدةً في سبيل الله، فهي لا تبقَى كما هي لقمةً واحدةً، بل تتكاثرُ وتنمو بفضلِ الله تعالى، وقد تتحوّلُ إلى بساتينَ باسمكَ في الجنّة. فكم من بستانٍ ستَرَاه في الجنّة، كم روضَة تَراها، وكم.. وكم.. وكم.. وهذه درجاتٌ يحصلُ عليها الإنسانُ، وهذا هو الفَوزُ الأكبرُ، وطبيعي أنَّ الذي أمضَى حياتَه جِهاداً في جِهاد، لا يستَوي مع الذي أمضى حياتَه تقَاعساً في تقاعسٍ، حتى لو كانا مؤمنَيْن ولم يُشركا باللهِ شيئاً: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. وانظـرْ كيـفَ أنَّ كلمةَ الجِهادِ جاءَتْ مع كلمةِ الهُجرة، ذلك أنَّ المُهاجرَ عادةً يحتاجُ إلى مساعدات، وفي الأغلبِ يكونُ المُهاجِرُ لاجِئاً قد تركَ ديارَه نتيجةَ اضطراباتٍ أمنيّة، أو حروبٍ أهليّة، وما إلى ذلك. فتقديمُ المَعونةِ لهذا المُهاجرِ يُعدّ جِهاداً ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. كما أنَّ تقديمَ المعونةِ أيضاً لِمَن لبِثوا في ديارِهم ولم يُهاجِروا، جهادٌ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. لأنَّ البلادَ تمرّ بظروفٍ مضْطَربةٍ، والناسُ أكثرُ ما يحتاجُونَ، أن يقِفوا إلى جانبِ بعضِهم بعضاً، ويؤازروا بعضَهم بعضاً. فهؤلاء: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. يُكرِمُهم اللهُ بدرجاتٍ متقدّمةٍ سواءٌ في الدُّنيا، أو في الآخرة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾. بهذا التكريمِ الإلهي لهُم.

الباب الواحد والعشرون | بِشارة الرب

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١﴾

انتهتِ الآيةُ المتقدّمَةُ بوصفِ الله لأولي هذا المَقام بالفوزِ. ولكن ما مضمونُ هذا الفوزِ؟. هنا يأتي بيانُ اللهِ سبحانهِ وتعالى على شكلِ بِشارةٍ، وكما أنَّ الآيةَ المُتقدّمةَ اختُتِمَت بالفَوز، فإنَّ هذه الآيةَ افتُتِحَت بالبِشارة التي تبيِّن لهؤلاءِ مضمونَ هذا الفَوز: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. جاء وصفُ: ﴿رَبُّهُم﴾. للدلالةِ على أنهم قاموا بما قامُوا به من أعمالٍ جِهاديّةٍ ابتغاءَ مرضاة الله، فهذا الذي يُجزلُ لهم العَطاء. فليس دوماً تقولُ لابنك: سوف يُعطيك أبوكَ هذا الشيء. بل عادةً تقول: سأعطيكَ هذا الشيء. لكن في بعضِ الحالاتِ التي تجعلُه يشعرُ فيها أكثر بأنَّه سُتجزِلُ له العَطاءَ، تقول: سوف يُعطيكَ أبوك. ولله المثلُ الأعلى. وقد ورد ذلك عندما خاطبَ اللهُ عز وجل رسولَه (صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. أي يُعطيكَ حدّ الرِّضى، فتشعرُ مع هذا العَطاء بأنَّك اكتفيتَ. لكن رغم ذلك فإنَّ اللهَ دوماً لديه المَزيد، المَزيدُ الذي لا ينفذ. وكلمةُ الرَّب تردُ في القرآن إشارة إلى المقدرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾البقرة٣٠. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾المؤمنون٧٢. ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾الفرقان١٦. ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الإسراء٢٠. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾. الرحمةُ هنا تُطهّرُ الإنسانَ من جميعِ ذنوبه التي اقترَفَها، فيتطهّرُ برحمةِ الله من تلك الذنوبِ، كما لو أنَّه لم يرتكبْها قط. إضافةً إلى ذلك: ﴿ وَرِضْوَانٍ ﴾. فعندما طَهَّرَتْهُ الرَّحمةُ الإلهيّةُ، حظيَ برضَى الله عنه، وهو يعيشُ حياتَه في رضوانِ الله. وهذا لا يقتصرُ على الدنيا فقط، بل في الآخرة: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.﴿ نَعِيمٌ﴾ مستمرٌ غير منقطعٍ، فهم يرفلونَ في ﴿نَعِيمٌ﴾ ربّهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيدٍ الخُدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتَعالَى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ، فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا: يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ: أُحِلُّ علَيْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا"..

الباب الثاني والعشرون | الأجر العظيم

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

يخلدونَ في هذا المقام ﴿أَبَدًاۚ﴾. وهذه هي الطمأنينةُ الحقيقيةُ التي لا يمكن أن يُدركَها الإنسانُ سوى في الجنةِ. فالإنسانُ في الحياةِ مهما كان ثابتاً ومستقرّاً في منزِلَته، فإنه لا يستطيعُ أن يتخلّصَ من شعورهِ بأنَّه مُهدَّدٌ بأن ينقلبَ كلُّ شيءٍ عليه رأساً على عقب بين ليلةٍ وضحاها. الغنيُّ يبقى مسْكوناً بهاجسِ الخوفِ من خسارةِ ثروته، والحاكِمُ يبقى مسْكوناً بهاجسِ خوفِ الإطاحةِ به، الذي لديه أبناءٌ يبقى مسْكوناً بهاجسِ الخوفِ من فقدانِهم في أية لحظةٍ غير متوقّعة، والذي ينعمُ بالصحّةِ يبقى مسْكوناً بهاجسِ الخَوفِ من المرض. فاللهُ سبْحانه وتعالى يُبشّر الإنسانَ الصّالحَ بالملكيّة المطلقةِ لهذا النَّعيم، ويَعِده بأنَّ ذلكَ لنْ يزولَ عنه ﴿أَبَدًاۚ﴾. ويبقى يرفلُ فيه ﴿أَبَدًاۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. يؤجِرُكَ اللهُ بِما لا يمكنُ لكَ أن تتوقّعَه من النَّعيم وألوانِ الرفاه. ولا يمكنُ لك أن تدركَ ما عندَ الله من الأجر لك، ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. أعظم من أي تصوّرٍ يمكن لك أن تتصوّره، ذلك أن تصوّراتك هي تصوّرات دنيويّةٌ محدودةٌ، لا يمكنُ لها بأيِّ حالٍ من الأحوال أن تُدركَ أو تستوعبَ ما عند الله من النّعيم الذي يُكرمُك به. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي: "أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[1]. فمَهْما بذلتَ من أموالٍ، ومهما جاهدتَ، فإنَّ الأجرَ الذي يؤجِرُك به اللهُ سبحانَه وتعالى يتجاوز حقّك بأكثرَ من الكثيرِ الذي تتوقّعه. فترَى حقّكَ قد بدا صَغيراً جدّاً أمامَ زيادةِ الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ﴾ لك ﴿أَجۡرٌ﴾. كلمة الأجرِ هنا دقيقةٌ، أي عليكَ أنْ تكونَ عامِلاً، حتى تكونَ صاحبَ أجرٍ عندَ الله. وكلُّ عملٍ صالحٍ تعملُه خالصاً لوجهِ الله تعالى، يؤْجِرُك اللهُ عليه. بذلك تكونُ قد أخذتَ أجرَك، لكن اللهَّ

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

بفضلِه زادَ، ولو انتهَت الآية الكريمة عند ﴿أَجۡرٌ﴾. لكنتَ أخذتَ أجرَكَ الذي تستحقّه تماماً من غير نقص. لكنَّ اللهَ زاد: ﴿عَظِيمٌ﴾. وأيضاً لم يقلْ: (كبير)، بل: ﴿عَظِيمٌ﴾. وهو أكبرُ من الكبير. والعظيم من أسماءِ الله الحُسنى، فهو تعالى شأنه يؤجِرُك بعظمتِه عن عملِك الذي بذلْتَه في سبيلِه، أجراً عظيماً. وهذا السياقُ معطوفٌ بَياناً على قولِه تعالى في الآية ما قبل السَّابقة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يحظُون بهذا الأجْرِ العظيم ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾. وهذا أعلى مراتبِ الفَوزِ، أي حصولُك على أجرِك من الله، وإضافةُ العظَمَةِ من اللهِ العظيمِ إلى هذا الأجر.

الباب الثالث والعشرون | حُسن الولاية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٢٣

هذهِ الآيةُ الكريمةُ موجَّهةٌ بشكلٍ خاصٍ إلى المؤمنينَ الذين يتّخذُون من شرعِ الله مِنهاجاً لحياتِهم. وهنا قد تحدثُ تحوّلاتٌ في العائلة، فقد تكونُ العائلةُ بأكملِها غيرَ مؤمنةٍ بالله، وبغتةً يؤمنُ أحدُ أفرادِها، أو تكونَ عائلةً مؤمنةً، وبغتةً يكفرُ أحدُ أفرادِها. والآية تتناولُ هذه التحوّلات العقيديّةَ التي قد تطرأُ، وما دامَت قد تناولتْها الآيةُ، فهي ممكنةُ الحدوث.

هنا، ما الذي يمكنُ أن يفعلَه الابنُ المؤمنُ مع أبيه، او أخيه، إذا وجدَ نفسَه بين ليلةٍ وضُحاها في واقعٍ كهذا؟. توجّهُ الآيةُ الكريمةُ بالحِفاظ على تماسكِ العائلة، وألا يصطدمُ مع الذين طرأتْ عليهم هذه التحوّلاتِ العقيديّة، والأولويّةُ تبقى لتماسكِ العائلةِ مهما اختلفتِ المُعتقداتُ فيها، فذلك شأنُ الشخصِ مع ربّه. ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُخرجَ أحداً من مُعتقده بالعنف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

جاءَ الإرشادُ الإلهيُ في الآيةِ الكريمةِ بالهدوءِ والسِّلمِ، وفقط لا تستسلمْ لأبيكَ أو أخيك، وتقبلْ أن يقمَعكَ في مُعتقدِك، وبالتالي تجعلُه وليّاً على إيمانِكَ، فتتركُ الإيمانُ وتتّبعُ كفرَه، لأنه يستحبُّ كفرَه على إيمانِكَ. فأنتَ أيضاً استحِب إيمانَك على كفره، ولا ترضَخ لكُفرهِ على حسابِ إيمانك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. فالذي يرضخُ لهذه التبعيّة الكُفريّة على حِسابِ إيمانه، يكون قد ظلمَ نفسَه بأن أخرجَها من الهِدايةِ إلى الضلالِ. والظلمُ معناه هنا أن لا شيءَ يُبرّر هذه الولاية مهما كانتِ الذرائعُ والحُجَج. فجاء بيان الله سبحانَه وتعالى جَليّاً: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. في جميع الأحوال، ولا مُبرِّر لهذه الولايةِ بأي حالٍ من الأحوال، وهي في أفضلِ، أو أسوأ أحوالها، سيّانٌ، وتجعلُ من فاعِلها يقبلُ أن يكونَ ظالِماً، ويقبلُ أن يصفَه الله تعالى بالظالمِ.

الباب الرابع والعشرون | الأحَب

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

آيةٌ تفصيليةٌ، نفسيةٌ، تهذيبيةٌ، تُهذّبِ للإنسانِ نزَعاتِه، وتجعلُه منضَبطاً ومتحكّماً بنَزَعات نفسِه وموظّفاً إيّاها التوظيف الآمنَ السليم. فلا يعيشُ الدُنيا على حساب دِينِه، ولا يكونُ دِينُه سَبَباً في شَقائِه في الدُّنيا.

ما السَّبيلُ إلى ذلك؟. هذا ما تبيّنه هذهِ الآيةُ الكريمةُ وترشِدُ إليه.

تُبيِّن الآيةُ ثمانيةَ أنواعٍ مِن النَزَعاتِ البَشَريّة، وكيفَ يمكنُ لها أنْ تجعلَ الإنسانَ في خللٍ واضطرابٍ في حياتِه، ومن ثَّم يخسرُ دِينَه. ونظيرُ ذلك: كيفَ يمكنُ له أنْ ألاّ يحرمَ نفسَه منْها ويستمتعُ بها، ويبقَى كذلك مُحافِظاً على دِينه.

﴿قُلۡ﴾ يا مُحَمَّد لقومِك وللناسِ كافّةً في كلّ زمانٍ ومكان. و: ﴿قُلۡ﴾. بمعنى: بلّغ بَياني هذا لِعبادي: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. تَمّ ذِكرُ الأبِ أوّلاً، لأنَّ الإنسانَ أوّلُ ما تنفتحُ مُدركاتُه، ويبدأُ بالتعرّفِ على الحياة، يرى أباهُ الذي يكونُ دليلَه إلى التعرّفِ على الحياة. ولذلك منذ الصِغَرِ عندما يخرجُ الأبُ من البيتِ، فإن الابنَ يبكي ويُريد أن يخرجَ معَه، ورغم صِغَرِ طفولتِهِ فهو يفضّل أن يخرجَ مع أبيه أكثرَ مِمّا يفضّل أن يخرجَ مع أمّه، بل حتى وإن خرجَ مع أمّه، يريد أن يكونَ أبوه معَهما، ولا يتردَّدُ \في\أن يطلبَ منه ذلك. فالخارجُ يكون بالنسبةِ إليه عالمٌ آخرٌ مختلفٌ عن عالمِ البيتِ، يرى فيه ما لا يرى في البيتِ، وكذلك يتعرّفُ فيه على أبيهِ بِما لا يتعرَّف عليه في البيتِ. ويبقى هذا الشعورُ يلازِمُه مهما كبُر، وإن كانَ في الصِغَر ينظرُ إلى أبيهِ ويتعلَّم منه أصولَ التعاملِ مع الآخرين، فعندما يكبرُ، يُريد أن يُري أباه كيفَ أنه كبرَ وأصبحت له شخصيّته المستقلّة. فهو يبْقى يشعرُ بأنَّه لا يستطيعُ أنْ

يستغني عن أبيه مهما كبرَ واتّسَعَت مدركاتُه، خاصةً إذا كان الأبُ يتمتَّعُ بشخصيّةٍ ناضجةٍ إيجابيّةٍ، فتبقى شخصيّتهُ مهيمنةً على ابنِه ومؤثّرةً فيه.

من هنا، كان الأبُ أوّلاً في محورِ الآيةِ الكريمةِ، وكلمةُ الحُبِّ أتتْ بليغةً في دقّتها، وهي لا تعْني ألاّ تحبّ أباك، بل تحبُّه. لكن إذا طلبَ منكَ أمراً يتعارضُ مع الدِين، فعليكَ أن تُرجّحَ الدِينَ على مطلبِ أبيك. ولذلك جاءتْ كلمة: ﴿أَحَبَّ﴾. أي الأكثر حُبّاً. وهذه دعوةٌ من الله تعالى ذكرهُ، للأبناءِ إلى حُبّ الآباءِ، الحبّ الذي لا يرجّحُ بشرعِ الله. والقرآن الكريم بيَّن مثالاً حسناً لهذه العلاقةِ الحسّاسةِ من خلالِ أبي الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم صلوات الله وسلامه، وقد عاشَ تفاصيلَ هذا الحَدَثِ مع أبيهِ، ولكنَّه استطاعَ أن يوفّق بحكمةٍ بين أن يكونَ ابناً بارّاً بأبيه، وبين ألاّ يتبعَه في ضَلالهِ في ذات الوقت. ولم ينتهِ الأمرُ بذلك، بل عندما كبرَ وتزوَّج، كما أن اللهَ اختبرَه باختبارِ البنوّة، فقد اختبره باختبارِ الأبوّة هذه المرة، حيثُ أمرَه أن يذبحَ فلذّةَ كبدِه اسماعيل. فرجَّحَ أمرَ الله على مشاعرِه الأبويّة تّجاهَ ابنه. والأمرُ الآخر أنَ ابنَه أيضاً لم يرفض الأمر، بل قَبِل به ما دام قد جاءَ من الله، واللهُ لا يمكن أن يظلمَ، بل هو العدلُ كلّه، فقد استجابَ بشجاعةٍ لتنفيذِ أمرِ الله. ولعلّ هذا قد خفّفَ عن أبيهِ أكثرَ مِمّا لو صرخَ وارتعدَ، أو ركضَ مذعوراً وهو يتوسَّلُ إليه الاّ يفعلَ ذلك. وهنا أيضاً تبلغكَ إشارةٌ هامّة، وهي كما أنَّه عندما كانَ ابناً رجّح أمرَ الله، فهنا أيضاً ابنهُ رجّحَ أمرَ الله، أي جعَلَه اللهُ ينعمُ بترجيحِ أمرِ اللهِ في ابنِه نظيرَ موقفِهِ السابقِ وهو ابنٌ. فقد رأى أباً عاصياً، لكنَّ اللهَ عوّضه بأن رأى ابناً مُطيعاً في هذا الاختبارِ الكبيرِ جداً، بل البالغ الصُّعوبةِ جدّاً. ولذلك استخلصَه اللهُ من بين سائرِ عِباده واتّخذه خليلا له. وهو خليلُ الله عز وجل، وقد جعله أساساً لملّة دِين الله، كما جعلَه أباً للأنبياء، فانظرُ إلى عظيم منزلته عند الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾النساء ١٢٥.

هذه من الدروسِ البليغةِ التي يكتنزُ بها القرآن العظيم، فقد جعلهُ اللهُ عزَّ وجلَّ يرى ويعيشُ الوجهَين في هذه الثنائيةِ البديعةِ، ثُنائيةِ البنوّةِ والأبوّةِ، فعندما كان ابناً،، لم يطِع اباه على الضّلال، فنجا. وعندما أصبحَ أباً، أطاعَه ابنَه على الحقّ فنجيا معاً. وبعد هذَين الامتحانَين

التحوّليّينَ المَفصَليّين في حياته، بنَى مع ابنه اسماعيْل بيت الله الحرام، وجعلَ اللهُ ماء زمزم من جهدهِما، وكذلكَ أسَساً لكثيرٍ من تعليماتِ اداء الحجِّ والعُمرة. هذه هي البطولةُ الحقيقيةُ التي يمكنُ للإنسانِ أن يُحققها، وكل إنسانٍ مُتاحٌ له أن يُحقّق بطولةً في حياته، كما أنه مُتاحٌ له أن يُلحقَ بنفسه الخزيَ. وأساسُ البطولةِ أن تكونَ وقّافاً عند حدودِ اللهِ، وأساسُ الخزيِ أنْ تكونَ متجاوزاً لحدودِ الله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾الملك٢٢. إذن تحقّقَت هذه المرتبةُ العظيمةُ لسيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام، على قدرِ ما كان ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فلمْ يمضِ مع المَوج الذي كان سائداً في مجتمعِه ضدّ شرعِ الله، بل مضى ضدَّ الموجِ، وقد آثرَ شرعَ الله. وعندما امتحَنَه الله كذلك في أبوّته، إنْ كانَت ﴿أَحَبَّ﴾. نجحَ في الامتحان، وآثرَ حُبَّ اللهِ وطاعتَه على مشاعرِه الأبويّةِ. وهنا شيءٌ هامٌ وهو أنَّ الله لا يدعو إلى الموت، بل يدعو إلى الحياة، فكانتِ الأضحيةُ، ولعلّ هذا الكبشَ هو ذاته الذي كانَ قربانَ قابيل عندما قَبِل اللهُ قُربانَه ولم يقبلْ قربانَ هابيل، فجعلَه اللهُ في الجنة، ومن ثم جعلهُ قُرباناً لاسماعيل، وإذا كانَ ذلك واللهُ أعلم، فيكونُ قابيلُ الذي لقي ما لقي من أخِيه، قد أكرمَه اللهُ ليجعلَه سبباً في نجاة إسماعيل من خلالِ هذا الكبش. وسيكونُ هذا بذاتِه سبباً في منسكِ الأضحيَة، حيث سيؤدّي إلى وصولِ لحومِ الأنعامِ إلى بيوتِ مئاتِ الملايينِ من النَّاس كلَّ سنةٍ مجاناً في عيد الأضحى، الذي يُسمّى أيضاً عيد القُربان. وكثيرٌ من الناس لا تُمكّنهُم ظروفُهم الاقتصاديّةُ من شراءِ هذه اللحومِ الحمراءِ الطَّازجةِ. وأحياناً تكثرُ هذه اللحومُ في بيوتِ الناسِ، فيضعونَها في ثلاّجات، وقد يأكلونَ منها عدّة أشهرٍ احتفالاً واحتفاءً بالحياة.

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾. عندما تنظرُ إلى ابنِك، فإنّك تتذكّرك عندما كنتَ صغيراً، وهكذا في أية مرحلةٍ تنظُر إليهِ، تتخيَّلُ نفسَك عندما كنتَ في تلك المرحلةِ. وهذه هي عاطفةُ الأبوّة تجاهَ الأبناء، ولأنَّ أيَّ أبٍ لابدّ له أن يكونَ ابناً قبلَ ذلك، فتعامُلُه مع ابنِهِ يجعلُه يتذكّر تعاملَ أبيه معه، فإنْ كانَ جيّداً، يريدُ أن يكونَ جيداً مثله، وإن لم يكنْ جيداً، فلا يريدُ أن يكونَ مثلَه، بل أفضلُ منه.

فبعدَ مشاعرِ الأبناءِ تجاه آبائهم، تأتي مشاعرُ الآباء تِجاه أبنائِهم، فكما كنتَ ابناً لك أب، الآن أصبحتَ أباً لك ابن. وعلاقةُ الآباء والأبناءِ علاقةٌ متداخلةٌ ولكنها مختلفةٌ، ولكلِّ واحدةٍ ذائقتَها وخصائِصَها ومَزاياها، وأيضاً مشاعرَها. في الأولى، إذا رأيتَ أباكَ يسلكُ منهجاً مُخالِفاً لحدودِ الله، فأيُّ اعتبارٍ سيرجّح لديكَ، اعتبارَ الحدودِ، أم اعتبارَ الأبوّة؟.

والآن، إذا رأيتَ ابنكَ يسلكُ منهجاً مُخالِفاً لشرعِ الله، فأيُّ اعتبارٍ سيُرجَّح لديكَ، اعتبارُ الشرعِ، أم اعتبارُ البنوّة؟ قد يرجِّح اعتبارُ الشَّرع على اعتبارِ الأبوّةِ في الأولى، ولكن هل في الثانيَة أيضاً سيحصلُ هذا. فإذن، يمكنُ ألاّ يكونَ الموقفُ واحداً بالنسبةِ لثنائيّة العلاقةِ البالغةِ الحساسيّة بين البنوّة، والأبوّة من جهة، وبين الأبوّة والبنوّة من جهةٍ أخرى. أحياناً يجدُ الأبُ ابنَه يرتكبُ انتهاكات، ويسكتُ عنها، هذه الانتهاكاتُ التي لو ارتكبها أبوه، ما سكتَ عنها، وهنا ينبّهُ اللهُ تعالى شأنُه إلى عظمةِ هذه المسؤوليّة، وأن ذلك يعني أنّك رجَّحتَ اعتبارَ البنوّة على اعتبارِ الشرْعِ الإلهي. وإن عجزتَ أن تمنعه أو توقفَه عن ذلك، فعليكَ أن تدينَه ولا تسكت، لأنَّ سكوتَك يعني الموافقة، ويكون له بمنزلة التشجيع للاستمرار فيما هو فيه، وكذلك استمرارُك في الخطأ، فينجمُ عن ذلك دفعُ ثمنٍ باهظٍ بالنسبة له وبالنسبة لكَ. وقد بيَّن القرآنُ كيف أن الابنَ يمكن أن يكونَ ضالاًّ ليس فقط عندما يكونُ أبوه صالِحاً، بل حتى عندما يكونُ أبوه نبياً كما الشأنُ مع النبي نوح عليه السلام، وابنه الضال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾هود٤٥.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾هود٤٦. هنا عندما عَلِمَ نبيّ الله نوح ما علِمَ بشأن ابنه، لم تجعلْه عاطفةُ الأبوّة يتركُ السفينةَ ويلحقُ بابنه، لأنه عند ذاك كان سيُرجّحُ اعتبارَ البنوّة على اعتبارِ التشريعِ الإلهي. فكانَ أمامَه إمّا أن يوافقه ويلحقُ به تاركاً الهُدى، أو يبقى في سفينةِ النَّجاة مع المُهتَدين وقائداً لهم. فآثرَ التشريعَ على عاطفةِ الأبوّة.

﴿وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾. هنا علاقةٌ أخرى شديدةُ الخصوصيّةِ وشديدةُ الحميميّةِ أيضاً، وهي (الأخوّة). فهذا أخوكَ، وقد تربَّيتما معاً في بيتٍ واحدٍ، وبينكُما ذكرياتُ الطفولةِ، وذكرياتُ سنوات النموِّ سنةٍ بسنةٍ. وما تجده في أخيكَ لا تجدُه في غيره، وهو يسندُك وأنتَ تسندَه، إضافةٍ\إلى\ أنّك عمٌ لأبنائه، وهو عمٌ لأبنائك.

والأخوّةُ رابطةٌ حميميّةٌ جداً، وقد بيّنَ القرآنُ كيفَ أنَّ النبيَّ موسى عليه السَّلام سألَ اللهَ عز وجل أنْ يرسلَ معَه أخاه هارون إلى فرعون: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾طه٢٩-٣٢. وكان هارونُ مؤازراً جيداً له. وفي هذه العلاقةِ يتبيَّن بأنَّ الأخَ الكبيرَ له مزايا، كما للأخِ الأصغرِ مزايا. فموسى عليه السلام هو نبيٌّ ورسولٌ، وكان أصغرَ من أخيه هارون، وكانَ هارونُ عليه السلام يتمتَّعُ بالحكمةِ والتأنّي، واستطاعَ أن يمتصَّ غضبَ أخيه موسى عندما عادَ حاملاً التوراةَ، وكانَ قد حصَلَ ما حصَلَ بشأنِ اتّخاذِ بني إسرائيل عجلاً للعبادة: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾الأعراف١٥٠.

لِننظُرْ كيفَ كانَ ردُّ فعلِ موسى، وكيفَ كانت حكمةُ هارون: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾. والكلمةُ دقيقةٌ، لم يقلْ: ووضَعَ ﴿ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾. بل: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾. وهذا نقلٌ دقيقٌ للحدث، وهذا ما عوّدَنا عليه القرآن:

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾الأحزاب٣٧.

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾يوسف٢٤.

﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ﴾. ولعلّه صارَ يجرّهُ من شعرهِ ومن لحيتهِ: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ ﴾طه٩٤. يتبيَّنُ هنا حجمُ غضبِ النبيِّ موسى، وكيف استطاعَ أخوه أن يُهدّئه، من منطلقِ هذه الرابطةِ الأخويّة، فعندما يكونُ أحدهُما على غضبٍ، فعلى الآخر أن يضبطَ نفسَه ولا يصطدمَ معه ريثما يهدَأ، حتى لو كانَ الغضبانُ أصغرَ منه، وهذا مِثالٌ بين النبي موسى وأخيه الذي يكبرُه. فلبث هارون على هدوئِه، رغم أن موسى يجرّه من شعرِه ومن

لحيتِه، ويُصعّد معه في الحديث: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. رغم أنَّ هارون لم يفعل ذلك، بل أدانهُم بِما يَسْتطيعُ أن يُدينَ: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾طه٩٠.

فصارَ يشرحُ له بهدوءٍ ما حصَل: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾. بمعنى بقيتُ وحيداً بينهُم، وكانوا سيقتلونَني إذا اشتبكتُ معَهم، وأنا لا أمتلكُ الإمكاناتِ التي تمتلكُها وأنتَ نبيُّ الله ورسوله. فانتظرتَ حتى تأتي وتُعالج الأمرَ وفق الإمكانات التي منَحَهـــــا اللهُ لـــــك: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأعراف١٥٠. وهنا لننظرْ كيفَ أنَّه استخدمَ رابطةَ الأخوّة: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾. كلمة الأم تُذكّر في هذا المقام بأمورٍ حميميّة، مثل أنَّنا قد خرجنا من بطنِ أمٍ واحدة، وهي التي ربّتنا، أي ذكّره برابطةِ الأخوّة التي بينهما، وهذا من شأنِه أن يُهدّئ. وبالفعل هدَّأ النبيَّ موسى عليه السلام بعد أن سمعَ الشرحَ من أخيه.

فبعدَ الأبِ والابنِ جاءَ الأخُ في الآية الكريمة، ذلك أنَّ أخاك أيضاً يمكن له أن يرتكبَ انتهاكاتٍ، فتسكتَ عنه حتى لا تحصلَ قطيعةً بينَكما، ولا تنبّههُ إلى خطورةٍ ما هو فيه. والأخُ يمكنُ له أن يؤثّرَ على أخيهِ سَواء أكانَ يصغُره، أو يكبُره. وأحياناً لا يتوقّف الأمرُ عند السُّكوتِ عَمّا يرتكبُه من موبقاتٍ فحسب، بل يمتدُّ ليشملَ قبولك بِما يُمليه عليك، وأنتَ ترضخُ لذلك وتمسكُ بيدِ أخيك، وتمضي معه في الرَّكبِ الأعوَج.

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾. الزوجةُ تؤثّر في زوجها، وهو يحبّ زوجتَه ويألفُها. والآية الكريمة تُبارك هذا الحبَّ، وهذا التآلفَ الزوجيَّ بين الزوجَين. وقد ساندَت أمُّ المؤمنين الكُبرى خديجةُ رضي الله عنها، زوجَها مُحَمَّداً صلى عليه صلوات الله وسلامه، وآزَرَتْه كثيراً في بدايات نشرِ الدعوة، وكانت أولَ امرأةٍ آمَنَت به، وتقول له: (ابشرْ يابن عمي، فوالله الذي نفسُ خديجة بيدِهِ إنِّي لأرجو أن تكونَ نبيَّ هذه الأمة، كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصلَ الرحمَ، وتحملَ الكلَّ، وتُكسبَ المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على النوائب، وتَصدُق الحديث، وتؤدي الأمانة).

عن عائشة رضي الله عنها: (ما غِرْتُ علَى أحَدٍ مِن نِسَاءِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ما غِرْتُ علَى خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، ولَكِنْ كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، ورُبَّما ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّما قُلتُ له: كَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلَّا خَدِيجَةُ، فيَقولُ إنَّهَا كَانَتْ، وكَانَتْ، وكانَ لي منها ولَدٌ")[1]. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم: (ذكرَ يوماً خديجة فأطنَبَ في الثناءِ عليها، فأدركَني ما يدركُ النساءَ من الغيرة، فقلت: لقد أعقبَكَ اللهُ يارسول الله من عجوزٍ من عجائزِ قريش حمراء الشّدقين. فتغيرَ وجهُ رسولِ الله تغيراً لم أرهُ عندَ شيءٍ قطّ، إلا عند نزول الوحي). وعن عائشة: (مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهَا)[2]. وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: (اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ ؛ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ !!، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ هَالَةَ")[3].

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ("كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ، قَالَتْ: فَغِرْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا، قَالَ: "مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ")[4]. وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في خديجة رضي الله عنها: "إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا"[5].

إذن، يتأثَّر الزَّوجان ببعضِهما بعضاً، وتبيِّن الآية بأنَّ خيرَ التأثير، هو التأثير الإيجابيُّ، ولكن إذا وجدَ طرفٌ الطرفُ الآخر يجنحُ إلى الضَّلال، فعليه ألاّ يُسايره في ذلك، وألاّ يغضّ الطرفَ عنه، بل يواجهُه بموقفِه المُدان لهذا الضَّلال.

---

[1] صحيح البخاري

[2] صحيح البخاري

[3] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[4] رواه أحمد في مسنده

[5] صحيح مسلم

ويُرجّح رضا الله على رضا الزوج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾التغابن١٤. فيمكنُ أن تكونَ الزوجة صالحةً، والزوج ١ فاسداً، مثل آسيا وزوجُها فرعون، أو يكون الزوج صالحاً، والزوجة فاسدة، مثل النبي نوح وزوجته، والأمثلةُ عديدةٌ في القرآن الكريم.

﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾. العَشيرةُ هي الانتماء، والإنسانُ يُسأل: من أي عشيرةٍ أنت؟. وأفرادُ العشيرة يؤازرِ بعضهم بعضاً. والعشيرةُ فرعٌ من القوميّة، وأبناءُ العشيرة الواحدةِ، ينتمونَ إلى القوميّة الواحدة. وللعشيرةِ كبيرُها، وتكونُ كلمتهُ نافذةً على جميع أفرادِ العشيرةِ، وهو يحافظُ على تماسكِ أفرادِ عشيرته. وكما أنَّ رئيسَ الدولةِ عليه أن يُحافِظَ على الأمنِ القوميِّ، فرئيسُ العشيرةِ عليه أن يُحافِظَ على الأمن العشائري. ولكن إذا حدثَ وأنَّ كبيرَ العشيرةِ قد جنحَ إلى الضَّلال، فهل يتّبعُه أفرادُ العَشيرة، وإذا اتَبعه البعض،هل يتّبعه الكل؟. من هنا فإنَّ الآية تُعالجُ نزعاتِ حميةِ الجاهليّة في الإنسانِ، حمية الانقيادِ الأعمى والمضيء مع التيّار. وهي تنبّهُ الإنسانَ بمسؤوليّته القصوى تّجاه أفعاله ومواقفه، وأنْ لا شيءَ يبرّر التبعيّةَ العمياءَ، سواء أكانَت للأب، أو الابن، أو الأخِ، أو الزوجة، أو العَشيرة، فهل هذه الاعتبارات: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. أم اعتبارُ: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. أي عليكم أن تُجاهِدوا لتخرجوا عن هذه التَبعيّةِ العمياء، فترجّحُوا حبَّ: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. جاءَ هذا البيانُ لأنَّ بعضَ المسلمين رغم تخلّصِهم من الشِّرك، واعتناقِهم الإسلام، كانوا يوالون بعضَ المشركين الذين كانوا من قرابَتِهم، فكانوا يتأرجَحون بين تعاليمِ الإسلامِ، وتعاليمِ العَشيرةِ، أو علاقاتِ القرابة. فكانَ هذا البيانُ بالحِفاظ على علاقات القرابة ومشاعر الانتماء وعدم القَطيعة. لكن في الوقت ذاته ألاّ يوالوا الضالّين في ضلالهم، وألاّ يقبلوا أن يفرضوا عليهم ضلالَهم. وهنا أمرٌ بالغ الأهميّة وهو الفصلُ ما بين الإنسانِ وما بين مُعتقَده الخاطئ، فأنتَ لا تقبل أن يَفرضَ عليكَ مُعتَقده الخاطئ، وما دون ذلك تبقَى على صِلةٍ معه ولا تُقاطِعه ولا تُعاديه، بل تدعُو أن يهديه الله كما هداك.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾. الآن بعدَ ذِكرِ خمسِ عِلاقاتٍ تخصّ أواصرَ أكثرِ الصِلاتِ قُربى فيما بين الناس، تأتي أكثر ثلاثِ علاقاتٍ حَيويّة تخصّ الماديات بفرعٍ ثلاثة وفق ترتيب الأولويّات كما كانت العلاقاتُ الخمسُ المتقدّمة وفق ترتيب الأولويات.

ومِن أولى هذه الأولويّات المادّية الحَيويّة: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾. جاء ذِكرُ المال أوّلاً في هذا الشقّ الثاني من مِحوَرِ الآية الكريمة، كما جاء ذِكرُ الأب في الشقّ الأوّل. فالأب هو أساسُ الابن، والمالُ هو دعامةُ الحياة. وقد اقترن المالُ هنا بالاقتراف، وهي الكلمةُ الأكثرُ دقّةً في السِّياق الذي يتحدَّث عن إمكانيّة تحويل الإيجابيّات إلى سلبيّات، إذا لم يُحسّن التعامل معَها، ولم يُحسَن توظيفَها التوظيف السَّليم وفق شرع الله سبحانه وتعالى.

من هنا، فيمكن أن تتحوَّلَ الأبوّةُ إلى وبالٍ على الابن، وتتسبَّبَ في ضَلالِه، وفي شقائه في الدنيا والآخرة إذا آثر الابن كفّة مولاة الأبِ الضال، على كفّة شرعِ الله. والابن مأمورٌ شَرعاً أن يقولَ لأبيه: (نعم). في كل شيءٍ، إلاّ في معصيةِ الله، عندها فقط يقولُ له: (لا). عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: "لاَ طَاعَةَ في مَعْصِيَةِ الله، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ"[1].

وعنه صلى الله عليه وسلم: " لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2]. حتى لو كان هذا المخلوقُ أباً أو حاكِماً أو ما إلى ذلك.

إذن، في مُستهلّ هذا الشقِّ الثاني من صميم هذه العِلاقة المادّية بين الإنسان والمال، تبيِّن الآية الكريمة لك بأن الإنسانَ يمكن له أن يضعفَ في حضرةِ المال. وهذا ما يمكنك أن تستخلصَه من كلمة الاقتراف التي اقترنت بالمال. فالاقتراف يُمكن أن يكون إيجابياً ويمكن أن يكونَ سلبياً: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾الشورى٣٢. كذلك يمكنُ أن تقولَ بأن فلاناً يقترفُ الذنوبَ. فالاقترافُ هو الكَسبُ، وهذا الكَسب يمكن أن يكون مشروعاً، ويمكن أن يكونَ غيرَ مشروعٍ. الأمر الآخر هو أنَّ هذا المال حتى لو اكتسبْتَه بطرقٍ مشروعَة، ليس بالضرورة أيضاً أن يكونَ نعمةً عليك، بل قد يكون نقمةً عليك. فالشرطُ هو حُسن استخدامِ هذا المال الذي اكتسبتَه شرعاً، وألاّ تعطيه أكثرَ من حَجمه، ألاّ تسمحَ له أن يجعلَك بخيلاً، أو تُصابَ بِهوَس اكتناز المال، لأن هذا الهَوَسَ

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما
[2] رواه أحمد

بالاكتناز، يتفرَّعُ منه الاحتكارُ. فلعلّ تاجراً يملكُ في متجره مادةً غذائية بكسبه المشروع، وبغتةً فُقِدَت هذه المادة، فيعمدُ إلى إخفائها، وعندما يأتي الناسُ إلى متجرِه ليبتاعوا هذه المادةَ، يدّعي بأنها نفذت، ثم بعد فترةٍ يُخرجها ويبيعها بأسعارٍ مَضاعَفةٍ. فيكونُ بذلك قد ظلم أصحابَ الدخلِ المحدود مرتَين، مرة أنه لم يبعْهم وادّعى بأنها نفذت، ومرة عندما أخرجَها وغدتْ فوق طاقتِهم المادية لشرائِها. فتنبّه الآية الكريمة بأنه هنا آثر حبِّ المال على حب: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. وآثـرَ الاسـتزادةَ فـي المـالِ، على الاستزادةِ في الحسناتِ، فأصبحَ مالُه يُكسبه السيّئات، ويجعله كائناً مُحتكِراً.

﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾. الكَسادُ هو التراكمُ، والخشيةُ هي الخَوف. وقد حصلَ هذا بالنسبةِ لبعض المسلمين التجّار الذين رأوا أن إسلامَهم ربما يجعلُ المشركينَ يتجنّبوا الشراءَ منهم، وبذلك تبقى مُكدَّسةً في متاجرهم. وكان موسمُ الحجِّ فرصةً جيّدةً للتجّار حتى يعرِضُوا بضائعَهم، وكان المشركونَ يشترونَ هذه البضائع من هؤلاء التُّجّار الذين كانوا هم أيضاً من المشركينَ. ولكن مع نزولِ القرآن ونشرِ الدعوة، تركوا الشركَ وهداهم الله للإيمان. من هذا التحوّل يتبيَّنُ في هذا المحور من الآية الكريمة أنَّ بعضَ المشركينَ لعلّهم امتنعوا عن الشِّراء من التُّجار الذين اعتنقوا الإسلام، واكتفوا بالشِّراءِ من التجارِ الذين لبثوا في الشرك. فأصبح هنا شيءٌ من القلق المادي بالنسبة لهؤلاء، فجاء قول الله سبحانه وتعالى إليهم، وإلى كل الذين ينوضعون في مواقف كهذه، أو متفرّعة منها في كل زمانٍ ومكان:

﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾. أمامَ هذه الخشية نرى أنه قد أصبحَ هناك تأرجحٌ ما بين اعتناقِ الإسلام، وما بين كسادِ البضاعةِ التجاريةِ، فتتكدَّسُ فوق بعضها بعضاً وقد تفسد. وهذا مثالٌ حيٌ من سخونة الواقع، وهو قابلٌ للاستمرار في كل زمانٍ ومكان، بأشكالٍ مختلفةٍ ومتفرّعةٍ وفق المستجدّات الزمانية، والمكانية. فقد ترى مسلماً تُصبحُ له مصلحة مع شخصٍ غير مسلمٍ، فيتقرَّب إليه، وعندما يراه يتحدَّث بسلبيّةٍ عن الإسلام، يسكتُ لأنهُ يؤثر مصلحتَه، أو بيعِ بضاعته لهذا الشخص، بل قد لا يكتفي بالسكوتِ، ويوافقه على ذلك، ويتحدَّث هو الآخر بشكلٍ سلبيٍ عن الإسلام، فما يعنيه بالدرجة الأولى، هو تصريف البضاعة.

عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ التُجَّارَ يُبْعَثُونَ يَومَ القِيَامَةِ فُجَّاراً، إِلَّا مَن اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ"[1]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ"[2]. وعن قيس بن أَبِي غَرَزة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْحَلِفُ، فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ"[3]. عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ"[4]. عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ البَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ، سَمْحَ القَضَاءِ"[5].

لعلّ التحوّلاتِ الاجتماعيةَ المُعاصِرةَ أفرزَت شيئاً من هذه النماذجِ عندما نزحَ كثيرٌ من المسلمينَ من بلدانهم إلى الغربِ كلاجئين نتيجةَ اقتتالِ المسلمين فيما بينهم. الأمر الذي أدّى إلى لجوءِ المسلمينِ إلى ديارِ غيرِ المسلمين طلباً للحماية. وقد استقبلَتْهم دولُ الغربِ كحالاتٍ إنسانيةٍ دون أن تشترطَ عليهم الخروجَ من الإسلام، بل منحَت بعضهُم الجنسيّات وفق القانون، وسمحَت لهم ببناء المساجدِ ونشرِ الدعوةِ الإسلاميةِ بطرقٍ سلميّةٍ لأسلمةِ مواطنيهم، وقد أسلمَ الكثيرون على أيدي هؤلاء، بل وتحوّلوا إلى دعاةٍ للإسلام، فأسلمَ الكثيرونَ على أيديهم أيضاً.

لكن إلى جانبِ ذلكَ رأينا بعضَ المسلمين ولمجرَّدِ وصولِهم إلى ديارِ الغربِ، أشهَروا ردّتهم عن الإسلامِ من تلقاءِ أنفسهِم، وصاروا يقولونَ بأن الإسلامَ كان مفروضاً عليهم، وكانوا يعتنقُونَ إكراهاً، لا إيماناً. وكانَ الإسلام يضيّق عليهم حياتَهم والذي كان ينكر الإسلام يتعرَّضُ للقتلِ والتنكيلِ. والبعض من هؤلاء تنصَّر، والبعض أشهرَ إلحادَه، والبعض صارَ يعتنقُ بعضَ المُعتقدات الشعبية المختلفة. ثم صارَ البعض \ بعضهم\من دعاةِ الانحرافِ

[1] أخرجه الترمذي
[2] أخرجه الترمذي
[3] رواه النسائي
[4] صحيح مسلم
[5] صحيح البخاري

الجنسي، وينتمي إلى جماعاتٍ مثليّةٍ، أو يعترفُ بأنه كانَ مثلياً بالسِّر في مجتمعهِ، ويمارسهُ خفيةً. ولعلّ هؤلاء اعتقدوا أنهم سيحصلونَ بذلك على بعض المزايا الخاصّة، لكن مع الشهور والسنوات، تبيَّن لهم عدمُ وجودِ مزايا تخصُّ المعتقداتِ، أو الانحرافات، فالذي يذهب إلى المسجدِ، أو إلى الكنيسة، أو إلى أي معبدٍ وثنيٍّ، أو ينضمُ إلى أي جماعةٍ منحرفةٍ جنسياً، لا تُمنحُ له أيةَ مزايا خاصّة. ونظيرُ ذلك أصبحَ منبوذاً ومنعزلاً بين أهلِه وأقربائه في ديارِ اللجوء، فإن كان متزوّجاً يكون قد فشلَ في زواجه، وإن كان عازباً، يتردّد الناس عن مُصاهرته، بل يعتذرونَ عن استقبالِه، ويُحذّرون أبناءهم وبناتِهم من التواصلِ بهم حتى من خلال وسائلِ التواصلِ الاجتماعي مهما كانت صلةُ قرابتِه بالعائلة. فلبثَ هؤلاء في عزلةٍ يتجرّعُون علقمَ الاغترابِ، فلا هم ينسجمونَ مع جماعاتِهم التي انتموا إليها في الغرب، ولا أحد يستقبلهُم من أهليهم. فتعرّضَ بعضهم إلى أوبئةٍ نفسيةٍ نتيجةَ ذلك، والبعض انتهَى إلى بعضِ الأمراضِ البدنيةِ نتيجة القلقِ والاضطراب، أو نتيجةَ بعض الممارساتِ الجنسيةِ المنحرفة، أو الإدمان على المخدّرات ففسدت عليه حياتُه، وماتَ بتلك الأمراضِ. والبعض إلى الانتماء إلى بعض الجماعات المتطرّفة، والبعض انتهى إلى الانتحار.

فالذي لا يصلح لمُعتَقَده، لا يصلح لأي معتَقَدٍ آخر، والذي لا يصلح لمجتمعِه، لا يصلح لأي مجتمعٍ آخر. ودوماً فإن الإنسانَ النافعَ هو الذي يتقدَّم ويحقّق النجاحَ تلو النجاح، ويطوّر نفسَه إلى ما هو أفضل. وإذا نظرنا إلى الذين دخلوا الإسلام في بدايات الدعوةِ، كانوا أشخاصاً مُمَيَّزين، وكانوا أبطالاً في مجتمعاتِهم، مثل: أبو بكر الصدّيق، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطارق بن زياد، وأبو سفيان بن حرب. وشملَ ذلك النساء أيضاً اللواتي دخلن الإسلام، مثل: أم المؤمنين الكُبرى خديجة بنت خويلد التي كانت امرأة ناجحة ونافعة في مجتمعها. ولبث هذا مستمرّاً، فنرى أن الشخصيّاتِ المميّزةَ والنافعةَ مثل رموزِ الأدبِ، والفنِّ، والإعلام، والفكر، والفلسفةِ، والطبِّ، والاقتصاد، ومختلفِ الفعّاليّات الاجتماعيّة، تعتنقُ الإسلام. وحتَّى غير المشاهير الذين يعتنقونَ الإسلام، فإنّهم يكونونَ أبطالاً في أعمالهم، وعلاقاتِهم الاجتماعيّة. فنكون بذلك أمامَ أعدادٍ هائلةٍ من معتنقي الإسلام، سواء من الرموزِ والمشاهيرِ، أو من سائرِ شرائحِ الناس. في حين أنَّ الواقعَ يبيّن بأن الذين يرتدّون عن الإسلام، هم أعدادٌ قليلةً جداً،

وتكادُ تكونَ استثنائيَّة جدّاً. والارتدادُ بذاته لا يحصلُ بشكلٍ طبيعي مستقرٍ، بل كردّ فعلٍ على بعض الانتهاكات التي يرتكبها بعض المسلمين بحقّهم تحت شعاراتٍ إسلاميّةٍ. وهؤلاء ليسُوا من النُخَب، أو الذين بلغُوا النضوجَ، أو الذين لهم مُنجزاتِهم الهامّة، كما الأمرُ بالنسبة لمعتنقِي الإسلام، بل عادةً يكونونَ من الشبّان قليلي الخبرةِ، ومتواضعي النضوجِ، وليسوا من ذوي مهارات الإبداعِ، أو الإنتاجِ، أو النبوغ، أو العبقريّةِ، ولا توجد لديهم منجزاتٍ هامّة قدّموها للمجتمع. وهذه الحقيقةُ تجلو لك ببساطةٍ شديدةٍ وأنتَ تستحضرُ الذين اعتنقوا الإسلامَ، إلى جانب الذين ارتدّوا عن الإسلامِ. وهذا كله إلى جانب أنك لو أتيتَ بصور عشرةِ أشخاص على سبيل المثالِ خمسةٍ من الذين دخلوا الإسلامَ، وخمسةٍ من الذين ارتدّوا عن الإسلامِ، سترى علامات السّكينةِ والارتياح على وجوه الداخلين، وترى علاماتِ الاضطرابِ والقلقِ على وجوه المرتدّين. معتنقو الإسلام تكونُ وجوهُهم مستنيرةً كمصابيحَ، والمرتدّون تكون وجوهُهم داكنةَ مُحتقنة كما لو أنها مصابيح محترقة لا ترى فيها ذرة استنارة. وهذه علامات تشير إلى الراحة النفسيّة التي بات ينعم بها المُهتَدون إلى نور الإسلام، وإلى موجات الاضطرابِ الحادّة التي بات يكتوي بلظاها المرتدّون عن نور الإسلام، من غير أن يجدوا بديلاً أو تعويضاً عن خسارتِهم الفادحة التي مُنيوا بها، وعن ضلالِهم الأكبر الذي أصبحوا في براثنه.

ولذلك لا تجد المهتدين إلى الإسلام يُصابون بأوبئةٍ نفسيّةٍ، أو يُقدمونَ على الانتحار، أو يستخدمونَ المُخدّرات، أو يستسلمون للأهواءِ والانحرافات التي تستهلك طاقاتهم البدنية والنفسيّة معاً، وتُسيءُ إلى سمعتهم، بل يرتقونَ في درجات العافية والفضيلة والعفاف، وتحقيقِ النجاحات، والعلاقات الاجتماعيةِ والحميميّة، والاستمتاع بحياتهم.

وهنا نرى أن نُصنّف المُرتدّين إلى صنفَين، صنفُ ارتدّ عن جَوهَرِ الإسلام، وهو مُنكرٌ لكل شيءٍ يخصّ الإيمان سواء في الإسلام، أو في أي معتقدٍ آخر لمجرَّد أنه يؤمن بوجود الله، أو الجنة والنار، أو الثواب والعِقاب، أو البعث. فهو لا يكتفي بإنكار الدِين سواء أكانَ عند اليهود، أو النصارى، أو المسلمين، بل ينكرُ حتى بعض المُعتَقَدات الشعبيّة غير السماوية، لمجرَّد أنها تؤمنُ بوجود الله، رغم أنها تعبد غيره

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾الزمر٣.

فهو يستنكرُ حتى عِبادة الوثني للوثن، فقط لأنه يرى بأن هذا الوثنَ يقرّبه﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾. لو اكتفى الوثنيُّ بعبادةِ الوثنِ كشيءٍ أرضيٍ لا علاقة له بالسماء، لَما استنكرَ عليه ذلك، فهو ينكرُ مجرَّدَ فكرةِ الإيمانِ بوجودِ الله سبحانه وتعالى. فالذي يذهبُ إلى المسجد، لولا إيمانه بالثوابِ من الله، لَما ذهبَ، وكذلك الأمر بالنسبةِ للذي يذهبُ إلى الكنيسةِ، أو الكنيس، وكذلك أهلُ المعتقدات غير السماوية. فهم جميعاً يُصلّون ويصومون ويتعاونون فيما بينهُم من منطلقِ الثّواب من الله الذي في السماء، وكذلك العِقاب من الله الذي في السّماء في حال التمادي على حقوقِ غيرهم. والجميعُ يشتركونَ في الإيمانِ بوجود الجنةِ والنارِ في الآخرة.

أمّا الصنفُ الثّاني من المُرتدّين، والذي يُشكّل الأكثريّةَ الغالِبةَ، فهو يرتدّ عن التُراث الفقهي السَّلبي الذي اعتقدَ بأنه جوهرُ الإسلامِ. فالإسلامُ يتمثَّلُ بالنسبة إلى ذهنيَّته في أولئكَ الذين يقتلونَ بعضَهم بعضاً، ويتسبّبونَ بإلحاقِ أفدحِ الأضرارِ بالمجتمع. فهذا جيشُ محمد، وذاك فيلقُ القرآن، وتلك كتيبةُ أنصارِ الله، وهذا لواءُ الحقِّ المُبين، وهذه جبهةُ هذا الصَّحابي أو ذاك، وما إلى ذلك من إقحامِ شِعاراتِ الإسلامِ على انتهاكات بعضِهم بحقِّ بعضٍ، ويسبونَ نساءَ بعضِهم بعضاً، يُشرّدون عوائلَ بعضِهم بعضاً، يُرمّلون نساءَ بعضهم بعضاً، ييتّمون أطفال بعضهم بعضاً. وقد حوّلوا عقيدةَ الإسلامِ إلى سبي نساءٍ، وتيتيمِ أطفالٍ، وتشتيتِ عائلاتٍ، وهدمِ بيوتٍ على رؤوسِ ساكنيها، وتسبّبوا في الفلتانِ الأمني، وفرارِ الملايين من المسلمين من انتهاكاتِهم واللجوءِ إلى غيرِ المسلمين استنجاداً بهِم وطلباً إنسانياً لحمايتِهم من انتهاكاتِ المسلمين الوحشيّة بحقّهم. فحصلَ أن اتّخذَ بعضُ الشبّانِ المواقفَ السلبيّةَ من الإسلامِ، وهم يرونَ أن هؤلاءِ قد ألحَقوا بهم كلَّ هذه الويلاتِ دون أدنى مشاعرِ رحمةٍ، ولا ذرّة واحدةٍ من الإنسانيّةِ، فهؤلاء أتى إلحادُهم كردّ فعلٍ على ما لحقَ بهم من وَيلٍ، وليس على التعاليمِ القرآنية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ البقرة٢٥٦.

﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾آل عمران١٥٩. ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾يونس٩٩. ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾النحل١٢٥. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾الحج١٧. ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾فصلت٣٤.

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾. السَكنُ الجيّدُ، يُحققُ لساكِنه السَكينةَ، والإنسانُ يستَكينُ في مَسكنه، ولذلك يبحثُ عن مسكنٍ جيّدٍ، يكونُ راضياً به. والرضى هنا بمعنى ينشرحُ صدرُه بهذا المسكن، ويحبُّه ويألفُه، ويرى فيه مقوّماتِ راحتِه البدنيّة والنفسيّة. فيسعى إلى توفيرِ كلِّ مستلزماتِ هذا المنزل من التدفئةِ، والتبريدِ، وتجهيزاتِ المطبخِ، والحمّامِ، وصالةِ الاستقبالِ، وغرفةِ النوم، وغرفُ الأبناء، وبعض المزروعاتِ على شكل حديقةٍ صغيرة. ولا يقتصرُ ذلك على داخل هذا المسكنِ فحسب، بل يضفي جماليّاتٍ حتى إلى منظره الخارجي. فهو عندما يدخلُ إلى مسكَنه، ينتابُه شعورٌ بأنه دخلَ إلى مملكتهِ الآمنةِ التي فيها كلُّ مستلزماتِ الراحةِ والاستمتاع بمباهجِ وأنس وسَكينة الحياة. ولذلك عندما يخرجُ، يشعرُ بأنَّه قد خرجَ من مملكتِه، وعندما يعودُ يأتي معه بأشياءَ جديدةٍ لها، لم يكن قد خرجَ لشرائِها، بل وجدَها صدفةً فأتى بها، ربما تكونُ مزهريةً جديدةً ملفتةً، أو تحفةً ما، كونُه يريدُ أن يأتيَ بكلِّ ما هو جميلٌ إلى مَسكنه. ولأن احتياجاتِ الإنسانِ دوماً تتجدَّدُ ولا تنتهي، فإنَّ احتياجاتِ المَسكَن أيضاً تتجدَّد دون أن تنتهي. فمهما أتيتَ بمستلزماتٍ إلى مسكنكَ، لا بدّ أن ثمةَ أشياء تبقى ناقصةً، وعلى هذا لا يوجدُ مسكنٌ مُتكاملٌ دون نقصٍ، لأنه لا يوجدُ إنسانٌ مُتكاملٌ من غير نقصٍ. وعلى هذا لا توجدُ زوجةٌ كاملةٌ من غير نقصٍ، ولا يوجد

ابنٌ كاملٌ من غير\نقصٍ، لا يوجد أخ كامل من غير نقص، لا يوجد صديقٌ كامل من غير نقصٍ، لا يوجد جار كامل من غير نقص، بل لا توجد حتى ثياب كاملة من غير نقصٍ مهما حرصتَ على كمالِها وأنت تشترِيها.

إذن اختُتِمَت الآيةُ الكريمةُ بالمقوّم الثامن في حياة الإنسانِ، وهو المَسكَن. وجاءَ المسكَنُ هنا دونَ البيت، إشارةً إلى فخامةِ العَمَار، وفخامَةِ الأثاث، وأنَّه يمكنُ أن يجعلَ الإنسانَ يُؤْثِرُ حبَّهُ لمسكنهِ الفارهِ هذا على حبِّ ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾إبراهيم٤٥. هنا أيضاً جاء السكنُ من غير البيت.

والمسكن بشكل عام هو موضعُ إقامةِ الإنسانِ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾النور٦١.

جاء السياقُ هنا لغرضِ الطَّعام، فهو بيتٌ. وكذلكَ وصفَ اللهُ عز وجل مواضعَ إقامةِ النبي صلى الله عليه وسلم بالبيوت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾الأحزاب٥٣.

واقترنَ ذكرُ البيوتِ هنا أيضاً بالطعامِ، وبيوتُ النبي صلى الله عليه وسلم هي بيوتٌ متواضعةٌ مظهراً وأثاثاً. فهذه المساكنُ التي ارتضيتموها لراحةِ أنفسِكم وأهليكم، وزوَّدتموها بمقوّمات السَّكينةِ، وتشعرونَ بارتياحٍ عندما تكونونَ فيها. تأكلونَ وتشربونَ فيها ما طابَ وما لذَّ من طعامٍ وشرابٍ، تستأنسونَ مع أهليكم فيها، تستقبلونَ فيها أحبّاءكم، تنعمونَ فيها بالنَّوم الهانئ، ولا تتخيّلون أنها ستذهبُ منكم، وتُقيمونَ في بيوتٍ تفتقرُ إلى أدنى مقوّمات

السَكينةِ، بل لا تريدونَ دخولَها، كونها غيرَ مريحة، وتستفزّكم، وأنتم لا ﴿تَرۡضَوۡنَهَآ﴾. لكنّكم تُجبَرونَ للإقامةِ فيها. فتتأخّرون خارجَها ما أمكن هرباً من الإزعاجاتِ التي تَرونها في هذه البيوت.

فالإنسانُ عندما يشعرُ بالإرهاقِ سواء البدنِي، أو النَّفسي، فإنه يلجأُ إلى بيتِه كي يستريحَ فيه، فيكمن خوفه من خسارتِه لهذا البيت الآمن الذي ارتضَى به لإقامته، ويملكُ حريّةَ التصرّف فيه. وهو يشعرُ بالانشراحِ عندما يكون فيه، ويشعرُ بحنينٍ إليه عندما يبتعدُ عنه.

تُباركُ لك الآيةُ الكريمةُ استمتاعَك بهذا المسكنِ الجميل ومدى حرصكَ عليه، لكن في الآن ذاته، تُحذّرك بألاّ يتحوَّلَ مسكنُك الأنيق هذا إلى نقطةِ ضعفٍ بالنسبةِ إليك عندما تقعُ بعضُ التحوّلات، وقد يمتحنُك اللهُ فيها حتى تُثبتَ له عمليّاً بأنك يمكنُ أن تستغنيَ عن هذا المسكنِ الذي ربَّما تكونُ قد بنيتَه بنتيجةِ شقاءِ عمرِك كي ترتاحَ فيه، إذا رأيته يتحوَّل إلى سببٍ يجعلُك تتجاوَزُ شرعَ الله. فتبدرُ منك تصرّفاتٌ جائرةٌ وأنتَ تعلمُ بأنها جائرةٌ، أو جبانةٌ، وأنت تعلم بأنَّها جبانةٌ، وكلُّ ذلك في سبيلِ أن تبقى مُحافِظاً على مسكنِك هذا.

والآيةُ في هذا المقامِ تُنبهكَ بأنَّ نجاحَك في هذا الامتحان يكمنُ عندما تكون على استعدادٍ كي تتخلّى عن هذا المسكنِ رغم تعلّقكَ به، ويمكنُ أن يتفرَّعَ هذا إلى المركزِ الوظيفيِّ أيضاً، فأنتَ تكونُ مسؤولاً رفيْعاً، وقصرٌ بأكملهِ بما فيه تحت تصرّفكَ

ورهنِ إشارتِك، وتمضِي فيه أوقاتاً جميلةً تستريحُ فيها كما لو أنّك في مسكنِك. وبعد فترةٍ تراك تُقدم على بعضِ التجاوزاتِ الشرعيّة، وترى بأنّك إذا امتنعتَ عنها، ستُعْفى من كلِّ ما أنتَ فيه من جاهٍ ومركزٍ، فتقبل التجاوزَ، وهنا تكونُ قد فشلتَ في الامتحان وأنتَ تؤْثِرُ الباطلَ على الحقِّ في سبيلِ البقاءِ في قصرِك الذي تداومُ فيه.

وبعد، فهل أنواعُ الحُبِّ الثمانيةِ التي ذَكَرَتْها الآيةُ الكريمةُ هي: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؟.

هذا هو السؤالُ الكبيرُ الذي تسألُه الآيةُ الكريمةُ للمؤمنينَ، والسؤالُ الكبيرُ يكمنُ في ثناياه اختبارٌ كبيرٌ، اختبارُ درجاتِ الإيمانِ، اختبارُ مدى صدقِ الإيمان. فما الذي يكون: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم﴾؟. هنا تكونُ إجابتُكَ عمليّةً، فتُسجّلُ بها مواقفَك العَمَليّة عند الله وتقولُ:

لا يارب، ذلك كلُّه ليسَ ﴿أَحَبَّ﴾ إليّ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. والجهادُ هو هذا الفعلُ الذي تقومُ به عمليّاً، فتقولُ بلسانِك: لا يارب. ثم تُقْدمُ على الفعلِ جهاداً ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾. لأن الجهادَ من الجَهد، أي من الفعلِ العَمَلي، ولذلك جاء الجهادُ بعد الحبِّ، وأيُّ كلامٍ عن الحبِّ يبقى لفظاً ما لم يُفعّله العملُ. فلعلّ شخصاً يتلفَّظ كلَّ يومٍ ألفَ مرةٍ بأنه من محبّي ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. ولكنْ عندما يأتي الاختبارُ الكبيرُ، تنبثقُ منه الحقيقةُ الكُبرى من خلال ما يفعلهُ كردٍعَمَليٍّ على هذا الاختبار. فإن رجَّحَ ألوانَ الحبِّ المذكورةِ، سيكونُ قد أثبتَ عمليّاً وفعليّاً بأنها﴿أَحَبَّ﴾إليه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. والاختبارُ يكونُ عاماً في درجاتٍ متفاوتة من الإجاباتِ والتفاعلات العَمَليّة، فهناك مَن يثبتُ صدقَه في حبِّ ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. بدرجةِ مئة بالمئة. وهناك مَن يكون أقلَّ، وهناك مَن يكون صفراً. فتنتهي الآية الكريمة نهايةً بديعةً: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾. فترقّبوا ﴿حَتَّىٰ﴾ يعْطي ﴿ٱللَّهُ﴾ لكلِّ واحدٍ نتائجَه.

وهذا يحصلُ في الدنيا قبل الآخرة، لذلك ترى شخصاً كانَ في القمّة، سواءٌ في المالِ، أو المنصبِ، أو الجاهِ، أو المهنةِ. وبغتةً يتهاوى وينتهي إلى الذلِّ والمَهانة. وشخصٌ كان يُعاني من ضيقِ المعيشةِ، ولم يجدْ عملاً، ولم يكنْ قادراً على الزواج. وبغتةً ترى حياتَه انقلبَت رأساً على عقبٍ نحو الإيجاب، فيجدُ عملاً يدرُّ عليه دخلاً جيداً، ويتزوَّج، ويشتري بيتاً أفضل من الذي كان يسكنُه، يتزوَّجُ، يُكوّنُ عائلةً، يشتري سيارةً. وليس هذا فحسب، بل يُقدّمُ مساعداتٍ لأهلِ الحاجة الذين يمرّونَ بظروفٍ صعبةٍ، بل يُصبح مثالاً للإنسانِ المتفوّقِ في بلاده كلّها.

وكما أكرمَه الله تعالى في الدنيا، يُكرمُه أيضاً في الآخرة لأنه نجحَ في الامتحان، وأحسنَ استخدامَ النَّعيمِ عندما أتاه، كما أنَّه التزمَ بحدودِ الله عندما كانَ محتاجاً. كما أن الرجلَ الآخر الذي انتهى إلى المَهانة في الدنيا، فإنه يلقاها كذلك في الآخرةِ. وبينَ هذَين النموذجَين، هناك أناسٌ بدرجاتٍ مُتفاوتةٍ، كلٌ بحسبِ إجابته العمليةِ والفعليةِ في الاختبار.

من هنا يتبيَّنُ لك بأنَّ الإنسان الكريم لا يموتُ قبل أن يلقى تكريمَ الله له في الدنيا، والإنسانُ اللئيمُ لا يموتُ قبل أن يلقى مذلةَ اللهِ له في الدنيا.

فلابدّ لكلّ إنسانٍ أن تصلَ إليه نتيجتُه﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾. وهذا عهدٌ قاطعٌ من اللهِ سبحانَه وتعالى للناسِ جميعاً ولا استثناءَ فيه. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. الفسوقُ في هذا السياقِ، يعني الشذوذَ، أي تشذّ عمّا هو دونَ الصواب. والصوابُ كما بيّنَت الآيةُ الكريمةُ هو أن يكونَ: ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. ﴿أَحَبَّ﴾ إليكَ من: أبيك، وابنك، وأخيكَ، وزوجك، وعشيرتك، ومالك، وتجارتك، ومسكنك. لماذا؟. الإجابة: لأنَّ ما يقدر عليه الله، لا يقدر عليه أحد، وما لدى الله، ليسَ لدى أحد، وما فضَّلَ به اللهُ عليك، لم يفَضّل به عليكَ أحد. وأي مخلوقٍ كائناً مَن كان لا يستطيعُ أن ينفعَكَ أو يضرَّك من غير أنْ يأذنَ اللهَ بذلك. فإن أرادَ اللهُ أن يذلَّ شخصاً، فلا أحدَ قط بوسعِه أن ينجيَه من ذلك، حتى لو كانَ ملكاً والدُّنيا كلُّها رهنُ إشارته، وإن أرادَ أن يعزّ شخصاً، فلا أحدَ قط بوسعِه أن يمنعَ وصولَ هذا العزِّ إليه، مهما كانَ بائساً في مجتمعِه.

إذن، الفسوقُ هو الانحرافُ عن هذه الحقيقة الإلهيّة التي يُخبرُ بها اللهُ عِبادَهُ في هذه الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. بيانٌ بأنَّ الفاسقَ لا يعزّه الله سواء في الدُّنيا أو الآخرة، وإن أعزّه بعضَ الوقت في الدنيا بمالٍ، أو جاهٍ، أو حكمٍ، وما إلى ذلك، فهذا يكونُ من بابِ الاختبارِ يُظهرُ من خلاله معدنه الحقيقي، فتقعُ عليه الحجّة، ولا يدومُ له العزّ، في حين أنَّ العزّ يديمُه الله تعالى لأربابِ العز. والعز درجات وتفرّعات في الصِّحة، في المال، في المنزلةِ الاجتماعية، في العملِ، في السيرةِ، في الأبناء، في الزوجةِ، في الراحةِ النفسيةِ، في المسكنِ المريحِ. وهكذا كلّما استقامَ الانسانُ، كلّما زادَه اللهُ عزاً على عزٍّ، وكلّما فسقَ، كلّما أهبَّ اللهُ عنه عزَّه. وعلى هذا البيان ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. و﴿يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ﴾ المستقيمين.

الباب الخامس والعشرون | نتائج الأعمال

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ٢٥

كلمة: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾. في الآيةِ السابقةِ، تركتِ الترقّبَ مفتوحاً ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾. ترقّبوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

في هذه الآيةِ الاستئنافيّة، يُذكّرهُم اللهُ عزَّ شأنَه بنتائجِ انتظارِهِم فيما مضى، حيث أتى ﴿ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾. سواءٌ للمؤمنين، أو عليهِم، سواءٌ للكفار، أو عليهم. والآيةُ هنا تجعلُكَ تعودُ بذاكرتِك إلى الأحداثِ التي وقعَت فيما مضى سواءٌ معَكَ أو مع غيرِك حيث أعطى اللهُ لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه. فكمْ من مرةٍ تجنَّبتَ أشياءً مخافةَ الله، ثم انظرْ إلى النتائجِ الجيّدة التي بداتَ تنعمُ بها بعد كل موقفٍ من مواقفِك الإيمانيةِ تلك. وكم من شخصٍ أصبحَ أميناً على مالٍ، فسطا على ذاك المالِ، ثم تذكَّر ما آلَ إليه. كم من موقفٍ حقٍّ وقفته رغمَ أنكَ خسرتَ بعضَ المقرَّبين جداً إليك، وتذكَّر كيف أنَّ اللهَ أعزَّك في موقفك، وجعلَهم يُدركون أنَّهم كانوا على خطأ، وأنَّك كنتَ على صوابٍ، والنتائج بعد زمنٍ أثبتَت ذلك.

من هنا، فإنَّ هذه الآيةَ الاستئنافيةَ الكريمةَ، تبيِّن لك بأنَّ حياتَك تتحسَّنُ على قدرِ الأعمالِ الحَسَنة التي تقدمُ إليها، وتَسوءُ بقدرِ الأعمالِ السيّئةِ التي تَقدم إليها. وكلُّ الحَسَن أن يكونَ ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾. ﴿أَحَبَّ﴾ إليك. وكلُّ السيّء أن تكونَ أنانيّتَك ﴿أَحَبَّ﴾ إليك.

لماذا؟ الإجابة: لأنَّ ما يعلمَه اللهُ لخيرِك، لا تعلمه أنتَ، فعندما يختبرُك بشيءٍ، يعلمُ بأنَّ استمرارَك في هذا الشيءِ سوفَ يؤذيك، وأنتَ ترى بأنَّ استمرارَك في هذا الشيءِ يدرُّ عليكَ النفعُ تلوَ النفعِ. ففي الآيةِ السَّابقة بيَّن اللهُ عزَّ وجل ثمانيةَ أنواعٍ مما تميلُ إليه، وما يمكنُ أن يتفرَّعَ عن تلك الأنواعِ الثمانيةِ وفق مستحدثاتِ الزمَن. وبيَّن بأن مصلحَتك الحقيقيّةَ تكمنُ في الأخذِ بتحذيرِ الله لك، حتى لو جعلَك هذا الأخذُ تضحّي ببعضِ علاقاتِ القَرابةِ

الأثيرة لديك، أو ببعضِ مقوّماتِ رَغدِ العَيش الذي ترفُل فيه. وقد ضَحّى النبيُّ الكريمُ بأهمِّ علاقاتِ القُربى لديه فخَسِر أقربَ الناسِ إليه مثل أعمامِه، وأبناء أعمامِه، وجواره، وأصدقائِه، وما إلى ذلك. وعندما أُنزِلَت عليه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۞ ﴾المسد. هذا الكلامُ الذي سوفَ يسعّرُ عمَّه وكذلك زوجة عمّه، وبعضَ الأقرباء، إضافةً إلى هذا كلّه، سيسعّر صهريه ابنَي أبي لَهَب، حيثُ كانت ابنتَه رقيّة زوجة أحدهما، وابنته أم كلثوم زوجة الآخر. فهو لم يكنْ عمَّه فحسب، وابناه لم يكونا ابني عمّه فحسب، بل زوجَي ابنتَيه أيضاً. وهكذا فإنَّ أبا لهب له خصوصيّةُ القرابةِ أكثر من جميع أعمامِه. وأبناؤه لهم خصوصيّةُ أكثرَ من جميعِ أبناء أعمامِه، وزوجتِه لها خصوصيّة أكثرُ من زوجاتِ جميعِ أعمامه. والآيةُ توعّديّة قويّة ومباشَرَة، من كلمتِها الأولى بحق عمِّه: ﴿تَبَّتْ﴾. وإلى الكلمةِ الأخيرة: ﴿مَّسَدٍۭ﴾. بحقِّ زوجته وهي أروى بنت حرب بن أمية، وتُعرفُ بأم جميل. وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد تزوَّجت بأبي لهب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأنجبتْ ستةَ أبناءٍ هم: عتبة، عتيبة، ومعتب، والدرة، والعزى، وخالدة. وهذا بذاتِه تحذيرٌ إلهيٌّ بأن بعض الناس الذين يتمادون على أولياء الله الصالحين الذين هم خلاصة عِباد الله في كل زمانٍ ومكان، فإن اللهَ يغضبُ عليهم ويُصدرُ حكمَه المُباشَر عليهم في الدنيا وفي الآخرة.

إذن ما الذي سيحصلُ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قد وُضِعَ في هذا الموقفِ؟ سيحصلُ أنه سيبلّغُ الآيةَ بحذافيرها دون أية اعتبارات دنيويّة. ومثل هذه المواقفِ تعدَّدت في القرآن الكريم حتَّى عن شخصِ النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذلك: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾الأحزاب٣٧. وهذا يبيّن ويؤكّدُ بأن القرآنَ الكريمَ قد بلّغَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كاملاً كما أُنزِل.

فعندما أُنزِلَت سورة المسد، كان لها دويُّها الخاص بالنسبة لعمّه وزوجة عمّه، وصهرَيه عتبة زوج رقية، وعتيبة زوج أم كلثوم. وهما ابناعمّه أبو لهب، حيث أدّى ذلك أولَ ما أدّى إلى طلاقِهما، وجاءت زوجة عمّه إليه وحاولتْ قتلِه، ولكنَّ اللهَ أنجاه. وهذا المِثالُ يبيِّن بأن طاعةَ الله في كل شيءٍ هي المُنقذة، وأن حصانتَك الوحيدةُ هي طاعةُ الله، ومهما خسرتَ في سبيل طاعةِ الله، فإنك رابحٌ لا محالة. فقد عوَّض اللهُ ابنتَي الرسول صلى الله عليه وسلم بخيرٍ من زوجَيهما، حيثُ تزوّجهما عثمان بن عفان، وعُرِف بذي النورَين. وهو أحد العشرة المُبشّرين بالجنة، وبذلك فإن بناتَ النبي صلى الله عليه وسلم وفقَ الأعمار هن: رقية، أم كلثوم، زوجتا عثمان، زينب زوجة أبي العاص بن الربيع، فاطمة زوجة علي بن أبي طالب.

على هذا الأساس تستأنفُ الآيةُ الكريمةُ في مبتدئِها السِّياق: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾. هكذا تذكَّر كم من مرةٍ نصركَ اللهُ فيها ولم تكنْ أهلاً للنصرِ، كم من شخصٍ أرادَ أن ينالَ منكَ، ولكنَّ الله لم يُمكّنه منكَ رغم دقّة محاولاته، ورغمَ سعةِ إمكاناته. ومهما تذكَّرتَ من مواقفَ، فإنَّ ما خفيَ عنكَ لهوَ أكثر، ولكنَّ اللهَ كان ينجيكَ، ويُهزمُ ذاك الذي يريدُ بك شرّاً، وينصركَ عليه حتى من غير أن تعلمَ. كم من شخصٍ أراد أن يفرّق بينكَ وبين زوجتك، أن يؤجّجَ عليك أبناءكَ، أخوتكَ، أقرباءك، أو يُلحقَ بك الأذى ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً. أجل كما يوجد خيّرونَ في هذا العالم، يوجد إلى جانبهم شرّيرون.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾. الكلام هنا للصحابة الكرام رضوان الله عليهم، كي يستعيدوا بذاكراتِهم ما قد حصلَ معهم، سواء بصفةٍ فرديّة، أو بصفةٍ جماعيّة. كذلك يبقى مفتوحاً لمؤمني كل زمانٍ ومكان. بعد﴿ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾. وقد تركَ لهم حريّةَ تذكّرها مَوطناً مَوطناً، ذكّرهم الله تعالى ذكره بمعركةٍ قريبة زمنياً وقعت قبل نحو سنة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾. وحتى نبقى في زمنِ السورةِ، فنحن في زمن معركةِ تبوك التي وقعَت بعد فتحِ مكة بنحو سنة، أي في السنة التاسعةِ للهجرة. والآن مع هذه الآية الكريمةِ، يعيدنا السياقُ القرآني إلى نحو سنةٍ ماضية، السنة الثامنة للهجرة، حيث معركةُ حُنَين وهذه المعركةُ وقعَت بعد فتحِ مكةَ بنحوِ شهرٍ، أي كان المسلمون أقوياء فيها: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾. فإذن كانوا كثرَة، وكانوا أقوياء، ولولا ذلك لَما

استطاعوا أن يَهزموا قوّة المشركين ويفتحوا مكّة، وهم الذين اضطرّوا للخروجِ منها بسبب ضعفِهم وقوّة خصومهم، بل هؤلاء الخصوم لحقوا بهم حتى إلى المدينة في معركةِ بدرٍ ليُحاربوهم. فانقلب الأمر بعد عملٍ جادٍ في نشر الدعوة بالكلمةِ الطيبة والموعظةِ الحسنة، والالتزامِ بشعارِ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ البقرة٢٥٦. فالمهمُّ ألاّ تؤذيْني في معتقدي، ولا أؤذيك في معتقدك، ونحن جميعاً أخوة، وعلينا أن نحافظَ على رابطةِ هذه الأخوّة الإنسانيّة بيننا: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾الكافرون.

ويشملُ هذه حتى تغيير سحنةِ الوجه، ولذلك لم يقبلْ الله سبحانَه وتعالى عندما عبسَ النبي صلى الله عليه وسلم من دخول عمرو بن أم مكتوم عليه، فصوَّب له:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾عبس.

وهو رجلٌ أعمى، لم يرَ حتى سحنة الوجه هذه، فليسَ المهمُّ مَن يراك أو لا يراك، بل المهم أن اللهَ يراك. فحتى في غياب شخصٍ لا يجوزُ لك مجرَّد أن تغيّر سحنةَ وجهك بذكره. وبيان الله عز وجل: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾. موجّه للرسول، ولكل مَن يأتسي به صلوت الله وسلامه عليه. وأنتَ تستمدّ استقامتَك من استقامةِ النّبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يزدادُ استقامةً على استقامةٍ مع الإرشادِ الإلهي المُبارَك.

فأيُّ انحرافٍ عن هذا المنهجِ السليم يُعرّض حتى المؤمنينَ لخطرٍ وإلحاقِ أفدح الأضرار بهم، ويكونون هم الذينَ جلبُوا ذلك على أنفسِهم سواء أكانُوا أفراداً، أو جماعات.

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾. حدثٌ هامٌ للغاية حيثُ كان عددُ المسلمين اثنَي عشر ألفاً، وعددُ المشركين أربعة آلاف، وهم من هوازن وثقيف. ويبدو أنَّ هذه الكثرة جعلتهم يثقون بالنَّصر، أي يضمونه مسبقاً قبل أن يتحقّقَ. وهذا مالا يجوز مهما كانت الأسباب مُتاحةً، والتوقّعات

عاليةً. هناك عِبارة ذكرتها بعضُ مصادرِ أسبابِ نزول هذه الآية الكريمة، وهي أنَّ رجلاً من الأنصارِ اسمه سلَمَة بن سلامة بن وقش، قال: (لن نُغلَب اليوم من قلَّةٍ). وإذا نظَرْنا إلى ما قاله نرى أن العِبارةَ التي قالها جاءت بجزم، كما لو أنه ضمَّن النتائج، وحَسَم أمرَ النصر. وهذا يدخل ضمنَ علمِ الغيبِ الذي لا يعلمه إلاّ الله، ولذلك لا بدّ من قولِ: إنشاء الله. في حالِ التحدّث عن أي شيءٍ نُقبلُ عليه، مهما كان هذا الأمرُ يسيراً، أو كان عسيراً: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾الكهف.

و: (لن نُغلب اليوم من قلّةٍ). كانت ستبدو سليمةً فيما لو اقترنَت بـ إنشاء الله. سواء في مبتدأ الجملة، أو في نهايتِها. أمّا دون ذلك، فيكونُ المعنى أنَّ كثرتهم هي التي تجعلهم لن يُغلَبوا (من قلّة). فجاء بيانُ الله: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾. والآية تذكيريّة، أي: ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ سابقة. ومن ذلك على سبيل المثال ما حصلَ في معركةِ بدر الكُبرى، حيث كانَ المسلمون قلّةً، وكان المشركونَ كثرة. وكانت كلُّ العواملِ تشيرُ إلى انتصارِ المشركين، ولذلك أتوا بمعنوياتٍ مرتفعةٍ كما لو أنَّهم قد ضمنُوا النصرَ على المسلمين. ولكن جاء المَدد من الله سبحانه وتعالى، وانتصرَ المسلمون. ولذلك فإنَّ الآيةَ بالغةُ الدقةِ، ومضمونُها لا يقتصرُ على سبب نزولها. بل هو مضمونٌ مفتوحٌ لمؤمني كل زمانٍ ومكان. لأن الحدثَ هو متجدّد، وعليه فلا تيأسْ من ضعفِك أمامَ القوي الجائر، والمثال هو معركةُ بدر. ولا تعقدُ الأملَ على قوّتك في مواجهةِ مَن هو أقل قوّة منك، والمثالُ معركةُ حنين. لنقرأ الآية الكريمة جملة واحدة: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾. فعندما تواجهُ الظالمَ الذي يريدُ الاعتداءَ عليك، وتكونُ على حق وتلتزمُ بطاعةِ الله دون أن تنحرفَ عنها، لن يتركَك اللهُ لوحدك في جهادِك في مواجهة هذا الجائرِ، بل يدفعُه اللهُ عنك بيدهِ من خلال يدكَ، وهذا وفق السياق الروائي للسورة متّصلٌ بالآية ١٤: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ

﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾. ونحن نستأنفُ الآياتِ التحذيريّةَ والإخباريةَ التي تفصحُ أكثر وأكثر آيةً تلو آيةٍ لترسيخِ وتعزيز هذا الأملِ الكبير عند المؤمن. وبذلك يتبيَّن لنا كم أنَّ القرآن أرضيٌّ على قدرِ ما هو سماوي، كم أنه ملتصقٌ بالأرض كما هو ملتصقٌ بالسماء. ذلك أنه كتابٌ اكتملَ تماماً في السماء، ولم تحصلْ كلمةٌ واحدة منه في الأرض، ورغم ذلك فهو كِتابُ الأرض، يُحسّنُ لأهلِ الأرض حياتَهم، ويرون فيه كلَّ مقوّمات حياةٍ سليمةٍ آمنة طيّبة مجدية في ألأرض. وهذا هو سرُّ عظمةِ القرآن، وسرّ تجدّده الذي لا ينضب، فدوماً يحملُ الجديدُ مع كل قراءةٍ مهما تعدَّدَت القراءات له. فلو قرأتَ أية سورة منه مئةَ ألف مرة، ففي المرة المئة ألف تكتشف ما لم تكتشفه من جميع المرات السابقة. كما لو أنَّك بدأت بقراءتِها لأوَّل مرَّة، وهكذا يبقى القرآن يُدهشك كلّما قرأتَه أكثر، وتبقى تستنيرُ منه كلّما واظبتَ على قراءته، تبقى تقطفُ منه الثمارَ اليانعةَ مع كل قراءةٍ جديدةٍ لم يسبق لك أن قطفتَها في أية قراءةٍ سابقة.

إذن: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾. ولم تكونوا مؤهَّلين للنصر بإمكاناتكم، لكن: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾. فلا تغترّوا بكثرةِ الأموالِ، أو الأبناءِ، أو الأقرباء، أو المؤيّدين، أو القوّة. وهذا تعزيزٌ أكثر لِما جاءَ في الآية السابقة التي يُستَحسَن أن نستذكرَها:

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

فتذكّروا ولا تنسوا: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾على الذين أرادوا الأذى بكم: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ معلومةٍ يمكنكم أن تتذكّروها جيداً. كذلك: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾. كما جاء بمثل النصرِ مع الضعفِ، جاء بمثل الهزيمةِ مع القوّة، فهنا كان المسلمونَ كثرة أقوياء، وكان المشركونَ قلّة ضعفاء، فانتصرت قلّة الشركِ وضعفهِ، على كثرة الإسلام وقوّته. واعتباراً من ذلك، فلا يقولن مؤمنٌ: (لن نُغلَب اليوم من قلةٍ). ويُستنتجُ من المثال الأول عدمُ الركون

إلى اليأس أيضاً عندما تكونُ ضعيفاً، ويكون الظالمُ قوياً. كأن تقول: لا يمكن لي أن أنتصرَ على هذا الظالم النافذِ القوة، وأنا الضعيفُ المتواضع.

فنحن مع هذه الآية الكريمة ما نزالُ في شرحٍ للآية التي سبقتْها بتقديمِ القرائنِ والأدلّة. فإذا كان كل ذلك: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. فاعلموا بأن هذا الـ ﴿أَحَبَّ﴾، هو بائسٌ لا ينفعكم بشيءٍ إذا﴿ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴾النجم٥٧. لأنه أتى على حبِّ ﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾. وكثرتكم هي كثرةٌ واهنة، وقوّتكم هي قوّة هَشَّة، وقصورُكم الفارهة هي كبيوتِ العنكبوت، ولكم فيمَن سبقوكُم عِبرة: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾.

هنا تتيحُ الآيةُ الكريمة فسحةً لقارئها في كل زمانٍ ومكانٍ، كي يسترجعَ بذاكرته كيف أن اللهَ أنجاه من مخاطرَ ﴿كَثِيرَةٖ﴾،وكانت بينهُ وبين هلاكِه غمضةُ عين. حتى إنه دُهِشَ وغيره دُهِشَ لبعض ﴿مَوَاطِنَ﴾النجاة بأعجُوبة. وتُشير الآية الكريمة بأنه مهما عَلِم من ﴿مَوَاطِنَ﴾. فإن ما لم يعلم منها أكثر، ومن ضمْنها ما عَلِم بها غيره، وهو لم يعلمها. فقال جلّ ثناؤُه: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾. أي أماكن ﴿كَثِيرَةٖ﴾،تعلموا منها الكثير، ولا تعلموا منها الكثير.

وعادةً يمكن أن يحصلَ شيءٌ من هذا مع بعض ذوي السِّعة، والمقدرة، والنفوذ، فقد يعتقدون أن إمكاناتهم الراهنةَ تكون حصانةً لهم، كونُهم الأقوى، والأكثر نفوذاً على أرض الواقع.

فنحن مع أجواء وبيئة الأيام القليلة الأولى من فتحِ مكّة، حيث وقعت معركةُ حنين مساء يوم الثلاثاء، العاشر من شوال، في السنةِ الثامنةِ للهجرةِ النبوية الشريفة. والذي حصل أن بعضَ زعماء هوازن، وثقيف عندما علِموا بعودةِ المسلمين إلى مكةَ أقوياء وأنها أصبحت بإدارتهم، اعتقدوا بأن جيشَ المسلمين بسطَ سيطرته على مكةَ، سوف يتّجه إليهم أيضاً. وبموجب هذا الاعتقاد شكّلوا جيشاً من أربعةِ آلاف مقاتلٍ، ليبدأوا الهجومَ على جيش المسلمين الذي دخل مكةَ فاتحاً منذ أيامٍ بقيادة مالك بن عوف.

هنا قال أحدُ المسلمين وهم في ذروة نصرهم وقوّتهم: (لن نُغلَب اليوم من قلّةٍ). كما لو أنه قد ضمن النصرَ، وهذا شيءٌ يمسُّ علمَ الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله. و: (لن). جازمة، قالها جازماً ومستنداً إلى معطيات الواقع الذي هم فيه. فهم اثنا عشر ألف مقاتلٍ، والطرفُ الذي ينوي الهجومَ أربعة آلاف مقاتل. فقد بيّن الله سبحانه وتعالى بأن الغيبَ لا أحد يعلمُه غيره مهما كانت مُعطيات الواقع سلبيّةً أو إيجابيّة. والاستثناء الوحيد يكون فقط لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كونُه يتحدَّث بموجب الوحي سواء في القرآن، أو في الأحاديث النبويّة الشريفة.

وبذلك يكون الأمرُ الإلهيُ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾آل عمران.

فمحبةُ الله تكون من خلال اتّباع الرسولِ، وعندها: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. وعليه: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وفقما جاء في القرآن، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ وفقما جاء في الحديث. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾. لم يأبهوا بذلك، و ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ عنه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾. فعندما تحبّ عليك أن تُفعّلَ هذا الحب بالعمل، وأن تنجحَ في امتحاناتِ الـ ﴿أَحَبَّ﴾ التي يمتحنك الله بها. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾مريم٩٦. فيجعلُ الله سبحانه وتعالى ودَّه بين الناس.

وهنا شيءٌ بالغُ الأهمية، وهو أن اللهَ تعالى ذكره، أحياناً يتركُ رسولَه لبشريّته ليجتهدَ من غيروحي في بعض المواقفِ، فإن أصابَ، تركَه في الصواب، وإن لم يصبْ، صوَّب الله له. مثل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾عبس. وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم. فيتركُ النبي اجتهادَه، ويتّبع الوحي في تصويبه له فإذن: (لن نُغلَب اليوم من قلّةٍ). اجتهادُ غير صائب اجتهد به هذا الصَّحابي استناداً إلى معطيات الواقعِ الراهنِ الذي كان فيه. وهذا ما بيّنته الآيةُ الكريمةُ في تصويبها لهذا الاجتهاد، وما يمكن أن يتفرَّع عنه بما يدخلُ ضمن الغَيب الذي لم يقَع. وهذا يُذكّر بحديث قدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ "[1].

عن أن بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللَّهمَّ أنتَ عَضُدي ونصيري بِكَ أحولُ وبِكَ أصولُ وبِكَ أقاتِلُ"[2].

ما يمكننا أن نستنتجَه من ثنايا هذه الآية الكريمة، هو ألاّ نغرّ بمعطياتِ الواقعِ الراهنِ إن كانت لنا، فيمكنُ لها في أية لحظةٍ أن تنقلبَ وتصبحَ علينا. وألاّ نيأسَ من معطياتِ الواقعِ الراهن إذا كانت علينا، فيمكنُ لها أن تنقلبَ في أية لحظةٍ وتصبح لنا. وأن كثرةَ الرجال ليست دليلاً للقوة، كما أن كثرة المالِ ليست حصانةً من الفقر. وفي عصرنا الحديث، رأينا حكّاماً كانوا يستقوون بمئاتِ الآلاف من المقاتلينَ الذين كانوا يحرصونهم ويحرصون أنظمتهم، وكان نفوذُهم يمتدّ ويبسط على سائرِ البلادِ والعباد. وبين ليلةٍ وضحاها، انقلبَ كل شيءٍ رأساً على عقب، فغدا الحاكم طَريداً، ولم يعد قادراً أن يحتفظَ حتى بكوخٍ، وقد تفتّت جيشُه من حوله، لينتهي نهايةً بائسة ذليلةً. وهكذا الأمر بالنسبةِ لفاحشي الثّراء الذين انقلبت عليهم ثرواتهم، وانتهوا إلى فقرٍ مدقع.

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾. الإعجاب هنا بمنزلة عقدِ الأمل على الشيء المُعجَب به، والظنّ؟ بأنَّ هذه الكثرةُ هي التي تجعلهم يصدّون الذين سيأتون لقتالهم. والآية تُعالج أمراً بالغَ الأهمية، وهو ألاّ تنظر إلى الآخر نظرة دونيّة لمجرَّد أنك أقوى منه. فتبيِّن الآيةُ الكريمةُ بأن الحصانةَ الحقيقيّةَ هي حصانةُ الله، وحصانة الله للقلّة تجعلُها أكثرَ قوّة من الكثرة، وعدمُ حصانةِ الله للكثرة تجعلُها أضعف من ضعفِ القلّة.

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾المعلوم، أثبت هذه الحقيقة عملياً للعيان على أرضِ الواقع.: ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾. أي: ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ﴾ – كُم – عن حصانة الله.: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ﴾. رغم سِعة رحابة الأرض، غدت تضيق عليكم. أحياناً في ظرفٍ ما، تشعر بأن كل سعةِ الأرض تحوّلت أمامَك إلى عدّة أمتار فقط، فتضيق هذه المساحة الضيّقة عليك، ويحصل ذلك عادةً في حالات الحِصار. ويمكن أن يقع هذا حتى بالنسبة لأقوى

---

[1] رواه مسلم

[2] رواه أبو داود

الأشخاص، ولأكثرهم نفوذاً في دولةٍ ما، فكل هذه الدولة تكون تحت ملكيّة وسيطرة هذا الحاكم، وفجأة بين ليلة وضحاها تضيقُ عليه حتى تُختَصَر في مدينة دون أن يستطيع الخروج منها. ثم تضيق أكثر فتُختَصَر في ضاحية دون أن يكون قادراً على الخروج منه. ثم في قرية، ثم في بيت، ثم في غرفةٍ، ثم في قبو. ثم تضيق به رحابةُ الأرض أكثر فيتكوَّر مختبئاً في ركنٍ من القبو، فيمضي شهوراً من غير أن يرى سطح الأرض سواء في الليل أو في النهار. ورغم ذلك لا يستطيعُ أن يُحافظَ حتى على هذا الموضعِ الشديد الضيق، فيصل إليه الذي يُطارده ويلقي القبضَ عليه. وإذا كان هذا لرأسِ هرمِ الدولةِ إذا أخرجَ اللهُ من حساباته، وانغرّ بنفوذهِ وسلطتهِ، وكثرة رجالِ حمايةِ نظامِه، فإن أيَّ شخصٍ ما دونه يمكن أن يؤولَ إلى ما آل إليه، إذا أخرجَ اللهَ من حساباته، وتجاوزَ حدودَه مستقوياً بإمكاناته المُتاحة له في الراهن الذي يعيش فيه. ومن هذا المُنطَلَق، فإن الآيةَ الكريمة تضعك أمام سؤالٍ كبيرٍ لتطرحَه على نفسكَ: الإمكانات التي أمتَّعُ بها الآن، إلى أي مدى تجعلنِي متجاوزاً حدودَ الله، وإلى أي مدى تجعلني وقّافاً عندها؟.

هذا السؤال الكبير، تُجيبك عليه الآية الكريمة بإجابةٍ كبيرةٍ أيضاً، وهي وأنك ما دمتَ تجعلُ اللهَ في حساباتك، فإن الأرضَ لن تضيقَ عليك قط، وحتى لو ضاقتْ في موضعٍ لظرفٍ طارئٍ ما، فإن اللهَ يجعلُ لك فرجاً وسعةً في مواضعَ أخرى من الأرضِ قد تجد فيها الرحابة أكثر مما كنتَ تجدها في تلك الأرض التي ضاقت بك وتركتَها بسبب تلك الظروفِ التي طرأت. ويكونُ هذا لك مهما كانت الإمكانات التي تتمتَّع بها، فما يهم هو أخذ شرعِ الله في الاعتبار. فتعيد يدك التي أردت أن تبطش بها، وتعيد أدراجَك التي أردتَ التقدّمَ بها إلى التجاوزِ. وعلى قدر ذلك تبقى الأرضُ رحبةً، وحتى لو ضاقت في موضعٍ، فيجعلك الله في رحابتها في موضعٍ آخر، فلا يمكن لها أن تضيق بك. بل يوماً إثر يوم تزداد رحابة عليك، ما دمتَ قائماً على مواقفِك الإيمانية. وعلى النقيض من ذلك، فلا يمكنُ أن تبقى في سعةٍ وأنتَ تتجاوَز، ولا بدّ للأرضِ أن تضيق بك مهما كنتَ في رحابتها.

والضيقُ هنا تفرّعاتٌ، فيمكنُ أن تضيقَ عليك في صحّتك، في علاقاتكَ الاجتماعية، في عملك، في حياتكَ العائلية، في سمعتِك: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ١٢٤﴾طه. ونظير ذلك تكونُ السِّعةُ بكل تفرّعاتها. اختُتِمَت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. عندما وقعت المعركة، غلبتكُم القلّة التي اعتقدتُم بأنها لن تغلبَكم، وانهزمَت كثرتكم أمامَها. وتحوَّلت السعة التي كنتم ترفلونَ فيها إلى ضيقٍ في ضيقٍ، وهزيمةٍ في هزيمةٍ، بل حتى مكةَ التي فرحتم بفتحها، يمكن لهذه القلّة أن تُخرجَكم منها، فتتراجعون القهقرى، ويلبث هؤلاء يلاحقونكم ويلحقون بكم الهزيمةَ تلوَ الهزيمةِ رغم كثرتِكم، ورغمَ قلّتهم.

الباب السادس والعشرون | سَكينة الله

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ٢٦

السَكينة، عكس الاضطراب، وهذا الواقع الغير مُتوَقَّع، أحدثَ هذا الاضطراب الكبير في نفوسهم، وقد مُنيوا بالهزيمة من هذه القلّة. وفرحة فتح مكّة تحوَّلت إلى غصَّةٍ في حناجرهم، وقد ولّوا ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾ من ساحة المعركة، بل صاروا مُطارَدين من هذه القلّة، ﴿وَضَاقَتْ﴾ عليهم ﴿ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾. ومُهدَّدين بالخروج من مكّة أيضاً التي فتحوها منذ أيام. الآن مع هذه الآية الكريمة، ثبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قلّةٍ من المؤمنين بنحو مائة شخص، ولم يدبروا، ولبثوا وحدهم في المواجهة من اثني عشر ألف مقاتل ولّوا من ساحة المعركة ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾. فجاء المَدد من الله سبحانه وتعالى حيث: ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والسَكينة هنا هي المعنويات العالية التي باتوا يتمتّعون بها في واقعٍ مضطربٍ بالغ الخطورة. فحتى الذين انهزموا من المسلمين، ألقوا أسلحتهم عندما انتشرت إشاعة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل.﴿ثُمَّ﴾، أي بعد كل الذي حصل على أرض الواقع: ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهنا تكون المُفارَقة، وهذا هو الدرس البليغ الذي يمكن لنا أن نستنتجه من هذا الحَدَث الانعطافي الكبير الذي نقله لنا القرآن بسخونته، وبتفاصيله الدقيقة. فنظير الاضطراب الذي أخذ يتصاعد في نفوس اللذين ولّوا ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾. ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. القلّة الذين ثبتوا معه معتمدين على قوّة الله، وعلى مؤازرة الله لهم. ففي قلب هذا الغَليان، وحصول الهزيمة، كانت هذه القلّة تشعر بسَكينة النصر، ورحابة الأرض أمامها. وهنا يأتي مَدَد الله سبحانه وتعالى للذين يتحصّنون به، ويتوكّلون عليه، سواء أكان واقعهم قويّاً أو ضعيفاً. لماذا؟ الجواب: لأن الذي يعتمد على واقعه القوي اليوم، غداً عندما يضعف بعض الشيء، سوف يصيبه اليأس في المواجهة، وسوف تتحطَّم معنويّاته. فتعلّمك الآية الكريمة من خلال توثيق هذا الحدث قرآنياً، بأن تبقى معنويّاتك مرفوعة في

كل الأحوال، وألاّ تستسلم لليأس مهما تقلَّبَت بك الأحوال، و كذلك ألاّ تنسى الله عندما تكون في سعة من أمرك، وأنك رغم سعتك لن تحقّق أي نجاحٍ دون الاستعانة بالله.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. عندما يبث الله إليك الطمأنينة، يلقي أيضاً ﴿ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾الأنفال١٢. فقلبوهم تبدأ تخفق رعباً، وركبهم تصطك فزعاً منك حتى لو كنتَ شخصاً واحداً، وكانوا مئة. وهذا لا يكون منك، لأن الواقع بأن شخصاً واحداً لا يستطيع أن يُزم مائة شخص، وقد أعدّوا قوّتهم له، لكن الله هو الذي يتولّى الدفاع عنك بقوّته، فالمئة ستنهزم أمام قوّة الله، لأن الله سيجعلهم في مواجهةٍ معه دفاعاً عن عبده المؤمن الذي استنجد به، واستقوى به: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. هذه هي القوّة الحقيقية التي لا تغلبها قوّة. فالسَكينة وحدها لا تكفي بالنسبة لك، كما أن الرعب لوحده لا يكفي بالنسبة لهم، لأن الأمر سيبقى هكذا دون نتائج متقدّمة على الأرض. فأنتَ تبقى مُستَكيناً، وهو يبقى مرتعباً، وهذا ليس حلاًّ، لذلك: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. أي: ﴿وَأَنزَلَ﴾ الله من السماء قوّة خارقة، لا قوّة على الأرض تفوقها، وهي تكمن في جنود الله الذين أنزلهم الله من السماء إلى الأرض مَدَداً لكم. والجندي هو المقاتل، فهؤلاء من الملائكة الذين يختصّون بالدفاع عن المؤمنين لنصرهم ونجاتهم، ولذلك سُميوا ﴿ جُنُودًا ﴾.

هنا تُدرك كم أن القرآن أرضيٌ على قدر ما هو سماوي، رغم أنه جاء من مكانٍ أبعد ما يكون على الأرض، تكامل بمجمله في مكانٍ أبعد ما يكون على الأرض، ومختلف تماماً عمّا في الأرض. لكنه رغم ذلك يكون أكثر قرباً بالأرض، وأكثر تفاعلاً ما مقوّمات الحياة الإنسانيّة في الأرض. إذن،: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. وهكذا ترى كم أن القرآن تكمن فيه ذروة الواقعيّة، لأن مئة شخص لا يمكن لهم أن يُهزموا أربعة آلاف شخص. وهنا تُطلعكَ الآية الكريمة بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق ﴿ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. لهذه المؤازرة، وهي قوّة تدخّل سريع لِحماية مَن يُريد الله حمايتهم من المُهتَدين، وكذلك لإلحاق الهزيمة بِمَن يُريد من الضالّين، وهذا قابلٌ للحصول في كل زمانٍ ومكان. وهذا ما يَعجَب له الناس عندما يقع حيث ترى حاكماً طاغياً ينتهي بشكلٍ سريعٍ إلى الذل، حتى أن بعض الناس لا يُصدّقون ما حدث إلاّ بعد مرور وقتٍ والتحقّق أكثر فأكثر، أو عندما تبدر قوّة خارقة من شخصٍ

فيعجب لها الناس، لأنهم ما ألفوها فيه، بل هو نفسه ما ألفها فيه. فينجو بأعجوبةٍ من كارثةٍ كبيرةٍ، أو من عدوانٍ شُنّ عليه.

فنحن الآن في قلب الحَدَث الحُنَيني، وها هي الجنود المُجنَّدة من الله تعالى تتحرَّك من السماء بأمرِه، لتؤازر الرسول والمؤمنين القلّة الذين ثبتوا معه في ساحة المعركة، ورفضوا أن يتركوه ويولّوا الأدبار. وهذا قابلٌ للاستمرار على مدى الزمن مع أي شخصٍ في أي محنةٍ يتعرَّض لها. فكم من كفٍّ أُعِدَّت لتوقع الضربة القاصمة عليك، ولكن في اللحظة الأخيرة، كَفّها الله عنك بأعجوبةٍ أذهلتك، وأذهلت غيرك، بكفّ جندٍ من جنوده. وإن كنتَ علِمتَ بعض ذلك، فإن هناك ما لم تعلمه أيضاً، حيث أنجاك الله من مهالك كانت تترصّدك في اللحظات الأخيرة دون أن تعلم بها. والآية الكريمة تُخبر بأن هؤلاء الجنود الذين أعدّهم الله سبحانه وتعالى هم غير مرئيين بالنسبة للإنسان، ولكن الإنسان مرئيٌ لهم. فهم قوّة إنقاذ إلهيّة تأتي لعمليّات الإنقاذ السريعة المُباشَرة، تنفّذ أمراً مُحدّداً من الله، وتعود إلى السماء.

و﴿ جُنُودًا ﴾. دون أل التعريف، بمعنى من مجموع الجنود، وليس الكل الذين لا يعلم أعدادهم إلاّ الله تعالى شأنه. وهذا يكون في حوادث السير، أو في كوارث الطبيعة، أو الأوبئة، أو المُداهَمات. وما إلى ذلك من أشكال الأذى التي يُنقذك الله منها بشكلٍ استثنائيٍ يثير العَجَب. فتُخبرك الآية الكريمة بأن ذلك من كرامات الله التي يُكرمك بها كرامةً لصلاحك واستقامتك وعفافك وذكرك وأمانتك. وهي حصانةٌ لك عند الله، عندما تعجز أي حصانةٍ أخرى مهما كان مصدرها أن تُقدّم لك شيئاً مجدياً. وهذا كلّه أيضاً ليس كل شيء، بل تُحقّق لك السَكينة عندما تُصبح في ذروة الاضطراب، وصفاء الذهن عندما تكون في ذروة التشتّت، وانشراح الصدر، عندما تكون في ذروة الضيق. وليس هذا فحسب أيضاً: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾. فيجعلك الله بأن تراه ذليلاً خانعاً يلقى العذاب نتيجة محاولته للاعتداء عليك، وأنتَ لا تتزحزَح عن الحق، وتتحصَّن بحصانة الله لك. فيتعَّب بالعذاب الذي أعدّه لك، وقد انقلب عليه، وعذّبه الله تعالى به، وأنت تنظر إلى آيات القرآن التي تتحقَّق أمام عينَيك على أرض الواقع معك شخصيّاً. فكما أن ذلك كله كان امتيازاً للمؤمنين، تنتهي الآية فتُخبر: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فلم يظلمهم الله، بل لقوا نتيجة تماديهم على المؤمنين الصالحين.

الباب السابع والعشرون | المشيئة الإلهية

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾

جاءت﴿ثُمَّ﴾. مرة أخرى في مُفتَتح هذه الآية التي تلتها، وهي معطوفةٌ عليها، لأن الله قد آزر الآن القلّة، ونصرها على الكثرة. لكن هل انتهى كل شيء؟.

ولذلك جاءت ﴿ثُمَّ﴾. هنا تهديئيّة بدرجةٍ أكثر هدوءاً من التي افتُتِحَت بها الآية السابقة، فهناك وردت ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. هدأت الأمور، ولكن لم تنته الآية، بل استأنفت بعطف شطرها التالي عليها: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. بشكل عام، تكون الأمور قد هدأت، ولكن الهدوء الذي افتُتِحَ به هذه الآية هو هدوء بامتياز أكثر من الآية الأولى، والآية معطوفة على سابقتها بذات الـ ﴿ثُمَّ﴾. ولكن هنا اكتمل الهدوء، حيث: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وانتهت الآية هنا كما لو أنها جملة واحدة، بل أن الجملة الثانية ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. أضفت إلى أجوائها هدوءاً أكثر.

فتبيِّن هذه الآية الكريمة بأن كل شيء لم ينته، وهذا يمكن أن يكون درساً ينفع المنهزمين من المؤمنين الذين انهزموا من ساحة المعركة وولّوا الأدبار، وكذلك الكفّار الذين انتُصِرَ عليهم. إذن الآن وبعد تلقّي الدرس: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾. أي ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أن تحقّق ﴿ذَٰلِكَ﴾ على أرض الواقع عمليّاً. والآية مفتوحة، لم تذكر جماعةً بعينها من الذين ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾. عليهم ممَّن ﴿يَشَآءُۗ﴾. لكن هناك جماعتان، الأولى التي تركت الرسول وولّت الأدبار، وهؤلاء يدخلون ضمن الذين ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾. عليهم لتركهم الجِهاد. والجماعة الثانية، هي المشركون الذين حاربوا المسلمين الذين كانوا بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهم أيضاً ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ عليهم. والجملة الأخيرة

هي جملة بيانية توضيحية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي هناك ذنب تم ارتكابه، وفي حال التوبة والأوبة إلى الله، يجد المذنب الله غفوراً لذنبه رحيماً به. فالآن وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، باب التوبة بالنسبة للجميع مفتوح: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾الأنفال ٣٨. وقد حصل أن تاب كثيرٌ من هوازن، وأسلموا. وقد جاءت ﴿ يَتُوبُ ﴾. بصيغة المُضارع، وهذا يعني أن الأمر لا يقتصر على أولئك الأشخاص فقط، ولو جاء: (تاب). بصيغة الماضي لاقتصر ذلك عليهم فحسب. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾.

أي تاب

﴿ٱللَّهُ﴾ على أولئك﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾في كل زمانٍ ومكان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ ﴾. لماذا؟. الجواب في جملة خِتام الآية بعطفها على سابِقتها: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾لذنوب عِباده ﴿رَّحِيمٌ ﴾ بهم فلا يعذّبهم على ما بدر منهم قبل التوبة. ليس بالنسبة لفئةٍ من الناس فحسب، بل للناس كافةً.

الباب الثامن والعشرون | بين نجاسة الشرك وطهارة البَدَن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ٢٨

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان طاهراً، والأصل في خَلق الإنسان هو الطهارة، وهذا يكون بالنسبة لأي إنسانٍ مهما كانت عقيدته. فالإنسان يولَد طاهراً حتى لو ولِدَ لأبوَين مُشركَين، أو مُلحدَين.

ورد الإيمان في الآية، وورد الشرك، وهذا يُفيد بأن الآية الكريمة تُخاطب العُقيدة، ولا تُخاطِب البَدَن. فالمؤمن أيضاً إذا أجنب، لا يستطيع أن يدخل ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾. أو غيره، أو حتى يصلّي في بيته، أو على قارعة طريق قبل أن يرفع الجنابة عن بدنه تنفيذاً للأمر الإلهي، رغم أنه مؤمن وليس مشركاً، لكن إيمانه لا يشفع له بإعفائه من هذا الأمر الإلهي. من هنا يتبيَّن بأن العقيدة الإيمانية التوحيديّة بالله سبحانه وتعالى، هي عقيدة طاهرة، والعقيدة الشركيّة هي عقيدة غير طاهرة، أي نجسة، ولكن البدن لا يُصبح نجساً بها. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يَنْجَسُ"[1]. وقد أباح الله عز وجل الزواج من الكتابية، وهي تصنع الطعام في البيت، وتغسل الأواني التي يأكل فيها الزوج والأولاد، وترضع أولادها. ولا أحد في البيت يتعامل معها على أن بدنها نجس، بل أنه طاهر رغم بقائها في عقيدتها سواء أكانت يهودية، أو نصرانية. ولا يتعامل معها زوجها أو أولادها بدونيّة لعقيدتها، ولا أحد يجوز له شرعاً أن يمنعها من أداء صلاتها الشركيّة، أو ذهابها إلى الكنيس، أو الكنيسة، أو تصوم صيامها أو قراءتها التوراة أو الانجيل، وما إلى ذلك من شعائر عقيدتها.

واستناداً إلى ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ بعدم إيمانهم بوحدانيّة الله. ولذلك افتُتِحَت الآية بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. وهذا تذكيرٌ بأن الأصل في عقيدة أهل الكِتاب هو الإيمان بوحدانيّة الله، والأصل في التوراة والإنجيل أنهما من عند الله. أمّا الشرك فهو أمرٌ

---

[1] صحيح البخاري

طارئٌ، وهذا الطارئ هو طارئٌ نجسٌ لأنه يُحرِّف الأصل الطاهر عن طهارته. وعن ابن مسعود: عن ابن عمر: (أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجُبْنَةٍ فِي تَبُوكَ فَدَعَا بِسِكِّينٍ فَسَمَّى وَقَطَعَ). وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " فإذا اشتريتم لحماً، فإن كان من يهودي أو نصراني فكلوا، وإن كان من ذبيحة مجوسي فلا تأكلوا"[1].

فالمشرك هو على أصلٍ سليمٍ طاهرٍ، وإذا انحرف عن هذا الأصل، يكون قد انحرف عن الأصل الطاهر إلى الانحراف الغير طاهر، فيكون بعقيدةٍ نجسةٍ. فهي بذلك تكون نجاسة معنويّة، وليست نجاسة ماديّة، نجاسة فكريّة، وليست نجاسة بدنيّة. والإسلام أباح طعام أهل الكتاب، والزواج من الكِتابية:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المائدة٥.

فكيف تأكل لحم دابةٍ ذَبَحها إنسانٌ نجسٌ، فإذن بدنه ليس نجساً، وقد أحلّ الله ذبيحته، وأحلّ لك أن تأكل وتشرب في بيته، وأيضاً أن تدعوه ليأكل ويشرب في بيتك، دون أن تُطهّر الأواني التي أكل فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. أي: يا جميع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾. دون استثناء: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الذين ينحرفون عن وحدانية الله ويجعلون له شركاء: ﴿نَجَسٌ﴾. في معتقدهم الشركي. واستناداً إلى ذلك: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾. ليس لأن أبدانهم نجسة، وأنتم جميعاً أخوة والله لا يفرّق بين اخٍ وأخيه من أبناء آدم، ولكن للعقيدة الشركيّة التي يَعتنقونها، والشعائر الشركيّة التي يُردّدونها على مسمعٍ ومرأى من المسلمين في ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾. وما يؤكّد ذلك قوله عز وجل: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾. وهذا يُفيد بأنهم قبل ﴿عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾. كانوا يفعلون ذلك. ومن جهةٍ أخرى ترى كيف أن الآية لا تمنعهم من هذا الشرك، ولا تحرّض المسلمين على قتلهم، أو إرغام الإسلام عليهم، بل

[1] رواه أحمد

يبتعدوا عن مشاعر المسلمين المقدّسة، ولا يستفزّوهم فيها كما كانوا يفعلون قبل: ﴿عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. وإذا عكسنا الأمر، سنرى بأن القائمين على أي كنيسةٍ في العالم سواء في الفاتيكان، أو غيرها، لا يأذنون لأفواجٍ من المسلمين أن يدخلوا الكنيسة وتتعالى أصواتهم بالشعائر الإسلامية وسط جموع المسيحيين الذين يؤدّون صلاتهم. ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. لأن هؤلاء كانوا يأتون ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ عراةً، ويرفعون أصواتهم بحيث يشوّشون على المسلمين. عَنْ ابْن عَبَّاس: (كَانَتْ الْمَرْأَة تَطُوف بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَة وَتَقُول: مَنْ يُعِيرنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا، وَتَقُول: الْيَوْم يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ).

واستمرّ ذلك حتى عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وبعد أن منَّ الله على المسلمين بهذا الفتح وجعل مكة تحت حكمهم كما تبيَّن في الآيات السابقة، ومن ذلك أمر الله بإعطائهم المهل وأن يسيحوا ﴿ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

فالآن، لا نأذن لكم أن تفسدوا علينا شعائر ديننا عندما نحج: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.عام الفتح. والأمر فقط بعدم الاقتراب دون أي تجاوزٍ عليهم ما داموا لا ﴿يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. والأمر مركّزٌ وخاصٌ بمسجدٍ واحدٍ فقط دون غيره: ﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾. وما دون ذلك جميع مساجد الأرض تكون خارجةً عن هذا الأمر، فيمكن أن يدخلها اليهود، والمسيحيون، والملحدون، والبوذيون، وكافة المعتقدات، بما في ذلك المسجد النبوي في المدينة، رغم أنه يُعدّ ثاني مسجد له قدسيّته بعد﴿ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾. وأحد ثلاثة مساجد تُشدّ إليها الرحال. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هذا، وَمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى" ١.

[1] صحيح البخاري

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾. وهذا يشير أنهم كانوا يأتون بأفواجٍ كبيرةٍ إلى درجة أنهم كانوا يُنعِشون الاقتصاد في مكّة. وكان أهلها ينتفعون من هذه النفقات التي كانوا يُنفقونها في موسم الحج، وكذلك من بعض التجارات التي كانوا يُجلبونها معهم. جاءت كلمة ﴿عَيْلَةً﴾. بالغة الدقّة في موضعها، فالمُعيل هو الذي يُعيل أسرته، أي يؤمّن لها احتياجاتها. فتُطمئن الآية الكريمة المسلمين بألاّ يخافوا اقتصادياً من ألاّ يجعلوا المشركين ﴿يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾. ويحصل هذا عندما يعتقد أحد الأشخاص بأن رزقه متوقّف على فلانٍ من الناس، وإن خالفه، فإنه سوف يقطع إعالته له. ولذلك يتنازل له عن بعض القيم والمبادئ حتى لا يخسر هذا الشخص. فتدعو الآية إلى عدم الخوف من قطع الرزق عندما يرى هذا الشخص يجعله يتغاضى عن بعض الانتهاكات ويسكت عليها، بل أحياناً يؤازره عليها. فعندما تُرجّح طاعة الله على طاعة مَن يدعو مُخالفة الله، فإن الله يُغنيك عن هذا الرزق الذي تركته، لأنك تركته حتى لا تترك الله، وبقيتَ بين إما أن تترك الرزق، أو تترك الله. وما دمتَ قد آثرتَ الله، فإن الله سبحانه وتعالى يُغنيك بأضعاف ما كان سيأتيك من ذاك الشخص.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾. بمعنى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أن رزقكم سوف ينقطع بموجب هذا الأمر، ولم تعودوا قادرين على إعالة أنفسكم وعائلاتكم: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾. ولم يقل: يعوّضكم. بل: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾. أي أن الفضل الذي يأتيكم به الله لا يكون كالذي كان سيأتيكم من المشركين، بل أكثر بكثير بحيث ﴿يُغْنِيكُمُ﴾. عن المنافع المادّية لمجيئهم من جهة، ويجعلكم أغنياء من جهةٍ أخرى. وقد ﴿شَآءَ﴾. الله عز وجل لهم هذا الغِنى ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾. وأنزل المطر فخصبت الأرض، وصاروا في نماء، وكذلك أسلم كثيرٌ من المُحيطين بهم مثل أهالي جدّة، وصنعاء، وجرش، وغيرها. وأصبحوا من كِبار الأغنياء، كما أصبحوا فيما بعد قادةً وملوكاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾. بما هو خيرٌ لكم ﴿حَكِيمٌ﴾. في أوامره التي يأمركم بها.

الباب التاسع والعشرون | الجزيـــــة

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ ٢٩

البَونُ شاسعٌ بين: ﴿قَـٰتِلُواْ﴾. وبين: (اقتلوا). وهنا اليس: (اقتلوا). بل: ﴿قَـٰتِلُواْ﴾. أي إذا جاؤوكم للقِتال، لا تقفوا مكتوفي الأيدي، بل: ﴿قَـٰتِلُواْ﴾الذين يُقاتلوكم. صدّوهم بأسلحتكم ما داموا قد جاؤوا لِقتالِكم.

المشهد الآن من قلب الواقع في ذروة سخونته وحساسيّته أيضاً، كون الدولة الإسلاميّة يتم تشييد أول أركانها ولأوّل مرةٍ. وأي دولة لها أعرافُها وقوانينها وأنظمتها ودساتيرها. أمّا حريّة المُعتَقَد فيهي مكفولة في هذه الدولة، حيث يُجاور المُسلم غير المُسلم، ويُحسن إليه ويقوم بواجب الجيرة تّجاهه تحت الراية الكُبرى لهذه الدولة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾٢٥٦.

من هنا: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. أي لا يعترفون بالشرائع التي تتأسَّس عليها هذه الدولة الحديثة.

﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. وينكرون الثواب والعِقاب، وهذا إخلالٌ بقوائم هذه الدولة. ولم يكتفوا بذلك، بل: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.﴿وَلَا﴾يلتزمون بالتنظيم الإلهي الحكيم الوارد في القرآن بشأن قيام هذه الدولة فيما يخص الحلال والحرام. وتفرّعات الحلال والحرام متعدّدة تشمل مختلف وقائع الحياة اليومية للناس، فهم يضربون بكل هذا عرض الحائط، ويستهزؤون به، ولا يُنفّذون دساتير الدولة التي يعيشون فيها، وتُحقّق لهم الأمن، وتحميهم من تجاوزات بعضهم على بعض في كل المجالات. فيسعون إلى الإخلال بهذه الدساتير. ولا يكتفون بذلك أيضاً، بل: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾. وهذا بيانٌ بأن التوراة والإنجيل: ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾. ﴿وَلَا

يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي أوتوه، ويتّبعون التحريف فيه. وهذا القرآن بيانٌ للتحريف في الكتابَين السماويَين السابقَين، وهذا ينتفع منه أهل الكِتاب، فإذا صحَّح الله عز وجل خطأً كنتَ تعتقده، فعليك أن تشكره، لا أن تصرّ على ما أنتَ عليه من خطأ. ورغم ذلك فإن القرآن ينهى المسلم أن يُرغِم على أي شخصٍ أن يُصحّح عقيدته، بل أن يكتفي بتبليغ البيان التصحيحي الذي أُنزِلَ من السماء بالحكمة والموعظة الحسنة:

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾الأنعام١٠٧. ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾يوسف١٠٣. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾الكهف١٧. ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾الشعراء٣. ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ التغابن٢.

فإن رأيتَ شخصاً يضل، تبغضه ولا تحبّه، تركته في ضلاله، ولكن إذا تحبّه ولا تبغضه حقاً، ستنبّهه لعلّه لا يعلم. فالدعوة تكون من أرضيّة المحبّة، وأنك تُريد له الخير الذي أنتَ فيه، ولولا ذلك لَما أرشدته إلى الخير وإلى الصلاح. فكيف تُريد له خيرَي الدنيا والآخرة وأنتَ لا تحبّه، بل لا يمكن أن تريد له ذلك، أو حتى ترشده إلى ذلك قبل أن تكون قد أحببته حقاً، وشعرتَ نحوه بمشاعر الأخوّة الإنسانية. وقد حصل هذا للكثيرين حيث استجابوا وصحّحوا بعض معتقداتهم الخاطئة التي كانوا عليها، وآمنوا بأن القرآن هو كِتابُ إصلاحٍ من عند الله، والذي لا يستجيب، فله الحريّة في ذلك. لكن هناك شيء هام يخص المُساهمة في الإنعاش الاقتصادي في المجتمع، فلا تأخذ فقط، بل تعطي أيضاً لتسيير شؤون أمن المجتمع، لأنك وإن كنتَ تنتج، فالذي يحرس ليحمي الحدود، هو فقط يستهلك ولا ينتج، وكذلك الأمر بالنسبة للقضاة، والمدرّسين، والعاملين في المشافي العامة، وسائر الذين يُقدّمون خدماتٍ غير إنتاجيّة، ولكنها تتوازى مع الخدمات الإنتاجية. فهنا تكون عمليّة تبادل بالنسبة للجميع في تقدّم المجتمع سواء أكان اقتصادياً، أو أمنياً، أو تعليمياً، وأن يُشارك أولئك﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا

﴿يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾. أيضاً في تحسين الاقتصاد ما داموا يعيشون في هذا المجتمع، لأن نفع هذا الاقتصاد يعود إليهم ايضاً. فالمسلم يُخرج الزكاة والصدقات، وهذه الأموال تُنعش اقتصاد الجميع. لكن أهل الكِتاب فقط ينتفعون من هذا الإنعاش ولا يُشارِكون فيه. هنا: عليكم أن تكونوا شُركاء معنا في دعم الاقتصاد، فكما ندفع من أموالنا، تدفعوا من أموالكم للخدمات العامّة. والأمر هنا ليس من المسلمين، كما أن أمر الزكاة ليس من المسلمين، بل هو من الله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾. بمعنى ألاّ يستكبروا على ذلك، ويتواضعوا وهم يعطون استجابة لأمر الله، كما أن المسلم لا يستكبر ويتواضع وهو يستجيب لأمر الله ويعطي. وهذه الأموال تصل إلى أهل الحاجة، وتُبنى بها مرافق أهليّة، وبعض مؤّسسات المجتمع المدني التي تقدّم خدمات للمواطنين جميعاً دون تمييز في معتقداتهم. وكذلك فإن صدقات المسلمين أيضاً تُعطلا للمسلمين وغير المسلمين. فإذا احتاج طفلٌ غير مسلم إلى علاج، وكان أهله في ضائقة، تُقدَّم له الزكاة، وكذلك الأمر في النكبات والطوارئ.

﴿ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.الجملة الختامية من الآية، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالكلمة الافتتاحية منها. فإن قَبِلوا أن يكونوا شركاء معكم في دعامة المجتمع، كان ذلك. وهذا بيانٌ جليٌ بحريّة المُعتَقَد، والأمر هو خاصٌ بتقاسم المسؤوليّة تّجاه المُجتمع، وهي دعوة لهم كي يكونوا شُركاء في بناء البلاد، وتحقيق الأمن والرخاء لسائر أفراد المجتمع. والنبي صلى الله عليه وسلم ترك يهود المدينة في معتقدهم دون أن يرغم عليهم الاسلام، وكانوا يتحاكمون في بعض الأمور وفق شرعهم، وهذا ما حصل أيضاً مع نصارى الروم في بعض البلاد الاسلامية.

فـ: ﴿ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾. تخصّ الذين يرفضون هذه المُشارَكة، ولذلك: ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ هؤلاء، ليس ليخرجوا من معتقدهم، أو يعتنقوا الإسلام، فهذه الحرية مكفولة لهم في دولة الإسلام، بل: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ يُشارِكوا معكم في نماء الاقتصاد

﴿عَن يَدٍ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾. واليد في الآية إشارة إلى المقدرة، أي ﴿عَن يَدٍ﴾ مقتدرةٍ على العطاء. فصاحب هذه اليد تكون لديه مقدرة مادّية لهذا الإسهام في المجتمع الذي يعيش فيه. ﴿ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾. عبارة بالغة الدلالة في السياق، فيدُه فيها أموال، ولكن يُمسكها عن هذه المُشاركة الاجتماعية التي يشترك فيها الناس جميعاً. وهنا تلزمه الآية بإعطاء ﴿ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾– المشاركة الاقتصادية– رغماً عنه. والإنسان عندما يعطي الحقوق لأهلها، يعطيها وهو كبير، ولكن عندما يتهرَّب، ويُرغَم على دفعها، فيكون قد رضخ واستصغر وهو يدفع. فعندما يذهب شخصٌ ما من تلقاء نفسه إلى الجباية ويدفع ضريبة قانونيّة ترتَّبَت عليه، يدفعها وهو كبير، لكنه عندما يُماطل ويتهرَّب، فيأتي رجال الدولة ويُجبرونه على الدفع. هنا يدفع هذا الحق باستصغار، أي يتنازَل عن استكباره، ويصغر للدفع رغماً عنه. أمّا إذا كانت يده فارغة، ولا تملك شيئاً، أو يكون مريضاً، أو محتاجاً. هنا لا يُكتفى بأن يُعفى من العطاء فحسب، بل يُعطى من هذه العطاءات، فيُقدّم له الطعام، والشراب، والمأوى، والأثاث والعلاج، من صدقات المسلمين. وكذلك من هذه ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ التي تؤخَذ من الأيدي المُقتدرة.

الباب الثلاثون | آفة الإفك

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ ٣٠

أحياناً يختص الله سبحانه وتعالى بعض الناس ببعض المزايا، وهذه كرامات لأناسٍ يحظون بها من الله. و ﴿عُزَيۡرٌ﴾ من هؤلاء، فعندما اختفت النسخة الأصليّة من التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، ولم يجدوا مَن يحفظ التوراة. ظهر شخصٌ اسمه﴿عُزَيۡرٌ﴾ وقرأ التوراة كما هي. هنا: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾.

بعد ذلك، وعند ولادة المسيح عليه السلام من أمّه مريم، تعجَّب النصارى لذلك، فكيف يولد مولودٌ دون أب، فنسبوه إلى الله سبحانه وتعالى. هنا أيضاً: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. وهذه معتقدات تشير إلى تزحزح الإيمان وتأثير بعض الناس بشكل سلبي بالمستجدّات التي تحصل على أرض الواقع، والآية الكريمة تنبّه إلى هذه المسألة. ومن ذلك يُستَنتَج أن على الإنسان أن يزداد ثباتاً في إيمانه بوحدانيّة الله عند وقوع الخوارق، لأن مجرَّد وجود شريك للخالق يحدّ من المقدرة الإلهيّة اللامحدودة، حتى لو كان هذا الشريك ابناً له، فهذا الابن سيكون له رأيٌ فيما يفعل الله. فإذا: ﴿ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. وإذا: ﴿ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. وإذا كانت الملائكة بنات الله: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾النحل٥٧.

وإذا كانت الأصنام تقرّب إلى الله: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾الزمر٣.

فهنا أي أمرٍ يتّخذه هذا الإله تكون له اعتبارات، لأنه يمكن لأحد هؤلاء ألاّ يكون موافقاً على هذا الأمر. تبيِّن الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ ﴾.

كل ﴿ذَٰلِكَ ﴾ محض يتداولونها ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ ﴾. وكما أن الإنسان يقول قولاً بفمه، فإنه يكتبه بيده:

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ البقرة٧٩. وليس بالضرورة أن يقتصر ذلك على كتابة الآيات، وفي وقتنا الحالي، لا يستطيع أحد أن يكتب شيئاً ويقول بأنه من القرآن. لكن لذلك تفرّعات، مثل أن يتمظهر شخصٌ بمظاهر التديّن، ليتّخذ من هذا المظهر وسيلة للوصول إلى غاياتٍ دنيويّةٍ، فيفتي وفق ما يُملى عليه، ثم يجتزئ بعض الآيات القرآنية من سياقها، وكذلك يجتزئ بعض العبارات من بعض الأحاديث النبوية من سياقها، فيُقوّل القرآن ما لم يقل، ويُقوّل الحديث ما لم يقل، فيجد لذاك الشخص المقتدر، أو الوجيه، أو الحاكم، وما إلى ذلك المُبرّر بالتجاوز على حدود الله. فهو يقول بأن هذه الفتوى ""، والغاية: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ بذلك.

﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴾الكهف٥. اليهود إذن: ﴿ذَٰلِكَ﴾ قول الأفواه فحسب. والنصارى ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ﴾ اليهود ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾. بأن قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. فغدوا أيضاً ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ هم. فيقولوا هم أيضاً: ﴿ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾. فالذي يُضاهئ، هو الذي يُشابِه. ولذلك يُقال عن المرأة التي لا تحيض بأنها امرأة ضهباء. بمعنى أنها شبيهة بالرجال. وبذلك يكون اليهود والنصارى معاً بقولهم هذا: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يتشبّهون ويتمثّلون ﴿ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾. فكما أن النصارى بهذا القول هم امتدادٌ لليهود، فإنهما معاً بهذا القول امتدادٌ لِمَن قالوا ذلك ﴿ مِن قَبۡلُۚ ﴾. وهذا بيانٌ بأن هناك مَن قال مثل هذا ﴿مِن قَبۡلُۚ ﴾. ولعلّ من ذلك:

﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾النحل٥٧.

﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾النجم.

ثم اختتِمَت الآية الكريمة: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾. خاتمة متماسكة مع بعضها، تتألَّف من عبارتَين إحداها تتكامل مع الأخرى، ثم تتكاملا، مع محوَر الآية، ويتكامل محور الآية معهما.

عبارة ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾. وردت فقط مرتَين في القرآن وبجملةٍ واحدة. فقد اختُتِمَت بها كذلك الآية٤ من سورة المنافقون: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾.

ف: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ ﴾. بمعنى تركهم في ضلالهم وعدم هدايتهم، وأنهم يكونون ملعونين من الله نتيجة: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾. بمعنى ما داموا ينسبون هذا الإفك لله سبحانه وتعالى. والإفك هو أفحش درجات الكذب، كونه يوهم الآخرين بأن ما يقوله هو صحيح، وبالتالي يتحدّى به الصحيح: ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ ﴾الأعراف.

فالإفك هو التلفيق، وقد جاء في تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾النور١١. وفي سورة الصافات: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ ﴾.

فالذي يأفك يكون قد جعل من نفسه عرضةً لِقتال الله عز وجل، وأن الله يُقاتِله، فلا يفلح وينتهي إلى الذل والخنوع، ما دام مصرّاً على الإفك. لكن في الوقت ذاته، فيمكن له أن يتراجع عن إفكه ويتوب إلى الله، ويصلح من شأن نفسه. وهكذا فإن مختتَم الآية يُحيلك إلى مفتتحها فتتكامل عبارات الآية مع بعضها البعض.

الباب الواحد والثلاثون | التوحيد

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾

الأحبار، جمع حَبر وهم علماء وفصحاء اليهود، والرهبان جمع راهب وهم علماء وفصحاء النصارى، وهؤلاء يتفرّغون بشكلٍ كاملٍ للدين فيكونون رجال دين. لكن لماذا هناك الأحبار، وهنا الرهبان؟ ذلك أن الحَبر لا يكون زاهداً مثل الرهب، فالحَبر يركّز على الشريعة، في حين أن الراهب يركّز على الزهد في الدين. والمسيح عليه السلام كان زاهداً، حتى أنه لم يتزوّج، في حين أن الأمر بالنسبة لموسى عليه السلام مختلف.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ الضمير عائدٌ لليهود والنصارى ﴿أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

تُطلعنا الآية بأن الانحراف ليس عن تعاليم القرآن فقط، بل هو قبل ذلك انحرافٌ عن تعاليم التوراة والإنجيل. وقد اصطدموا مع شخص المسيح عليه السلام، ورفضوه، وفضّلوا عليه ما يقوله الأحبار والرهبان. ولذلك: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

ورود هذا المثل في القرآن، هو بمثابة التنبيه والتحذير للمسلمين كي ينتبهوا ويحذروا من الانقياد خلف بعض رجال الدين دون أن يتحقّقوا من مرجعيتهم القرآنية. فأولئك قد اتّبعوا رجال الدين الذين أضلّوهم عن أصل التوراة وأصل الإنجيل. وقد حصل هذا مع بعض المسلمين الذين تمذهبوا بمذاهب بعض رجال الدين، فتشتّتوا بذلك عن بعضهم البعض، ولبثت كل جماعة متمسّكة بِما يُليه عليها إمامها، وبالتالي تُعادي الجماعة الأخرى. فإضفاء طابع القداسة على أي شخصٍ لا يكون محموداً باستثناء الأنبياء والرسل كونهم يتحدّثون بوحيٍ من الله، وهذا ما لا يكون لغيرهم. وليس بالضرورة أن يكون العالم دوماً هو الذي يكون على خطأ، بل أحياناً يكون على صواب، ولكن الناس يضفون إليهم طابع القداسة كما

جاء في الآية السابقة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾: وهو عالم صالح، وقد حصل هذا أيضاً مع المسيح عليه السلام: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾. وكذلك الأمر عند بعض المسلمين فمنهم من يضفون القداسة على بعض العلماء، ولا يقبلون بأي حالٍ أن يقول عالمٌ آخر غير الذي قاله هذا العالم أو ذاك. وحصل هذا مع الإمام الشافعي حين أتى بمذهبه الذي بالطبع فيه الجديد الذي ليس في مذهب الإمام مالك، فكان أن اعتدى عليه مريدو الإمام مالك بالضرب، ووجّهوا اتهاماتٍ إلى عقيدته. وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الصحابة حيث يختلف الناس من أجلهم، ويبلغ الأمر بالبعض بأن يفتوا بإخراج البعض الآخر من ملة الإسلام. ثم يُشكّلوا جماعات ضد بعضهم البعض. وقد تجاهلوا بأن الإيمان يكون بالله وحده، وبما أتى الرسول صلى الله عليه وسلم. فعندما ابتعدوا عن القرآن الذي ألّف بين قلوبهم، وتشتّتوا وحلَّت بينهم العداوة والبغضاء. والآية تبيِّن بأن ذلك قد حصل مع اليهود والنصارى من قبل، سواء مع اليهود واليهود فيما بينهم، أو مع النصارى والنصارى فيما بينهم، أو فيما بين اليهود والنصارى. وما يزال الخلاف بينهما قائماً، وتصل الاتهامات بينهما إلى الادّعاء بقتل وصلب المسيح عليه السلام. وذلك من أرضيّة اتّباع بعض الأحبار والرهبان، وعدم اتّباع التوراة والإنجيل. وقد خطا بعض المسلمين في ذات المُنعَرَج فحصلت بينهم انتهاكات مروعة بحق بعضهم البعض نتيجة اتّباع بعض الاجتهادات التي أتت علماء، أومفسّرين، أو فقهاء، أو مفتين، أو خطباء، أو بعض المشايخ، أو الدعاة. وبالتالي عدم اتّباع القرآن وسنّة النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك على شاكلة ما حصل في الآية الكريمة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

إذن المسيح هو ليس ابن الله، مهما كانت التفرّعات لكلمة الابن، ولكنها رغم خلافاتها تتفق في النهاية على أنه ابن الله. فالنَسَب بذاته مُخالِف لكونه يميّز عيسى عليه السلام عن البشر، وهو بشرٌ ابن بشر، كما أن أمّه بشر ابنة بشر، وبذلك فهو ابن آدم وحواء، ويسري فيه دم آدم وحواء، لأن أمّه هي ابنة آدم وحواء.

فقال الله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾. ولو كان ابن الله، لقال:

﴿وَٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ﴾. وما دام البيان من الله، فإن الناس يتقبّلون ما يأتي من الله ويؤمنون به. لكن الله يبيِّن الحقيقة للناس بأنه: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾. ولله حكمة بأن يكون الأنبياء أبناء الإنسان، لأنهم يكونون الأكثر قرباً والأكثر تأثيراً بالإنسان. ثم أن الإنسان لايصيب دوماً حتى لو كان نبياً إذا تحدَّث دون وحي، وهو يمارس الحياة الإنسانية مع الناس، ويكون على شاكلتهم. والابن على الأغلب يكون على شاكلة أبيه على الأقل جسداً، فعندما تعتقد بأن فلاناً من الناس هو ابن الله، فهذا يعني اعتقادك بأنه على شكل أبيه. في حين أن عيسى عليه السلام لا شيء قط يميّزه عن أي إنسانٍ من الناحية الجسدية، وكل ما فيه بشرٌ في بشـــــر. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾آل عمران٥٩. فهو مخلوقٌ من البشر، وليس مولوداً من الله. وهذا المخلوق ينتمي بسلالته إلى آدم، لأن أمه من سلالة آدم، وابنة رجل وامرأةٍ من سلالة آدمز أما الخصوصيّة في ولادته، فلكل نبيٍ ورسولٍ خصائصه ومزاياه. فمثلاً إبراهيم أبو الأنبياء عليه وعليهم صلوات والله وسلامه، كمنت خصوصيّته بأن جسده يُبطل مفعول النار، فتتحوَّل حرارة النار إلى برد بالنسبة لجسده بمشيئة الله، وهذا لا يقل خصوصيّة عن خصوصيّة ولادة عيسى. وخصائص الأنبياء كثيرة يتعجَّب لها الإنسان، ولا يستطيع أن يأتي بمثلها، فمهما تطوَّر العلم، فإنه لا يستطيع أن يجعل شخصاً يولد فقط من خلال المرأة دون أي عاملٍ من الرجل، كما أنه لا يستطيع أن يشعل ناراً ويضع فيها شخصاً دون أن يحترق. فلا نقول بأن أبا الأنبياء إبراهيم هو ابن الله لأن جسده يُبطل مفعول النار الملتهبة. الأمر الآخر هو أن المسيح لو كان ابن الله، لكانت الأولويّة في تصديق ذلك بالنسبة للمسلم أكثر من المسيحي، لأن المسيحي يؤمن بمقتل المسيح وصلبه، والمسلم لا يؤمن بذلك، بل يؤمن بأن لا أحد قط من الناس لديه المقدرة على قتل المسيح، وبذلك فإنه ما يزال حياً لم يقربه الموت، وسوف يبعثه الله مرة أخرى إلى الأرض، والمسلمون سيؤمنون به ويتّبعونه. فكان الأولى بالمسلم أن يقول بأنه ابن الله، إذا كان حقّاً ابن الله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

خاتمة الآية مُتماسكة كما لو أنها جملة واحدة، فالأمر الإلهي، ألاّ يتشتَّت الناس خلف رجال الدِين الذين يضلّوهم، ويدفعوهم إلى التباغض والتقاتل، ويبثّوا فيهم الفتن والاحتقانات.

والآية جليّة، فلا يقولنَّ أحدٌ من الناس بأن فلاناً أضلّني، وأنني اتّبعتُ العالم الفلاني، أو المفتي الفلاني. يُروى أن عدي بن حاتم وكان قبل الإسلام يدين بالنصرانية، عندما سمع هذه الآية أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم". إن كل شخصٍ يتحمَّل نتائج أعماله:

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾الأعراف٣٨. فالحلال واضحٌ لا لبس فيه، والحرام واضحٌ لا لبس فيه، ولكن بعض الناس يسعى إلى المنعرجات لينحرف لمصلحةٍ ما، فيدور على رجال الدين حتى يعثر على الذي يوافقه، فيعتقد بأنه سيفلت من الوزر، وأن رجل الدين سيتحمّله لوحده.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾الأنعام٥٣.

عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا"[1]. وعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ يَمْسَحُ صُدُورَنَا وَمَنَاكِبَنَا وَيَقُولُ: "لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ"[2].

عن عبد الله بن عمرو قَالَ: (خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ فَقَالَ: "بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ"[3]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ

---

[1] صحيح البخاري

[2] رواه أبو داود

[3] رواه ابن ماجه

مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" ١.

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار". قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: "هم الجماعة"٢.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَحْدَثَ فِيْ أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"٣.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "تَرَكْتُكُمْ عَلَى المَحجّة الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ" ٤. ومن فضل الله سبحانه وتعالى على الناس، أنه جعل فيهم حدساً يستشعرون به الحلال من الحرام، ولذلك على الإنسان ألاّ يتجاهل هذا الحدس، ويستخدمه أيضاً بما يمكن أن نقول بأنه استفتاء النفس، فيستفتي الإنسان نفسه أولاً، لأنه أعلم بخفايا الواقع الذي يريد أن يحصل على فتوى فيه. تبيِّن الآية الكريمة بأن هؤلاء لا يسجدون لرجال الدين ولا يعبدوهم، بل يطيعوهم أكثر مما يطيعوا الله عزوجل. فأن ترجّح ما يقوله لك شخصٌ على ما يقوله الله، فإن ذلك يمس جوهر الإيمان، ولذلك جاءت العِبادة في الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾. أي الأولويّة في الطاعة تكون لله الذي ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾. وتكون مع مَن ينبّهك للوقوف عند حدود الله، لا مع مَن يوافقك التجاوز على حدوده. فتسمع ما يقوله لك رجل الدين أو غيره، ثم تفعل ما يرضي الله، لأن التنفيذ مسؤوليّتك، وهو عملك، وأنتَ الذي ترى عملك عند الله، وليس هو. وإلاّ مادمت

---

1 رواه أبو داود وابن ماجه

2 رواه ابن ماجه وابن أبي عاصم

3 رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

4 رواه ابن ماجه وأحمد

تؤمن بأن الوزر كله عليه، ولا شيء عليك منه، فهو كإيمانك بأن الثواب كله أيضاً سيكون له ولا شيء لك فيه. وهذه إشارة إلى خطورة أن يتّبع المسلم إماماً، أو شيخاً حتى لو أضلّه، وبثّ فيه الفتن، وما إلى ذلك من فتاوى الضلال، وهؤلاء يكون مثلهم مثل اليهود والنصارى في اتّخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، رغم أنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، فصارت الطاعة بمثابة العِبادة.

فاستفتاء النفس، قد يغني في كثيرٍ من المواضع عن استفتاء المفتين، ولذلك ترى بعض الناس يعلمون بأنهم على خطأ، وانهم يتجاوزون على الشرع، ولكنهم يتذرّعون بأن المفتي الفلاني، أو الخطيب الفلاني أجاز لنا ذلك، وهو يتحمَّل الوز. فيستمرّون في التجاوز كما لو أن شيئاً لم يكن، وأنهم ضمنوا أن لا أحد سيحاسبهم. وهذا يأتي إلى بعض الحكّام أيضاً، فعندما يريدون أن يقدموا على تجاوز، فإنهم يأتون بمفتيٍّ كي بفتي لهم بذلك، وإن لم يجدوا ضالّتهم عنده، يأتون بغيره حتى يجدوا مَن لا يفتي لهم على هذا التجاوز فحسب، بل ويشجعهم عليه دون أي تردّد.

فإذا نظرتَ إلى مصائر هؤلاء من مختلف شرائح الناس، سترى بأنه يُحاسَبون في الدنيا قبل الآخرة، حتى لو أفتى لهم مئة مفتي. ذلك أن سنّة الله تقضي بألاّ يموت الظالم بأي حالٍ من الأحوال قبل أن يُقتصّ منه في الدنيا. وألاّ يموت العادل بأي حالٍ من الأحوال قبل أن يثيبه الله في الدنيا.

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. بعد بيان الحق، فالعجب كل العجب ممَّن يصرّ على انحرافه، ويدع الله ورسوله، ويأخذ بما يقول الناس: ﴿سُبۡحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. تنزَّه الله عن شركهم.

الباب الثاني والثلاثون | نور الله

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾

هم ﴿يُرِيدُونَ﴾. ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾. إذن، هم﴿يُرِيدُونَ﴾ إشاعة الظلام على الناس،:

﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ على الناس، فيبقى نور الله فيهم إلى يوم القيامة.

فهم يسعون جاهدين ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾من خلال الكلام، فييئّسون الناس حتى يجعلوهم ظلاميين في حياتهم، وبالتالي يوصلوهم إلى دركات القنوط. ولكن التفاؤل الكبير الذي يتمخَّض عنه الأمل الكبير، والإشراق الكبير: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. رغم أنف الكافرين، دعاة التشاؤم والظلاميّة واليأس.

﴿يُرِيدُونَ﴾. ولكن الله يردّهم بظلاميّتهم عن الناس، ويتعهَّد للناس جميعاً بأنه: ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ مهما سعى ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى إطفائه.

الباب الثالث والثلاثون | كَرامة الإنسان عند الله

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ٣٣

الشَتات الذي وقع على كل هؤلاء الأقوام، ما السبيل إلى لملمته وتقويته وإصلاحه، هل يترك الله الناس في ذلك؟.

الآية الكريمة تبيِّن هنا عمليّاً ما قالته الآية السابقة: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾. فهنا أبى الله في الواقع العَمَلي على الأرض، ولم يترك الأمر على عواهنه لأولئك كي يلبثوا في تضليل الناس﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ وعدكم﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً صلى الله عليه وسلم: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يحمل معه الهداية من الله، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو دينٌ واحدٌ لا غير، تدين به البشريّة جمعاء. وقد وعَدَ الله في هذه الآية بأن دِين ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ هذا سيمتدّ لينتشر في أرجاء العالم ﴿كُلِّهِۦ﴾. ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. يكون بياناً ختامياً من الله بأصل ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. فهو يلملم كل هذا الشَتات ويجعله في مسار الأصل الصحيح لـ ﴿ٱلدِّينِ﴾.. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ آل عمران١٩. ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾آل عمران٦٧. فلا يقتصر الإسلام في القرآن على ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو دِين كلّ مَن آمن بواحدنيّة الله عز وجل.

لكن لماذا ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؟

السبب في الآية السابقة، بأن الضلال دُسَّ في دين ﴿ٱلۡحَقِّ﴾. وأن بعض الناس يريدون ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾. فـ ﴿أَرۡسَلَ﴾ الله ﴿رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً صلى الله عليه وسلم ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ من الضلال، وبيان أصل الدين ﴿ٱلۡحَقِّ﴾. المطهَّر من الدَس ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. فيكون ظاهراً للعيان: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ

بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾المائدة٤٨. فيكون القرآن هو الأصل السليم لكل ما سبق وأنزل الله على رسله من رسالة الإسلام الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لِعباده. فهنا عندما يُصبح الناسُ في التباسٍ بِما سبق القرآن من التنزيل نتيجة التحريف الذي بموجبه بات الناس يتّبعون الأحبار والرهبان في هذا التحريف الذي يُبعدهم عن أصل التنزيل، أصبح القرآن بين أياديهم كمرجعٍ سليمٍ، وفيه تعهّدٌ من الله بالحفظ من أي تحريفٍ. وهذا التعهّد الإلهي بالحفظ من التحريف، لم يرد في الكتب السماوية السابقة.

ولعلّ سائلٌ يسأل: كيف أذِنَ الله بتحريف كتبه السابقة، ولم يأذن بتحريف القرآن؟.

الجواب: أن هذا التحريف حصل بمشية الله، لأن لا شيء قط يمكن له أن يحصل سواء في الخير أو الشر، إلاّ إذا شاء الله. فلا أحد قط من سائر خلق الله يمكن له أن يفعل شيئاً دون مشيئة الله. والمشيئة تعني السماح بالتنفيذ سواء أكان خيراً أو كان شراً، فدون هذا السماح يبقى الإنسان أو غير الإنسان من جميع خلق الله، عاجزاً عن التنفيذ مهما كانت المُعطيات بين يدَيه مُتاحة.

وهذه هي الحريّة التي يمنحها الله لعباده، والتي بموجبها يكون الثواب والعقاب. فهي إذن مسؤولية الحريّة، أي يستطيع الإنسان ألاّ يؤمن بوحدانيّة الله، وقد دعاه الله تعالى إلى وحدانيّته، وحتى لو آن فإنه يستطيع ألاّ يصوم، وقد فرض الله عليه الصيام. ويستطيع أن يسرق، وقد نهاه الله عن السرقة، يستطيع أن يكون وقّافاً عن حدود الله، ويستطيع أن يكون متجاوزاً لها. والمسؤولية تتحقّق عند بيان الصواب من الخطأ، فحتى في علاقة الإنسان بالقانون الوضعي، فإنه يُحاسَب بموجب بيان القانون، وإذا تجاوَزَ أمراً دون أن يُسنّ فيه قانون، فلا يُحاسَب، ولكن بعد أن يُسَن القانون ويُبلَّغ، سوف يُعاقَب إذا تجاوزه. فهنا، لم يترك الله عباده للفقهاء ورجال الدين من أهل الضلال كي يلبثوا في إضلال الناس، كما لو أن لا هادي لهم، وباتوا في التباسٍ من أمرهم نتيجة إخفاء الأصل الطاهر، وإظهار المُنحَرف الذي وضعه هؤلاء الأحبار والرهبان. فبذلك: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي بالقرآن الذي تكمن فيه حقيقة الإسلام ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

فينتشر القرآن في أرجاء المعمورة، ويصل إلى كل إنسانٍ أينما كان في كل زمانٍ ومكان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. وهذا بيانٌ بأن هناك مَن يفعل كل ما باستطاعته في كل زمانٍ ومكان حتى يحدّ من انتشار القرآن، ولكنه يوماً بعد يوم يزداد انتشاراً ﴿وَلَوْ﴾. مهما ﴿كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. وهنا تقع الحجّة وتكمن المسؤوليّة في الحريّة دون إكراه، فالذي يريد الضلال، يتّبع مايريد عن بيّنة، والذي يريد أن يتّبع الهدى، يتّبع ما يريد عن بيّنة، وهذا كله يحصل وفق الحريّة التي منحها الله لعباده، فيشاء لهذا، ويشاء لذاك.

والمشيئة هنا بالغة الأهميّة، فرجلُ منذ عشرين سنةٍ وهو يريد أن يزني، ولكن الله لا يشاء له أن يكون زانياً رغم محاولاته الحثيثة، وأحياناً في اللحظات الأخيرة يأتي بسببٍ طارئٍ حتى لا يقع في الزنا. وشخصٌ لم يخطر له أن يزني، ولكن فجأةً حصلتْ ظروفٌ فاختلى بامرأة، وفي تلك الساعة يخطر الزنا في لقبه، والمرأة تستجيب له، فيشاء الله أن يقع في الزنا، فيزني ويكون عند الله زانياً.

ولكن لماذا يحصل هذا، ولماذا يحصل ذاك؟

الجواب: حتى لا يبقى كل شيءٍ جامداً على ما هو عليه، بل دوماً تكون كل الاحتمالات ممكنة، فمهما كنتَ على صلاحٍ، عليك ألاّ تثق بنفسك كل الثقة من عدم الانحراف، وأن تدع ثقتك بنفسك جانباً لأنها لن تنفعك إذا خطر لك الانحراف في فرصةٍ سانحةٍ ما، وشاءها الله لك.

جاء عن أبي كبشة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ" [1].

---

[1] رواه الترمذي وأحمد

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[١].

فعليك أن تحذر الأسباب التي تؤدّي إلى الانحراف، كذلك إذا رأيتك تقدم على ذنوبٍ وترى بأن الله لا ييسّرها لك، فاعلم بأنها رسالة من الله بأنه لا يشاء لك أن تقترف تلك الذنوب، ويعلم بأن عاقبتها ستكون وخيمة عليك إذا شاءها لك. وهو كان قادراً أن يشاءها لك منذ المرة الأولى في الساعة الأولى التي سعيت إليها. ولكن لك عند الله كرامة، فيُكرمك بها. وليس بالضرورة أن تكون مؤمناً مخلصاً كل الإخلاص في إيمانك، بل قد تكون مؤمناً لديكَ بعض المؤاخذات في القيام بالتزاماتك الدينية، ورغم ذلك يحفظ الله لك هذه الكرامة، ربما لقول حقٍ بدر منك ذات يوم، أو لموقفٍ عادلٍ وقفته بإنصاف، أو لخدمةٍ إنسانيّةٍ قدّمتها لشخص. وبعض ذلك قد لا تأبه به، وتراه صغيراً، ولكنه يكون عند الله كبيراً، مثل أنك أعنتَ عجوزاً يصعد المركبة، أو رأيتَ أذى كاد على وشك الوقوع على شخصٍ غافلٍ فأنبهته، أو سحبته عن الأذى في اللحظة الأخيرة. وما إلى ذلك مما قد تراه عادياً أو صغيراً، ولكنه عند الله لم يكن عادياً ولا صغيراً أبداً، بل كان كبيراً، فحفظه لك وجعل لك به كرامة تنقذك مثلما أنقذتَ، تعينك مثلما أعنتَ، تنبّهك مثلما أنبهتَ، ترفع الأذى عن دربك مثلما رفعتَ الأذى عن درب غيرك، تحفظ عرضك مثلما حفظتَ عرضاً، تحمي مالك مثلما حميت مال غيرك. فتخيَّل شخصاً يعاديك ويسيء الأذب في ذكرك، وفجأة كان مع ابنك في مركبة، وهذه المركبة تعرّضت لحادث سير، وأن هذا الشخص استطاع أن يُخرج نفسه، وأن يُخرج ابنك معه من الركبة. وعندما رآه مخطراً نتيجة الحادث، أسعفه بسيارةٍ إلى المشفى. وعندما تم إبلاغك وذهبتَ إلى المشفى تفاجأت به مع ابنك، ثم يروي لك ابنك كيف أن هذا الشخص قد أنقذ حياته مرتَّين، مرة من خلال إخراجه من السيارة، ومرة من خلال إسعافه بإحدى السيارات. ثم أنك بعد أيامٍ ترى

---

[1] رواه مسلم

خصمك هذا في موضعٍ وأن خطراً ما أصبح على وشك أن يدهمه دون أن يدري به، وتكون قادراً على إنقاذه. هنا تدع معاداته لك جانباً، وتذكر موقفه مع ابنك، فتنقذه في اللحظة الأخيرة.

فإذا أنتَ الإنسان تكون ذاكراً الجميل، ورددته بالجميل، فإن الله لا ينسى جميل الإنسان على أخيه الإنسان، ويردّه بما هو أكثر جمالاً، وزيادة. وأعني بالزيادة أنه تعالى ذكره، قد يشطب كل ما بدر منه من تجاوزات جملةً واحدةً من صحيفته، فيكون بريئاً عند الله كما ولدته أمه. ذلك أنه الله، ولا أحد يمكن له أن يكون أكرم من الله في عظيم ردّ الجميل بالجميـــــــــــل. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾الشورى٢٥.

عن ابن مسعود قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ")[1].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً" [2]. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لي عن أُمَّتي ما وسْوَسَتْ به صُدُورُهَا، ما لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ"[3].

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[3] صحيح البخاري

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1].

فهذه الحقيقة تتجلّى لنا في الآية الكريمة المُكتَنزة بمعانيها ودلالاتها: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. ليبقى ما بقيَت البشريّة غير قابلٍ للتحريف، لأنه خاتم كتب الله إلى الإنسان، وما بعده ليس كتباً فحسب، بل ولا كلمةً واحدةً تنزل بعده من السماء، ولا نبي قط بعد محمّدٍ صلى الله عليه وسلم. فقد تكامَل في هذا الكتاب الخاتَم الكمالُ بالكمالِ، فأصبح ذروة الكمال في رسالة الله المكتملة للإنسانية. وإذا وقع أي تحريفٍ مع هذا الكِتاب، فلا كِتاب آخر يُنزله الله كي يصحّحه. ولذلك أوقف الله سبحانه وتعالى مشيئته في السماح بتحريف الوحي، ولم يعد الوحي قابلاً للتحريف مع القرآن بأي حالٍ من الأحوال.

فاختتِمَت الآية الكريمةُ بعبارةٍ بالغة الدقّة: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾. فنور الله يلبث ساطعاً على عِباده المؤمنين رغماً عن المشركين الذين يتواجدون في كل زمانٍ ومكان ويريدون أن يبثّوا الشكوك في قلوب المؤمنين، ويُزحزحوهم عن إيمانهم. فهؤلاء لا يكتفون بأنهم لا يؤمنون، بل لا يروق لهم أن يؤمن غيرهم أيضاً، وذلك حتى يحرموهم من التعرّض لنفحات الله، والظفر بكراماتٍ من الله.

وكلمة الكره، من الكراهية، أي يكنّون غلاًّ في قلوبهم تّجاه المؤمنين، وهذا هو الحقد الأسود الأعمى الذي يكون عليه البعض: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾البقرة٨٨. فيرتكبون الفظائع بحق الناس سواء بشكلٍ جماعي، أو بشكلٍ فرديٍ في الناس، سواء سراً، أوعلناً. ﴿ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾آل عمران١٦١. فتنبّهك الآية الكريمة من هؤلاء الذين عوّدوا أياديهم على زراعة الألغام، وتكون على حذرٍ شديدٍ منهم، أو الانقياد في ركبهم، ويكون لسان حالك:

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾الحشر١٠.

---

[1] صحيح مسلم

الباب الرابع والثلاثون | الباطل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٣٤

هذا هو الفضح الكبير الذي تكشف هذه السورة النقاب عنه لبعض مدّعي الدِين، ولذلك كان من أسماء هذه السورة: (الفاضحة). أي ترى فيها الفضيحة تلو الفضيحة لأولئك المتلوّنين المُزدَوَجين من أهل الضلال والنفاق وقد تزيّوا بزي الدين، فيحتالون على الناس باسم الدِين وقد اتّخذوا من الدِين وسيلةً للإعتياش، وتحقيق ما يبتغون من مآرب أخرى.

وليس (قليلاً). بل: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

فالآية هنا بمثابة جرس التنبيه، تنبّهك بأن الدِين يمكن له أن يُستغَل من قِبَل بعض ضعّاف النفوس، فيبدون في الظاهر كما لو أنهم أولياء، فيذكرون آياتٍ من الله، وأحاديث من الأنبياء في كلامهم حتى يوهِموا الناس بأن مرجعيّتهم هي مرجعيّة دينيّة، وأنهم يدعون إلى الحق، وبذلك ينفذون إلى قلوب وعواطف الناس ويتمكّنون من ابتزازهم. وقد ورد هذا البيان في القرآن العظيم للتنبيه بأن ذلك لا يقتصر على أهل الكِتاب فحسب، بل يمكن لكثيرٍ من رجال الدِين المسلمين أيضاً أن يقتدوا بالأحبار والرهبان في أكل: ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾. فيُدخلون الناس في مُتعرجاتٍ غير شرعيّةٍ، كونهم لا يجدون في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ مُنعَرَجاً يتيح لهم ابتزاز الناس. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أنفسهم أولاً، ثم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾. حتى يُتاح لهم من خلال ذلك أكل ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾. فتجد شخصاً يبتاع إجازة جامعيّة حتى يتأهّل بها ليُصبح خطيباً، أو إماماً في مسجد، أو مديراً لإحدى المراكز الدينيّة، وبذلك يجيز لنفسه أن يفتي. فهو في الظاهر حامل إجازة جامعيّة في العلوم الشرعيّة، أو هو خطيب، أو إمام،

أو مدير لمركز إسلامي، وما إلى ذلك. هؤلاء إلى جانب أشخاصٍ آخرين يأتون الدِين من ناحيةٍ أخرى، فيفتحون بعض المتاجر، أو المؤسّسات، ويُقحمون عليها أسماءً دينيّةٍ، ويُطلقون لحاهم، ويتمظهرون ببعض المظاهر التديّنيّة حتى يأمنهم الناس ويتوافدون إليهم ويثقون بأسعارهم. بل وبعض البُسطاء يعتقد بأن مجرَّد الشراء من هذا الشخص هو خيرٌ من الشراء من غيره. وقد تجد البعض يُقحم على مكتبته التجاريّة اسماً له طابع ديني، مثل ما يشير إلى القرآن أو أحد العلوم القرآنية، ويدّعي بأنه يخدم القرآن، ويستجدي بعض المقتدرين كي يقدّموا زكاتهم له حتى يوظّف هذه الزكاة في خدمة القرآن. فترى بأن هذا التحايل يسري على بعض البسطاء، وبعض متواضعي الوعي الديني من المقتدرين، فيعطوه، بل يعطوه أيضاً زيادةً ويفوّضوه كي يوصل هذه الزكاة بمعرفته إلى أهل الحاجة. والذي يحصل أنه يضع سعراً لبضاعته، ثم يقول بأنه يخفض هذا السعر بالنسبة لبعض المحتاجين، بحيث يُبقي هذه الأموال في حوزته، وهو يستكثر أن يعطي منه شيئاً لأحد. وبذلك ترى بأنه يوسّع في تجارته بأكثر من عقار حتى تكثر البضاعة وتتكدَّس على بعضها البعض، لأنها كلّما كثرت، أحتفظ لنفسه بمالٍ أكثر، وهو يرفع ويخفض الأسعار كما يريد.

وتجد مثل ذلك أيضاً لدى بعض الأطباء ضُعّاف النفوس، حيث يتشاركون مع بعض الملالي، أو الخطباء أو الأئمة وما إلى ذلك من الذين يتمظهرون بمظاهر الدين، فيذهبون إلى بعض الأثرياء ويشرحون لهم أن بعض المرضى لا يتمكّنون من دفع تكاليف العِلاج، خاصة بالنسبة لبعض العمليّات الجراحيّة الطارئة، وبعض الأدويّة المرتفعة الأسعار، أو بعض التحاليل الطبيّة، أو الصور الشعاعيّة ومن هؤلاء معاقون، أو يتامى، أو يُعانون من أمراضٍ مزمنة تستوجب علاجاً مستمرّاً، أو عاجزين عن العمل بسبب الشيخوخة، أو أرامل، وما إلى ذلك. فيطلبون منهم أموال الزكاة والصدقات لتكون تحت أياديهم لمثل هذه الاحتياجات.

وبعد أن يحصلوا على هذه الأموال خاصةً في مواسم الزكاة التي ينشطون فيها بكثرةٍ، يتم تقاسم هذه الأموال بينهم، فيفتي رجل الدين ببقاء قسمٍ من هذه الأموال التي تم تحصيلها لدى هذا الطبيب، فيبقى يحسم منها بمعرفته على المدى الطويل عندما يأتيه بعض هؤلاء المحاويج، والقم الثاني يُعطيه لرجل الدين على أن يتصرَّف به بمعرفته لإيصاله إلى بعض المحاويج، وفي ذلك يفتي بحصّةٍ له وحصّةٍ للطبيب تحت بند العاملين على الصدقات. كل

هذا لأنهم يستكثرون أن تصل لقمة مستحق الزكاة إلى فمه فيحولون بينه وبينها بأي طريقةٍ كانتً ويسحبونها من فمه ليزدادوا اكتنازاً بالأموال. إلى جانب أن ذلك يلحق الضرر أيضاً بالآخرين العاملين في ذات الاختصاصات، فترى عيادة هذا الطبيب مكتظّة بالمرضى، وعيادة جاره فارغة، وترى هذا المتجر مكتظّاً بالمشترين، ومتجر جاره فارغاً، حيث اتّخذوا من هذه الشعارات الدينيّة علامات تجاريّة بامتياز. وأحياناً يُجنّدون بعض الدراويش للترويج لهم، ويروون عنهم بعض المواقف التي يفتعلونها مع بعض الناس فقط للترويج، كي يتزاحم الناس إليهم، وكذلك كي يصلوا إلى أثرياء آخرين. يحصل كل هذا: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهذا له تبعات أيضاً كونهم يلحقون الأضرار بالناس وفق هذه الشعارات والتمظهرات، فقال الآية الكريمة:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يجعلون من الدين عبئاً على المتاجر أو العيادات، أو أعمالٍ أخرى، حيث يمنعون أرزاقهم وفق هذه الشعارات التي يعملون بها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾. الكنز هو الشيء المخبوء، والمخبوء يكون جامداً دون أن ينتفع به أحد. فكلّما تحرَّك المال وسال بين أيدي الناس، اتّسَعَت منفعته، واتّسَعَ المنتفعون به، وكلما كُنِز وجُمِد، ضاقت منفعته، وضاق المُنتَفعون به، واقتصر النفع على المُكتَنز فحسب. والاكتناز هنا مثل الاحتكار، فتحتكر شيئاً حتى تبتزَّ به غيرك. من هنا تبثّ إليك الآية الكريمة بأن البركة دوماً تكون في السيولة، في المال المُتحرّك سواء أكمُنَ في ﴿ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾. أو في العملة النقديّة، وهكذا تكثر فُرَص العَمَل. وعلى النقيض من ذلك فإن الاكتناز يؤدّي إلى خفض فرص العمل، فهؤلاء الذين تتّجه الآية إليهم بالذات، يُمسكون أياديهم على﴿ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾. ويقعدون على كنوزهم وقد جمَّدوها، ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يأبون أن يُخرجوها لتنتعش بها الأيدي العاملة. و: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هو دوماً نفع الناس، فحتى لو بنيتَ مسجداً فهذا يعني تحريك عشرات اليدي العاملة، وعشرات أصحاب الحِرَف حتى يكتمل هذا المسجد ويتجهّ من الحدادة، والنجارة، والتمديدات، والدهان، والتمديدات الصحّية، والإنارة، والثريّات،

والساعات، والأبواب، والنوافذ، ومكبّرات الصوت، والمصاحف، والسجّاد، والتكييف، وصنابير المياه، والديكور، وما إلى ذلك. ثم الرواتب التي يتقاضاها العاملون في خدمة هذا المسجد من الأوقاف. وهذا النفع يلبث مستمرّاً ما لبث المسجد بسبب المستجدّات، أو الأعطال، أو أعمال الترميم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يجعلون أموالهم في انفصالٍ عن الواقع الاقتصادي والمعيشي الذي يكونون فيه، ولا أحد ينتفع منها بشيءٍ كما لو أنها لم تكن، كونهم ُتنّ هذه الأموال ويحجرون عليها. وجزاء ذلك: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ يامحمّد، وبشّروهم يا أمّة محمّد: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. البِشارة هنا بمثابة توجيه الإنذار قبل وقوع الفعل. فحتى الآن لم يُصابوا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. لكن إذا استمرّوا، لا بدّ لهم بأي حالٍ من الأحوال أن يُصابوا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. في الدنيا قبل الآخرة.

والعذاب هنا لا يكون عذاباً عادياً، بل يكون عذاباً أليماً، أي يتعذّبون بألمٍ، ويتجرّعون نوبات الألم تلو الألم. وسيبيّن الله لهم على مرآة من الناس بأن هذه الأموال التي اكتنزوها تعجز أن تفعل لهم شيئاً، أو تخفّف عنهم من وطأة الألم، بل تتحوَّل إلى وبالٍ عليهم.

ولذلك تفرّعات، فلا يُستبعَد أن يتعرَّض هذا المُكتنز لمداهمةٍ من سرّاق، فيسطون على هذه الأموال، فيصاب جزاء ذلك بإصابات بدنيّة أليمة وموجعة منهم. أو تُحاك مؤامرة ما عليه من من بعض المقرَّبين يصاب على إثرها بعاهة موجعة. أو يُصاب بنكسةٍ نفسيّةٍ يُمنى من خلالها ﴿بِعَذَابٍ﴾ نفسي ﴿أَلِيمٍ﴾. ثم تودي به إلى مرضٍ بدني ﴿أَلِيمٍ﴾. مثل ارتفاع الضغط، أو السكر، أو بعض الاحتشاءات القلبية، أو ما إلى ذلك. فيتألّم ويتوجَّع بدنياً ونفسياً، فيستعدّ أن يشتري العلاج بكل ما اكتنز من أموال، ولكنه لا يجد. ولذلك ترى أن بعض هؤلاء بعد أن يُصاب بداءٍ موجعٍ يطرحه أرضاً وينهك قواه، يقول بأنه مستعدٌّ أن يمدّ ذهباً وفضةً من بيته إلى عيادة الطبيب كي يمشي الطبيب عليهما إذا حَمَل إليه العلاج. لكن الطبيب يعتذر لأن مرضه يستعصي على العلاج، وما إلى ذلك بما يشاء الله من ألوان العذاب الأليم الذي ينذر به هؤلاء.

وما هو مهمٌ أن هذا كله لم يقع الآن لهذا الصنف من الناس، بل الآية تنذر بأن ذلك لا بدّ له أن يقع وفق عهدٍ بُيِّنٍ من الله سبحانه وتعالى، إذا استمرّوا في استقوائهم بهذا المال من خلال اكتنازه.

فكنوزك الحقيقيّة هي تلك التي تودعها عند الله من خلال الإنفاق في سبيله، وهي الوحيدة التي يمكن لها أن تُحصّنك ضد أي شكل من أشكال العذاب الأليم، ولا يجعله يقربك سواء بدنياً أو نفسياً، بل وتنجيك في اللحظات الأخيرة من مهالك وقعت على مَن كان معك وأما ناظرَيك. فدوماً نظير البشارة السلبيّة، ثمة بشارة إيجابيّة تكون لِمَن يصلحون.

الباب الخامس والثلاثون | عِقابُ الاكتناز

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ ٣٥

بيَّنت الآية السابقة كيف أن هذا الاكتناز لا بدّ أن يتحوَّل في الدنيا إلى وبال على المُكتنزين. وهذه الآية المُردفة لها، تُبيِّن بأن هذا الوبال لا يقتصر على الدنيا فحسب، بل سيُلاحقهم أيضاً إلى الآخرة. فيجدون هذه الكنوز أمامهم، وكما أنهم اكتووا بها في الدنيا، ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ – تُحمَّر– ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾. وهذا بمثابة التنبيه الشديد للمكتنزين لأن ذلك لم يقع معهم بعد، ويمكن له ألاّ يقع رغم اكتنازهم السابق، إذا أخذوا بهذا التنبيه وتراجعوا عن هذا الاكتناز، واستخدموا هذه الأموال وفق الشرع الذي شرّعه الله، وعندها تكون البركة أكثر على هذه الأموال وينتفعون بها في الدنيا وفي الآخرة. لكن إذا عاندوا واستكبروا وأصرّوا على الاكتناز، فهذا عهدٌ قاطعٌ من الله بأن هذه الأموال سوف تتسبَّب لهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ في الدنيا كما تبيَّن في الآية السابقة، ﴿يَوۡمَ﴾ القيامة كما في هذه الآية سوف: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾. وعهدُ الله مؤكَّد الوقوع تعهّده الله سبحانه وتعالى لأهل العِناد من المُكتنزين. فهذا مُشترطٌ بالاستمرار في اكتناز الأموال، والإصرار على ذلك بعناد، وعدم التراجع عنه.

لماذا نقول: بعِناد؟.

-: لأن الله سبحانه وتعالى يُمرّر الإنسان بأحوالٍ متقلّبةٍ سواء أكان صالحاً أو كان فاسداً. وبهذا فإن الإنسان يكون قابلاً للتحوّلات الكبرى سواء أيجاباً، أو سلباً. فيمكن لصالحٍ أن ينتهي إلى الفساد، ويمكن لفاسدٍ أن ينتهي إلى الصلاح.، ويمكن لصالحٍ أن يثبت في صلاحه، ويمكن لفاسدٍ أن يثبت في فساده. وكل ذلك يتبيَّن من خلال الاختبارات. فيمكن أن يكون الإنسانُ صالحاً، لكنه يكون متهزهزاً في إيمانه، ويكون إيمانه ضعيفاً، وأمام أي

تحوّلٍ طارئٍ يجنح إلى الكفر. ويمكن أن يكون الإنسانُ فاسداً، ويعمل أعمالاً فاسدة، لكنه يكون متهزهزاً في فساده، وبه مُيلٌ إلى الصلاح، وأمام أي تحوّلٍ طارئٍ، يترك افساد ويجنح إلى الصلاح. وهذه التحوّلات الطارئة هي ذاتها تكمن فيها الاختبارات التي يجعلها الله للناس حتى يُظهروا من خلالها معادنهم الحقيقية، فيتبيَّن فيهم التأرجح من الثبات بشكلٍ عمليٍ على أرض الواقع. وهذا أمرُ بالغ الأهميّة، وهو لصالح الإنسان، فمن خلال ذلك يتعرَّف الإنسان على ميولاته، لأنه يكون قد خَبِرَها، وأصبحَت له تجارب معها، فيستمدّ من هذه التجارب التي وقعت معه، وهذه الخبرة التي تشكَّلَت لديه، معالم نضوجه. وعلى هذا النحو فإن الإنسان يتقدَّم في درجات النضوج وفق خبرته الحياتية، ووفق التجارب التي يمرّ بها، فيتَّعظ بها ويستخلص منها العِبَر.

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "لا يُلدغ المؤمن من حجرٍ مرتَين". لأنه في المرة الأولى كان دون خبرة، ودون تجربة، لكنه في المرة الثانية يكون قد أخذ العِظة، فيكون على حذر. وهذا الحيث النبوي الشريف يبيِّن بأن الإنسان لا يقع ضحية للمرة الأولى وهو غافل في خطأ يرتكبه، بل ينجيه الله، وتبلغه تنبيهات عن خطورة ما هو مقبل عليه، حتى يتراجع، لكنه إذا أصرَّ، فيكون هو الذي جعل من نفسه ضحيّة رغم التنبيهات التي بلغته. فاللدغة الأولى أنجاه الله منها لأنه كان غافلاً، والله كان يعلم لأنه لا يغفل: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾البقرة٧٤. وقد رودت ذات الجملة في نهايات الآيات: ٧٤، ٨٥، ١٠٤، ١٤٤، ١٤٩. من سورة البقرة. كما وردت في نهاية الآية ٩٩ من سورة آل عمران. وبعد ذلك وردت في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾. وفي خاتمة سورة هود: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾. وفي خاتمة سورة النمل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

لكن في المرة الثانية يكون متقصّداً فلا تبقى له حجّة على الله، وليست العِبرة من الحديث العدد، أي لمجرد أن يُعاود المرء الخطأ للمرة الثانية يلقى العِقاب، فالمعنى يكمن في التكرار، لكن بعد المرة الأولى يكون العِقاب ممكناً، وقد تكون اللدغة فيها مُهلِكة. حيث أن الإنسان لم يعد غافلاً ويكون عالِماً تماماً بِما يفعل. ومع التكرار يعتاد على ذلك حتى

أنه يبدو كما لو أنه في غفلةٍ مثله مثل الذي يأتي ذلك لأول مرة. وعند وقوع العِقاب أيضاً يبدو بأنه يُغافَل به نتيجة التكرار الذي كان يُمضيه الله له بسلام لعلّه يتراجع. فهنا تصنّع الغفلة تُقابَل بوقوع العِقاب عن غفلة منه. وفي التنزيل الحكيم:

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ ﴾الأنبياء١.

﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾الأنبياء٩٧.

لذلك قال: "المؤمن". أي الذي يكون قد اتّعظ، وليس الذي لم يتّعظ، فهو يُلدَغ مرتَين، بل قد يبقى يُلدَغ طوال عمره.

من هنا، فإن الآية الكريمة تبيِّن بأن العِقاب سواء في الدنيا أو الآخرة، يكون للمستمر في الفساد، وهذه هي الجدوى من الاختبار: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾الإسراء٨. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾الأنفال٣٨. لكن لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى ثلاثة مواضع دون غيرها: ﴿جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾؟.

﴿جِبَاهُهُمۡ﴾. إذا تقابل المُكتنز بغتةً مع المُحتاج وجهاً لوجه، فإن أول ما يفعله هو أن يُقطّب جبهته في وجه المحتاج علامةً بالاستياء، ويلبث في ذلك حتى ينصرف المُحتاج عنه وهو لا يأمل فيه أي خير. فهذه الفئة من المكتنزين يُعرَفون بهذه السمة كلّما تواجهوا مع مُحتاج في مكانٍ ما، أو حتى إذا طرق محتاجٌ على أحدهم الباب، فعندما يفتح ويرى هذا المحتاج يسأله شيئاً، يُقطّب عن جبهته حتى ينصرف هذا السائل، وإن لبث واقفاً، يحكم الباب في وجهه دون أن يتنازل ليتحدَّث معه كلمة واحدة، أو يعطيه ولو شيئاً يسيراً، وذلك لسدّ الطريق عليه وحتى لا يعود مرة أخرى ويطرق عليه الباب.

﴿وَجُنُوبُهُمۡ﴾. إذا كان المُكتَنز جالساً في مكانٍ ما، وبغتةً وقعت عينه على محتاج، وأنه أتى ودنا إليه، أو جلس بجانبه، فإنّه يتجنّبه متجاهلاً إيّاه، ولعلّه يفتعل حركةً، فينتقل للجلوس في موضعٍ آخرٍ كي يتجنَّب هذا المُحتاج الذي جاء وجلس بجانبه.

﴿ وَظُهُورُهُمْ ﴾. إذا كان المُكتنز يمضي في طريقٍ ما، ووقعت عيناه على مُحتاج، وأن هذا المُحتاج يتقرّب منه، فيسرع الخُطا ويدير ظهره إليه. وحتى لو لحقه المُحتاج ونادى به، فنّه لا يلتفت إليه مهما كان قريباً منه، ويبقى مولياً ظهره له. أمّا إذا كان في محلٍّ ما يشتري بعض الحاجات، وتفاجأ بالمُحتاج يتقرَّب إليه، فإنه كذلك يوليه ظهره متظاهراً بأنه ينتقي بعض الأشياء، وإذا أحسّ بأن المُحتاج ما يزال واقفاً خلفه، فنه ينتقل من موضعٍ إلى موضع داخل المحل، وهو يوليه ظهره، ولا يردّ عليه مهما تحدَّث معه، وحتى لو لبث المحتاج خلفه أيضاً ولحقه إلى باب المحل، فإنه يحمل أغراضه وهو ما يزال مولياً له ظهره مبتعداً عن المحل، فيعود المُحتاج دون أن يأمل فيه خيراً.

وهذا الكلام خاصٌ بالذين يدأبون على اكتناز﴿ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾. والاكتناز لا يعني الادّخار، أي عندما يدّخر الإنسان شيئاً من زيادة دخله للطوارئ، أو لتحسين وضعه السكني، أو المعيشي، أو يشتري وسيلة نقل يحتاجها، أو لديه أبناء يحتاجون إلى زواج ونفقات، وما إلى ذلك. ورغم أن الاكتناز يعني التكديس الفاحش للأموال، إلاّ أن الآية لم تقف عند: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾. فقط. ولو اكتفت بذلك، لكان الحكم على مجرَّد التكديس، ولكنها بيَّنَت: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فالعلّة أنهم يمسكون عن الإنفاق، فيكدّسون هذه الأموال ويخفونها. ﴿ وَلَا﴾ يُخرجون زكاتها المفروضة من ﴿ ٱللَّهِ ﴾. لأنها تكون مُكدَّسة ويعتبرونها غير موجودة. فتجّار﴿ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾. يحتفظون بهما لأن طبيعة تجارتهم تقتضي توفّرهما بكثرةٍ، لأن الكثرة تحقّق رحاً أكثر. فلعلّ تاجراً يوسّع في تجارته، ويعدّد في محاله، بل ويتجاوز ذلك إلى فتح فروعٍ في مدنٍ أخرى. وبذلك قد يمتلك أموالاً طائلةً تجعله أحد أكبر أغنياء الناس في زمانه. وهذا عملٌ مباركٌ قد باركه الله له ووسّع عليه من فضله ما دام يُخرج زكاة هذه الأموال وفق شرع الله تعالى الذي رزقه بها عن طريق العمل الحلال.وكذلك الأمر بالنسبة لتجّار العملات، فطبيعة العمل تقتضي أن تكون العملات متوفّرة لديهم، وأيضاً لعلّهم يتوسّعون في عملهم وينشؤون فروعاً لمصارفهم في مدنٍ أخرى، أو حتى في دولٍ أخرى. فلا نرى أن الاية الكريمة تعني هؤلاء أو أي مهنيٍ في أي مهنةٍ مشروعةٍ لمجرَّد غناه

الواسع، سواء في الزراعة، أو العقارات، أو ماشابه، حتى لو سأله محتاجٌ من أهل الاستحقاق المشروع، ولم يعطه، ما دام يكون قد أخرج زكاته كاملةً. فهو على سبيل المثال توجَّبَت عليه فريضة الزكاة بمائة مليون، ويكون قد أخرجها كاملةً. وبعد مدّةٍ يأتيه محتاجٌ من أهل الاستحقاق، فيجوز له ألاّ يعطيه مهما كانت ثروته واسعة، ولا يحتاج أن يقطّب جبينه في وجهه، أو يتجنّبه، أو يوليه ظهره. بل يبيّن له الحقيقة، ثم إن أراد، يمكن أن يعطيه صدقة طوعيّة زيادة عن الفريضة، وذلك رجاء زيادة الثواب من الله تعالى. فإن فعل ذلك، نفع السائل ونفع نفسه، وإن لم يفعل، لا يلقى عقاب الكي بهذه الأموال في جبهته وجبينه وظهره، لمجرَّد أنه ما أعطى زيادةً لم يفرضها الله عليه. فليست أموال الحلال، بل أموال الزكاة التي أمسكوها عن مستحقّيها: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾. وبذلك تستأنف الجملة القرآنية الكريمة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾. احتفظوا بحق الله هذا لأنفسهم، ولم يُخرجوه، ولبثوا في الاكتناز حتى النهاية، دون أن يتراجعوا عنه. فقد لبثوا مصرّين بعنادٍ شديدٍ على تكديس الأموال فوق بعضها البعض، وهم ينظرون إلى المحاويج يتضوّرون جوعاً، أو برداً، أومرضاً، دون أن يُحرِّك ذلك فيهم ساكناً. فالآية هنا تنزع الأنانيّة من الإنسان، وتُعزّز فيه مشاعر الانتماء إلى العائلة البشرية.

﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾. الجملة الخاتمة من الآية الكريمة تفصح بأن هذا الاكتناز لا يكون حصانةً للإنسان سواء في الدنيا، أو في الآخرة. بل يكون وبالاً عليه في الدنيا، وفي الآخرة. ﴿فَذُوقُواْ﴾ الآن في الآخرة، كما ذقتم من قبل في الدنيا وبال: ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾. فها هي كنوزكم تلاحقكم حتى إلى هنا، ولا تنفكّ عنكم، كما كنتم لا تنفكّون عنها. الآن: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾.

الباب السادس والعشرون | تنظيم الشهور

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ٣٦

يُخبر الله سبحانه وتعالى الناس بـ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾. عدد شهور السنة القمريّة ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾. هي: محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة. ﴿فِى كِتَٰبِ﴾. ﴿فِى﴾ تصنيف ﴿ٱللَّهِ﴾ لشهور السنة. وهذا التصنيف وضعه الله ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. ومنذ ذلك الوقت كلّما تمضي﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾. تكون بحساب سنة. وعلى هذا النحو يُعرَف عدد السنوات.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾يونس٥.

بعد ذلك قال جل شأنه: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾. عن أبي بكرة بن نفيع بن الحارث، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الزّمانُ قَدِ اسْتَدارَ كَهَيْئَةِ يَومَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، السَّنَةُ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا مِنها أرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثَةٌ مُتَوالِياتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ، الذي بيْنَ جُمادَى وشَعْبانَ، أيُّ شَهْرٍ هذا، قُلْنا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: أليسَ ذُو الحِجَّةِ، قُلْنا: بَلَى، قالَ: فأيُّ بَلَدٍ هذا. قُلْنا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: أليسَ البَلْدَةَ. قُلْنا: بَلَى، قالَ: فأيُّ يَومٍ هذا. قُلْنا: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سَيُسَمِّيهِ بغيرِ اسْمِهِ، قالَ: أليسَ يَومَ النَّحْرِ. قُلْنا: بَلَى، قالَ: فإنَّ دِماءَكُمْ وأَمْوالَكُمْ، - قالَ مُحَمَّدٌ: وأَحْسِبُهُ قالَ - وأَعْراضَكُمْ علَيْكُم حَرامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، وسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عن أعْمالِكُمْ، ألا فلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ

بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ، ألا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَن يُبَلَّغُهُ أنْ يَكونَ أوْعَى له مِن بَعْضِ مَن سَمِعَهُ. فَكانَ مُحَمَّدٌ إذا ذَكَرَهُ يقولُ: صَدَقَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ قالَ: ألا هلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ"[1]..

فهذه الشهور ميَّزها الله عز وجل عن بقيّة شهور السنة بأنها: ﴿ حُرُمٌ ﴾. و﴿ حُرُمٌ ﴾. بمعنى ألاّ يكون فيها الإنسان كما يكون في غيرها، بل يكون في حالة مراجعة للنفس. فإن كان في فساد، يكفّ عن فساده، وإن كان في صلاح، يزيد في صلاحه. فالاحتقانات بين الناس عليها أن تزول في هذه الشهور، والمصالحات بينهم عليها أن تحدث في هذه الشهور. فهي شهور المُصالحات الكُبرى بين الناس، شهور التسامح، شهور العفو، حتى بين أشدّ الناس عداوةً: ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾الحجر٨٥. ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾فصلت٣٤. فالناس جميعاً يكونون في أمانٍ في هذه الشهور الـ ﴿ حُرُمٌ ﴾. كما لو أنهم في بيت الله الحرام أينما كانوا. فإذا رأى شخصٌ صدفةً عدواً لدوداً له في بيت الله الحرام، وقد ألحق به أشدّ الأضرار والانتهاكات، وفرّ هارباً، لا يجوز له أن يعتدي عليه في الحَرَم بأي حالٍ من الأحوال، بل لا يجوز له حتى أن يشتمه، أو يرفع صوته عليه.

إذن، هي شهور ضبط النفس بامتياز، وأن يُرجّح الإنسان كفّة المحبّة على كفّة البغضاء، كفّة العفو على كفّة العقاب. وعلى هذا النحو يتهيّأ ليستقبل شهور السنة الثمانية المتبقيّة بنضوجٍ وحالةٍ من التسامح مع النفس، ومع الآخرين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التشريع الذي شرّعه الله لكم يجعلكم تستقيمون في حياتكم. ودون ﴿ذَٰلِكَ﴾ تكونون في اعوجاج مما يجعلكم تلحقون الأذى بأنفسكم وببعضكم البعض. فمن ذلك يمكنكم أن تستمدّوا راحة النفس، وصفاء الذهن، وكل واحدٍ منكم يصبح بطلاً إيجابياً في مجله، يسنّ سنةً طيبةً تكون له بمثابة بصمةٍ خالدةٍ في الحياة. وكما أنه يتطيّب بهذه السنة الطيّبة في الدنيا، فإنه كذلك يتطيّب بها في الآخرة. فهذا التصنيف في الشهور، هوتصنيفٌ قيِّمٌ، تستقيم به حياتكم إذا اتّبعتموه.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾. لا تلحقوا الظلم بأنفسكم في هذه الشهور الحرم من خلال عدم تقيّدكم بالتشريع الخاص ﴿فِيهِنَّ﴾. لأن ذلك من شأنه أن يُبقيكم في تجاوزاتكم في سائر شهور السنة الأخرى أيضاً. فهي محطّةٌ، عليكم أن تتوقّفوا عندها، وتتزوّدوا منها من بركات ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾. وإذا لم تأبهوا بذلك، فسوف ﴿تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾. وفي سائر شهور السنة ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾.

فهي شهورٌ ليست كبقيّة الشهور، وفيها ما ليس في بقيّة الشهور، فمادامَت المعصيّة ﴿فِيهِنَّ﴾، أشدّ عقاباً من الشهور الأخرى، فيجوز أن تكون الطاعة كذلك ﴿فِيهِنَّ﴾، أكثر ثواباً من الشهور الأخرى، ماعدا شهر رمضان كونه شهر صوم، وله خصائصه ومزاياه التي ليست في جميع الشهور الأخرى بالنسبة للثواب. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ"[1]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ"[2].

فثمّة أوقاتٌ تكون مستحبّة للدعاء أكثر من غيرها، وثمة أماكن فيها بركات الله أكثر من غيرها، وثمة أيام تكون فيها المغفرة أكثر من غيرها، وثمة أناس لهم كرامات أكثر من غيرهم.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. بعض محدودي أو ضيّقي الوعي الديني، يتكهّنون بأشياءٍ عن القرآن هي أبعد ما تكون عنه، وهم أناسٌ بسطاء، أو طيّبون، ويتحدّثون بحسن نيّةٍ. لكن هذا دِين، والدِينُ هو حكمٌ، وتشريعٌ، وتنفيذ.

فلعلّ قولاً من شخصٍ متواضعِ الوعي الدِيني، يدفع شخصاً بسيطاً أيضاً لا رتكاب جريمةٍ مروعةٍ بحق شخصٍ آخر، أو حتى بحق مجموعةٍ من الناس، وهو يعتقد بأنه ينفّذ أمر الله، لأنه يكون قد انغرّ بمظهر هذا الذي أصدر له هذه الفتوى. فقد تمظهَرَ بهذا المظهر الذي يوحي بأنه وليٌ من أولياء الله. ثم أنه قد يكون إماماً، أو خطيباً، أو في منصبٍ دينيٍ ما،

---

[1] صحيح مسلم

[2] صحيح مسلم

أو قد حصل بطريقةٍ ما على إجازةٍ جامعيّةٍ تُشير بأنه مختصٌّ في هذا العلم الشرعي الذي يُفتي فيه. وهذا كلّها محض مظاهر لبعض الوصوليين الذين يسعون إلى مثل هذه العوامل من أجل تحقيق مآربهم الشخصيّة.

وإن كان ذلك خطراً، فإن ذروة هذا الخطر يكمن في أن بعض البسطاء يعتقدون بأن ما يصدر من هؤلاء، هو دِين. وأنهم باتّباع هؤلاء، إنّما يتّبعون الله.

ولذلك فقد نبّه القرآن العظيم إلى هذه المسألة البالغة الحساسيّة، وهي أن الاجتهادات البشريّة لا ترتقي إلى درجة أن تؤخَذ دِيناً مهما بلغ المجتهدُ من صلاحٍ في دِينه، ونبوغٍ في اجتهاده. بل حتى لو كان المجتهدُ نبيّاً، فيمكن له ألاّ يصيب في اجتهاده. ولبيان ذلك عمليّاً على أرض الواقع بثبوتيّات وقرائن، فقد ترك الله عز وجل لبعض أنبيائه مجالاً كي يجتهدوا دون أن يوحي إليهم في بعض الوقائع التي كانت تجري معهم في تفاصيل حياتهم اليوميّة. وأمام عدم وجود الوحي، فكانوا يجتهدون، فيأتي الوحيُ ليبيّن لهم وللناس بأنهم لم يصيبوا، ثم يبيّن لهم الصواب من عدم الصواب الذي اجتهدوا فيه، فيصوّب لهم ما لم يصيبوا فيه بمقتضى اجتهاداتهم، وهم أنبياء.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ ﴾هود. ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ﴾الأحزاب٣٧. ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾الكهف٦. ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾فاطر٨. ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٦﴾ النساء. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤﴾عبس.

عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: (مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: "مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ"؟ فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا". قَالَ فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: "إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ")[1].

فما يؤخذ منه التشريع هو كِتابُ الله فقط، وما صحّ عن النبي عليه صلوات الله وسلامه، كون الوحي لم يقتصر فقط على القرآن، بل كان يرشده لِما يُرضي الله، فيتحدّث وفق هذا الإرشاد، وكذلك فإن الأحاديث القدسيّة، هي أحاديث عن الله سبحانه وتعالى، حيث يصوغها النبي صلى الله عليه وسلم بكلماته، وفق المعنى الذي نلقّاه من الله سبحانه وتعالى. ولذلك كان التصويب بالغ الأهميّة في مسألة الاجتهاد حتى بالنسبة للأنبياء. وبعد ذلك يعمل المسلم بالحديث وهو مطمئن بأنه يعمل بشكلٍ خالصٍ وفق شرع الله. بل جاء الأمر الإلهي: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾آل عمران٣٢. طاعة الله في القرآن الذي هو خالصٌ معنى ومبنى من الله عز وجل، وطاعة الرسول في الأحاديث النبويّة الشريفة التي تكون معناها من عند الله، ومبناها من لفظ الرسول الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾الحشر٧. فنأخذ بما يأتينا به الرسول، وننتهي مما نهانا عنه، وفق الأمر الإلهي.

إذن: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. هنا قد يطرأ شيء، وهو أن أحد الذين يعادونك، قد يأتي إلى قتالك في الأشهر الحرم. فهل تسكت وتدعه يقتلك؟. الآية هنا تبيّن هذا الطارئ الذي قد يحصل، والكلام بالغ الدقّة فيها: ﴿ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. أي في أي زمانٍ وأي مكان، فلا تدعوهم يقتلوكم، بل دافعوا عن أنفسكم أينما كنتم، وفي أي شهرٍ من شهور السنة: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ

[1] صحيح مسلم

يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾البقرة١٩١. ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾البقرة١٩٤.

﴿وَقَٰتِلُواْ﴾. أي ودافعوا عن أنفسكم عندما يتعرَّض لكم المشركون، فلا تستسلموا، ولا تنهزموا، بل: قاوموا كافّتكم ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾.

كافّة الذين ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. حتى لو كانوا من المقرَبين لكم، فلا تميّزوا بيم مشركٍ وآخر، ما داموا﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. فالجميع في قتالكم سواء، فـ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. ردّوا عليهم بمثل ما ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾. فإن كان القِتالُ بالكلامِ، فردّوا بالكلام، وإن كان يالأيدي، ردّوا بالأيدي، وإن كان بالسلاح، ردّوا بالسلاح. لكن احذروا أن تُبادروهم بالقِتال، ما داموا لا يُبادروكم. فالمشركين الذين يكونون مُسالمين معكم، مونوا مُسالمين معهم. وإيّاكم أن تتجاوزوا أمر الله بعدم إكراه أحدٍ في الدِين. فـ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾البقرة٢٥٦.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾. فحدودك هي فقط في قول الحق، ولا شيء لك، ولا شيء عليك بعد ذلك. وكما أن ثوابك من الله، وليس من أحدٍ غيره، فإن عقاب الكافر من الله وليس من أحدٍ غيره. فالتعدّديّة في المُعتقَد مُتاحة أمام الناس جميعاً إلى يوم القيامة، وحتى ذاك اليوم سيكون أناسٌ يؤمنون، وأناسٌ يكفرون، فذلك شأن الله مع عِباده.

فخير الدعوة إلى سبيل الله، الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة. وفقط، فقط، فقط، دافعوا عن أنفسكم عندما تتعرَّضون للقِتال. فجاءت خاتمةُ الآية الكريمة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. كونوا على يقينٍ تامٍ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ يؤازر وينصر ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. على غير ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾. إذا جاروا عليهم ظلماً وعدواناً، وإذا التزم المتّقون بعدم المُبادرة في القِتال، واكتفوا بصدّ هذا العدوان عن أنفسهم وعن أهليهم.

الباب السابع والثلاثون | زينةُ السوء

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ٣٧

التدخّل في شؤون تشريع الله هو ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾. لأن هذا التشريع مُنضبطٌ وفق ترتيبٍ إلهي. وأي تحريكٍ فيه مهما كان هذا التحريك صغيراً أو كبيراً، يُعدّ تحريفاً عن هذا الضبط القائم عليه.

هذه الآية متّصلة بشكلٍ مُباشرٍ مع الآية السابقة الذي كان فيها تشريعٌ إلهيٌ حاسمٌ: ﴿إِنَّ﴾ بحسمٍ وجزمٍ ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾. في هذه الآية يبيِّن الله عز وجل بأن هناك مَن أراد أن يتدخّل في صلب هذا التشريع، وألاّ يتقيَّد بالشهور الأربعة الحُرُم: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ. فإذا كان في حربٍ وحلَّ شهرٌ من هذه الشهور الحرم، لا يتقيَّد بالتوقّف عن الحرب، بل يستكمل. ثم بعد ذلك يستبدل التحريم بشهرٍ آخر نيابةً عنه. فهو إذا عندما يكون في حربٍ وحلّ شهرٌ من هذه الشهور الحرم عليه أن يُعلن الهُدنة فوراً، فإذا هدن الطرف الآخر، وكان ذلك، وإذا استمرّ في القِتال، فهو كذلك يستمرّ في التصدّي. لكن هنا جزئيّة، وهي أنه قد يكون في حالة الاقتراب من الانتصار، فيدخل عليه شهرٌ حرمٌ، فيستكمل ولا يهدن. وطبعاً هذا يكون مفتوحاً وعاماً، سواء على مستوى الدول، أو الجماعات، أو الأفراد. وهذا هو عينُ الخلل، لأنه لو توقَّفَ عن الحرب، لكان ذلك بمثابة إعطاء فرصة للطرفَين لضبط النفس، لأنه وهو في ذروة القِتال يكون في ذروة الانفعال. فهذه المساحة من التهدئة تكون بمثابة مراجعة النفس، والهدف منها هو إيقاف الحرب، واللجوء إلى التحاور. ذلك أن الله تعالى شأنه، لا يريد للناس أن يقتتلوا فيما بين بعضهم البعض، إذا اختلفوا، بل يتحاوروا، لأن ما ينتج عن الحوار هو أفضل مما ينتج عن القتال،

كون في القتال تُزهَق الأرواح، وفي الحوار، يُحافَظ على الأرواح. إذن، فشهور الحُرُم هذه، هي شهور إتاحة الحوار السلمي بين المُتحاربين.

ولكن ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾. يتجاوز هذا، ويستبدله بشهرٍ آخر، وهذا لا نفع فيه، لأن الأرواح لم تكن لتُزهَق لو التزموا بالتشريع الإلهي في الشهر المُحدَّد ورموا الأسلحة من أيديهم. وإن أرادوا، جلسوا في بيوتهم لمراجعة النفس، أو جلسوا إلى موائد الحوار لعلّهم يصلوا إلى نتيجة سلميّة، فيكون هذا الشهر الحرام سبباً في استمرار السلم بينهم في بقية شهور السنة أيضاً، على ضوء ما تم من تفاهم في هذا الشهر بالضبط.

﴿إِنَّمَا﴾. بمعنى: اعلموا جيداً أن ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾. تأخير الحُرمة من شهرٍ إلى آخر ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾. ﴿ٱلْكُفْرِ﴾ الذي حصل أولاً عند عدم التقيّدبالتشريع، ثم لحقتها الزيادة من خلال بدعة استبدال الأشهر الغير مُحرَّمة بالأشهر المُحرَّمة. فيجعلوا التحريم في شهرٍ لم يجعله الله حراماً، ويبيحوا التحريم في شهرٍ جعله الله حراماً. واستناداً إلى هذا: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ينحرفون من الهدى الذي جعله الله، إلى الضلال الذي ابتدعوه.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾. وهنا يكمن الازدواج، فهم: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾. لا يلتزمون بالتشريع. ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾. يلتزمون بالتشريع. لماذا يفعلون هذا؟، تجيب الآية الكريمة ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ ليتوافقوا من خلال ذلك مع ﴿عِدَّةَ﴾ عدد الشهور ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾. التي حرّمها. وبذلك يكونوا قد خرجوا من السنة، وقد التزموا بأربعة أشهر في التحريم، لكنها ليست الشهور التي وضعها الله، بل أحياناً كانوا يستبدلون فيما بين الشهور المحرَّمة، وغير المحرَّمة. ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾. يُحلّون لأنفسهم القِتال في هذه الشهور التي ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

بعد بيان الحالة، والمعنى غير مقتصرٌ عليها فقط، بل هو مثالٌ لسائر ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾. والناسُ يُحلّونه لأنفسهم تحت ذرائع شتّى، فقال الله جميعاً في كل زمانٍ ومكان:

﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾. تقـدّمَت ﴿ زُيِّنَ﴾. كلمـة ﴿ سُوٓءُ﴾، ثـم كلمـة ﴿أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾.

فتستنتج من ذلك بأن عمل السوء يكون مُزَيَّناً، والمُزيَّن يجذب النظر ويجذب النفس. ودون هذا التزيّن، يبقى باهتاً لا أحد يقربه، فهو يتزيّن لغرض الإغواء والاستدراج. وإزاء وقوع النظرة، وإزاء ما تخطر الفكرة: هل يُطيل الناظر نَظَرَه، ويُعاود المرة تلو المرة، أم يغض النظر ويستغفر. هل يستطيب الفكرة، فيسترسل فيها، أم يتحاشاها ويستغفر الله؟.

من هنا يبدا هذا المُزيَّن في التحرّك قدماً إليه، أو في التراجع خلفاً عنه.

إذن: ﴿ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾. بأن اتّبَعَتهم واتَبَعوها. ثم جاءت خاتمة الآية الكريمة وعظية وإنذارية في ذات الوقت: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. في حال أصرّوا وتمادوا ولم يتراجعوا عمّا هم فيه من كفر، يتركهم الله في ضلال إصرارهم، ولا يهديهم، لأنه لا يفرض عليهم الهداية، وقد فرضوا الضلال على أنفسهم وارتضوا به، وبالتالي رفضوا الهداية. عند ذاك يُمرّرهم الله سبحانه وتعالى ببعض الامتحانات، سواء في السرّاء، أو في الضرّاء، كرسائل لهم كي يتراجعوا، ويجعلهم يستوعبون بأنها رسائل هداية من الله إليهم. ولذلك، منهم مَن يتراجع، ومنهم مَن يُعاند بشدّة متجاهلاً كل رسائل الهِداية، ويصرّ على الضلال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾الرعد١١. ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ ﴾الإسراء٨.

ولكن لماذا قال: ﴿ لَا يَهۡدِي﴾؟

الجواب: ليبيِّن أنه قادرٌ أن يهدي الإنسان رغماً عنه مهما بلغ من شدّة في عناده. ولكنه لا يفرض الهداية على أحدٍ رغماً عنه. وأيضاً فإن الذي يكفر، لا يحسبنّ أنه يكفر رغماً عن الله، بل أن الله قادرٌ أن يهديه. فالذي يريد الهداية، فإن الله ﴿ يَهۡدِي﴾، والذي لا يريدها، فإن الله ﴿ لَا يَهۡدِي﴾.

الباب الثامن والثلاثون | آفة التثاقل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ٣٨

كلامٌ يُشبه العِتاب، عِتابُ الله سبحانه وتعالى لـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به في كل زمانٍ ومكان:

﴿مَا لَكُمۡ﴾. ﴿مَا﴾ الذي يجعلكم تتردّدون: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أخرجوا من بيوتكم، لا تتقاعسوا. ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هو ﴿سَبِيلِ﴾. عزكم ﴿سَبِيلِ﴾. نفعكم ﴿سَبِيلِ﴾. هو ﴿سَبِيلِ﴾. كم إلى الله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. لبثتم في جلوسكم على ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ و ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ بأجسادكم عليها.

ثم يجيب الله عز وجل إجابة عِتابيةٍ أيضا والإجابة ذاتها تحمل سؤالاً: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. هل تردّدتم خوفاً على خسارة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾. فرضيتموها لأنفسكم واكتفيتم بها. ثم تُختتَم الآية الكريمة ببيان الله: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. فـ ﴿قَلِيلٌ﴾ الدنيا ليس جديراً بأن تخسروا من أجله كثير ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. وهذا يشمل أي عملٍ يمكن للإنسان أن يقوم به ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فالآية ترشدك إلى الاستجابة السريعة لأي خيرٍ يُمكّنكَ الله منه، دون أي تباطؤ، لأن غيرك يتمنّاه، ولكن لم يُمكّنه الله تعالى من فعله. فتمكّنك بذاته هو فضلٌ من الله عليك، وهنا يكون التسارع بمثابة اغتنام الفرصة قبل أن تفوتك، فيمنحها الله لغيرك. فيمكن لك أن ترى أذى على الطريق، وتتثاقل عن إماطته، فيأتي غيرك ويميطه. فهناك فرصٌ كثيرة يمكن لها أن تفوت الإنسان نتيجة التثاقل، ولكن بشيءٍ من النشاط والعزيمة يُكرمه الله للظفر بها.

الباب التاسع والثلاثون | قدرة الله

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ٣٩

عندما يتعرَّض المسلمون للأذى، يحصل النفير العام لمواجهة هذا الأذى، وعدم الاستسلام له. والكلام في الآية الكريمة موجّهٌ للقادرين على دفع الأذى بالقوّة نظير القوّة التي تُستَخدَم لإيقاع هذا الأذى على المسلمين.

فالجندي ينفر إلى الجبهة، والطبيب ينفر لمعالجة الجرحى، والتجار ينفرون لفتح متاجرهم لإمداد الناس بالأغذية، والمستلزمات اليومية. فالجميع يكون في حالة نفير، ولا أحد يستأذن أحداً بذلك، حتى الزوجة تنفر دون إذن زوجها، والابن ينفر دون إذن أبيه. كون الأمر هو من الله، وأمر الله يعلو كل أمر. مثل صيام رمضان، فالزوجة تصوم دون أن تستأذن زوجها، وحتى لو منعها، فإنها ترجّح أمر الله على أمره. وهنا كل شيءٍ يُصبح في خدمة حالة النفير حتى يرتدع المعتدون عن المسلمين.

لكن إذا اختبأتم في بيوتكم جُبناً، أو أغلقتم مخازنهم، أو فررتم من المواجهة. عندئذٍ يعدكم الله بأنه لن يدعكم دون عقاب نتيجة انسحابكم من مسؤوليّتكم الإنسانية والدينية، ونتيجة ما تسبّبتم من كوارث لحقت بالمسلمين دون أن يحرّك ذلك فيكم ساكناً. حينها: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾. الأليم، من الألم، بمعنى تلقون ضرباتٍ موجعةٍ توجع أبدانكم، نظير ما تسبّبتم من إيقاع ضرباتٍ موجعةٍ على أبدان أهليكم من خلال جبنكم وخنوعكم. فلا تحسبوا بأنكم نجوتكم لأنفسكم، بل ستلقون في ذلك: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾. أعدّه الله لكم.

لكن كيف يحصل هذا؟.

يحصل لأن الله لا يؤازرهم، وكذلك لا يبثّ الرعب في قلوب المعتدين عليهم، وبالتالي سوف يحتلّونهم ويجعلونهم تحت سيطرتهم، ويتحكّمون حتى بشربة ماءٍ يشربونها. ولعلّ البعض يحاول أن يتفادى ذلك، فيعمل مع المعتدي لينعم بالمال والجاه والنفوذ. لكن رغم

تحقيق ذلك له، فإنه لا يملك من أمره سوى أن يرضخ لعهد الله، فيلقى: ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وينتهي نهاية أليمة. فتراه يلقى ضربات موجعةٍ من أبناء قومه، لأنه قد خانهم الخيانة العُظمى، وتعامل مع المُعتدي عليهم، أو يلقى ضرباتٍ موجعةٍ من المعتدي ذاته لأسبابٍ ما، أو يحدث ذلك في حادث سير، أو مرض، وما إلى ذلك. فلا بدّ أن يلقى ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. موجعاً في بدنه قبل أن يموت. فذلك عهدٌ من الله سبحانه وتعالى، في هذه الآية الكريمة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. العزّ الذي كنتم فيه، ولم تنفروا كي تُحافِظوا عليه عندما تعرّضتم للإعتداء، سوف لن يتركه الله للمعتدين، بل: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾. فيُخرج الله المعتدين من الديار، ويأتي بمسلمين ﴿غَيْرَكُمْ﴾. يعرفون كيف يدافعون عن البلاد والعباد في حال الاعتداء، ويدركون قيمة العزّ، ويعرفون كيف يُحافِظون عليه. تنحرمون من النعيم الذي كنتم فيه، وأنتم تكونوا قد حرمتم أنفسكم منه، ولم يظلمكم الله، بل ظلمتم أنفسكم، عندما آثر كل واحدٍ منكم مصلحة نفسه، فتشتّتم ووهنتم، وذهبت ريحكم. وتركتم المعتدي يستقوي عليكم بعدما جعلتم أنفسكم في شتاتٍ عن بعضكم البعض.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾. وقد وقع ضرّكم عليكم، فأنتم وحكم بأبدانكم مَن دفعتم ثمن خذلانكم. لكن ما هو هامٌ للغايةِ، هو أن ذلك كله لم يقع في الآية الكريمة، ولكنه إنذارٌ بأنه سيقع في حال جعلتموه أنتم قابلاً للوقوع عليكم. وهنا يبقى لكم الخَيار، إمّا أن تقرّروا العيش بعزّ وشموخ، أو بذلٍ وخنوع. ﴿إِلَّا﴾ بمعنى إن لم ﴿ تَنفِرُوا﴾. عند النفير، سوف يحصل لكم هذا لا محالة،: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾. فعندما ينحرف الإنسان عن أمر الله بشكلٍ عامٍ، فإنه يلحق الضر بنفسه، وقد يلحقه بغيره أيضاً، لكن في جميع الأحوال لا يملك أي إنسانٍ أن يضر الله، ولذلك فإن الله يملك أن يوجّه﴿ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لهذا المنحرف، ولا يملك هذا المنحرف سوى أن يرضخ لهذا العذاب الأليم. وهنا قبل أن نستكمل قراءة الآية، من المفيد أن نستذكر أجواء الآية السابقة

التي هذه الآية مستأنفة لها، وشارحة لها، وبذلك يتكامل مضمون الآيتان معاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. من هنا يجلو لنا كيف أن القرآن يُخاطب المستقبل البشري بشكلٍ مفتوحٍ، من خلال مخاطبة الواقع الراهن الذي كان قد تسبَّب في نزول الآية، فنرى كيف أن ذاك الواقع كان مثالاً قابلاً للتكرار في كل زمانٍ ومكان. فأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قد أثّاقلوا ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. عندما ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وحتى لا يتكرَّر هذا مع غيرهم أيضاً، جاء الوحيُ بالبيان في الآيتَين المُتتاليتَين.

في الأولى: جاء عرض الحالة. وفي الثانية: التحذير ممّا سيترتَّب على ذلك في حال التكرار سواء معهم أو مع غيرهم على مدار الزمن.

وخاتمةُ هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾. هي بمثابة الخاتمة للآيتَين المُتتاليتَين. فالله قادرٌ أن ينصر دينه، وقادرٌ أن يحفظ أهل الصلاح والاستقامة في كل عصر.

الباب الأربعون | سَكينة الله

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٤٠

لا تعتقدوا بأنكم إذا تخلّيتم عن الرسول في الشدائد، سوف يُنتصَر عليه، بل سوف يُنتصَر عليكم، لأن الله قادرٌ أن يحمي رسوله، وقادرٌ أن يحمي دينه، فيبقى الله مؤازراً هذا الدين. أمّا ثمار النصر فتكون لكم، وكذلك أشواك الهزيمة تكون بكم. فعندما تُناصرون الرسول، فإنكم تُناصرون أنفسكم بالدرجة الأولى. وهذا الكلام يلبثُ مفتوحاً في كل زمانٍ ومكان، وأي شخصٍ يُناصر دين الله وفق استطاعته، فإنه يُناصر نفسه، لأن النفع يعود إلى شخصه في الدنيا، وفي الآخرة.

وحتى لا يبقى هذا محض كلام، فإن الله سبحانه وتعالى، يأتي بحدثٍ بالغ الشدّة تعرَّضَ له الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما اجتمع المُشركون في دار الندوة واتّفقوا على إلحاق الأذى به، أو حتى اغتياله كما اقترح بعض هؤلاء.

وهنا يأذن الله لرسوله بالهجرة بعد نحو اثنَين وعشرين سنةٍ من المعاناة والشدائد في نشر الدعوة وهو في مكّة التي هيمن فيها المشركون على كل شيء، ويرتكبون الفظائع المروعة بالذين يوالونه. إذن، نحن ألان في أجواء المدينة، والكلامُ هنا موجّهٌ إلى الفئة التي تردَّدَت في مؤازرته، رغم أنه الآن الأقوى بكثيرٍ مما سَبَق.

هنا تتوجَّه الآية الكريمة إلى هؤلاء المتردّدين في موقفهم من هذا، وتُذكّرهم بأن رسوله عندما كان في شدّةٍ أبلغ،: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ضيَّقوا عليه حتى كادوا ينالوا مرادهم منه، ولكننا لم نُمكّنهم من ذلك في اللحظات الأخيرة. وهاهنا يبيِّن الله تعالى شأنه، تفاصيل وحيثيّات هذه الواقعة: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾. تسبَّبَ في خروجه من

مكّة: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. ولأن الله آزره في هذا الخروج، نرى بأنه سبحانه وتعالى قد أذن له به.

وهذا إيضاحٌ بأن الإنسان عليه أن يتّسمَ بالواقعيّة، وهذه الواقعيّة تكون من صلب الإيمان. فها هو رسول الله يأخذ بمُعطيات الواقع، والله يُبارك له في هذا الأخذ الواقعي الذي حصل على الأرض، ويؤازره في خروجه من هذا الواقع. ويبيِّن الله عز وجل هذه الحقيقة الواقعيّة بقوله: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. أي كانوا على أرض الواقع أقوى منه، وإلاّ لَما استطاعوا أن يُخرجوه. والدليل أنه عندما أصبح أقوى منهم على أرض الواقع، عاد إلى مكّة بقوّته، فاستسلم المُشركون للقوّة الواقعية الجديدة على الأرض، وفتح المسلمون مكّة وأصبحوا قادتها. ولكنهم لم يتآمروا على المشركين، ولم يعتدوا عليهم، ولم يُخطّطوا لاغتيالهم، أو إخراجهم من ديارهم وأهليهم، كما فعلوا هم في دار الندوة، عندما كانوا قادة أقوياء على أرض الواقع.

لننظر إلى تفاصيل الخروج الاضطراري استجابةً لمُعطيات الواقع: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾. ليلة الهجرة، ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهناك تجهّز معه أبو بكر، وخرجا معاً: ﴿إِذْ هُمَا ﴾ – النبي صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر رضي الله عنه–: ﴿فِي ٱلْغَارِ﴾. مغارة جبليّة في جبل ثور، تقع غربي مكّة، وقد حوصِرا في هذه المَغارة وبقيا فيها ثلاث ليال.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَتْ: (لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ فَلا يَسْمَعُ أَمْراً يُكْتَادَانِ بِهِ إِلا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ)[1].

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبا بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. هنا شهادة من الله تعالى ذكره، لأبي بكر الصدّيق بأنه صاحب

---

[1] صحيح البخاري

رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد شُهِدَ الله بصبحتهما، وكذلك شهادة بأن أبا بكرٍ قد آزر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولعلّ أبو بكر هو الوحيد الذي امتاز بهذه الشهادة الأولى من رب العالمين، وابو بكر من أعمدة صحابة رسول الله

صلى الله عليه وسلم، إذ آمن به وصَحِبه منذ بدايات نزول الوحي، ولبث في صُحبَته الشخصيّة مذ ذاك وحتى اليوم الأخير من حياة النبي صلى الله عليه وسلم. فقد لبث مُصاحِباً له في حلّه وترحاله، وفي المدينة زوّجه ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فأصبح إضافةً إلى ذلك صهره. وعائشة هي أخت أسماء ابنة أبي بكر أيضاً، وقد شقت خمارها نصفَين، ربطت بالنصف الطعام للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأبيها عند الهجرة، وارتدت النصف، فعُرِفَت بذات النطاقين. وليس أبو بكر فقط الذي كان حريصاً على هذه الصحبة الطيبة، بل النبي أيضاً كان حريصاً عليها. عن عائضة رضي الله عنها: (كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ إمّا بُكْرَةً وَإِمّا عَشِيّةً حَتّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الّذِي أَذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ مَا جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السّاعَةَ إلّا لِأَمْرِ حَدَثَ. قَالَتْ فَلَمّا دَخَلَ تَأَخّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَخْرِجْ عَنّي مَنْ عِنْدَك"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنّمَا هُمَا ابْنَتَايَ وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاك أَبِي وَأُمّي فَقَالَ: "إنّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ". قَالَتْ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ "الصّحْبَةَ". قَالَتْ فَوَاَللهِ مَا شَعَرْت قَطّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنّ أَحَدًا يَبْكِي مِنْ الْفَرَحِ حَتّى رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ).

عن أبي الدرداء: (كَانَتْ بيْنَ أبِي بَكْرٍ وعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فأغْضَبَ أبو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عنْه عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أبو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ له، فَلَمْ يَفْعَلْ حتَّى أغْلَقَ بَابَهُ في وجْهِهِ، فأقْبَلَ أبو بَكْرٍ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ أبو الدَّرْدَاءِ ونَحْنُ عِنْدَهُ: فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "أمَّا صَاحِبُكُمْ هذا فقَدْ غَامَرَ" قالَ: ونَدِمَ عُمَرُ علَى ما كانَ منه، فأقْبَلَ حتَّى سَلَّمَ وجَلَسَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقَصَّ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى

اللهُ عليه وسلَّمَ الخَبَرَ، قالَ أبو الدَّرْدَاءِ: وغَضِبَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وجَعَلَ أبو بَكْرٍ يقولُ: واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أظْلَمَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "هلْ أنتُمْ تَارِكُونَ لي صَاحِبِي، هلْ أنتُمْ تَارِكُونَ لي صَاحِبِي، إنِّي قُلتُ: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رَسولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلتُمْ: كَذَبْتَ، وقالَ أبو بَكْرٍ: صَدَقْتَ")[1]. ويبدو في الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى علامات الحزن على أبي بكر، فطمأنه وهدّأه قائلاً: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾.

عن أبي بكر وهو يستذكر هذه التفاصيل فيما بعد: (قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: "مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا")[2]. كان أبو بكر يُدرك مدى إصرار المشركين على إلحاق الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم. وملاحقتهم له يبث إشارة جلية بأنهم لا يكتفون باستبعاده عن مكّة، وإلا لكانوا تركوه، وقد خرج، أو حتى سهّلوا له الخروج. بل لحقوا به ليقتلوه، وهاهم قد غدوا على وشك إلقاء القبض عليه. وكما جاء عن أبي بكر: (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا). وظاهر هذه الإفادة يعني أنهما كانا ينظران إليهم. ولعلّ الحزن في هذه الحالة يشوبه شيءٌ من الفَزَع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن ذلك لم يصب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن أجواء الآية تبيّن بأنه كان بمعنوياتٍ مرتفعةٍ رغم أنه كان على حافّة الخطر، فهي إذن مجرّد نظرة حتى لو وقعت سهواً من أحد المشركين، ستجعله على الفور تحت سيوفهم، وهم أكثر الناس عداوةً له، وأكثر الناس شراسةً مع كل ما يمّت إلى الإسلام بصلةٍ. فما الذي سيفعلوه وهم يقعون على رأس الإسلام في هذه المغرة الجبليّة. لكن النبي صلى الله عليه وسلم عَلِمَ بأنهما ليسا لوحديهما، بل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ معهما. والذي يكون الله معه، ولا توجد قوةٌ قط تقدر عليه، مهما كان في موضع ضعف. ولسنا مع بضعة دقائق، أو بضعة ساعات في هذا الحِصار، بل استمرّ الحِصارُ عليهما ثلاث ليالٍ، وخلال يُروى أن عامر بن فهيرة كان يغتنم بعض الفرص بين حينٍ وآخر بحذرٍ شديدٍ ليمدّهما ببعض اللبن.

---

[1] صحيح البخاري

[2] صحيح البخاري

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾. الفاء هنا جاءت إنقاذيّة مُباشِرة، ففي ذروة هذه الشدّة، يُنزِل: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾. المُفيد هنا أن هذه السَكينة نزلت بعد: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾. وهنا تُدرك بأن عليك ألاّ تفقد الرجاء بالله حتى في أحلك الظروف، مهما دنا الخطر منك. فالله عز وجل لا يخيّب أمل الذي يرجوه. وهذه هي سَكينة الله، يُنزلها وقتما يشاء على مَن يشاء.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

السَكينة هذه، كانت مرحلة مهمّة أراحتهما من نوبات فزع الحالة الراهنة بعد المشقّة التي لقياها حتى أصبحا ﴿فِي ٱلۡغَارِ﴾. وهذه خطوة من مشوار طويل على طريق الهجرة النبويّة الشريفة حتى يصلا يثرب التي سيغيّر النبي صلى الله عليه وسلم اسمها إلى المدينة.

الآن، مع هذه الجملة القرآنية الكريمة، تبدأ مرحلة ما بعد﴿ ٱلۡغَارِ﴾.

بدأت الجملة بالواو، أي بعد أن جاوز الله رسوله من محنة﴿ ٱلۡغَارِ﴾،: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ﴾ أمدّه ﴿بِجُنُودٖ﴾ جنّدهم الله لحماية رسوله في هذه المرحلة الانتقالية الكبرى من مسيرة الدعوة ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.غير مرئيين بالنسبة للإنسان، فيرون الإنسان، لكنه لا يراهم.

الآن سوف ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم من مسقط الوحي إلى المدينة التي تبعد نحو ٤٠٠ كم عن مكّة، لينتقل استئناف نزول الوحي إلى هناك. واعتباراً من اليوم الأول من وصوله إلى المدينة، ستُصبح هناك مرحلتان مفصليّتان في منهج الوحي: مرحلة السور المكّية، التي تتميَّز بالدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله كمرحلةٍ أولى. ثم السور المدنيّة التي تميَّزت بالأحكام والفرائض والحلال والحرام، بعد أن ترسَّخ الإيمان في قلوب المؤمنين. حيث سوف يُفرَض الصوم في رمضان على المسلمين في السنة الثانية للهجرة، وبذلك يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد صام تسعة رمضانات.

إذن، الآيات المكّية، هي آياتٌ تأسيسيّةٌ للإيمان بوحدانيّة الله الذي لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، حامل رسالة الله الخاتمة إلى العالمين.

والسور المدنيّة، هي سورٌ تشريعيّة يتفاعل بها المؤمن مع إيمانه من خلال العمل.

على هذا النحو بدأ الآية الكريمة بفعل المضارع: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾. ثم انتقلت إلى الماضي: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾. ولبث فعل الماضي مستمرّاً في الآية. وهذا ما نسمّيه في التقنيات الروائية الحديثة بتقنية الخطف خلفاً، أو المونولوج. فيبدأ العمل الروائي في الحاضر، ثم تعود الذاكرةُ إلى الخلف، فيتم سرد أحداث الماضي من خلال الحاضر.: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾. الآن، ثم بعود السرد إلى الماضي: ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾. وكل هذا حتى يعلم الناس في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفيما بعد في أي زمانٍ ومكان بأن الله يحمي دينه، إذا تقاعس المسلمون عن نصرته. وهذه عيّناتٌ من أدلّةٍ حيّةٍ وساخنةٍ بيّنها الله بتفاصيل أحداثها: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾. فكما أنجاه بأعجوبةٍ من ﴿ ٱلْغَارِ﴾، نصره ﴿بِبَدْرٍ﴾ كذلك بأعجوبةٍ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾آل عمران١٢٣. واستمرّ نصرُ الله لرسوله حتى تكلّل بفتح مكّة. تبيِّن الآية الكريمة بأن الله تعالى شأنه، لا يُستقوى عليه، ولكن يُستَقوى على المسلمين إذا تقاعسوا وتشتّتوا. وقد حصل هذا في عهد الرسول في معركة أحد على سبيل المثال. فالأذى يصيب المُتقاعسين أنفسهم، في حين أن دين الله يبقى قوياً لأنه غير قابلٍ للضعف. فدوماً هناك جنودٌ يجنّدهم الله لنصرة دينه ونصرة دُعاة الصَلاح في كل زمانٍ ومكان. ولذلك فإن الدين دوماً في كثرة، وأن أعداد المسلمين دوماً في زيادة من سنةٍ إلى سنة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ﴾. نعم، المُشركون الذين كانت كلمتهم مسموعة في جميع أنحاء مكّة، رضخوا في النهاية عند فتح مكة، وخفتت أصواتهم، واستجابوا ورضخوا للسلطة الجديدة من خلال عودة المسلمين أقوياء إلى مكة وفتحها. فلا كلمة تعلو كلمة الله، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾. في كل زمانٍ ومكان ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا ينال من عزّه شيء، و ﴿حَكِيمٌ ﴾. يبقى له الحكم الأول والأخير وهو أحكم الحاكمين.

الباب الواحد والأربعون | خيرُ الخير

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾

حينما ينفر النفير: ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾. استجيبوا ولا تتقاعسوا، ولا تلمسوا الأعذار الخائبة، فهو يوم الرجال ويوم النساء معاً، وهو يومٌ تُترجمون فيه أقوالكم إلى أفعالٍ على أرض الواقع. لا تختبؤوا في بيوتكم، لا تدعوا لِمَن أتى لغزوكم أن يستجبنكم ويستقوى عليكم.

﴿ ٱنفِرُواْ ﴾. فإن الله معكم، إن الله ناصركم مهما كُنتم ضِعافاً، مهما كُنتم قلّةً، مهما كان عدوّكم قويّاً، مهما كان كثيراً. سيؤيّدكم الله﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾. ويجعل ﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾، وتبقى﴿ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾، لا تعلوها كلمة. ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾. فلا تفرّوا من النفير، ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا ﴾ بأسلحةٍ خفيفةٍ ﴿ وَثِقَالًا ﴾ بأسلحةٍ ثقيلةٍ. المهم ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾. بما تستطيعون أن تنفروا به.

﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ إلى ساحة المواجهة دفاعاً عن دينكم، عن أعراضكم، عن أموالكم، عن مواطنيكم. هناك ستتذوّقون لأول مرةٍ لذة عسل المواجهة التي لا يتذوّقها أحدٌ قط غيركم، وستعودون إلى بيوتكم بهاماتٍ مرفوعةٍ، بنصرٍ مؤزّرٍ، وقد ألقنتم عدوّكم درساً لن ينساه، وسيكون عِبرة لغيره. هكذا سيرضى الله عنكم، وهكذا لا يرضى الله عن الذين فرّوا من النفير، يوم النفير: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾. هذا هو اليوم الأكبر، يوم جهاد المال وجهاد النفس، هذا هو يومكم الأكبر مع الله. ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ اليوم المجيد ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

فلا تحرموا أنفسكم ذاك الخير ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: لو ﴿ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما حرمتم أنفسكم ذاك الخير. و﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ لا ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ من قبل، فاعلموا الآن.

النفير في الآية هو مواجهة المُعتَدي، والاستعداد التام للتضحية بالمال والنفس ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. خالصاً لله تعالى دون أي مآرب أخرى.

ولذلك تفرّعات، لأن نفير المواجهة مع العدو، هو نفيرٌ تأسيسيٌّ، يُعزّز حالة النفير العامة في قلب المؤمن، فيكون مستعدًا لتفرّعات النفير في حياته اليومية. أي بقى على استعداد كي يهبّ لتقديم العون عند الحاجة، ولا يتقاعَس عن ذلك. عندما يرى شخصاً يغرق، يهبّ لمساعدته ما أمكن حتى ينجده من الغرق، عندما يرى حريقاً يشبّ في موضعٍ، يهبّ لإطفائه ما أمكن، عندما يرى خطراً يكاد يدهم شخصاً غافلاً، يهبّ لتنبيهه، عندما يرى أذى على الطريق يميطه، عندما يطلب منه شخصٌ إعانةً لحالةٍ طارئةٍ، يعينه، عندما يقع طارئٌ على المجتمع لظرفٍ ما، يخرج ما لديه ويقدّم المعونات لأهل الحاجة.

والكرة الأرضيّة برمّتها في هذا الوقت مع كتابة هذه السطور في النصف الأول من شهر آب ٢٠٢٠، تعاني أزمات وتداعيات الحجر الصحّي بسبب انتشار فَيروس ما بات يُرَف باسم (كورونا). فقد استطاع فَيروسٌ صَغيرٌ أصغرُ من أن يُرى بالعين المجرَّدة، أن يُهزِمَ جيوشَ الأرضِ، وكل أسلحة الإنسان المتطوّرة، ويُرغم على الناس جميعاً الاحتماء منه في البيوت. حتى بدت شوارع العالم كلّه فارغةً من رائحة الإنسان، وبدت الكرة الأرضيّة برمّتها فارغة من رائحة الإنسان كما لو أنه لم يكن عليها ذات يوم.

أجل إنه يُهدّد البشريّة جمعيها بالفناء، دون أي استثناءٍ، ويستسلم لجبَروته جبابرةُ الأرضِ، حتى المساجد، بِما فيها مساجدُ الديار المُقدَّسةِ، وسائر دور العِبادة في العالم، أغلقت ابوابها. أجل لعلّها المرّة الأولى التي يبثُّ فيها فَيروسٌ صغيرٌ كهذا كل هذا الفَزَع في نفوس البشريّة كلّها ويشل حراك الكرة الأرضية بأكملها في وقتٍ واحدٍ.

وهنا لا بدّ لنا أن ننظر إلى الميقات الذي حصل فيه كل هذا، فقد باتَ الناسُ يستقوون على بعضهم البعض، ويتباهون بأسلحتهم المتطوّرة، ويُلحقون بها الويلات والكوارث ببعضهم البعض أكثر من أي وقتٍ مضى. فهذا درسٌ بليغٌ من فيروسٍ صغيرٍ كهذا للإنسان كي يتّعظ ويتراجع عن عنجهيّته، ويتواضع للحقيقة التي هو عليها. هذه الحقيقة التي تقول بأن ليس للإنسان سوى الإنسان، ولا يكون الإنسان قوياً إلاّ بالإنسان، ولا يكون واهناً إلاّ بالإنسان، وما تُقدّم من زهورٍ للإنسان، تتفوّح عليك، وما تقدّم من أشواك للإنسان، تُشاك بها.

الباب الثاني والأربعون | تهلكة النفس

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

الآية السابقة في هذا السياق، لها صفة العموميّة، وكذلك الخصوصيّة. لكن هذه الآية لها صفة الخصوصيّة البحتة، لأنّها تُركّز على أناسٍ بعينهم، وواقعةٍ بعينها. وهذا مثالٌ حيٌّ من أرض الواقع كدعمٍ للعموميّة المفتوحة للآيات السابقة وفق المُبتَغى في سياق الموضوع المتمحورة حوله هذه الآيات تحديداً.

في هذه الآية الكريمة نرى كيف أن الله يُخبر رسوله بِما سيقع قبل معركة تبوك، وكذلك بعدها. وهي الآن لم تقع بعد، ولكن الناس في حالة استنفار، والنَفيرُ قائمٌ، وقد غدا حديث الساعة، بل الدقيقة كي يهبّ الناسُ ﴿خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾، ويُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

الآن، هؤلاء تقاعَسوا وتردَّدوا عن الاستجابة للنفير عندما استجاب الناس له، وأصبحوا على استعدادٍ للمواجعة في معركة تبوك. يقول الله لرسوله، ولنا جميعاً، وهو يكشف خبايا المُنافقين والمتخلّفين بلا عذر شرعي معاً: ﴿لَوۡ كَانَ﴾ النفير ﴿عَرَضٗا﴾ دعوة إلى مالٍ ﴿قَرِيبٗا﴾ مساحة الذهاب إلى العرض تكون قريبة ومضمونة النتائج بالنسبة إليهم ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ يكون السفر إلى هذا العرض القائم مُريحاً ولا خطورة فيه، مثل الذهاب إلى نزهة وبنفس الوقت العودة بأرباح ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾. ﴿لَوۡ﴾ دعوتهم إلى لاتّبعك هؤلاء المُنافقون والمُتخلّفون دون تردّد، ولعلّهم كانوا أول التابعين لك.

هنا يكشف الله تعالى ذكره، معادن هؤلاء ويُظهرهم على حقيقتهم حتى لا يعتقدوا بأنهم استطاعوا أن يخدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن الحقيقة: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾. رأوا المسافة بعيدةً، والذهاب فيه مشقّة ومُخاطَرة وخسائر ماديّة ونفسيّة.

لماذا يفضحهم الله سبحانه وتعالى؟

الجواب: لأنهم لم يكتفوا بهذا الكَذِبِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعلّهم لو اكتفوا، ما فضحهم الله تعالى شِأنه. الآن في الجملة التاليّة من الآية الكريمة، يُطلع الله رسوله على الغيب، وأنه سيذهب إلى تبوك، وسيعود، وهؤلاء لن يكتفوا بالكذب الذي ادّعوه، بل عند عودته مع الصحابة من تبوك،: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ له صلى الله عليه وسلم، وللصحابة رضي الله عنهم: ﴿بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. سوف يحلفون بعالِم الغَيب وعالِم ما في نفوسهم، ولرسوله، ولصحابة رسوله الذين تركوا كل شيءٍ ونفروا معه في معركة ردّ الأذى عن المؤمنين، وكذلك عن هؤلاء المنافقين الذين ادّعوا بأنهم مؤمنون، وعن المؤمنين الذي تخاذلوا وتقاعسوا عن المُشارَكة. لأنهم كانوا جميعاً يعيشون في ذات الموقع، وعندما يأتي الأذى لا يستثني أحداً، بل يشمل جميع مَن هم في الهدف. فلو لم نكن مرضى، ولو أعانتنا صحّتنا ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. لَما تردّدنا أبداً عن الخروج إلى المقاومة في تبوك ﴿ مَعَكُمْ﴾.

قال الله فيهم: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾. عندما يدّعي الإنسانُ شيئاً ويحلف﴿بِٱللَّهِ﴾. كَذِباً، فإنه سيُصاب به. وهنا أيضاً إخبارٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بالغيب، وإلى الآن فإنه لم يذهب بعد إلى المعركة، ولكنه مع صحبه الآن في ذروة التهيّؤ لاستعدادات خَوض المعركة. والوحي يتنزَّل عليه، ويُخبره بتفاصيل ما يحدث في الراهن، بالنسبة لهؤلاء المنافقين الذين ادّعوا الإيمان نفاقاً، أو المُتخاذلين الذين آمنوا بصدقٍ، ولكنهم تَخاذَلوا عن المُشاركة في جَهاد المعركة. وإلى جانب ذلك نرى كيف أن الله تعالى شأنه، يُطلع رسوله بأنه سوف يذهب إلى المعركة، وكذلك سوف يعود منها، وما الذي سيقوله له هؤلاء عند عودته. ثم ما الذي سيحصل لهم نتيجة هذا الازدواج الذي وضعوا أنفسهم فيه، وحلفانهم له ﴿بِٱللَّهِ﴾. كَذِباً: ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. والحقيقة أنهم يستطيعون كل الاستطاعة.

فيا رسولنا، هؤلاء: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، بأنفسهم كما تَرى. فمهما ادّعوا الصدق، ومهما تذرّعوا لك بذرائع: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. ويُطلعكَ على حقيقة كذبهم.

كانت معركة تبوك التي وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، آخر معركة قام بها النبي صلى الله عليه وسلم. ولعلّها من أكثر المعارك خطورةً وحساسيّةً، فعندما أصبح المسلمون قوة، أراد الرومان الذين كانوا من أقوى دول الأرض، أن يأتوا إلى المسلمين في ديارهم، ويهدّوا أركان دولتهم الفتيّة، ويُشتّتوهم عن بعضهم البعض، وقد آزرهم في ذلك مشركو العرب، وبعض الذين كانوا يُعادون المسلمين. ووصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الجيش الروماني المؤلّف من أربعين ألف مقاتل، تحرّك نحو المسلمين، واصبح قريباً من الأردن. كان الأمر غاية في الصعوبة، لأن الوقت بدا قصيراً حتى يعدّ الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً للمواجهة، إضافة إلى عدم وجود إمكانات مالية لتجهيز الجيش. لكن رغم ذلك، حصل النفير العام وطلب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس أن يقدّم كل شخصٍ ما يستطيع تقديمه لهذه المواجهة مع الجيش الروماني. فلبّى عثمان بن عفّان الدعوة وأتى بمائتي بعير وقد جهّزها، وكذلك بألف دينار من الذهب، ومائتي أوقية من الفضة، ووضع كل ذلك في سبيل الله تعالى تحت تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم. ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه: "ما ضر عثمان مافعل بعد اليوم". وعندها أضاف عثمان إلى إنفاقه حتى بلغ تسعمائة بعير، ومائة فرس.

ومن جهته لبّى عبد الرحمن بن عوف الدعوة، وقدَّم مائتي أوقية، وأتى أبو بكر بكل ما يملك من أموال ووضعها في خدمة المعركة، كما أتى عمر بنصف ماله، والعباس ببعض الأموال، ثم بدأ الناس يأتون بِما يقدرون عليه سواء أكان كثيراً، أو قليلاً، وتقدَّم الرجال للانضمام إلى الجيش، وغدت النساء يأتين بِما يملكن من ذهب وفضة. وبذلك بدأ الجيش يتشكّل للانطلاق نحو الجيش القادم ومجابهته حتى لا يتقدَّم أكثر نحو ديار المسلمين. في الطرف الآخر لبث المنافقون دون مشاركة، كما لبث بعض المسلمين دون أن يُقدّموا شيئاً، وتلمّسوا الأعذار أيضاً كي لا يخرجوا بأنفسهم. فالوقت كان قريباً من الحصاد، وكانت الثمار قد أينعت، كما أن الحرارة كانت شديدة.

الباب الثالث والأربعون | إجازاتٌ غير شرعيّة في الشريعة

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ٤٣

في الآية السابقة عَلِمنا أنه قد حصل التخلّف عن الذهاب مع رسول الله إلى المعركة. وفي هذه الآية نعلم بأن هؤلاء قد أخذوا الإذن من رسول الله بالبقاء في البيوت، ويبدوا أنهم استطاعوا أن يُقنعوه بحججهم، فأخذ بما سَمع، وأذِنَ لهم بالبقاء استناداً إلى أعذارِهم.

فقال الله جل شأنه في مستهلّ هذه الآية الكريمة، ومستهلّ هذا الخطاب الموجّه بشكلٍ خاصٍ إلى رسوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾.

والعبارة بالغة اللطف، وقد أشرقت كلمتها الأولى بالعفو، وهي تنقسم إلى جملتَين: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. ثم: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾. والعفو في الجملة الأولى، نتيجة ما ورد في الجملة الثانية، فتم ذكر العفو قبل ذكر سببه. والجملتان، مُتناغِمتان متكاملتان مع بعضهما، وردتا في عبارةٍ متناسقةٍ. فـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. ليست مثل: (عافاك الله). على سبيل المثال، وأيضاً لا يجوز مقارنة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. بـ (رضي الله عنك). ذلك أننا إزاء كلمة العفو، والعفو لا يحصل إلاّ بوجود ما يستوجبه، وإلاّ لكان العفو كعدمه.

فـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. عن ماذا؟ تجيب الآية ذاتها في جملتها الثانية على الفور: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾. فالإذن هو الذي تسبَّبَ في العفو. وهذا له اتّصالٌ بأجواء الآية السابقة التي بيَّنَت بأن هؤلاء لم يذهبوا مع النبي بالفعل، ونربط ذلك بهذه الآية لنعلم بأنهم قد استأذنوا الرسول بعدم الذهاب، وقدّموا له الحجج، فتركهم في بيوتهم بمقتضى إذنٍ رسميٍ منه صلى الله عليه وسلم. فلبثوا في بيوتهم وفق رخصةٍ رسميةٍ من قائد معركة الدفاع عن النفس ومواجهة جيش الرومان الذي قدم لإلحاق أفدح الأضرار بهم في ديارهم. وتركوا بذلك غيرهم يُدافعوا عنهم وعن ممتلكاتهم، وكانوا قادرين على الذهاب، لكنهم كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الادّعاءات كما فضحتهم الآية السابقة في خاتمتها: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾. على رسوله.

إذن، الآن فقد أفصحت هذه الآية بأنهم كانوا قد لبثوا في بيوتهم وفق رخصة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن هذه الرخصة لم تكن في موضعها، فقد استطاعوا أن يتحايلوا على النبي صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنه: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين يومئذ).

وهذا مثالٌ جميلٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، وللناس كافةً بالتأنّي في إصدار الأحكام.

وقد حصل ما يشبه ذلك مع النبي داود عليه السلام: ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ
تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا
عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ
وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ
نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا
لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ص.

فلعلّ هناك مَن يدّعي شيئاً للتحايل، وهذا يحصل أحياناً في المحاكم، وفي الحياة اليومية بين الناس. فتنبّه الآية إلى التحقّق، وتبيِّن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بِما هو عليه من حكمةٍ وعلمٍ، استطاع البعض أن يكذب عليه. وقد أورد القرآن هذا المثال من الواقع، ليبيِّن للناس جميعاً بأن يكونوا حذرين في أحكامهم ومواقفهم مما يسمعون، وأن يتريّثوا ويتحقّقوا جيداً من مصادر مختلفة قبل أن يحكموا، وألاّ يكتفوا بالاستماع إلى شخصٍ واحدٍ، أو إلى جهةٍ واحدةٍ.

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾. تبيِّن الآية بأن هناك مَن ﴿ صَدَقُواْ ﴾ أيضاً في عدم المقدرة بسبب بعض العاهات التي منعتهم من الذهاب إلى المعركة. وبذلك قد أظهرك الله على الحقيقة ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾، من ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ كذبوا، ﴿وَتَعۡلَمَ﴾ الصادقين من ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

ولعلّ هذه الحادثة تجعل النبي صلى الله عليه وسلم يتوقّف عن إعطاء أي إذنٍ دون وحي، ولكن لم يحصل هذا، بل ترك له الوحي حريّة الاجتهاد، ولم يحرمه منه بين حينٍ وآخر، فيأتي أمر الله تعالى شأنه بالإذن، وقد مرّ بهذه التجربة وتعلَّم منها أكثر: ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ ﴾النور٦٢. وهذا ما يُعزّز لدى النبي صلى الله عليه وسلم المسؤولية فيُبرهن بأنه تعلَّم ممّا علّمه الله. ورغم ذلك فقد بقي الاجتهاد قابلاً لغير الصواب، كما أنه قابلٌ للصواب، ذلك أن الصواب الكامل لا يكون سوى لله وحده، وهو وحده الذي يُصوّب، ولا يصوَّب له، وما دونه كائناً مَن كان بشكلٍ مطلقٍ لا استثناء فيه، يكون قابلاً لعدم الصواب، ويبقى يحتاج من الله التصويب، ولا يمكن له بأي حالٍ من الأحوال أن يستغني عن تصويب الله له. لكن لماذا حصل ذلك مع الأنبياء، وكان يمكن له ألاّ يحصل؟. الجواب: أن ذلك قد حصل كأمثلةٍ أمام الناس حتى لا يتركوا القرآن والسنّة، ويعملوا وفق اجتهادات أهل العلم، لأن ذلك مع الممارسة من شأنه أن يتحوَّل إلى منظومة دينية منفصلة عن حقيقة الدين، يعمل بها الناس، فيستشهدون بِما قال فلان، وما قال فلان، حتى لو تعارض ذلك مع القرآن والسنة. بل أن البعض سوف يعمل بفتاوى من هؤلاء حتى لو علِمَ بأنه ليس على صواب. إذن سيتحوَّل المفتون وأهل العلم إلى عوامل تفصل ما بين الناس، وما بين القرآن والسنة. لأن هذه المنظومة الدينيّة التي تكون قد تشكَّلَت مع الزمن، تكون منظومة منفصلة عن القرآن الكريم والسنّة النبويّة المُطهَّرة. وإذا حصل هذا، سوف يتشتَّت المسلون عن بعضهم البعض، لأن كل جماعة سوف تتبع مفتيها داخل هذه المنظومة، وبالتالي تكفّر بعضها البعض، وتُجيز الاعتداء على بعضها البعض. وهذا لا يعني أن الله سبحانه وتعلى لم يأذن لأهل العلم أن يجتهدوا، بل أذِن لهم أن يجتهدوا وفق المستجدّات الزمنية، لكن ألاّ يخرجوا باجتهاداتهم عن القرآن والسنّة، وألاّ يُشتّتوا صفوف المسلمين، أو يثيروا النعرات فيهم، أو يُحرّضون بعضهم على بعضٍ، أو يُحرّضوا الأنظمة على الشعوب، أو يحرّضوا الشعوب على الأنظمة، أو يحرّضوا جماعاتٍ إسلاميّة على جماعاتٍ إسلامية أخرى، وما إلى ذلك. فيجنحوا إلى السلم، وإلى التهدئة، وإلى ضبط النفس، ويدعوا إلى جمع الصفوف، وتلاحم المسلمين مع بعضهم البعض.

فالاجتهاد مسؤولية عظيمة، ومسؤولية بالغة الحساسية، وهذا ما يجعل المجتهد في حذرٍ بالغ الشدّة، ذلك أن الأمثلة في القرآن، حيّة مع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، و الوحي لا ينزل على أحدٍ ليصوّب له ليصوّب له، فلا وحي بعد القرآن، ولا نبي بعد محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فالإذن بالاجتهادِ مُتاحٌ للعلماء: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾النحل٤٣. فـ ﴿ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ يُعلّمون الناس ما﴿لَا﴾ يعلمون. ويأمر الناس الذين ﴿لَا﴾ يعلمون بأن يسألوهم، وحتى يُعلّموهم ما ﴿لَا﴾ يعلمون في دِينهم. فـ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يُرشدون الناس إلى القرآن والسنّة، وإلى حفظ الأموال والأعراض، إلى الحرص على حياة الناس، إلى التهدئة وضبط النفس، سواء بالنسبة للأنظمة، أو بالنسبة للشعوب. فهم ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ وليسوا ﴿أَهْلَ﴾ المظاهر، أو الاجازات الجامعية التي بات الحصول عليها في زماننا يسيراً حتى بالنسبة لِمَن لم يقرأ القرآن مرةً واحدةً. وهي إجازات غير شرعيةٍ في الشريعة، كونها تُشترى بالمال، ولا يحصل عليها حاملها وفق ما يتمتَّع به من سعة الذِكر. وهي شبيهة بابن الزنا الذي يأتي بعمليّة جنسية غير شرعيّة، رغم أنه ابن الزاني، ولكنه ابن غير شرعي كونه نتج عن علاقةٍ غير شرعيةٍ. فلم يدخل الرجل على المرأة من الباب الشرعي العلني، بل من الباب الغير شرعي، والغير علني. فكذلك لا يدخل طالب هذه الإجازة الشرعية من الباب الشرعي، بل من الباب غير الشرعي ليحصل من خلاله على إجازةٍ في الشريعة، ثم يستخدمها للتوظيف، أو للإمامة، أو الخطابة، أو الوجاهة، وما إلى ذلك. فهذا الرجل لا يُسأل، كونه ليس ﴿ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ بَيد أنه يتمثَّل بمظاهرهم لتحقيق مآرب شخصيّة يبتغيها.

الباب الرابع والأربعون | تقوى المؤمنين

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

هذه الآية الكريمة تبيِّن الثقة التي تكون بين المؤمنين، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك عندما يتغيَّب أحد المؤمنين عن الجهاد، لا يأتيه النبي ليسأله عن السبب، كما لو أنه يُحقّق معه، وهذا شيءٌ من عدم الثقة. فلا النبي صلى الله عليه وسلم يسأل، ولا المؤمن يستأذن بإعفائه من الذهاب إلى الجهاد في حال وجود سبب مانع. فهو من تلقاء نفسه إن كان قادراً، يذهب، وإن لم يكن، يتخلّف.

ولـــــــذلك: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ﴾.

طلب الاستئذان هنا، فيه شيءٌ من التردّد، وهذا الواجب، على المؤمن أن يؤدّيه دون تردّد، بل حتى الزوجة، لا تستأذن زوجها، والابن لا يستأذن أبيه للخروج.

فإن جاء مسلمٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم قائلاًك هل آتي معك؟. فذلك يشير إلى شيءٍ من تردّد. أمّا إذا تجهّز والتحق بالمجاهدين من تلقاء نفسه، ونحن الآن في أجواء النفير، والجيش الروماني قادمٌ بترسانته الحربية ليقض مضجع المسلمين، والأمر من الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فكيف يأتي بعد ذلك مَن ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ بل:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ﴾.

فيقبلون وقت النفير وهم على أهبّة الاستعداد للاستجابة.

وهنا نحن في أجواء حربٍ، فالجيش الروماني بترساناته قادمٌ، فعلى الجميع أن يهبّوا لمعركة الدفاع. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾. يؤمن المتّقون بأن الله يعلم الحقيقة، ولذلك فإن علاقتهم هي مع الله، واستناداً إلى هذه العلاقة يتصرّفون.

الباب الخامس والأربعون | ريبة القلوب

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ٤٥

كما أن الآية السابقة بيّنَت بأن المؤمن سبّاقٌ إلى الجهاد بماله ونفسه، ولا ينتظر أن يستأذن أحداً في ذلك، بل يقوم به من تلقاء نفسه بمقتضى إيمانه ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. وقد جاءت عبارة ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. مركّزة في الآية الكريمة للتذكير بأن ما يُقدّمه اليوم، لن يذهب هباءً، بل: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. يجد ما هو أفضل. فهذا رصيدٌ يتم إيداعه عند الله، ودوماً يجد عند الله زيادةً. ولذلك جاء: ﴿بِٱللَّهِ﴾. أي الذي يثيبه على جهاده في الدنيا، ثم﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. فهذا شخصٌ على أتم الاستعداد كي يُجاهد في أي لحظةٍ بماله ونفسه عندما ينفر النفير، تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾. وكذلك سعياً للفوز بالثواب، فيكون مُسارِعاً كي يُحقّق الظفر بهذا الثواب نتيجةً لهذه الاستجابة.

لكن غير المؤمن يتباطأ ويبحث عن الذرائع حتى يتخلّف عن الاستجابة لأمر الله، وهو استناداً إلى عدم إيمانه، يطلب الإذن بالتخلّف، ذلك أنه لا يؤمن بالثواب، كما أنه لا يؤمن بالله. ولذلك يفعل ما بوسعه كي يتخلَّف، ويترك غيره يُدافع عنه وعن عياله وعن مصالحه:

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

لكن لماذا يستأذنون ما داموا لا يؤمنون بالله؟ الجواب: لأنهم يدّعون الإيمان نفاقاً، من أجل أن يحصلوا على المزايا التي يحصل عليها المؤمنون المُجاهِدون.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾النساء١٤١.

فالمنافق يتظاهر بالصلاة، بل أن رأس المنافقين عبد الله بن سلول، كان يصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتظاهر بأنه يدعو قومه إلى الإسلام. فالمنافقون هم شركاء في

المنافع، ويوم الجهاد يتقاعسون، وكما أن الآية السابقة افتُتِحَت بـ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾. لتشير إلى تلقائيّة المؤمن في الاستجابة للجهاد﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾. فإن هذه الآية افتُتِحَت بـ: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾. بالشدّ لتشير إلى تشدّد غير المؤمن في عدم الاستجابة ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾. وكما أن الأول يجد فسحةً للاستجابة، فإن الثاني يجدّ شدّةً لها. ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾. الريب في هذا المقام بمعنى التحيّر، فقد أصبحوا بقلوبٍ حائرةٍ، فلعلّ أمرهم يُكشَف لأنهم ليسوا صادقين في ادّعائهم بعدم المقدرة على الجهاد، فأفصحت الآية الكريمة المزيد مما يدور في دواخلهم: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾. ﴿فَهُمۡ﴾ يعيشون حالةً من الحيرة والتردّد. فهل يذهبوا، أم لا يذهبوا، هل سينكشف أمرهم، أم لا ينكشف؟.

هنا تُعالج الآية الكريمة تداعيّات النفس إذا أُقحِمَ عليها شيءٌ غير طبيعي، وعلى ذلك تبيِّن الآية بأن الناس هم الذين يجلبون لأنفسهم الأوبئة النفسية عندما يُقحمون عليها أموراً مزدَوَجةً، فيكون ردّ فعل النفس بأن تُصبح في شيءٍ من الخلل والاضطرابات. والنفاق لا يكون في الدِين فحسب، بل في كل مقوّمٍ من مقوّمات حياة الإنسان، فهو حالة من الازدواج يُقحمها الإنسان على نفسه المُستقرّة المُستَكينة. وكل نفسٍ هي مُستقرّة مُستَكينة، حتى يأتي صاحبها فيُعكّرها بإقحام الازدواج عليها. وهنا فإن النفس تعيش حالة اضطرابٍ، فيُعاني الشخص نوبات القلق النفسي. ويلبث ذلك مستمرّاً كما تبيِّن الآية الكريمة في خاتمتها: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾. أي يُعانون وخزات الاضطراب النفسي، ويلبثوا في ذلك ما لم يُخرجوا أنفسهم من النفاق.

الباب السادس والأربعون | الإرادة

﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ٤٦

﴿وَلَوۡ﴾ – بمعنى: إن كان حقاً كما زعموا–: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾. معك يا محمّد إلى الجهاد،: ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾. لتأهّبوا وتجهّزوا بِما يستطيعون من مستلزمات الخروج. وهذا معطوفٌ على خاتمة الآية السابقة: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾. ولكن –جواباً على فحوى ﴿وَلَوۡ﴾-: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾. إذن، كان يمكن لهم أن يعدّوا للخروج ﴿عُدَّةٗ﴾. وقد منحهم الله حق الإرادة، والله سبحانه وتعالى يحض على عمل الخير. ولذلك استُهِلَّت الآية بإرادتهم أولاً، وكان يمكن أن تُستَهّل بـ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾. وهذه هي الحرّية التي يمنحها الله للناس: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ﴾ –هُم–﴿ٱلۡخُرُوجَ﴾. وليس ﴿وَلَوۡ﴾ أراد الله لهم﴿ٱلۡخُرُوجَ﴾.

إذن: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾. هنا حتى العدّة كانت كافية إذا كانت قد تحقَّقَت لديهم إرادة الخروج للمشاركة برفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد. فها هم قد أعدّوا أنفسهم تماماً للمشاركة ولكن يظهر للعيان بأنهم غير قادرين، سواء بسبب صغر السن، مثل الصبيان، أو كِبَر السن مثل الشيوخ، أو المرضى، أو ذوي العاهات، والإعاقات. وعندها كان يمكن لهم أن يُقدّموا ما باستطاعتهم من عدّة للمجاهدين. ﴿وَلَٰكِن﴾ عند نفاقهم وأكاذيبهم: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾. وليس خروجهم، ذلك أن الله تعالى ذكره قد منحهم حرّية إرادة الخروج والإعداد بتأكيدٍ حاسمٍ: ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾. ولكن ما الفرق بين الخروج، والانبعاث، والتثبيط؟

الخروج، هو أن يخرج المرء من تلقاء نفسه دون أن يُخرجه أحدٌ بشكلٍ إلزامي. والانبعاث، هو نقيض ذلك، أي أن يُبعَث، ويُرسّل، ويُجنَّد في بعثةٍ إلزاماً. فالخروج هو التجنيد الطَوعي، والانبعاث هو التجنيد الالزامي. وفي زماننا توجد بعض الدول تُلزم الناس بالذهاب إلى المعركة رغماً عنهم وتفرض على الناس المساهمة المالية في عدّة المقاتلين بِما يسمّى بضريبة (المجهود الحربي)، وهنا فقد ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾. وفي هذا بيانٌ بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يملك صلاحية أخذهم إلزاماً إلى المعركة، ولكن الله لم يأمره بذلك، وكان يمكن له أن يأمره بذلك، لكن: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾. تركهم لتقاعسهم ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾. فلعلّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك، وكذلك قال لهم الصحابة رضوان الله عليهم. القاعد هو المُقعَد الذي يعجز عن المشاركة في المعركة، ولذلك جاءت الكلمة بالجمع لبيان فئات ﴿ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾. من أطفالٍ، أو شيوخٍ، أو نساء، أو مرضى، أو ذوي إعاقات. وما دمتم تدّعون ذلك: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

الباب السابع والأربعون | أهل الخبال

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ ٤٧

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ وليس (معكم). رغم أنهم كانوا سيخرجون من بيوتهم للمشاركة في جهاد تبوك مع الخارجين من بيوتهم.

إذن: ﴿لَوْ خَرَجُواْ﴾ كانوا سيثيرون ﴿فِيكُم﴾ النعرات، لأنهم: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون بث الانشقاقات في صفوفكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْۗ﴾. فعدم خروجهم بالنسبة لكم، هو أفضل من خروجهم، لأنهم ما كانوا سيخرجون معكم للمؤازرة، بل: ﴿مَّا زَادُوكُمْ﴾. ما زاد خروجهم عليكم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾. نميمةً. ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ﴾. لأثّروا على معنويات بعضكم البعض، وجعلوكم في اضطراب من خلال بعضكم البعض، ذلك أنهم: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْۗ﴾. يولونهم أسماعهم ويتأثّرون بِما يسمعون منهم، وهم أيضاً كانوا سينشرون ما يسمعوه منهم بينكم. فكان خروجهم سيشكّل وبالاً عليكم، وأنتم في ساحة المعركة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّالِمِينَ﴾. بِما يكنّه الظالمون في قلوبهم من ظلم. وهنا يتبيَّن بأن الإنسان المُزدَوَج، إنما يظلم نفسه أولاً، كونه يجعل من نفسه ظالِماً من خلال هذا الازدواج.

الباب الثامن والأربعون | تقليب الأمور

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ ٤٨

سلوك ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ ليس جديداً عليهم: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ﴾ أرادوا بكم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ وسعوا إليها ﴿مِن قَبْلُ﴾ في أحد، وغيرها. وكانت معركة أحد انتكاسة على المسلمين. وهنا تذكيرٌ من الله عز وجل بأن خروج هؤلاء الآن في تبوك، يمكن له أن يُشكّل انتكاسةً أخرى لا تقل عن انتكاسة أحد. ويذكّر الله رسوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾. زوّروا بحيلهم الواقع الذي كان معكم، وقلّبوه بشائعاتهم، ليتبيَّن بأنه عليكم. ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾. تبيَّن الواقع الذي كنتم فيه ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. في إظهار الحقيقة ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾. لأن ذلك أفصَحَ عن ديدنهم أمامكم.

الباب التاسع والأربعون | آفة العِناد

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿وَمِنْهُم﴾ بضمير الجمع المجرور المعطوف على: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ في الآية٤٥. ﴿وَمِنْهُم﴾. أي ومن هؤلاء ﴿مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾. بالتخلّف عن المشاركة في معركة تبوك.

﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ لا تتسبَّب في افتتاني بنساء بني الأصفر الجميلات إذا رأيتهن. ومن ذلك ما ورد في سبب نزول الآية ما رُوي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس "يا جدّ هل لك في جلاد بني الأصفر"؟ قال جدّ، وكان من شيوخ المنافقين: أتأذن لي يا رسول الله فإني رجل أحب النساء وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه "قد أذنت لك" فنزلت الآية).

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾. جعلوا أنفسهم ضحايا الفتنة التي ادّعوها. وهذا عائدٌ إلى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. في الآية٤٣. ليوكّد: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾. في الآية٤٤. فيبيِّن هاهنا عاقبة ما آل إليه المنافقون: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾. السقوط يكون من العلو الشاهق إلى الهوّة السحيقة. فليس: (وقعوا). لأن الإنسان قد يقع وهو يمضي. بل: ﴿ سَقَطُوا۟ ﴾. تهاووا وتردّوا من الأعلى إلى الأسفل. وكان بإمكانهم أن يحتفظوا بالعلو الذي جعلهم الله فيه عندما منحهم فرصةً جديدةً كي يصلحوا ويستقيموا رغم ما كانوا عليه من نفاق. ولكنهم أصرّوا أن يُسقطوا أنفسهم ﴿ فِي ٱلْفِتْنَةِ ﴾. من خلال التذرّعات الباطلة، والحرمان من فرصة الاستقامة، والتطهّر من النفاق من خلال الخروج إلى الجِهاد. ولكن أفضَت هذه ﴿ ٱلْفِتْنَةِ ﴾بهم إلى الكفر كما

بيّنت خاتمة الآية الكريمة: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. والتولي يوم الزحف، من السبع الموبقات،عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: "الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ"[1].

فقد سَدّوا بأنفسهم هذه المنافذ التي أتاحها الله لهم برحمته، حتى ينجوا من إحاطة ﴿جَهَنَّمَ﴾ بهم. فلم يغتموا فرصة الجِهاد الثمينة التي كانت ستطهّرهم من آثام نفاقهم، وتتيح لهم أن يبدأوا صفحةً جديدةً ناصعة البياض في حياتهم.

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

الباب الخمسون | الفاشلون السلبيون والفاشلون الإيجابيون

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

الذي يكون على اعوجاجٍ، ويجلس في بيته دون أن يؤذي أهل الاستقامة، فذلك شأنه في عقيدته مع الله. إنه كافر، أو ملحد، لكنه ينأى بنفسه من التدخّل في شؤون الناس في معتقداتهم، ولا يجعل من نفسه عدواً لِمَن لا يكونون كافرين، أو ملحدين.

الآية الكريمة لا تتحدَّث عن هؤلاء، بل عن المُزدَوَجين، فهم مع المؤمنين، يدّعون الإيمان، ومع الملحدين، يدّعون الإلحاد، بل أينما كانوا، يدّعون المعتقدات التي تتماشى مع مصالحهم. ولذلك سمّاهم القرآن تسميةً خاصّةً بهم وهي: (المنافقون). وهؤلاء ينتشرون في الكثير من السور والآيات القرآنية، وفي سياقاتٍ متعدّدةٍ، كما أُنزِلَت سورة خاصة بهم وهي سورة (المنافقون). فكل آيةٍ من أي سورة، تكشف لك سماتٍ جديدةٍ من سِمات هؤلاء، لم تكن عرفتها من قبل. وليس هذا فحسب، بل إن كل إعادة قراءة لهذه الآيات، تُبيِّن لك تفرّعات عن عالمهم، لم تكن عرفتها من قبل.

وهذا أمرٌ بالغ الأهميّة، فتوصلك قراءاتك المُستنيرة للقرآن إلى معرفة الكثير من أسرار وتفاصيل هؤلاء، بحيث تستطيع أن تكشفهم من خلال إيماءةٍ بسيطةٍ تبدر منهم، فتكون هذه الإيماءة لك بمثابة الخَيط الذي تتبّعه حتى تكشف زيف هذا الشخص ونفاقه، وأنه في واقع الأمر شخصٌ حقودٌ وكارهٌ لك، لكنه يدّعي محبّتك.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾. في دواخلهم، ويتغلغلون حقداً ولؤماً على النفع الذي أصابك، أو النجاح الذي حقّقته. ولكنهم لا يُهرون هذه الحقيقة لك، بل يأتون للتبريك وهو يمتلئون ضغينةً، وتقول ألسنتهم نقيض ما في قلوبهم.

فهؤلاء يستكثرون حتى أن يَدعوك في شأنك، وينصرفون لشؤونهم، بل يجعلون منك شغلهم الشاغل في مجاليهم، أو في أهليهم، أو حتى بينهم وبين أنفسهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾. هكذا ثمة أشخاص لمجرَّد أن يروا أو يسمعوا نجاحاً لشخصٍ ما،

يشعرون بأن ذلك أساء إليهم، فيحتقنون، وتتعكّر أمزجتهم، ويسعوا ما أمكنهم للنيل من ذاك النجاح. وهؤلاء ما يمكنني تسميتهم بالفاشلين السلبيين، لأن أفعالاً سلبية تصدر منهم بحق الناجحين، فلا هم يُحققوا نجاحات في حياتهم، ولا يسرّهم أيضاً أن يُحقّق الآخرون نجاحات في حياتهم. ونظيرهم ما يمكن تسميتهم بالفاشلين الايجابيين، نظراً لأن أفعالاً إيجابية تصدر منهم عندما يُحقق الآخرون نجاحاتٍ، فيُريدوا أن يحذوا حذوهم في النجاح، ويكونوا صادقين في تبريكهم وتهنئتهم، وكذلك في سعادتهم وهم يرون نجاحات الآخرين.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ﴾. يزدادون تأجيجاً عليك في الخَفاء، وبذات الوقت يُحافظون على علاقتهم بك، حتى يحصلوا منك، أو من خلالك على بعض المنافع. فأنتَ إنسانٌ نافعٌ، وعلاقاتك تكون مع النافعين، فأي شيءٍ تقوله يمكن أن ينتفعوا به. وبذات الوقت يسعون ما أمكنهم حتى يُلحقوا أفدح الأضرار بك. لكن لماذا؟ تجيب الآية: ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾. وهنا يُمارسون ذات الازدواج، ولكن بشكلٍ مُعاكسٍ، فيأتون إليك للشماتة ولكنهم يُغلّفون هذه الشماتة بكلمات تضامنية معك ويدّعون بأنهم حزانى على ما أصبك، ولكنهم في دواخلهم يبتهجون بهذا الأذى الذي تلقّيته، و ﴿يَقُولُواْ﴾ لك: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾. كان بوسعنا أن نفعل ما فعلتَ، ولكننا تريّثنا ولم نتسرَّع و﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾. أن تحلّ هذه الكارثة عليك إذا كنا معك، ولكننا كنا حذرين ويقظين، واحترزنا من هذه العاقبة، وتجنّبنا وقوع المصيبة علينا.

﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾. بعد أن أتوا ليروا ما أصابك بأعينهم، يتركوك ويخرجون من عندك وهم ينتشون ابتهاجاً وسروراً، وينشرون ذات الكلام بين الناس وهم يفتخرون بذلك ويسعون للنيل منك، والانتقاص من جدوى العمل الذي تقوم به.

فكما أنهم يشعرون بالخذلان عندما يأتون إليك، وقد حقّقتَ النجاح، فإنهم يشعرون بالانتعاش، عندما يأتون إليك ويروكَ في مصيبتك.

وهذه آيات: توجيهيّة، إرشاديّة، تعليميّة، تثقيفيّة، تحذيريّة، تنويريّة، تُعلّمك كيف تكتشف هؤلاء سواء في السرّاء، أو في الضرّاء، حتى وأنت تلقي إليهم نظرةً.

فنحن الآن في أجواء معركة تبوك، وهؤلاء المنافقون لا يسرّهم أن يُشاركوا النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضي الله عنهم، في هذه المعركة، بل يسرّهم أن يُصابوا بنكسةٍ شديدةٍ في المعركة. ولذلك تذرّعوا بذرائع حتى لا يكونوا مُشاركين، ولا يُشكّلوا قوةً إلى جانبهم. لكن بيَّن السياق أنهم حتى لو شاركوا، ما كانوا سيشكّون قوةً، بل كانوا سيشكّلون عبئاً على المجاهدين: ﴿إِن تُصِبۡكَ﴾ يا محمَّد ﴿حَسَنَةٞ﴾ مثلما حصل في بدر ﴿تَسُؤۡهُمۡۖ﴾. تغيظهم وتشنّجهم. ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ مثلما حصل في أحد ﴿يَقُولُواْ﴾ يدّعوا: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا﴾احتطنا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أن تقع المصيبة فنجونا ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ ينصرفوا ﴿وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾. بما أصابك.

إذن، نحن الآن في رحاب آية كريمة بيَّنَت واقعةً وقعت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كنموذج وكمثالٍ لسائر الناس فيما بعد في كل زمانٍ ومكان، حتى يتبيَّن الصالح من الطالح. وهذا ما لا يكون من حظ أحدٍ قط، بقدر ما يكون من حظ قارئ القرآن الماهر.

الباب الواحد والخمسون | نعمة التوكل

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ٥١

لا تفرحوا كثيراً بمصائبِنا، فإنَّ لله حكمةً في كل ما ﴿يُصِيبَنَآ﴾. وإننا نزدادُ قوةً وخبرةً في الحياة، نزدادُ حكمةً ورشداً. ونحن نتعلّمُ من ثقتنا التي أوليناها لكُم، ولم تكونوا أهلاً لها.

لا تفرحوا كثيراً، فإن الله مرَّرَنا بهذه التجارب حتى نكونَ حذرينَ أكثر، ونميّز الصالح من الفاسد أكثر، حتى نحبَّ بعضنا بعضاً أكثر، ونتكاتفَ مع بعضِنا بعضاً أكثر، نتآزرَ مع بعضنا بعضاً أكثر. ولن نفرحَ بِما تقع عليكم من مصائب، ولن نكيدَ لكم المكائدَ، ولن نغلقَ أبوابنا في وجوهكم، وتبقى أيدينا ممدودةً إليكم بالخير مادمتُم تعيشون بيننا، ولكم علينا حقُّ الجوار، وأنتم أخوةٌ لنا، ونحن أخوة لكم، سواء أآمنتم، أو لم تؤمنوا.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾. مادمنا مؤمنين، فنحنُ نؤمِنُ بأن أي شيءٍ ﴿يُصِيبَنَآ﴾. من نفعٍ أو من ضر، فيكون لله فيه حكمةٌ، وصلاحٌ لشأننا. والخير كل الخير يكمن في ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾. الذي ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾. وقد أوكلْنا أمرَنا إليه.

الباب الثاني والخمسون | التربص السلبي والتربص الإيجابي

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ٥٢

الطيِّبُ يكونُ طيّباً بما لديه من طِيب، والخبيثُ يكون خبيثاً بما لديه من خبث. فالفاشل يتربَّصُ ما يُحقّقه الناجحُ من نجاحات حتى يحسدُه عليها، وبذات الوقت حتى يحصلُ منه على شيءٍ من خيرات هذه النجاحات.

الآية هنا تُبيِّنُ كيف أن المُنافقين يكرهون الخيرَ للمؤمنين، ويحسدونَهم عليه، بل ويسعون ما أمكنَهم لعدمِ وصول هذا الخير إليهم. ولكنَّ الخيرَ يصلُ المؤمنينَ، ويُحقّقون النجاحات في حياتِهم، ويتكاتفونَ مع بعضِهم بعضاً، ويمدّون بعضهم بعضاً بالمؤازرات.

هنا يأتي المُنافِقون كي يحصلوا من المؤمنين على شيءٍ من هذا الخير.

تُبيِّن الآيةُ مدى التذبذبِ الذي يكون فيه الإنسان المُنافق، فحتى تربّصه بالآخرين يكون تربّصاً مُتذبذباً.

﴿قُلْ﴾ لهم يامحمَّد: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾. الأجدر بكم أن تتخلّصوا من الازدواج الذي أقحَمْتم أنفسَكم فيه، وأقحمتُموه على أنفسكم، وتكونوا طبيعيين. وما دمتم ترونَنا في خيرٍ ونماء، فكونوا طبيعيينَ وحرِّروا أنفسَكم من تداعيات الازدواج الذي وضَعتم أنفسَكم فيه بمحضِ إرادتكم.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

تتحدَّثُ الآيةُ الكريمةُ عن الدنيا، لأنَّ تربّصَهم يكونُ تربّصاً دنيوياً، وهم أناسٌ دنيويون، يبتغونَ من نفاقِهم منافعَ دنيويةً، وليس منافعَ في الآخرة. فيتّخذونَ من النفاقِ وسيلةً للنفعِ الدنيوي، وليس للنفعِ في الآخرة، أو النفعِ في الدنيا والآخرة. ولأن المؤمنَ يؤمنُ بأن المُنافقَ يرى جزاء نفاقِه في الدنيا قبل الآخرة، فيقول: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾. فيحصلُ ذلك بما يشاء الله من أسبابٍ مثل الأوبئة، أو

الحوادثِ، وما إلى ذلك. حيث لا بدّ لكم أن تُصابوا ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾. في الدنيا قبل الآخرةِ نتيجةَ نفاقكم، وتربّصكم بأهلِ الخير، ومكائدكم بهم. ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾. عندما يتم ضبطُهم بالجرمِ المشهودِ، وهم يؤازرونَ المُعتدين ويتبيَّن بأنهم كانوا خلايا نائمةً، فيلقونَ العذابَ نتيجةَ خيانَتِهم. ويمكن أن يحصلَ ذلك أيضاً من خلال إلقاء القبضِ عليهم وهم يغدرون ببعضِ الناس، أو يكيدون لهم المكائد.

وهنا لا بدّ من التنبيه بأن المنافقَ مادام يكون مسالماً، ولا يؤذي غيره، ولا يكون عيناً للمُعتدين على البلاد والعِباد، فإن المسلمَ لا يتدخَّل في شأن معتقدِه، فذلك بينه وبين الله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾الأحزاب٦٠. فيمكنُ لهم أن ينتهوا، لكن إذا استمرّوا، لا يسكتِ المسلمونَ عن تماديهم، ويسعونَ إلى منعِهم من هذا التمادي.

ثم جاءت نهايةُ الآيةِ مفتوحةً لمؤمني كل زمانٍ ومكانٍ ومنافقيه: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

الباب الثالث والخمسون | وبال الفسوق

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ ٥٣

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا﴾ من تلقاءِ أنفسِكم، ﴿أَوۡ كَرۡهًا﴾ إلزاماً، مثل الضرائبِ والجباية: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾.

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾المؤمنون٥١. وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾البقرة١٧٢. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ"[1].

والفاسق لايكون طيباً، ومهما أنفق فإن إنفاقه لا يكون إنفاقاً طيباً لأنه يكونُ قد خرجَ من كائنٍ فاسقٍ، كما وصفت الآيةُ المنافقينَ بهذه الصفة.

ولذلك فإن الله جلّ شأنه، لا يساوي بين الصالحِ وبين الفاسق في الإنفاق. ويُشترَط في قبولِ الإنفاق ألاّ يكونَ المُنفقُ فاسقاً، وتبقى فرصةُ الإصلاحِ سانحةً أمامَه في أي وقتٍ مهما كان على تاريخٍ من الفسوق. فمادام مصرّاً ومستمرّاً في الفسوق: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾.

---

[1] صحيح مسلم

الباب الرابع والخمسون | الثبات في الإيمان والتزحزح عنه

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ ٥٤

في الآيةِ بيانٌ بأن الإنسانَ يحصدُ ما يزرعُه، فإنْ زرعَ ورْداً، حصدَ ورداً، وإن زرعَ شوكاً، حصدَ شوكاً. فلا يمكن لزارعِ الورد أن يحصد شوكاً، ولا يمكن لزارعِ الشوك أن يحصد ورداً.

لماذا هذا كله؟. الجواب: لأنه من غير هذا التوضيح في هذه الآية، تغدو الآيةُ السابقة غير واضحة: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾. والسبب: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾. فجاءت هذه الآيةُ معطوفةً بشكلٍ مباشرٍ على الجملةِ الأخيرةِ في سابقتها: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾. لتفصحَ عن مضمونِ الفسوقِ، وما يقوم به الإنسانُ الفاسقُ من أفعالٍ فاسقةٍ مُزدَوَجة. وتكمن في هذه الأفعالِ ذاتِها علّةُ لا قبول الإنفاق: ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾. وذلك حتى لا يعتقدَ أحدٌ بأن هؤلاء قد ظُلِموا في عدم قبول ﴿نَفَقَٰتُهُمۡ﴾. فتشرحُ الآية الكريمة: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾. ما آمنوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ الذي يتقبّل هذه النفقاتِ ويثيبُ عليها. ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾ الذي حملَ كلامَ الله إليهم. فهم يدّعونَ بأن هذا القرآنَ قد أتى به الرسولُ من عنده، وليس من عند الله، وبالتالي لا يؤمنونَ بأنه رسول الله، ومرجع ذلك: ﴿أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾.

ثم أضافت الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾. عندما لا يكونُ الإنسانُ مقتنعاً بجدوى أي عملٍ يعملُه، فإنه يتكاسلُ في إتيانه، فيكون متثاقلاً خاملاً وهو يأتيه. فإذا ذهبَ إلى المسجدِ، فيكون كَمَن تجرّه خطواتُه جرّاً، ويكون قلبه رافضاً كل الرفضِ هذا الذهاب. بَيدَ أنه يذهبُ لإظهار أنه يصلّي. فهي صلاةُ رياء للمسلمين، وليست صلاةُ ثوابٍ من الله. وهم يرجون أن تحقّقَ لهم هذه

الصلاة بعض المنافع من المسلمين، ولا يرجون منها أي ثواب من الله، سواء في الدنيا، أو الآخرة. وذلك على قاعدة إيمانِهم بعدم وجودِ الآخرة، فهم كما أفصَحت الآية الكريمة عن معادنهم: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾. فهم يستخدمونَ الصلاةَ كوسيلةِ تحايلٍ على المسلمينِ. ولذلك فإن اللهَ عزَّ وجلَّ يكشفُ أوراقَهم أمامَ المسلمين، وهذه رسالة جلية أيضاً للمنافقين أنفسهم، كي يتراجعوا عن النفاق، ويعيشوا في استقامةٍ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: "تِلكَ صَلَاةُ المُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حتَّى إذَا كَانَتْ بيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إلَّا قَلِيلًا")[1].

اختتِمَت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَلَا﴾. أي استناداً إلى: ﴿أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾: ﴿وَلَا﴾. بنفيٍ جازمٍ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ أموالهم إِلَّا﴾ بتأكيد النفي الجازم مرة أخرى﴿ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾. عن كره، أيديهم تعطي، وقلوبهم تمتعض. لأنهم لا يؤمنون﴿ بِٱللَّهِ﴾. الذي يدّعون بأنهم يُنفقون هذه الأموال في سبيله ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾. الذي يدّعون بأنهم يُنفقون بموجب ما أُنزِل على قلبه من القرآن، ويعتقدون بذلك بأنهم يكسبون. والحقيقةُ فهي خسارةٌ فادحة، مثل الذي يُضحّي بجملٍ ليصطادَ عصفوراً. فحتى هذا القليل الذي يُنفقوه، يكون عن كرهٍ رغم أنهم يعتبرونه بمنزلة الصيدِ الذي يصطادونَ به ما هو أكثر. في حين أنَّ المؤمنَ يُنفقُ بمحبةٍ ابتغاءَ الثوابِ من الله الذي يؤمنُ به، يُنفق بفرحٍ، ويشعرُ بانشراحِ صدرٍ كلّما أنفقَ شيئاً في سبيل الله تعالى. فهذه هي الحيثيّات الدقيقةُ والحسّاسة التي تكشف هذه السورةُ النقابَ عنها. فالمنافقُ بوسعه أن يشوّشَ على بعض المسلمينَ خاصة البسطاء المحدودي المعرفة الدينية، فيقيسون تصرّفات المُنافقين على أنها تصرّفاتٌ من صلب عقيدةِ الإسلام، وأنهم يمثّلون اللهَ ورسولَه، وبذلك يتّخذون مواقف سلبيّة من الدِين، فينحرفون، أو يرتدّون، أو يُلحدون. ويعتقدون أنهم طوال

---

[1] صحيح مسلم

السنوات الماضية كانوا مخدوعينَ بالدِين، وقد ضُحِكَ عليهم، وأتى مَن انقذهم من غفلتهم، وجعلهم يكتشفونَ الوهمَ الكبير الذي كانوا فيه خلال سنواتِ الإيمان الماضية. فترى كيف أن هؤلاء يُفصحونَ عن مدى بساطتِهم وأيضاً سذاجتهم. لماذا؟. لأن ثلّة من المنافقين استطاعوا بالفعل أن يُخرجوهم من إيمانِهم، واستطاعوا أن يستدرجوهُم إلى براثنِ الكفر.

ودوماً بالعودةِ إلى العنوان، وكل ما يرد في هذه السورةِ من آياتٍ يُحيل إلى عنوانها: (التوبة). لبيان أن التوبةَ رغم كل هذا النفاق والفسوق، ما تزال مُتاحة أمام هؤلاء أنفسهم، وذلك رأفةً من الله بعباده، ورحمتِه الواسعة التي وسعت كلَّ شيء، ولا شيء قط بالغاً ما بلغ لا تسعه هذه الرحمة: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾الزمر٥٣.

فنحن الآن أمامَ سلسلةٍ متتالية من الآيات التي تبيّن كل هذه التفاصيل حتى الدقيقة والحسّاسة منها دون أي حرج. فإذن، استطاع المنافقون بالفعل أن يضحكوا عليهم إلى درجة أوصلوهم فيها إلى أنهم باتوا يعتقدون أنه قد ضُحِكَ عليهم بالإسلام، ،انهم كانوا ضحايا. ويمكن اكتشاف هذه الحقيقة ببساطةٍ شديدةٍ من خلال أقوالِهم. فهم يتحجّجون ببعض افعال هؤلاء المُنافقين أنفسهم. وهذا ما يزيد المؤمنَ الثابتَ في إيمانه ثباتاً، فهو يُشاطرُهم الإلحادَ بهذه الأعمال المُنحَرفة، وبدل أن يتزحزحَ عن عقيدتِه، يزداد إيماناً، ويزداد إدانةً لتصرّفات المُنافقين التي يدّعونَ أنها من الدِين. ذلك أن الإيمان مترسّخٌ في قلبه، وهو مواظبٌ على قراءة القرآن، مواظبٌ على صحيح الحديث، وهذا يكون له بمنزلة حصانةٍ حقيقيةٍ من هؤلاء المنافقين الذين يمتدُّونَ من زمنٍ إلى آخر، مهما تزيّوا بأزياء الإيمان.

الباب الخامس والخمسون | لا عجب

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

بناءً على ماتم بيانه من حيثيّات وتفاصيل عن هؤلاء: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾. ﴿فَلَا﴾ تكنْ في عجبٍ من كثرة ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾. فذلك ليس تكريماً لهم، لأنهم لم يفعلوا ما يستحق أن يُكرمهم الله، بل كل ما يفعلوه يستحق العقاب. فـ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾. تكون مصدر عذابٍ ،أليمٍ لهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. حيث تتسبَّب

﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ في جعلهم مضطربين قلقين. ويتحوَّل أولادهم إلى أعباءٍ لهم، فيجلبون لهم الكارثة تلو الكارثة. ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾. بعد أن لقوا عذابَ الدنيا نتيجةَ طغيانِهم، فيكونون قد ما توا كافرين، ويُحشَرون على الكُفر. وهذا يكون للإنسان الشديدِ العِناد الذي يصرّ على الفجور والفسوقِ، ولا يبالي بآيات الله، ويُلحق أفدح الأضرارِ بالناس دون رحمة، ولا شفقة. وبذاتِ الوقت يدعي بأنه صالحٌ، ويؤدّي مع المؤمنينَ بعض الشعائرِ الإيمانيّة كي يُصدّقوه ولا يكشفوا حقيقته.

وهنا تنبّهك الآية بأنك إذا رأيت الأموال والأولاد لدى هؤلاء: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وهذا ما بيّنه اللهُ لرسولِه، والمسلمُ يأتَسي برسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾الأحزاب ٢١.

من هنا فما يأتي من اللهِ عزَّ وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم، يكونُ للمسلمين نصيب فيه، ذلك أن المُراد من القرآن هم المسلمون، ولكن ايضاً الرسول ينتفع به، بل هو أول المُنتفعينَ بهذا التنزيل الحكيم على قلبه، ثم ينتفعُ به عامةُ المسلمين في كل زمانٍ ومكان.

الباب السادس والخمسون | وخزات التأرجح

﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦﴾

هكـذا عنـدما يقـعُ أحـدُهم، وينتهـي هـذه النهايـةَ الوخيمـةَ، يسـتجدي المسـلمين، ويصرّ على ادعائه بأنَّه منهم، كي يؤازروه على ما حلّ به. ويحلفُ ﴿بِٱللَّهِ﴾ على ذلك كذباً ونفاقـاً، وهـو فـي جـوهره مـا يـزال يكـنّ الغـلّ للمسـلمين. ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ بألسنتهم ﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ ينتمون إليكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ في قلوبِهم ولا ينتمونَ إليكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾. يتأرجحونَ بين ما تلفظ ألسنَتهم، وما يكون في قلوبهم.

الباب السابع والخمسون | فكرة التواري

﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴾ ٥٧

ما تزالُ السورةُ الكريمةُ تعرّفُنا بخبايا شخصيةِ الإنسانِ المنافق، وتبيِّن حج الازدواجية الرهيبةِ التي يعيش في دوّامتها. ففي الآية السابقة: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ ﴾. ويبيِّن الله جل شأنه: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾.

والآن يبيِّن الله المزيدَ مما هم فيه من ازدواجٍ. ففي الوقت الذي يحلفون فيه ﴿ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ ﴾: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾.

لم يقل: لذهبوا. بل ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾. أي لولّوكم الأدبارَ وانهزموا. والأماكن الثلاثة هي أماكن للإقامة المؤقّتة، وهذا يعني أنَّهم كانوا سينهزمون إليها كي يتواروا عن أنظاركم وأنتم تذهبون إلى المعركة، ثم يعودون إلى إقامَتهِم بينَكم عندما تنتهي المعركة، سواء انتصرتم، أم انتُصِر عليكم، فإن انتصرتم: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ ﴾. وإن انتُصِر عليكم، يُعلنون لأعدائكم أنهم ما كانوا معكم، وما آزروكم، بل هم معهم. فهم في واقع الأمر: لا ﴿ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ ولو وجدوا ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾. يسارعون الخطا ﴿ إِلَيۡهِ﴾ من غيرتردد.

الباب الثامن والخمسون | لمزات النفاق

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ ٥٨

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.عندما يلمزُك شخصٌ، فذلك يعني أنَّه غيرُ راضٍ بِما تقولُ أو تفعل. واللمْز إشارةٌ إلى الضَّعف وعدم الشجاعةِ على المواجهة بشكلٍ مباشرٍ. فإن كانَ على صوابٍ، صوّبَ لك، وشكرتَه على تصويبهِ لك، وإن كان على خطأ، شرحْتَ له حتى تبيِّنَ ما قد خفي عنه، أو ترفعَ اللَّبس الذي حصل معه بالنسبةِ إليك. ولذلك فإنَّ اللمزَ غيرَ مقبولٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال وقد توعّد الله عز وجل، أهلَ الهمزِ واللَّمْزِ بالويل: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ الهمزة١ . فهم يفعلونَ ذلك لعلّهُم يحصلون على المزيد من هذه الصَّدقات التي تأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقومُ بتوزيعها على أهلِ الاستحقاقِ وفقَ شرعِ الله تعالى. وهذا ما لايُرضي المنافِقين: ﴿وَمِنْهُم﴾ من هؤلاء المنافقين﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك ﴿فِي﴾ توزيعُ ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. والحقيقةُ فإن العَيبَ فيه، لأنه يدّعي الإسلامَ، ويطلبُ أن يحصل على الصدقاتِ التي يحصلُ عليها المسلمون المحتاجونَ الذين يقومونَ بواجِبِهم تجاهَ الإسلام. رغم أنَّ الصَّدقات تُعطى لأيِّ إنسانٍ مُحتاجٍ كحالةٍ إنسانيّةٍ سواء أكانَ مؤمناً بالإسلامِ، أو غيرِ مؤمنٍ به، وذلك حِفاظاً على رابطة الأخوّةِ الإنسانيّةِ بينَ أبناءِ آدم جميعاً بصرفِ النظرِ عن مُعتقداتِهم. وأن يَبْقى التواصلُ قائماً بينَهم بعيداً عن أيَّة قطيعةٍ بينَ بعضِهم بعضاً بسببِ خلافِ المُعتقدات، فهي علاقةٌ بين الإنسانِ وبين ربِّه. ولذلك نرى أن غالبيةَ الآيات القرآنيةِ تُركّز على القِيَم الإنسانية التي يكاد الناسُ جميعاً يتّفقون عليها، مثلَ: القِيَمِ، والأخلاق، والصِّدق، والعَفاف، والكرم، والتسامُح، والأمانةِ، وحسنِ الجوار. وإلى جانب ذلك فإنَّ الآياتِ القليلةَ المتبقّيةَ التي فيها أحكامٌ، فهي أحكامٌ تهذيبيّةٌ وتردعُ الناسَ من التجاوز على بعضهم بعضاً، ومن ثم هي نفعٌ خالصٌ

للمجتمع. مثل حدّ التجاوزِ بالقتل، أو الزّنا، أو السَّرقة، أو مختلفِ أشكالِ الاعتداءات على حقوقِ الآخرين.

فرغمَ هذه التعدّديّةِ المُعتَقديّةِ المكفولةِ في الإسلامِ، فإن هؤلاء يُصرّونَ على النفاق،: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. كي تُعطيهم ﴿مِنۡهَا﴾. على أنَّهم من المسلمين.

فهم يرونَ بأنهم لم يُنصَفوا بقسمةِ النبي صلى الله عليه وسلم، ويُريدون الزيادَة. عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: "وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ"[1].

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ في سياقها: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾. استجبتَ لهم وأعطيتَهم من ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وفق مطلَبهم ﴿رَضُواْ﴾. لأنهم يكونون قد حصلوا على ما لَمَزوكَ به. ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ﴾. لم تستَجِب لمطلَبِهم في كيفيةِ القسْمة ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾. كونكَ لم تعطِهم ما أرادوه.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

الباب التاسع والخمسون | حسبة الله

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ ٥٩

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ بأنَّ الإنسانَ المُحتاجَ عليه ألاّ يجعلَ كلَّ آماله ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. ويعتبرَ أنه يمرُّ بحالةٍ طارئةٍ، ويسألَ الله تعالى أن يُجاوزه منها، ويوسّعَ عليه حتَّى ينفقَ هو، بدل أن يُنفَق عليه. يُغْنِهِ اللهُ، فيعطي المحتاجينَ، بدلَ أن يكونَ محتاجاً يعطيْه الأغنياء.

فهذِه القناعةُ تقي الإنسانَ من بقاءِ عينِه على صدقاتِ الأغنياء، وبذلك حتى لو أغناه الله، فيواري بعضَ تمظهراتِ غِناه حتى تبقَى عينُه على تلك الصدقات. وإن سُئِل أنكر نِعَم الله عليه، وادّعى الحاجةَ. فهو بذلك يستكثرُ أن يصلَ حقَّ المُحتاج إليه وفق شرع الله، فيجعلَ من نفسِه عقبةً بين هذا المُحتاجِ وبين وصولِ حقّه المشروع إليه. وهذا فرعٌ من تفرّعات النفاق، ذلك أن النفاقَ هو ادّعاءٌ بغير الحقيقة، أو تمظهرٌ بغير الحقيقة.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾. بقسمتهم ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. شرَّع لهم من خلال رسولِه النصيبَ المُستحقَّ في أموال الصدقات. ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾. أملنا في تحسينِ أوضاعِنا والخروجِ من الضائقةِ المالية التي نمرُّ بها هو ﴿ٱللَّهُ﴾. وأحسنوا الظن باللهِ قائلين بإيمانٍ: ﴿ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾. وهذا كمزيدٍ من الإثباتِ لقولهم السابق: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾. فنحن على إيمانٍ: ﴿ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾. ما دُمنا أولينا ﴿حَسۡبُنَا﴾ إليه.

لاحظنا هنا أنَّ البيانَ ذكرُ الرسول عند: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. كذلك عند: ﴿ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾.وقد وردت جملة: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾. بين الجملتَين دون ذكر: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾.

ومفادُ ذلك أنَّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم موكَلٌ إليه إيصالُ هذا البيان، إلى جانب توزيع الصدقاتِ على أهل الاستحقاق. واللهُ عزَّ وجل وحده هو حسبُ الإنسان.

وهنا لمْ يُذكرِ النبيُّ، بل الرسول. والكلام هنا بالغُ الدقّة، لأنه من خلال نشر هذه الرسالة المُنزَلة على قلبه، يدعو الناسَ أن يجعلوا اللّهَ حسبهم، وقد سبقهم بأن جعل الله حسبه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾الأنفال٦٤. فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبةِ من إيمانه وهو يجعل الله حسبه، سيرضى بِما آتاه الله. وهنا تورق خاتمة الآية على هذا المؤمن، فيقول بطمأنينة قلب وبصفاء ذهن: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾. وهذا علاجُ العلاج من أي قلقٍ، من أي اضطراب. فبذلك تنشرح النفسُ بِما لم تنشرِح من قبل. كذلك نلاحظُ ذكرَ ﴿ٱللَّهِ﴾ دون ذكرِ الرسول. لأنَّ الرسولَ هنا يكونُ قد أوصلَ هذا الإنسانُ بفضلِ الله إلى الغايةِ من الرسالةِ التي أُرسِلَ بها: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾. وتكلّل ذلك بـ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾. فالخيرُ كلُّ الخيرِ في الدنيا، وفي الآخرة، بيدِ الله وحدَه. وهو وحده دون غيره قادرٌ أنْ يُحسّن لنا حياتَنا في الدنيا، وكذلك في الآخرة. ولذلك: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾. وهذا يأتي منسجماً مع مفتتح البيانِ الإلهي في الآية الكريمة: ﴿وَلَوۡ ﴾. بشرطٍ أنهم ﴿ أَنَّهُمۡ رَضُواْ ﴾. وآمنوا بعدالة﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ سواء من الرِّزق، أو من أي شيءٍ آخر ﴿ وَرَسُولُهُۥ﴾. الذي حملَ القرآنَ إليهم، وعملوا بهذا القرآن. فيكونُ الإنسانُ راضياً كلَّ الرضا بعدالةِ الله سبحانه وتعالى.

وقد تركتِ الآيةُ الكريمة جواب﴿وَلَوۡ ﴾. مفتوحاً ربما لتحفيزِ الإنسانِ إلى تقديرِ الجواب، فالآيةُ تبدو بمنزلة سؤالٍ تاركةً تقديرَ الجواب لقارئها. والجوابُ ذاته يبيِّن درجاتِ إيمان هذا القارئ. ف ﴿وَلَوۡ ﴾. فعلُ الإنسان ما تم ذكره في الآية الكريمة، ما الذي يحصل؟. وتقديرُ الجواب: أنه سينقل حياةَ الإنسانِ من الفقرِ إلى الغنى، من أخذٍ للصدقاتٍ إلى معطٍ لها. وخيرُ الإنسان يكمنُ في ذلك، فتبقَى ﴿وَلَوۡ ﴾. مفتوحةً أمام إنسانِ كلِ زمانٍ ومكانٍ ليتفاعلَ معها وفقَ قناعاته. والله أعلم.

الباب الستون | استحقاقات الصدقات

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

هذه الآية مُستأنِفة لمضمون الآيتَين السابقتَين، وتحليلها يُجانِب الدقّة دون الاستنادِ إلى ما ورد فيهما. فاستناداً إلى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

و: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

الآن: ﴿إِنَّمَا﴾. بالتشديد على النون المُركَّزة على مَن يعيّنهم الله سبحانه وتعالى وفق أولويّات الاستحقاقِ لهذه الصدقات. وكل أولويّةٍ وفقَ درجتها تكون أَولَى من الذي بعدها من حيثُ الضرورة، فنبدأ بالأولويّةِ في الضروريّات وفق بيانِ الله عز وجل. وبذلك تكونُ كلُّ أولويّةٍ في مرتبتِها هي الأقلُّ أهميّةً من سابقتها، والأكثرُ أهميةً من لاحقتها. فلا يجوزُ لك تجاوزُ الأهمّ إلى المهم، لأنك تكونُ بذلك قد أخللتَ بالترتيبِ الإلهي في الأَولويّات. فتبدأ بالأهمِّ الأول، وإذا انتهيت منه وأوفيتَه استحقاقَه من صدقَتك، تتحوَّل آنذاك إلى الأهمِّ الثاني، وهكذا دواليك.

﴿إِنَّمَا﴾. فهذا حكمٌ قاطعٌ من الله سبحانه وتعالى، دون أن يجوز لأحدٍ كائناً مَن كان، حتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم التدخّل بأي جزءٍ من هذا الحكم، سواء في تقديم أولويّة عن أخرى، أو تأخير أولويّة عن أخرى. فبأيِّ حالٍ لا جواز لأحدٍ شرعاً في التقديمِ أو التأخير، وإنْ فعلَ شخصٌ ذلك، سواء أكانَ هو المُزكّي، من ماله، أو كان جابياً يجبي من الأغنياءِ ليوزّعَ على أهل الاستحقاق، فإنَّ عملَه هذا يكون تجاوزاً للترتيبِ الإلهيِّ الحكيم في تعيينِ هذه الأولويّات. وإن أفتى أيضاً في التَّقديم أو التَّأخير، ستكونُ فتواهُ فاقدةً شرعيّتها لأنها تكون قد تجاوزتْ حكمةَ الله في ترتيبِ الأولويّات. فالحكمُ ثابتٌ، وفي ذلك بيانٌ من الله تعالى ذكرُه بأن لا طارئَ أَولى من هؤلاء، ،انهم طوارئُ الطوارئ، ولا طارئ يتقدّمهم.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾. وفق دقّةٍ بيانيّةٍ شديدةِ التَّركيز: زكواتُ أموال الأغنياء، لا تجوز إلاّ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. كأولويّةٍ أُولى بامتياز. وقد تكرَّرَت اللام، فالأُولى إشارةٌ إلى حكمِ الله الدقيق، والثانيةُ إلى إشارةٌ إلى ملكيّةِ هذا المُستحق لهذا المال. فهذا الشيءُ لك. بمعنى أن هذا الشيء ملكُك. و﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. أي ملكٌ لهم، وقد أودعه الله سبحانه وتعال في أموال الأغنياء، وهو بمنزلة أمانةِ الله لديهم، وعليهم أن يُخرِجوا هذه الأمانةَ إلى صاحبِ الاستحقاق الذي أرشدَهم الله إليه. فالغنيُّ لا يعطي طَوعاً، أو تفضّلاً، أو هديةً، أو منحةً، بل: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾. فهو يتعبّدُ اللهَ من خلال الاستجابةِ لهذه الفريضة التي هي الركنُ الثالثُ من أركانِ الإسلام.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ" [١].

وهذا الاستحقاقُ إنْ أعطاهُ لغيره، حتى لِمَن هو في الدرجةِ التي تليه، فيكونُ بذلك قد أعطى استحقاقَ شخصٍ لغيره. فهذا دَينٌ يبقى على الغني حتى لو أعطى أضعافَ ذلك لِمَن هُمْ دونَه.

إذن، فهذا حقٌ أحقّه اللهُ عزَّ وجلَّ حصرياً: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. فهذا مالُه في ذمّتِك، ويبقى في ذمّتك مهما أعطيتَ لغيرِه، حتى لو كان هذا الشخصُ على خصومةٍ معك، وأنَّ الذي في الدرجةِ التي تليه من أقربِ المقرّبين لك، وأحبِّ الناس إليك.

الأمرُ الآخر، فإنَّ لامَ التمليك هذه، لا تُرفَع في حالِ أنّك أعطيتَ الفقيرَ حاجةَ سنةٍ، وبعد يومٍ واحدٍ أو أقل أو أكثر، أصبحَ هذا الفقيرُ غنياً نتيجةَ قيامه بعملٍ ما وفجأة درَّ عليه هذا العملُ مالاً كثيراً، أو ما إلى ذلك. فلا يجوز للغنِي مطالبتَه باستردادِ ما أعطاه له، فقد أصبحَ هذا المالُ مُلكاً له في اللحظة التي استلمه فيها، وأصبحَ حر التصرّف به، ،أي ضغطٍ عليه سواء بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة، يكونُ تجاوزاً على حقّه المشروع، ويكونُ ذلك بالنسبةِ لكافة درجاتِ الاستحقاق.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

لكن مَن هم الفقراء، كيف تميِّز بين الفقير وبين أصحابِ الأولويَّات الذين يَلوه؟.

لعلّ الكلمةَ مأخوذةٌ من الفقرات، فالإنسانُ يقومُ على عمودِه الفقري المكوَّن من عدّة فقرات، فإذا أصيبَت إحدى الفقَرات، فَقُرت حركَتُه، ولم يعد قادراً على الحركة إلاّ بالكاد، كونُه مصابٌ بعموده الفقري. وكذلك فإنَّ الإنسانَ عندما لا يكفيه دخلُه، فإنه يعجزُ عن تلبية متطلّباته، أو متطلّباتِ عائلته، وبذلك يكونُ فقيراً. فالحالتان تتشابهان، الأولُ يعجزُ عن القيام، والثاني يعجزُ عن توفير المتطلّباتِ الضروريّة للحياة، فيكونا معاً في عَجز.

فالفقيرُ هو المُصابُ بعموده الفقري اقتصادياً، لأنه يكون عاجزاً عن تأمين مستلزماته الأساسيّة مهما يكون عمودُه الفقري سليماً. فقد يكونُ دخلُه محدوداً جداً،أو أنه يقيمُ في بيتٍ بالأجرة، تستهلكُ هذه الأجرة جزءاً كبيراً من دخله، أو لعلّه متوقّفٌ عن العمل بسبب ظرفٍ ما، أو أنَّ أحدَ أفرادِ عائلته يتلقّى العلاجَ الذي يفوق إمكاناته.

والأمر الآخرُ، أنه رغمَ كلّ ما يعانيه، فإنه يتعفّف، وإنْ سألتَه عن أحواله، أجابك: الحمدُ لله بخيرٍ ونعمة. إلى درجةِ أنَّ بعضَ الناسِ يطرقونَ بابَه للسُّؤال، فلا يردّ أحداً، ولو بإعطائِه رغيفاً من الخبز، أو بقطعةِ نقودٍ صغيرةٍ. بل الأكثرُ من ذلك فإن تعفّفَه قد يجعل بعضَ جباة الصدقات يطرقونَ بابَه لا ليعطوه، استحقاقَه، وهو صاحب الأولويّة بامتياز، بل يطلبوا منه الصدقةَ. وحتى وهو في ذروةِ الفاقةِ، فإنه لا يُفقدُ أملَهم، ويقول بأنّه إن شاءَ الله عندما تتحسّنُ الأمورُ سوف يعطيهم. أو لعلّه في ذاك اليوم يصدفُ أنه قد جلب لحماً وفاكهةً، وهو لا يجلبْهما سوى في الشهر مرةً واحدةً عندما يقبضُ راتبَه، فيقدّمُ هذا الطعامُ لأولئك الذين أتوا يسألونه شيئاً من الصدقات، ويكون قد وضعَ هذا الطَّعام في أوانٍ هي الأفضلُ في البيت، ولا يستخدمُها إلاّ في بعض المناسبات، أو عندما يحل عليه ضيوف. وبذلك يجعلهم لا يفقدون الأملَ فيه، فيترددون عليه وهمْ يعتقدونَ أنه يملكُ أموالاً، ويملكُ أن يشتريَ بيتاً ويعيشُ على نحوٍ أفضل، ولكنه يمسكُ يده حتى لا يعطيَ أحداً، بل حتى يتلقّى الصدقات. وبناءً على ذلك قد يوصونَ بعضَ الأغنياء أو الجباةِ الآخرين بألاّ يعطوه.

﴿ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ ﴾البقرة ٢٧٣.

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾الحشر٩.

عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سَأَلَ النَّاسَ أمْوالَهُمْ تَكَثُّرًا، فإنَّما يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ، أوْ لِيَسْتَكْثِرْ"[1].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: "مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ") [2].

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: "لأنْ يَأْخُذَ أحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أعْطَوْهُ أوْ مَنَعُوهُ"[3].

عَن المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثاً: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ"[4].

عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ" [5]. عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ"[6].

يتمتّعُ الفقيرُ بكل مزايا الإيمان، ولذلك يبقى متمسكاً بعزةِ نفسه، ولا يضعفُ أمام أية ضائقةٍ، أو أمام أيةِ مغريات. فهو يعتبر نفسَه في امتحانٍ من الله عزَّ وجل، ويسعى ما بجهدِه ألاّ يفشلَ في هذا الامتحانِ، ويُبرهنُ لله عملياً عن قوّة إيمانِه، وعن تفاعلِه مع مقوّماتِ هذا الإيمان في مختلفِ الظروف.

[1] صحيح مسلم

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[3] صحيح البخاري

[4] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[5] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[6] رواه ابن ماجه والطبراني

وهذا هو الفقيرُ الذي يُحتاجُ أن يُكشفَ النِقاب عنه، كونُه لا يكشفُ النقابَ عن نفسه، وبذلكَ فإن الوصولَ إليه يحتاجُ إلى جهدٍ، وهذا الجُهد يكونُ من الجِهادِ في سبيل الله، كونه جُهداً في سبيلِ تنفيذِ أمرِ الله بإيصالِ هذه الأمانةِ إلى ذاك الشخصِ العفيف الذي في واقعِ الأمرِ هو شخصٌ مهضومٌ حقّه، وهذا الحقُّ الذي خصّهُ الله تعالى به، على الأغلب يذهب لغيره. ذلك أن بعضَ الأغنياء لا يعطونَ إلاّ لِمَن يطلبُ منهم، أو يعطون لبعض الاعتباراتِ أو المصالحِ أو المآرب. ولا يُكلّفونَ أنفسَهم عناءَ البحثِ عن درجاتِ الاستحقاقِ وفق ما شرَّع اللهُ عز وجل، بل يعطونَها لبعض المقرّبين منهم، أو بعضِ العاملين لديهم، كي يتولّوا توزيعها، أو لبعضِ الجباة، أو بعضِ التجارِ الذين يعملونَ في بعض المحالِ، وقد اعتادوا أن يطرقوا أبوابَ الأغنياءِ كي يحصلوا منهم على الزكاة وهم يدّعونَ بأنهم أقاموا هذه المحالَ خدمة للدِين، وهم لا يأملونَ الربح، ولذلك تتراكمُ عليهم الديون، ويحتاجونَ إلى الزكاة كي يستطيعوا أن يستمرّوا في عملهم خاصة بالنسبةِ لبعض المكتبات، حيث يُقحمونَ عليها أسماء دينية، ويأتونَ ببعض المصاحفِ وبعضِ كتبِ التفسيرِ والفقه لتنسجمَ مع هذه الأسماء. وهؤلاء على الأغلب لا يشترونَ هذه المحال، بل يستأجرونَها، وأحياناً لا يكتفونَ بمحلٍ واحدٍ، بل يستأجرون أكثر. ودوماً يشتكونَ بأن الديون متراكمة عليهم، ولكنَّهم يتحمّلونَ خدمةً للدِين. والحقيقة هؤلاء يملكونَ بيوتاً فارهةً، وسيارات ٍفارهة، ولديهم أرصدة في البنوك، وأن هذه المحالَّ هي متاجرُ تدر عليهم أرباحاً طائلةً، ويستطيعونَ شراء هذه المحال، لكنهم يتظاهرون بالفقر حتى يأكلوا حقَّ الفقيرِ المستحق.

وبذلك يبقى حقُّ هذا المستحق في ذمّةِ الغنيِّ، كونه لم يوصِله إليه، واستكثرَ أن يبذل جهداً، أو تحقّقاً ليؤدّي هذا المال إلى صاحِبه. ولذلك فإن البحثَّ عن هذا الشخص الذي عيّنه اللهُ سبحانَه وتعالى على رأسِ الأوليّات، يُعدّ من الجهاد، لأنَّ ذلك يحتاجُ إلى بذل جهدٍ. فاعلم بأنَّ الله سبحانه وتعالى من عليائِه ينظرُ إليك وأنت تبحثُ وتنقب وتتحقّقُ حتى تؤدّي كلمةَ الله على وجهِها الأكمل. وأن ذلك يجعلُك من الأشخاص النوادرِ والاستثنائيينَ الذين يحقّقونَ أمرَ الله هذا، فيرضى الله عنك، ويعاملُك بما ليس بالمثل، بل بما هو أكثر، أي يُعاملُك أيضاً عند الحساب باستثنائيةٍ. فحتى لو كانتْ للناس في ذمّتكَ حقوقٌ، وأنك في الآخرة إذا أعطيتَهم من حسناتكَنَّ سوف لن تبقى لديْك حسنات.

والله سبحانه وتعالى قادرٌ أن يعاملَك باستثنائية ليجدَ لك مخرجاً، وبذات الوقتِ يوصل لأولئك حقوقَهم وأكثر فيما لو أخَذوا منك حسناتِك. فعلى سبيل المثال أن يكونَ أحد هؤلاء في الجنة، فيريه اللهُ درجةً أفضل من الدرجةِ التي هو فيها. فيقول: لِمَن هذا يارب؟ فيعلمُ بأنَّ ذلكَ يكونُ فقط لِمَن لديه حقوقٌ على الناسِ، وقد عفاهم عند الحسابِ لوجهِ الله تعالى. وعندها يُسارعُ بالقول: يارب إن فلاناً لي عنده حقوقٌ، فعفوتُ عنه. فعندَما يريدُ اللهُ أن يجعلَ لك مخرجاً سواء في الدنيا، أو في الآخرة، سيجعلُه مهما كان الظرف الذي تكون فيه. بل يجعلُ الذي يتنازلُ لك، يُقدّم لك شكرَهُ الجزيل على أنك منحْته هذه الفرصةَ الثمينة، لأن حقه عليك ما كان يُساوي جزءاً صغيراً ممّا ظفر به من خلالك. ثم لأنَّك شخصٌ استثنائي قمتَ بأعمالٍ استثنائيّةٍ، والله كان ينظرُ إلى مدى مشقّتك في سبيل أن توصِل هذا الحق إلى مستحقّه، فكان الإرهاقُ ينالُ منك وأنتَ تجوبُ وتبحث، وأحياناً كانت وجباتُ الطعام تفوتُك، وتتضوَّر جوعاً، فتوصلُ الغداء بالعشاء، أو يفوتكُ طعام العشاء لأنك عدتَ مرهقاً فاستسلمتَ للنوم. فالعبادةُ تتحقّق ببذل الجهدِ، وهي ليسَت عبئاً تزيحُه عن كاهلك لتتخلَّص منه، بل العبادةُ محبةٌ، وإخلاصٌ، ومشقةٌ، وجهد، ذلك أن الثوابَ عظيمٌ يومَ الحصاد الأكبر، أعظم من أيِّ تصورٍ تتصوّره.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾. المسكينُ أيضاً يكون محتاجاً، ويُعاني من ضائقة مادية في معيشته، لكن الفرقَ بينه وبين الفقير، أنه يسألُ ويُظهر حاجَته للأغنياء والمقتدرين، ويمكن له أن يتجوَّلَ بين بعض الأحياء، أو القرى في مواسم الحَصاد. وخلاف ذلك فهو يتواجَد في الأماكن التي يمكن أن يصيبَه فيها شيءٌ من الصدقات، سواء في أوقاتِها أو في غير أوقاتها، وذلك حتى يُحسَب حِسابه من الزكاة. وقد يُطلبُ من بعض المقتدرين حتى يحسِبوا حسابه عندما يحين موعد الزكاة، وخاصةً قبل حلولِ هذا الموعد بنحو شهرٍ أو شهرين، وعلى الأغلب فإن الناسَ يُخرجون الزكاة في شهرِ رمضان، لكن ذلك لا يكونُ سوى للأموال الثابتة، أمّا بالنسبة للمواسم، أو بعض الأعمالِ الأخرى التي يتم استلامُها في أوقاتٍ مختلفةٍ، فيتم إخراجُ الزكاة عند الحصاد لقوله تعالى:

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ﴾الأنعام١٤١. أو عندما يتمُّ استلامُ تلك المبالغ وقد تكونُ في السنة مرة، أو مرتين، أو أكثر. وبذلك فإن بعضَ الناس يُخرجون الزكاةَ مراتٍ عديدةً في السَّنة الواحدة، لأنهم لا يعلمونَ مقدارَ ما سيحصلونَ عليه إلاّ عند الحصادِ، أو عند الجردِ والاستلام، مثل بعض المواسمِ، أو الأعمال التجارية.

إذن المسكينُ هو ذاك الشخصُ الذي يُظهر حاجته، ولا شيء في ذلك، فهو يطلب دَينه منك، ولا يجوز لك أن تصدَّه ما دمتَ قد تحقَّقتَ بأنه الشخصَ الذي جعلك الله مَديناً له، وأنه قد زادَ عندك من الزكاة بحسب تسلسلِ الأولويّات، على ألاّ تعطي حاجة أكثر من سنة لأيّة أولويّة، لأنه بعد سنة سيحول أيضاً الحَول إذا لبث هذا المستحقُّ محتاجاً، أو لعلّه لم يعد بحاجة.

والمسكينُ وإن كان شبيهاً بالفقير من حيثُ ضيقِ المعيشة، فهو أيضاً شبيه بالمتسوّل من حيثُ الظاهرِ، كونه كثيرُ السؤال. لكنه ليس متسوّلاً، بل يسعى إلى حقٍّ مشروعٍ شرّعهُ اللهُ عز وجل له في كتابِه الحكيم. أمّا المتسوّلُ فهو ذاك الذي اتّخذ من التسوّلِ وسيلةً له للمعيشةِ وللاستكثار، وليس لقضاءِ الحاجاتِ الأساسيّةِ للمعيشةِ التي يعجزُ عن تلبيتها بسببِ دخلِه المحدود، ولذلك فهو على الأغلبِ يتفرّغ للتسوّلِ كما لو أنه اتّخذه مهنةً يكتسب منها، وأحياناً يُطلِق زوجته وأولاده أيضاً للتسوّل في الأسواق والأحياء، والطرقات، أو عند أبواب المساجدِ خاصة أيام الجُمَع، فيخرجون معاً، ويعودون معاً، وكلُّ واحدٍ يتباهى على قدرِ ما استطاع أن يأتي بالأكثر، وعلى ذلك مهما زاد عنده المال، سعى إلى المزيد من خلال التسوّل وإخفاء النعمة، وإظهارِ الفاقة، بل أحياناً قد يتظاهر بأنه أعمى، أو أخرس، أو مريض، وما إلى ذلك. أمّا المسكين فإنه عندما يحصلُ على حاجته، يكتفي عن السؤال، بل يُخرج هو زكاته عند حصول النِصاب لديه، في حين أن المتسوّل لا يفعل ذلك، لأن ما يحصل عليه هو نتيجة احتيال، وهذا شكلٌ من أشكال النِفاق، لأنه يُظهر شيئاً، ويخفي نقيضه. وهنا عليك أن تفرّق بين الاثنين رغم التشابه الظاهري بينهما، فالمسكين لا يستجديك، بل يطلب دَينه الشرعي منك، وعليك أن تُسدّد له هذا الدَين المُرتّب عليك بأمرٍ من الله، وكأداءٍ لفريضةٍ من فرائض الإسلام، أي أنك تعبد الله عندما تُسدّد له، كما لو أنك تُصلّي أو تصوم. في حين أن المُتسوّل لا يطلب دَينه منك، لأن لا دَين له عليك، بل

هو يستجديك كي تعطيه، ولذلك تراه يتمسكن ويتذلّل وهو يطلب لأنه يعلم بأنه لا يطلب حقاً، بل هو يحتال، ويزوّر الحقيقة، ولا يجد وسيلة سوى الخنوع، والتذلل وإظهار الفاقة والعَوَز حتى يُثير شفقتك فتعطيه. وهنا أمرٌ بالغ الأهميّة والحساسيّة كذلك، وهو: هل ما تعطيه يكون زكاةً، أم صدقةً غير الزكاة؟

فإذا اعتبرتَ أن ذلك زكاةً، تكون قد أعطيت حق غيره له، وبقي الحق في ذمّتك، لأنك لم تتحقّق، واستطاع هذا المُحتال أن يستغفلك، ويأخذ منك دَين غيره. ولذلك يمكن أن تعطيه الصدقة إذا أردتَ ألاّ تردّه خائِباً، لا أن تُسدّد له حقّ غيره، وتنكر عن صاحب الحق استحقاقه المترتّب في ذمّتك. وكذلك السؤال: فهل هذه الصدقة تكون مقبوله؟

هنا أنتَ تأخذ بالظاهر، فمصادفةً طلب منك شخصٌ مساعدة في شارعٍ ما، أو طرق عليك الباب وهو يسالك عَوناً، فلا تستطيع أن تستجوبه، حتى تتحقّق، بل تأخذ بالظاهر وتعطيه ما تعطيه خالصاً لوجه الله تعالى، من باب الصدقة، وليس من مبلغ الزكاة، وتسأل الله القبول.

فأنتَ لا تعلم حقيقة إن كان بحاجةٍ حقاً أم أنه يتظاهر. وأنتَ تعطيه بموجب ما ورد في الآية الكريمة:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾البقرة١٧٧.

فهنا ينقسم السائل إلى قسمين، قسم يرى نفسه مضطراً لظرفٍ طارئٍ وقع معه، وقسم يسأل للاستكثار، وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ كما ورد في سورة البقرة أن تعطي أهل السؤال، وهذا ليس فرضاً، بل من باب البر، ومن باب الصدقة. وبكل الأحوال لا يجوز لك أن تنهره: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾الضحى١٠. ﴿ فَلَا تَنْهَرْ ﴾هنا بمعنى أنك لا توبخه، أو تهينه، أو ترفع صوتك عليه، أو حتى تعبس في وجهه، وما إلى ذلك. وهذا لا يقتصر فقط على سائل المال، كون الكلام مفتوحٌ، بل يشمل كل سؤال يسألك به شخصٌ.

عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: (تَحَمَّلْتُ حَمالَةً، فأتَيْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أسْأَلُهُ فيها، فقالَ: "أقِمْ حتَّى تَأْتِينا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لكَ بها"، قالَ: ثُمَّ قالَ: "يا قَبِيصَةُ إنَّ المَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إلَّا لأَحَدِ ثَلاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمالَةً، فَحَلَّتْ له المَسْأَلَةُ حتَّى يُصِيبَها، ثُمَّ يُمْسِكُ، ورَجُلٌ أصابَتْهُ جائِحَةٌ اجْتاحَتْ مالَهُ، فَحَلَّتْ له المَسْأَلَةُ حتَّى يُصِيبَ قِوامًا مِن عَيْشٍ- أوْ قالَ- سِدادًا مِن عَيْشٍ، ورَجُلٌ أصابَتْهُ فاقَةٌ حتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِن ذَوِي الحِجا مِن قَوْمِهِ: لقَدْ أصابَتْ فُلانًا فاقَةٌ، فَحَلَّتْ له المَسْأَلَةُ حتَّى يُصِيبَ قِوامًا مِن عَيْشٍ، -أوْ قالَ- سِدادًا مِن عَيْشٍ، فَما سِواهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ يا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُها صاحِبُها سُحْتًا")[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ"[2].

وقد وردَ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.في العديد من الآيات القرآنية، ولعلّه من أكثر المستحقين لقسمة الزكاة ذكراًقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾البقرة٨٣. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾البقرة٢١٥. ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾النساء٨. ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾النساء٣٦.

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾الأنفال ٤١. ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ ﴾النور ٢٢. ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾الحشر ٧.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ، إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ، وَجَبِينُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا، إِلَّا بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، كَأَوْفَرِ مَا كَانَتْ، تَسْتَنُّ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، كَأَوْفَرِ مَا كَانَتْ فَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلَا جَلْحَاءُ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ"[1]. عن أبي هُرَيرَة رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تَحِلُّ الصَّدقة لغنيٍّ، ولا لِذي مِرَّةٍ سَويٍّ"[2].

من هنا يتبيَّن بأنَّ الذي يأخذُ الصدقةَ وقد أغناه اللهُ عنها، فهو يتعدَّى على حقوقٍ هي ليست له، ويُحلّها لنفسه. ولذلك فإن هذا المالَ مهما كثر فهو مالٌ فاقدٌ للبركة، ولا ينعمُ به صاحبه، بقدرِ ما يشقى به.

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾. هنا يختلف الأمرُ عن المستحقِّين السابقين، فهذا يأخذ من الصدقةِ، ليست كصدقة، بل كأجرٍ نظيرِ عمل. فمن اين يأخذ أجره؟. يأخذه من الصدقة: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾. أي على تسيير شؤونها. وهذا يحصل عادةً في الجمعياتِ الخيريَّةِ التي تجبي الصَّدقات، وتوزِّعها على أهل الاستحقاقِ. والجمعيةُ تحتاجُ إلى عاملين

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه أبو داود والترمذي

لإدارتها بِمن فيهم المدير، من أجلِ سيرِ دقّة العملِ والتحرّي. فالعاملُ في الآية هو الجابي الذي يجبي الصدقةَ من المقتدر، ويوصِلها إلى المستحقينَ. وهنا حتى لو كان هذا العامل مقتدراً فقد جعل الله له حقاً في الصدقة نظيرعمله.

﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾. وهؤلاء أهلُ الوجاهةِ والنفوذِ في مجتمعاتِهم، وهم ليسوا من المسلِمين، ولا يكنُّون البغضاءَ للمسلمين. والكلمةُ من الألفةِ أي﴿ قُلُوبُهُمۡ﴾تألفُ المسلمين، رغم أنهم ليسوا مسلمين. ولذلك يُبادلُهم المسلمونَ الألفةَ بالألفةِ. فهذا الشخصُ ليس حقوداً على المسلمينَ وهو وجيهٌ في قومه، لكن لعلّ ظرفاً طارئاً يحصلُ معه، هنا يعْطيه اللهُ حقَّ المؤازرةِ من المسلمين، فعليهِم أن يؤازِروه في محنَته نظيرَ مواقِفه الطيّبةِ مع المسلمين. ويكون ذلك من قِبَل الدولةِ التي تعطيه قسمةً مما لديها من الزَّكاة، أو بعضِ الجمعياتِ الخيرية، فتقدمُ لهُ المعونةَ من أموالِ الزَّكاة. فهؤلاء هم أصدقاءُ المسلمين، وقد شهدَ لهم الله تعالى بألفةِ القلوبِ، فوصَفهم جلَّ شأنه بـ: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾. وهم من غيرِ المسلمين مهما كانت معتقداتُهم. ويكون ذلك وفق الترتيب. وبذلك لا يقتصرُ أصدقاءُ المسلمين على المسلمين فقط، بل يتواصلوا بعلاقاتِهم الإنسانيةِ والاقتصادية مع غير المسلمين أيضاً. والأمر الآخر أنهُ حتى وإن كان في هذه الدولةِ أناسٌ لا يُحبون المسلمين، لكنهم عندما يرون المسلمينَ يُقدّمون لهم العونَ في محنتهم، فإن ذلك من شأنِه أن يجعل قلوبَهم أيضاً تألفُ المسلمين.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾. تُعطى الصدقاتُ أيضاً لشخصٍ ارتهنَت حياتُه أو حريتُه على وجود بعضِ المال. وكان في السابقِ يُصرف ذلك في تحريرِ العبيد، ومع الزمن استطاعَ الإسلامُ أن يُنهيَ عبوديّة الإنسان، وهذه من المُنجَزاتِ الإنسانيةِ الكُبرى التي حقّقها الإسلامُ على الصعيدِ الإنسانيِّ. لكن لا شيءَ لا لزومَ له في القرآن، ودوماً تُستَحدَثُ مُستجدّات. فهل ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾. لم يعد له لزومٌ بسببِ عدمِ وجودِ العبيد؟

الجواب: هناك تفرّعاتٌ عديدةٌ لهذا الصنفِ الذي صنّفهُ اللهُ عزَّ وجل، فيمكنُ أن ترتهنَ حياةُ أو حرّيةُ شخصٍ ببعضِ المالِ، ووجود هذا المال ينجد هذا الشخص. عن البراء بن عازب قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: دُلَّني على عملٍ يقرِّبُني من

الجنةِ، ويبعدُني من النار، فقال: "أعتقِ النّسمةَ وفكَّ الرقبة"، فقال يا رسول الله أوليسا واحداً؟ قال: "لا عتقُ الرقبةِ أن تنفردَ بعتقها، وفكُّ الرقبةِ أن تعينَ بثمنها").

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾. هو الشخص الذي بغتةً يتعرَّض لغرامةٍ ماليةٍ تفوقُ مقدرَته.

وجاءتِ الكلمةُ بالغةَ الدقّة. فالغرمُ هو المُلازمةُ المُستمرّة، وهنا تتحوَّلُ الغرامةُ الماليّةَ إلى هاجسٍ مُلازمٍ لهذا الشخص. فالصدقةُ ترفعُ عن كاهلِه هذا الهاجسِ، وتجعلُه يعودُ إلى حياتهِ الطبيعيةِ ونشاطهِ اليوميِّ بحيّويّة. ولذلك جعلَ اللهُ له نصيباً في الصدقاتِ. ونرى هنا كيف أنَّ هذه الصدقاتِ تتحوَّل إلى مناعةٍ في مواجهةِ الأزماتِ، وكيفما قلّبتها فهي نفعٌ للدافعِ وللقابض معاً.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. رغمَ أنَّ هذا التصنيفَ هو الوحيدُ الذي حمَلَ اسمَ الله، فقد جعله اللهُ عز وجل في المرتبةِ ما قبل الأخيرة، ولم يجعلْه في المرتبةِ الأولى.

السبيلُ، هوَ الطريقُ، وهذا الطريقُ يمكنُ أن يكونَ مادياً، ويمكنُ أن يكونَ معنوياً، لكنه طريقٌ يؤدّي إلى شرعِ الله.

من هنا فإنَّ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هو الطريقُ إلى مرضاة الله، ويُصرَف هذا الحقُّ في الطريقِ المؤدّي إلى مرضاة الله. وذلك بعد أن يتمَّ إعطاءُ المستحقّينَ الستَّة السّابقين، فإذا تمَّت تغطيةُ حاجاتِ هؤلاء، وفاضَ من المال عن ذلك، يمكنُ أن يتمَّ فتحُ، أو تعبيدُ طريقٍ يؤدّي إلى المسجِ في قريةٍ ما، أو ناحيةٍ ما، وتجهيزه بالإنارة وما يمكنُ أن يلزمَه. فأحياناً تكون عدّة تجمّعات سكنيَّة في بعض القرى، أو النواحي، ويكون هناك مسجدٌ واحدٌ لهذه التجمّعات، ويجدُ الناسُ مشقّةً للوصولِ إليه سواءٌ في الصيفِ، أو الشتاء. فيمكنُ الاستعانةُ بهذا الفائض لهذا العملِ الذي يكون خالصاً من أجلِ تيسير وصولِ المصلّينَ إلى المسجد.

الأمرُ الآخر، قد تكونُ بعضُ هذه البيوت بحاجةٍ إلى مصاحفَ، أو مؤلّفاتٍ في علوم القرآن، فلعلّ بيتاً لا يوجد فيه سوى مصحفٍ واحد، وأن قرّاءَ القرآن فيه همْ عدّة، ولا مقدرةٍ لديهم لشراءِ حاجَتهم من المصاحف حتى يتمكّنَ كلُّ شخصٍ من القراءة في الوقت الذي يُناسبه، هنا يمكنُ تأمينُ مصحفٍ لكلِّ قارئٍ في البيت، ويكون ذلك أيضاً بالنسبةِ لتوفيرِ بعضِ كتبِ السنّة النبوية المطهّرة، وعلوم القرآن. فتكونُ مُتاحة في البيت،

وهذا ما يشجّعُ حتى الأطفالَ والفتيان على القراءة، كونُ هذه الكتب تكون في مُتناول أيديهم، وبذلك تترسّخُ فيهم ثقافةُ القراءَة. ومن الأمورِ التي قد تشمُله هذه المرتبةُ أيضاً، تكون عند حصولِ بعضِ الاضطراباتِ الأمنية، فيتمُّ تعيينُ حرّاسٍ يتناوبونَ على حراسةِ السكّان لمنعِ حالاتِ الاعتداءِ عليهم، ويكونُ ذلك عند الحاجة الماسة، وعند عدم وجودِ حراسةٍ من الدولةِ بسببِ تلك الاضطرابات. فهذا الحارسُ يكون مجاهداً لأنه في حالِ هجومٍ، سيُقاتلُ من أجلِ حمايةِ الناسِ الذين يحرسُهم. فهذا الاستحقاقُ يكونُ للمدَنيين لتحسينِ أوضاعِهم المعيشيةِ والخدميةِ والتوعويةِ. لكنَّ الذي حصل أنَّ التفاسيرَ كادت تُجْمِعُ بأن: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يخصُّ المجاهدينَ المُحاربينَ بالدرجةِ الامتيازية الأولى، وأمامَ هذا الإجماعُ، تحوَّلَت هذه التفاسيرُ إلى وبالٍ على النَّاس، حيث نشَأت فِرَقٌ تُكفّر بعضها بعضاً، ولا تكتفي بأن تسْتولي على مستحقات﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. بل تستولي على كاملِ الزَّكاة بكاملِ التَّصنيفات، وتفرضُه على الأغنياء، دون أيِّ مراعاةٍ للترتيبِ الإلهي، خاصةً إذا استولَت هذه الفرقُ على بعض المناطق، فتستخدمُ هذه الأموالَ في شراءِ الأسلحةِ لقتلِ المسلمين، وكذلك لبثِّ الفتنِ فيهم من خلالِ بعض قنواتِ الإعلام، فتصرفُ على القائمين في هذه القنواتِ على أنهم مجاهدون. وهذه التفاسيرُ كانت قد حصَلت منذ نحو ألفِ سنةٍ، او أكثر، او أقل، وقد تغيَّرت الظروفُ، بل حتى في تلك الأوقاتِ كانت هذه التفاسيرُ تلحقُ الضَّرر بالناس. فالآن، أية صدقاتٍ تحتاجُها الدولةُ، أو تحتاجُها هذه الفرق المُتناحرة حتى تسحبَ لقمةَ الفقيرِ من فمِه كي تشتريَ بثمنِها بندقيةً وتضعُها في يدِه ليقتلَ بها مسلماً.

فإذا نظرْنا إلى الأرقامِ الكبيرة جداً، فقط في بيعِ براميلِ النفطِ بشكلٍ يومي في ديارِ المسلمين، سنعلمُ بأن هذا المردودَ لا يكفي فقط لإعالةِ المسلمين جميعاً بحياةٍ حرةٍ كريمة أينما كانوا، بل ومثلهُم أيضاً من غير المسلمين. فيمكن أن نحصيَ الأرقامَ التي باتت مُتاحةً عن براميلِ النفطِ التي يتمُّ بيعَها يومياً من بلاد المسلمين، حتى نعلمَ ليس كم هو الدخلُ الشهري، ولا الأسبوعي، ولا اليومي، بل السَّاعي ساعة بساعة، فكل ساعة واحدة هناك مبالغ ضخمة يتم تحصيلُها فقط من مردود االنفط. وهذا عدا الضرائب، والجبايَة،

والغرامات، والمخالفات، والرسومِ المختلفةِ التي تؤخَذُ من المواطنين. واستناداً إلى ذلكَ نرى أن﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يبقى محافظاً على ترتيْبِه المَدَني، فينتفعُ به المدنيونَ، دون أن يُصرَفَ على الشؤونِ العسكريةِ، أو تجهيزاتِ الجيوش، لأنَّ اللهَ وبعد كلِّ هذه الفئات، لم يذكرْ هذا الترتيبَ السابعَ، ليُذهِبَ كلَّ ما قبلَه وما بعده، إذا مضينا وفقَ هذه التفاسير. بل إن بعضهم زادَ فأجاز إخراجَ زكاةِ سنة ماضيةٍ وسنةٍ حاليةٍ وسنةٍ قادمةٍ من أجلِ تجهيزِ الجيو بذلك قد حرَموا هؤلاء من استحقاقاتِهم ثلاثَ ش. فيكونون سنوات.

إذن: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿وَفِي سَبِيلِ﴾تقديمُ خدماتٍ تيسيريةً للناسِ في طريقِ عبادتِهم، وذلك حتَّى لا يأخذُ المستحقّونَ استحقاقاتِهم بيَد، ويضطرون لإعطائِها باليَد الأخرى من أجلِ الخدمات العامة، أو تؤخذ منهم عنوةً، وإن لم يعطوا اتُهِمُوا بالردّة وعوقِبوا. فهذِه من الأضرارِ التي ألحقَتْها بعض هذه التفاسير بالمسلمين التي لعلّها حصَلت في ظروفٍ ما، ولبث المُفسّرون اللاحِقون يُردّدونها كما لو أنَّها من المُقدّسات والثَّوابت، فتحوّلت هذه التفاسيْر الحديثةِ إلى عمليّة ترديديّة وتحوّل المفسّرونَ إلى مُردّدين لِما قد قيْل دون أي اعتبارٍ للتحوّلاتِ الاجتماعيةِ والاقتصاديةِ الهائلةِ التي استجدَّتْ على مختلِف الصُّعُد.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾. هذه هي المرتبةُ الأخيرةُ التي عيّنها اللهُ سبحانَه وتعالى لمُستحقّي الصدقات. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾. يعني ابنَ الطَّريق، وقد وصفَه اللهُ عزَّو وجلَّ بـ ﴿وَٱبۡنِ﴾. لأنَّه يمْضي كثيراً من عمْره في الطُّرقات، وقلّما يتواجدُ في البيت، وإنْ تواجَد، لا يمكثُ طويلاً ،وما يلبث أن يخرجَ في تيسيرِ شؤونه على الطرقات.

فهو المُسافر دوماً الذي يُحصّلُ رزقَه من خلالِ أسفارِه، وهذه الصدقَةُ لا تُعْطى له لمجرّدِ أنه يتَواجَد كثيراً في﴿ ٱلسَّبِيلِۖ﴾، بل لنكبةٍ تقعُ له وهو في﴿ ٱلسَّبِيلِۖ﴾. فلعلَّه تعرَّضَ لفقدانِ أموالِه التي يُتاجرُ بها، لعلّه تعرَّضَ إلى داءٍ وهو بعيدٌ عن ديار أهله، وقد أنفقَ كلَّ ما لديه في العلاجِ والإقامةِ، ولم يعدْ يملكُ شيئاً كي يداومَ على العلاجِ، أو يعودَ إلى أهله.

فهو الشخصُ الذي ينقطعُ بغتةً من المالِ، وهو بعيدٌ عن أهلِه، فيُعطى آنذاك من مالِ الزكاة.

وطوالَ ١٤٠٠ سنة متواصلةً، انتفعَ هذا الشخصُ من حقّهِ في الزكاةِ. لكن دوماً نعودُ إلى المُستجدّات، وإلى ثورةِ التقنياتِ الحديثةِ التي استجدَّت. فلعلّ ذاك الشخصَ الذي انقطعَت به سبلُ العودة، كان يحتاجُ إلى مسيرِ شهرٍ أو أكثر حتى يصلَ إلى أهله. وهذه مشقّةٌ قد لا يحتمِلُها عند حدوثِ ظرفٍ صحّي طارئ، أو ما قد طَرَأ عليه. لكن الآن حتى لو كانَ في قارةٍ أخرى، فيمكنه أن يحصلَ على مالٍ في غضونِ دقائقَ معدودةٍ

بمجرَّد اتّصالٍ مع أهله، فيتمُّ تحويلُ المبلغِ له. فهو هنا ما عادَ ابنَ السبيل مهما نفذت لديه النقود، أو أضاعَها، أو تعرَّض لمرض. والشهرُ الذي كان يقضيْه مسيراً على ظهر الخيلِ حتى يصلَ إلى بيته، أختُصِرَ ذلك في ساعتَين وهو مرتاحٌ كما لو أنَّه جالسٌ في بيته.

فهذه المُستجدّاتُ نأخذها بالاعتبار، وبذلك تكونُ التفاسيرُ السابقةُ مُقتَصرةً على الواقع الذي كُتِبَت فيه، والترديدِ الذي يحصلُ لها من زمنٍ إلى زمنٍ على ألسنة بعض المُردّدين، لا تكون مُجدية لأنها تفصُلنا عن واقعنا، وتريدُ أن تُعيدَ نمطَ حياتِنا أحياناً إلى ما يزيد عن ألفِ سنةٍ للوراء. ولا يمكنُ لأي جيلٍ بأي حالٍ من الأحوالِ أن يعيش بسويّةٍ وهو منفصلٌ عن واقعه.

إذن، مَن هو: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾. الآن، وقد أُعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه من خلالِ الدرجات السبع الآنفة، وقد رأينا كيف أنَّه تم استيعابُ كلِّ الحالات الماديّة والمعنوية، حتى إنه لم يبقَ مستحقٌّ حرمَه الله من استحقاقه، بل إن اللهَ جل شأنُه، قد زاد.

لكن الآن بقي هذا الشخصُ الأخير في هذه القسمةِ كي يتمَّ الوصولُ إليه ومعرفته وإيصالُ قسمتِه له لاستكمالِ تطبيق شرعِ الله تعالى.

أحياناً نكون في بعضِ الطرقاتِ، أو في بعض الأسواقِ، ونجدُ أشخاصاً يقتعِدون الأرصفةَ، وقد وضعوا بضاعةً أمامَهم يبيعونها. وهي بضاعةٌ زهيدةٌ، فحتى لو باعوها كلها، سيكونُ ذلك بمبلغٍ زهيدٍ، ولو حسمتَ قيمةَ ما اشتروها، ربما بقي نصفُ هذا المبلغ. والسَّببُ أن هذا الشخصَ لا يستطيع أن يبتاعَ محلاً، كما أن لا يملكُ أن يستأجرَ محلاً، كما أنه لا يملكُ أن يزيدَ في البضاعةِ الزهيدةِ التي يبيعها، فهو يتعرَّض لعواملِ الطقسِ من بردٍ قارسٍ في الشتاء، وحرٍّ قائظ في الصيف، حتى يؤمّن لقمة المعيشةِ لعائلته، وقد يكون إضافةً لذلك مقيماً في بيتٍ بالأجرة.

ثم إنك قد ترى شخْصاً عتّالاً في الطُّرقات، فهو ينقلُ حاجات الناس من موضعٍ إلى آخر بواسطة عربةٍ، ولأنه لا يملكُ المقدرةَ على شراءِ خيلٍ، فهو يحملُ قائمتَي العَرَبة بيدَيه، أو يضعُهما على كتفَيه ويسحَبْها محمّلةً بالبضاعة خلفه.

أو لعلّك ترى شخصاً يعملُ سائقاً يخرجُ من بيتهِ في الصباحِ الباكر، ولا يعودُ إلاّ في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وهو يجوبُ الطرقاتِ في توصيلِ الناس، أو يمضي أياماً في أسفارٍ طويلةٍ إن كانتْ سيارة شاحنة، وأن هذه السيارةَ ليست له، بل يعملُ عليها مقابلَ أجر، فيؤمّن بالكاد الحاجاتِ الأساسيّةَ لعياله، وأن أجرةَ البيت تستنفذُ جزءاً كبيراً من دخلِه، فيعيشُ في ضائقةٍ شديدة.

وأحياناً ترى شخصاً عجوزاً، أو غير ذلك وهو لا يجدُ عملاً، ولا يجدُ ما يشتري به المستلزماتِ الضرورية لعائلته، فيخرجُ من البيت وهو يجوبُ السبُلَ في الأحياء الشعبية وينادي بتسويةِ أو إصلاحِ بعضِ حاجاتِ الناس. مثل أن يحدَّ السكاكين، أو يبترَ الأغصانَ الزائدة من الأشجارِ، ويرتّبَ بعض حدائق البيوت، وما إلى ذلك. فيأخذُ الأجرَ من هنا، ويسرعُ في شراء طعامٍ لأطفاله الذين ينتظرونَه وبطونُهم تقرقر جوعاً.

أو ترى شخصاً يجوبُ الحدائق العامة وهو يبيعُ عبوّات الماء، أو بعضَ ألعاب الأطفال، أو يخرج شخصٌ من بلدته إلى بلدةٍ أخرى بحثاً عن فرصةِ عمل، لكنه يبقى يبحث دون أن يجد فتنفذُ نقودَه. هنا يُمكن أن يُعطى له من الصدقاتِ حتى يعودَ إلى بيته. وكذلك الأمرُبالنسبةِ لبعضِ الباعةِ المتجوّلين الذين يبيعونَ بضاعاتِهم في الطرقاتِ والأحياء. أو تجدُ شخصاً يلتقطُ بعض الأشياء من حاوياتِ القمامَة، أو من الطرقاتِ، مثل البلاستيك أو بعض المعادنِ، فيحملُها على ظهرِه، ويبيعُها في الأماكن الخاصةِ بهذه الأشياء. وما إلى ذلك ممَّن يعتاشونَ من خلالِ تواجدهِم المستمرّ في السبل.

وكل هؤلاء يفعلونَ ذلك بدافعِ عزّةِ النفس، وحتى يقوا أنفسَهم التسوّلَ، فهنا أوجَبَ الله لهم حقاً خاصاً بهم، وقد وصفهُم الله جلَّ شأنه بصيغة المفرد: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾. جمع أبناء السبل.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾. ليس منّة من أحدٍ على أحد، ولا يظنّن أحدُ بأنّه يتفضَّل على أحدٍ، ولا يشعرُ صاحبُ أيِّ حقٍّ من حقِّه، فهذا حقٌّ أحقَّه اللهُ عزَّ وجلَّ له، وجعله ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾. على الأغنياء حتى يثيبَهم عليها من خلالِكم بأكثرَ مما يعطون، ولولاكم لحُرِموا من هذا الثوابِ، وبذلك لو عَلِم الغنيُ مدى هذا الثوابِ، لوقفَ تحيّةً لصاحبِ الاستحقاق الذي أتى له بثوابٍ كبيرٍ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. يعلمُ كيف ينظّمُ الحياةَ لعباده. ﴿حَكِيمٌ﴾. بهذا التنظيم الذي ينفعُ الناسَ ويرسّخ فيهم قوّةَ المشاعر الإنسانيّة تّجاه بعضَهم بعضاً. والله أعلم.

الباب الواحد والستون | فضل بادرة حُسن النيّة

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦١﴾

استئنافاً للآية ٥٨: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. وبعدَ البيانِ التفصيلي الذي ورد في الآيتَين بينهما، الآن: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾. فتبيِّن الآيتان حجم التناقض الذي يكونون فيه. فبعد أن اتّهموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا يعدل في قسمة الزكاة، الآن يتّهموه بأنه يُصدّقُ كل ما يسمع، ويمكن لأي شخصٍ أن يدّعي ما يدّعي، أو يقول ما يقول، فيصدّقه: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾. أي سمّاع لكل ما يُقال له. وكلمة ﴿يُؤْذُونَ﴾. تشير إلى المقصد السلبي في قولهم هذا، فيبتغون بذلك أن يُنقصوا من شأنه صلى الله عليه وسلم أمام الناس.

والأذى هنا، هو شبيه باللمز هناك، أي هو أذًى معنوي. ومن ذلك أن ﴿وَمِنْهُمُ﴾. بما يُروى، كان يقول: (إذا كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير). ﴿وَمِنْهُمُ﴾. مَن كان يقول: (نقول فيه ما شئنا ثم نذهب إليه ونحلف له أنّا ما قلنا فيقبل قولنا). وبذلك فإنهم يعتبرون حُسن نيّته صلى الله عليه وسلم انتقاصاً من شأنه.

ويُروى أنه: (اجتمع أناسٌ من المنافقين، فيهم: جلاس بن سويد بن الصَّامت، ومخشي بن حمير، فأرادا أن يقعا في النبي صلى الله عليه وسلم، فنهى بعضهم بعضاً، وقالوا: إنّا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم. فقال بعضهم: إنّما محمد أذن، نحلف له فيصدّقنا. فنزل: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾).

فهذه من الخصالِ الحميدةِ التي تبيّنها الآيةُ الكريمةُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان حَسَن النيّة، ولذلك جاء القول على القول كبيانٍ وكجواب على قولهم: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾. وهذه شهادة من رب العالمين بأنه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾.

بمعنى أن هذا الذي تتّهمونه به، إنما هو لخيرِكم، ولو أساءَ النيّة بِما تقولوه لَما كان لخيركم.

وهنا أيضاً مسألة مهمة، وهي أنَّ النبي

صلى الله عليه وسلم، لعلّه لو لمح شيئاً سلبيّاً عند أحد الأشخاص، فإنه يمهله، ويمنحه فرصةً بطريقةٍ غير مباشرةٍ، مرة تلو المرة، حتى يصلح من شأنه، وأيضاً لعلّه يتأثّر بحسن نيّة الرسول به. فإن لبث على ما هو عليه، واعتقد بأنه قادرٌ أن يتحايل على الرسول صلى الله عليه وسلم بكلامه وحلفانه بالله، فلا يكون قد انتفع بشيءٍ من حُسن نيّة الرسول، لأن الحقيقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان لا يصدّقه فيما يقول، بل يقف أمام حلفانه بالله، فيمهله. من هنا يتبيَّن بأن العيب ليس في المرسل الحَسَن النيّة، بل في المتلقّي السيء النيّة. والأذى هنا يكون من خلال بث الشائعات والدسائس، أو الفتن والنعرات، أو يقوّل النبي ما لم يقل، وما إلى ذلك. وعندما يأتي به النبي عليه الصلاة والسلام لبيان الحقيقة، فإنه يحلف بالله بأنه ما قال ذلك. فيُحسن النبي النيّة بِما يسمع، فلعلّه قد ندم على ما أشاع، وأنه يقصد: الله لن أقول ذلك مرة أخرى. من خلال قوله: والله لم أقل ذلك. ولذلك فهو: ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾. يمنحكم فُرَص الصلاح، ولا يسدّها أمامكم ما دمتم تحلفون بالله أنكم ما قلتم ذلك. ويبقى هذا للناس جميعاً في كل زمانٍ ومكان. فلعلّ شخصاً قد ألحق بك الأذى من خلال بث بعض الشائعات أو الدسائس، ثم إنك عندما واجهته، أنكر، وحلف لك بالله أنه لم يقل ذلك. هنا تتذكَّر موقف النبي في الآية الكريمة مع سالف هذا الشخص، وأنه قد عفا عنه ولو بطريقةٍ غير مباشرةٍ على أنه صدّقه في حلفانه، فتأتسي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وتُظهر له بأنك صدّقته. وهنا تكون قد منحته فرصة حتى لا يستمر في ذلك، ويصلح من شأن نفسه. وكل هذا بينك وبين نفسك وأنتَ تسأل الله عز وجل: اللهم فعلتُ ذلك أسوةً بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأسألك أن تجعلني ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾عندك.

فقد كان سمع الرسول صلى الله عليه وسلم، سمع ﴿ خَيْرٍ ﴾بالنسبة لذاك الشخص، كما أن سمعك يكون سمع ﴿ خَيْرٍ ﴾بالنسبة لهذا الشخص. وقد ائتسَيتَ برسول الله صلى الله

عليه وسلم استجابةً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾الأحزاب٢١.

الأمر الآخر أنك حتى لو أقررتَ هذا الشخص تحت الضغط ليعترف بِما قال، وحتى لو عفوتَ عنه بعد ذلك، فإن ثقته بك تبقى متأرجحةً، لأنه يعلم تماماً بأنك تعلم ما فعله بك. لكنه إذا رآك تأخذ بحلفانه، وحتى لو رآك في بعض الشك، فتكون لديه فرصة سانحة كي يصلح علاقته بك على احتمال أنك صدّقته في حلفانه.

فالآية من هذا المنطلق تدعوك كي تبادر بحسن النيّة تّجاه الآخرين، فمن الناس ناسٌ مَن يسيؤون النيّة النيّة بالآخرين جميعاً مهما كانوا على صواب، ذلك أن دواخلهم سيّئة، فيقفون موقف الريب في كل علاقاتهم بالآخرين، ودوماً يتوقّعون الغدر من الآخرين، ولا يثقوا بهم مهما بدرت منهم مواقف مخلصة.

فترشدك الآية الكريمة لتكون﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾، لا ﴿أُذُنُ﴾ شر، ﴿أُذُنُ﴾ ثقةٍ، لا﴿أُذُنُ﴾ ريب. وتبيِّن لك بأن خيرك عليك وعلى الآخرين يتحقّق عندما تكون ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾.فجاء التوضيح من الله تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾. ثم جاء البيان بهذا التوضيح: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

تكرَّرت اللام في ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ولعلّ ذلك يشير بأنه ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾، للناس جميعاً بمن فيهم المؤمنون أيضاً، فهذه الخصلة ينتفع بها المؤمنون، كما ينتفع بها غيرهم، لأن الإنسان إذا كان في شك، فحتى المخلصين له لا يسلمون من هذا الشك، أما إذا كان حسن النيّة فيما يسمع، فينتفع منه الناس جميعاً. وهنا إشارة بأن الثقة تكون أكثر عمقاً بين المؤمنين وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وتكون العلاقة بينهم أكثر رسوخاً بكونه ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. ولذلك جاءت العبارة التالية الأكثر تعبيراً عن الحالة: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾. أي أن هذا التصديق هو رحمة، وهذا يؤكّد مزيداً ومزيداً أنه﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. وأنك إذا ائتسيتَ به تكون﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾.

وما دمتَ ائتسيتَ به فتكون رحمة كذلك. فمما يخصّه الله عز وجل لرسوله، يكون للمسلمين حظ منه.عَن النَبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ"[1] . فالنبي صلى الله عليه وسلم هو رحمة من الله تعالى، كما أن المؤمن الصالح، يكون رحمة من الله تعالى. بذلك يرتقي المؤمنون الصالحون في كل زمانٍ ومكان إلى مراتب متقدّمةٍ مما ارتقى إليها رسول

الله صلى الله عليه وسلم من فضائل. ومادام الرسول هو بشر، فإن أي بشرٍ يمكن أن يأتسي به، ويرتقي في مقامات الفضيلة، وهو يأتسي به. ولو لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم من البشر، لعجزوا أن يأتسوا به، لأنهم ما كانوا سيجدون شيئاً منه فيهم، ولما شمّوا منه رائحة الإنسان، وبالتالي لكان من بالغ الصعوبة أن يأتسي الناس به. لكن الله سبحانه وتعالى اصطفى خاتم الأنبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام لهذه الرسالة الخاتمة. فالنبي صلى الله عليه وسلم يتميّز عن الناس بالوحي والنبوّة، وما دون ذلك، فالمؤمن يمكن له أن يرتقي إلى درجاتٍ متقدّمة من الصلاح على منهج صلاح رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا بفضل الله عز وجل، متاحٌ أمام المؤمنين في كل زمانٍ ومكان.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾. بدأت الآية بذكر ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾. وهاهي تنتهي بذكر﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾. فما الفرق بين ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾. وبين الرسول، ولماذا ذكر هناك ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾. وذكر هنا الرسول؟

النبي مهمّته محدودة ضمن المجتمع الذي يكون فيه، ولذلك كان الأنبياء يكثرون في وقتٍ واحدٍ في أماكن متعدّدة بِما يشبه وجود الملوك والحكّام في زماننا.

والنبي هنا هو بشير، يبشّر الصالحين بثواب الله، ونذير، ينذر العصاة بعقاب الله. ويوحي له الله عز وجل بِما سيقع مع العصاة، فيخبرهم به كي يصلحوا، وكونه نبي الله، فإن العلاقة بينه وبين الله تبقى متّصلة بشأن المهمّة التي كلّفه الله سبحانه وتعالى بها. فأحياناً يطلب منه بعض القوم القيام ببعض الخوارق، فيسأل الله ذلك، ويشاء الله ما يشاء.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

إذن عندما تتفاقم المعصية في قومٍ ما على سبيل المثال، مثل قوم هود، أو صالح، أولوط، أوشعيب. عليهم السلام، فيأتي الأنبياء ببعض المعجزات الإلهية لأقوامهم حتى يصلحوا.

أما الرسل، فإن مهمتهم تكون أوسع، ولا يكتفون بإصلاح بعض الفواحش أو المظالم في مجتمعاتهم بل يسنّون أيضا الأحكام والشرائع وفق الرسائل التي يحملونها من الله. ولذلك فهم ينتقلون من موضعٍ إلى آخر، لأن رسالاتهم تكون عامة، وليست مقتصرة على مجتمعٍ ما أو على بقعةٍ جغرافيةٍ بعينها. ولذلك فإن الرسل لهم أتباع أكثر على مر الزمن، في حين أن الأنبياء لم يعد لهم اتباع مع مرور الزمن، لأن تكاليفهم كانت مقتصرة على زمنٍ ومجتمعٍ.

وجاء خاتم أنبياء والله ورسله عليه وعليهم الصلاة والسلام، لتتكامل كل هذه الأخلاقيات والأحكام والشرائع والقِيَم في رسالته الخاتمة من الله إلى عباده. فتكامل الكمالُ بالكمالِ من خلال القرآن المجيد الذي أصبح كاملاً لا ينقصه شيء، لأن لا تنزيل بعده، وكل ما كان قبله كان ثمة تنزيل بعده حتى يبلغ التكامل الذي لم يعد بحاجةٍ إلى تنزيلٍ مكمل: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾المائدة٣. عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: (يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذْنا ذلك اليوم عيداً، قال: أي آية؟ قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليومَ والمكانَ الذي أنزلت فيه على النبي عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفةَ يومَ الجمعة).

فعندما ذكرت الآية الكريمة نوعَ الأذى، قالت: ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾. لأنهم يؤذون شخص ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾. كإنسانٍ من عامة الناس، وكفردٍ من أفراد المجتمع. وعندما جاء العقاب، قالت: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾. فهم إضافة إلى كونهم يؤذونه كشخصٍ، كذلك يرمون إلى الإساءة للرسالة التي يحملها من ﴿ ٱللَّهِ ﴾. فيبتغون التقليل من شأنها. ولذلك اختُتِمَت الآيةُ الكريمة بـ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ ﴾. لأنهم يؤذون شخص النبي صلى الله عليه وسلم، و﴿ أَلِيمٌ﴾. لأنهم يرمون للإساءة إلى ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾. حامل رسالة الله إلى العالمين.

الباب الثاني والستون | أحقّيّة الرضا

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ٦٢

حلفانهم بالله يكون حلفاناً مزوّراً، كشهادة الزور التي يدلي بها الشاهد بهتاناً لتحقيق مآرب يبتغيها. فهؤلاء يتّخذون من حلفانهم ﴿بِٱللَّهِ﴾وسيلةً لتحقيق مآرب يبتغونها منكم. فهي يمينٌ كاذبةٌ: ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾.

والمؤمنُ يثقُ بالمؤمنِ خاصةً إذا حَلَف﴿بِٱللَّهِ﴾. فهم يرمون من خلال هذا الحَلَفان أن تثقوا بأنهم مؤمنون أولاً، فيكون بذلك تعاملكم معهم كتعاملكم مع المؤمنين الصادقين في إيمانهم. فأنتَ تؤمن ﴿بِٱللَّهِ﴾إيماناً صادقاً، ويأتي شخصٌ فيحلف لك ﴿بِٱللَّهِ﴾الذي تؤمن به. هنا سوف تتردَّد حتى لوكنتَ على وشك أخذ موقفٍ حاسمٍ من تجاوزه عليك. والآية تفصح بأن ذلك يحدث فقط: ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾.

الجملة التي تليها: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾. الحقيقة أنكم مهما رضيتم عنهم، فهذا لا يُغنيهم عن أحقّية رضا الله ورسوله، لأنه أصل الرضا. فالشخص الذي يسخط عليه الله ورسوله، لا يكون مرضياً عنه مهما حصل على رضا الناس. ولكن لماذا: ﴿يُرۡضُوهُ﴾. وظاهر الجملة لغوياً (يرضوهما)؟.

فانظر إلى الركاكة إذا ورت الآية على هذا النحو: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن﴾يرضوهما ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾. وهذا ليس لتجنّب الركاكة اللغوية فقط في الجملة، بل أيضاً يستوي المعنى في مقامٍ أكثر رفعةً. فالرسول كان متواجداً بينهم عند نزول الآية، وهو كبير المسلمين، والمسلمون جميعاً يأتمرون بأوامره. فرِضا الرسول أحق وأنفع لهم من رضا المسلمين جميعاً. ثم ولكونه رسول الله، فهو إن رضي عن شخصٍ، يكون الله قد رضي عنه. وهنا عندما يرضون الرسول عليه الصلاة والسلام، فهم قبله سيكونون قد أرضوا الله، بكونه مرسلاً من الله، وناطقٌ عن الله سبحانه وتعالى. ولذلك جاء: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أولاً.

ثم ﴿ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾. ونهاية الآية وسّعت في المعنيين بهذا البيان الإلهي لتشمل الـ ﴿مُؤۡمِنِينَ ﴾أيضاً. فإذا آثر المؤمنُ رضا أي شخصٍ كائناً مَن كان على رضا الله ورسوله. عليه أن يُراجع – ذاك– ثوابت إيمانه. ولذلك قال الوحي: ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾. لأنه عند ذاك لن يكون مؤمناً.

وعندما يتراجع عن ذلك مهما أسرف، فإنه يعود مؤمناًبعودته إلى رضا الله ورسوله. وبذلك تكون الآية الكريمة قد انفتحت لتشمل المؤمنين أيضاً إضافةً إلى المنافقين الذين هم مركز الآية ومحورها، لأن ﴿يَحۡلِفُونَ﴾. في مستهل الآية، يعود ضميره إلى ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾. في مستهل الآية السابقة. فالمؤمن إن فعل ذلك أيضاً، يكون قد تشبّه بالمنافق، واقتدى به في هذا المسلك.

و: ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾. بمعنى أنهم ليسوا مؤمنين، هذا بالنسبة للمنافقين، وكذلك يخرج من ملّة الإيمان المؤمن الذي يقتدي بهم. ويبقى هذا مفتوحاً على مدار الزمن، فرضى الله، هو اتَباع ما جاء في التنزيل الحكيم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إضافةً إلى ذلك، اتّباع ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيح الحديث.

الباب الثالث والستون | المُحاددة

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ٦٣

بمعنى: لـ ﴿يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. جاءت الكلمة بليغة في دقّتها للتعبير عن عمق المعنى، وكان يمكن القول: يشاقق، أو يعاند، أو يعادي، أو يخالف، وما إلى ذلك. لكن كل هذه المعاني تكتنز في بلاغة كلمة ﴿يُحَادِدِ﴾. إذن ليعلم المنافقون ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ﴾ –جزاء ذلك– ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾. نظير أنه لبث محادداً بعنادٍ شديدٍ دون أن يتراجع. وهذا التاريخ المشين الذي تركه خلفه في الدنيا، يجده أمامه في الآخرة ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾. ومهما ترك من خزيٍ في الدنيا، فإنه قليلٌ بالنسبة لخزي الآخرة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

الباب الرابع والستون | الحذر

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ٦٤

تفصح الآية مزيداً من تركيبة سخصيّة الإنسان المُزدَوَج، وتُبيِّن الاضطراب الفكري الذي تعيشه هذه الشخصيّة. وهنا يتبيَّن بأن الإنسان مهما سعى إلى الإلحاد، فإن الله لا يحرمه من إشارات الإيمان، فلا يكون مستقرّاً وثابتاً في إلحاده، وتبقى بعض الظواهر تلفت نظره إلى وجود خالقٍ، وأن الحياة ليست بلا صاحب، وبلا مَن يتدبَّر شؤونها وفق ترتيب دقيق، وهذا من فضل الله تعالى على الناس جميعاً.

وهنا يرى ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أن الآيات التي تتنزَّل على النبي صلى الله عليه وسلم، تفصح عمّا في مكنوناتهم، وليس بوسع مخلوقٍ أن يعلم ما في القلوب، وأيضاً بعض ما يحدث في غاية السرّية أحياناً بين شخصٍ وآخر، أو بالنسبة لشخصٍ واحدٍ بمفرده. فيقول القرآن بأنه قال في نفسه كذا، أو فعل كذا، أو أنه أظهر كذا، لكن جوهره كذا.

الآن: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾. أي يكونوا مضطربين وقلقين: ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ بحقهم ﴿سُورَةٌ﴾ قرآنية من الله ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ تنبّئ المؤمنين ﴿بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾. فدوماً تبقى آذانهم صاغية إلى ما سيقوله النبي عليه صلوات الله وسلامه من الوحي بحقّهم. وهذه السورة قد أُنزِلَت وهي سورة (المنافقون). فبالإضافة إلى الآيات التي تتنزَّل في المنافقين في سورٍ عديدةٍ من التنزيل الحكيم، فذلك تنزّلَت فيهم سورة، وأفصحت هذه الآيات وهذه السورة للمؤمنين ﴿بِمَا فِى﴾ قلوب المنافقين. الجملة التي تليها: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾. بيانٌ بأن هذه الإشارات الإيمانية التي تبلغهم بفضلٍ من الله تعالى، لا يتّعظون بها، بل يأخذونها استهزاءً. ﴿قُلِ﴾ للمنافقين يا محمد، وقولوا للمنافقين يا أمة محمد: ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾. لكم حريّة أن تؤمنوا، وحريّة أن تستهزئوا بالإيمان ولكن لتعلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لا يترك المؤمنين مغفّلين عن مكنوناتكم، و: ﴿ مُخْرِجٌ ﴾ مُظهر لهم ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

الباب الخامس والستون | آفة الاستهزاء

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٦٥

هكذا دوماً يتهرّب المُنافقون من الحقيقة ولا يواجهونها، فيلبثون في وجهَين نقيضَين، ومما جاء عن أسباب نزول هذه الآية الكريمة، أن بعض المنافقين قالوا بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة تبوك: (انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات).

وعندما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كانوا قد قالوا ذلك؟ قالوا: (لا والله ما كنا في شيءٍ من أمرك وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيءٍ مما يخوض فيه الرَّكب ليقصرَ بعضنا على بعض السفر).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عَمّا نُسِبَ إليهم، ويبقى ذلك مفتوحاً لكل مسلم في كل زمانٍ ومكان للسؤال عَمّا يُنسَب إلى المنافقين أو غيرهم من أقوال قبل أخذ الموقف. جاء جوابهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. يخفون الحقيقة ويدّعون بأنهم كانوا يتمازحون فيما بينهم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾. هذا من باب الوعيد حتى ينتبهوا إلى خطورة ما قد وضعوا أنفسهم فيه، وحتى ينتبه منافقو ومستهزئو كل زمانٍ ومكان. لأن هذه القراءة هي دوماً لِمَن ما زال باب التوبة مفتوحاً أمامه، وكل إنسان يبقى باب التوبة مفتوحاً أمامه مهما أسرف في النفاق أو الاستهزاء.

جاءت الألِف في ﴿ أَبِاللَّهِ﴾. تحذيريّة واستفهاميّة وتنبيهيّة في آن: ﴿ أَبِاللَّهِ﴾ الذي خلقكم، ﴿ وَآيَاتِهِ﴾ التي تصلح لكم شأنكم، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الذي أرسله الله رحمةً لكم ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

الباب السادس والستون | المصداقيّة

﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ ٦٦

لا تتذرّعوا بالاعتذار وأنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ﴾. فقولك الاعتذاري بذاته هو ذنبٌ على ذنب: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾. لو كنتم صادقين، لكان الأجدر بكم أن تقرّوا بذنبكم وتستغفروا الله، وتتوبوا إليه. ﴿ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾. ﴿ بَعۡدَ ﴾ أن أظهرتم ﴿إِيمَٰنِكُمۡ﴾ للمسلمين، وأمّنوكم على ما تظاهرتم به: ﴿ كَفَرۡتُم بَعۡدَ﴾ذلك بأن استهزأتم بالله ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾. هنا يُضاف التحايل إلى النفاق، فهم يتحايلون على المسلمين بأن يتظاهروا أمامهم بالإسلام، ثم يستهزئون بالله ﴿وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ خلفهم. من هنا جاء القول: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾. بمعنى لا تتذرّعوا بأنكم لم تكونوا صادقين في استهزائكم، وتقولوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ﴾فحسب. فهو إذن اعتذارٌ باطلٌ ولذلك فهو يُزيدكم نفاقاً على نفاق، لأنهكم لا تقولون الحقيقة، والحقيقة: ﴿ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾. والقول هنا يكون لهم وليس عليهم، لأنه يبيِّن حقيقتهم، حتى يتخلّصوا من وبال الازدواج ويكونوا حقيقيين وطبيعيين وواضحين. وتأكيداً على ذلك جاءت الجملة التالية: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾. جاء العفو عن الذي لا يتخفّى خلف الاعتذارات غير الحقيقية، بل يترك النفاق جملةً واحدةً بوضوح، ويتوب إلى الله تعالى، وهذه بشارة كبرى بقبول التوبة.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾طه٨٢.

تذكر بعض أسباب النزول أن بعض المنافقين بعدما سمعوا هذه الآية الكريمة، تابوا توبةً صادقةً وصلح إسلامهم، منهم مخشي بن حمير الأشجعي الذي تاب عن النفاق واستقام في توبته، وأصبح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ ﴾. وهي التي لبثت في مسالك النفاق، وقد وصفهم الله عز وجل في خاتمة الآية: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

الباب السابع والستون | متاهة النفاق

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ ٦٧

هنا إيضاحٌ لكلمة﴿ مُّجۡرِمِينَ ﴾. التي اختُتِمَت بها الآية السابقة، فلعلّ بعضهم يتفاجأ بها: لماذا﴿ مُجۡرِمِينَ ﴾؟. والسورة ما تزال تفصح لنا عن مخبوءات شخصيّة الإنسان المُنافق، وتُعرّفنا على تفاصيل كينونة هذا الشخص المُزدَوَج. وهذا لا يقتصر على الدِين فحسب، بل في سائر مقوّمات حياة هذا الإنسان المُتهزهز والمتأرجح في حياته وعلاقاته. فقد ترى شخصاً يدّعي بأنه يحبّك، أو يدّعي بأنه حريصٌ على مصلحتك، قد ترى شخصاً يمدح شخصاً رياءً، قد ترى مَن يقول لك شيئاً بلسانه، ويضمر في قلبه

نقيضه. وهكذا تكون حياة هذا الإنسان المنافق، فهو دوماً لا يُظهر قناعاته، بل يضمرها في نفسه، ويتظاهر بنقيضها. وهنا أيضاَ إشارة تنبيهيّة شديدة لأي إنسانٍ صالحٍ أ يضاً كي يكون على حذرٍ من الإنزلاق إلى متاهة النفاق من خلال كلمةٍ ما، أو موقفٍ ما. فيكون ذلك بمنزلة الخطوة الأولى التي تستجرّ خلفها خطوات، فدوماً على الإنسان أن يواجه الحقيقة بالحقيقة، وهنا لا بدّ من الفصل بين النفاق وبين بعض الحالات الاستثنائيّة الطارئة التي يجوز فيها للإنسان أن يقول غير الحقيقة لمصلحةٍ ما، أو لكفّ أذى ما، مثل أن ظالِماً قد لحق بشخصٍ ويريد الاعتداء عليه، وقد فرّ منه هذا الشخص ولجأ إلى بيتك دخيلاً. وبعد وقتٍ جاء هذا الظالم يسألك عن هذا الشخص، فتقول بأنك لم تره، وتكون بذلك قد أنقذتَ هذا الشخص من وقوع الظلم عليه، وكذلك أنقذتَ الظالم من ارتكاب مظلمةٍ، ولعلّه كان في فورة دم، وبعد حينٍ يتجاوَز عن هذا الشخص. وهذا مثل شخصٍ وقع في الزنا، فإن حامت حوله الشبهة، ينكر ذلك بشدّة، وبذلك يفسح لنفسه وللمرأة مجالاً للتوبة والصلاح. ولعلّ كل واحد منهما يكوّن فيما بعد عائلة صالحة أمّا إذا كان قد فضح نفسه، وفضح المرأة، لعلّ ذلك تسبَّبَ في إراقة دماء، والإنسان يستر نفسه، وكذلك يستر الآخرين.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن ابن عمر رضي الله عنهماعن النبي ﷺ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَةَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ وَلْيُتُبْ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِلْنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2]. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة" رواه مسلم في صحيحه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ: أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ يَا فُلَانُ: عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ" [3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلَّى الله عليْه وسلَّم: "مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كَشَفَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ بِهَا فِي بَيْتِهِ"[4].

إذن: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾. بمعنى الخالصين والخالصات في النفاق: ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾. أي ﴿بَعۡضُهُم﴾ يستمر من خلال﴿ بَعۡضٍ﴾رجالاً ونساءً، فيتوارثون النفاق عن ﴿بَعۡضُهُم ﴾ ﴿بَعۡضٍ﴾. فهم من معدنٍ واحٍ وهو معدن النفاق. وهنا بيانٌ بأن المرأة أيضاً يمكن لها أن تكون شريكة للرجل في النفاق، فهي كذلك يمكن أن تدّعي الإيمان نفاقاً بين النساء، وبذلك فهي تقبل بزوجٍ منافقٍ، وبذلك يكونان معاً في سائر تفرّعات النفاق.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] رواه الحاكم والبيهقي

[3] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[4] رواه ابن ماجه

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾. يُمارسون المنكر، ويدعون إلى إفشائه في المجتمع. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾. يتجنّبون فعل ﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾. ويعترضونَ انتشاره في المجتمع. ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ المنافقون٧. فالشخص المُنافق هو شخصٌ معدوم الخير أينما أتيته، ولا يكتفي بأنه معدوم الخير، بل يسعى ما بجهده إلى منع الناس من فعل الخير أيضاً، وهو بذلك كائنٌ كلّه أذى في أذى.

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾. هنا أيضاً بيانٌ بأن المُنافق هو كائنٌ شحيح، لا يُقدّم عَونا من ماله لمُحتاج. فالمُحتاج هو أكثر الناس ضرراً من بخل المنافق المقتدر، كما أنه أكثر الناس نفعاً من سخاء المؤمن المقتدر. ومعنى ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾. أي عن الحق المشروع في الزكاة، وكذلك عن الصدقة بشكل عام. وهذه الصدقات عامةً ينتفع بها أهل الحاجة، لأن المنافق المقتدر سواء أنفق، أو لم ينفق، فلا ينتفع أو يتضرّر المؤمن الغني بذلك.

﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾. أخرجوا الله عز وجل من حساباتهم، لأنهم لولا ذلك لَما استطاعوا أن يستمرّوا في كل هذه الموبقات.

﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾. وهنا بيانٌ بأن الله يذكر الذي يذكره، ويستجيب للذي يدعوه: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾البقرة١٥٢. ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾غافر٦٠.

ثم اختُتِمَت الآية الكريمة بيان الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. ذلك أنهم فسقوا وانحرفوا عن شرع الله، وعدّوا أنفسهم خارج هذا الشرع.

الباب الثامن والستون | الوعد الإلهي

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾

وعدٌ قاطعٌ من الله تعالى ذكره، بأن: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ سيدخلون ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾. عقاباً لِما ارتكبوه من فظائع ونشر المنكر في الناس، وإشاعة الرذائل والموبقات فيهم، والوقوف في صدّ بوادر أعمال ﴿ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ التي تصلح للناس شأنهم. والوعد هنا قاطعٌ يفوق الوعيد، فهو إخبارٌ من الله عز وجل، وقد ساوى الله عز وجل النفاق بالكفر، فجعل﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ في درجةٍ واحدةٍ. ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾يس٥٢.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. الخلود في النار، نظير الاستمرار على النفاق والكفر حتى النهاية، فقد استمرّوا بعنادٍ على ما هم عليه. ولذلك: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾. أي حصادهم. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾. حرمهم الرحمة لأنهم هم أنفسهم لم يُطالبوا بها، ولم يستغفروا الله ولم يتوبوا عمّا قد ارتكبوا من تجاوزات، ولبثوا مصرّين حتى النهاية على شقاقهم.

عن الصدقة بشكل عام. وهذه الصدقات عامةً ينتفع بها أهل الحاجة، لأن المنافق المقتدر سواء أنفق، أو لم ينفق، فلا ينتفع المؤمن الغني بذلك ولايتضرر.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾. يبقى العذاب قائماً عليهم، ويبقون قائمين فيه.

الباب التاسع والستون | الخسارة الفادحة

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ٦٩

﴿كَالَّذِينَ﴾. كالمنافقين والكفار الذين سبقوكم في النفاق والكفر ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾. يفوقوكم في القوّة. ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا﴾. ويجوز أن يشمل هذا كل ألوان الغِنى مثل: الزرع، والأنعام، والنحل، وصد البر والبحر، والذهب والفضة، والمعادن النافعة، وألوان التجارة، والنماء، والرخاء.

﴿وَأَوْلَٰدًا﴾. وكانت أعداد أولادهم تفوق أعداد أولادكم. ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾. تلذّذوا بنصيبهم في رغد معيشتهم.﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾. تلذّذتم بنصيبكم في رغد معيشتكم. ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾. وهذا بيانٌ بأن ملذّات الدُّنيا يمكن لها أن تجعل الإنسان غارقاً في الآثام من غير، ومتجاوزاً حدود الله كي يُحافظ على تلك الملذّات. وهنا مثالٌ وقع مع الذين كانوا من قبل، حتى يُنتَبه إلى ذلك ولا يقع الإنسان في الآثام التي وقع فيها السابقون بسبب الاستمتاع بهذه الملذّات.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾. الخَوض هنا هو الآفة، فيمكن أن يرزق الله الإنسان بسعةٍ في معيشته، فيستمتع بنصيبه الذي رزقه الله به، ويشكر الله ويحمده، لكن هنا فهؤلاء، يستمتعون، ولا يشكرون الله، بل يكفرون به، ويتجاوزون حدوده، ويخوضون في الكفر. والكلام موجّه إلى كل إنسانٍ يكون على هذا المنهج في كل حاضرٍ، حتى يكفّ عن الخوض ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾. وألاّ يتّبع ويكرّر ذات الخَوض.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ إنكم لا تختلفون عن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾. وانتهوا من العزّ إلى الذُّل، من العافية إلى العاهات، وكل ما فعلوه في دنياهم كان إحباطاً في إحباط.

﴿ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾. كذلك لن يجدوا عملاً ينفعهم في الآخرة، ولسان حالهم: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۞ ﴾الحاقة. وهنا نعود إلى الخلاق الذي تمتّعوا به في الدنيا، ثم زال عنهم، وكذلك لا يجدوه في الآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾آل عمران٧٧.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾البقرة٢٠٠.

فهذا هو الهَوَس بمتاع الدنيا، ونسيان الآخرة، وهذا النسيان يؤدّي بهم إلى تجاوزات، ولذلك لا يجد في الآخرة أيضاً ما يُثاب عليه، وهذا متّصل بسياق الآية ماقبل السابقة: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ ﴾. كما لو أنك تقول لشخصٍ جائرٍ: ما تفعله الآن من جَوْرٍ، كان فلانٌ من الناس يفعله، وكان أقوى منك، وأكثر منك نفوذاً، ورغم ذك سقط سقوطاً مريعاً، وانتهى نهاية خانعة. وهنا تأتي خاتمة الآية بشكلٍ طبيعيٍ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ الخسارة التي لا تفوقها خسارة، وهي أعظم خسارة يمكن أن يُمنى بها الإنسان.

وطبعاً نحن ما يهمّنا ونحن نقرأ القرآن، هو ألاّ نقتدي بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾تفادياً للخسارة الفادحة التي مُنيوا بها، سواء في الماضي مع النماذج التي بيّنها القرآن، وكذلك أرّختها الكتب على مرّ الزمن، أو في واقعنا حيث نرى هذه النهايات المأساويّة المذلّة لهؤلاء الجبابرة الذين ما عرفوا الله، وإن كانت أقوالهم ومظاهرهم تدّعي معرفة الله، لكن أفعالهم المشينة تؤكّد نفاقهم. وقد ساوى الله بين المنافق الذي يتمظهر بالإيمان، وبين الكافر الذي يعلن الكفر.

الباب السبعون | ظلم النفس

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ٧٠

ما يلبث السياق متّصلاً ومتعاضداً مع ما قبله، ومع كل آيةٍ تنفتح ورود المعاني أكثر، وتنثر شذاها على ذائقة القارئ، وتزيده إشراقاً بإشراقها، فتتوالى عناصر الدهشة مع كل جملةٍ وهي تزيده استنارةً.

بدأت الآية الماضية بـ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾. وبعد بيان كل تلك الحيثيّات، تُدخلنا الآية التالية إلى رحابتها بمُفتتَح: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

فإذا لم ينتبهوا جيداً إلى مضمون الآية السابقة، فهاهي ذي الآية تُقرّب لهم الحال أكثر فأكثر بصيغةٍ بيانيّة أخرى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

وإذا قالوا: لا. فهنا تفاصيل أخرى، وهذه المرة بالثبوتيّات الاسمية والزمنية والجغرافية:

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾. الذين لبثوا على عنادهم حتى أتاهم الله بالطوفان.

﴿وَعَادٖ﴾. قوم النبي هود عليه السلام: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾الحاقة٦.

﴿وَثَمُودَ﴾. قوم النبي صالح عليه السلام الذين أهلكتهم الرجفة.

﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾. الذين عاندوا واستكبروا حتى لقوا العذاب، وقد حاول ملكهم النمرود حرق إبراهيم عليه السلام فأنجاه الله: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾الأنبياء٦٩.

﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾. قوم النبي شعيب عليه السلام شعيب:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾الشعراء ١٨٩.

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾. المؤتفك، هو المنقلب، ومن ذلك الإفك، والآفك هو الذي يُقلّب الحقيقة إلى نقيضها، والمفعول هو مأفوك. ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾. جمع، واحدها مؤتفكة. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾الأحقاف٢٢. لتقلّبنا﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ إلى وحدانية الله. ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ ﴾ في الآية الكريمة لعلّهم قوم لوط عليه السلام، الذين كانوا يأتون الرجال شهوةً دون النساء، فخسف الله بهم الأرض: ﴿ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴾الحجر٧٤.

والعِقاب هنا هو من جنس المعصيّة، فجاء التقليب نظير التقليب، فقد قلّبوا إتيان الشهوة من النساء إلى الرجال، فكان أن قلَّب الله عليهم الأرض. وبذكر النبي لوط عليه السلام، هناك ما يمكننا تسميتها بالجنايات على نبي الله لوط عليه السلام، وهي جناية أتت من المفسّرين والعلماء، حيث أطلقوا على الشاذ الذي يأتي الرجال شهوة، لوطي. وعلى الفعل لواطة. وبذلك رأينا كيف أن هذا الاسم مع الزمن أصبح شبه محظورٍ، أن الناس أصبحوا يتحاشون إطلاق اسم لوط على أبنائهم، فترى أسماء الأنبياء والرسل تكثر بين الناس، ولكن نادراً جداً ما ترى اسم لوط، حتى بات هذا الفعل مقترناً باسم لوط، وربما لوقيل لشخصٍ ما: يالوط. يجد حرجاً، كما أنه قد قيل له: يالوطي. والحقيقة فإن الذي يُدين هذا السلوك الشاذ، يمكن أن يُقال له لوط، لأنه يمضي وفق ما أتى به نبي الله لو عليه السلام من إدانة هذا السلوك المُنحرف، فهو لوط، أو هو لوطي على قدر ما يُين، وليس على قدر ما يكون شاذاً. وقد حصل ذلك من الاجتهاد غير الدقيق الذي اجتهد به المفسّرون والعلماء. فيمكن تسميّة هذا الشخص بالمُنحرف، أو الشاذ، أو المِثلي، وما إلى ذلك، فالأفعال الصالحة يمكن لها أن تُنسَب إلى الأنبياء، أو يُشتقّ اسم لها من أسمائهم، أمّا الأفعال المشينة، فلا تُنسَب إلى الأنبياء، ذلك أنهم أتوا لإصلاح هذه الأفعال المشينة. وهؤلاء هم أنفسهم كانوا يرفضون ما أتى به لوط عليه السلام من صلاح بالنسبة للعشرة الجنسية الطبيعية التي تكون بين الرجل والمرأة.

فالسياق في الآية الكريمة من باب التذكير: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. يأت الذين تقصَّدتهم الآية سواء الذين تسببّوا في نزولها، و الذين يتّبعونهم ويتمثّلونهم في كل زمانٍ ومكان. وذلك كي يعودوا إلى ما قد سبق ويتحقّقوا: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ﴾.

لماذا حصل لهم ذلك؟. ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾. كي يرتدعوا، ولكنهم عاندوا ولم يستجيبوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾. بذاك العقاب الشديد، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. بالإصرار على تلك الكبائر.

الباب الواحد والسبعون | مُناظَرة الإيمان والنفاق

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٧١

هذه الآية هي شبه مُناظَرة مع الآية ٦٧: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فهناك كان المُبتدأ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾. وهنا جاء المبتدأ معطوفاً على الكلمتين الابتدائيتَين، بكلمتَين ابتدائيتَين نقيضَ. ويلبث هذا النقيض على مدار الآيتَين التناظريتَين:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾. نظير: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. نظير: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. نظير: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. نظير: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. نظير: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾. نظير: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾. نظير: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾.

واختُتِمَت الآية هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. واختُتِمَت هناك: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

إذن، المؤمن أيضاً ولي المؤمن، لأنه مثله يأمر ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. ومثله ينهى ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. فيؤازره، ويثق به لأن العقيدة هي واحدة، وهم أخوة العقيدة: ﴿يَأْمُرُونَ

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾. كما أن عقيدة المُنافقين هي واحدة: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

من هنا، فلا يجوز لك أن تكون مؤمناً، وبذات الوقت توالي المنافق، لأنك عند ذاك تكون قد آزرتَ الآمر ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾. والناهي عن ﴿ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾. كما أن المنافق لا يوالي مؤمناً، لأنه إن فعل ذلك، ما عاد مُنافقاً، كونه قد آزر الآمر ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾. والناهي ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.الإقامة هي التفاعل، أي تفاعلون مع فريضة الصلاة التي هي من أركان الإيمان. ولذلك جاء ذكر الصلاة بالنسبة للمنافقين في الآية٥٤: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾. أي يأتون بهدف أن يُرَون، وليس بهدف إقامة الصلاة، فهم بذلك يتمثّلون بأنهم يُصلّون، ولا يقيمونها، فتكون صلاتهم عبارة عن حركاتٍ أوتوماتيكيّةٍ لا خشوع فيها. ولذلك يأتون ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بتثاقل ودون رغبة، ولا يتفاعلون معها، ولا يقربون بها من خشوع، لأنهم غير مؤمنين بها. والمنافق مهما أتى من حركات الصلاة، فإنه لا يُقيمها، لكن المؤمن يُقيم الصلاة، لأنه لا يتمثّلها، ولا يبتَغي الإراءة منها، فيتفاعل مع ركعات صلاته بقلبٍ خاشعٍ حتى لو كان مُستلقياً على ظهره بسبب عاهةٍ ما، وهو في حجرته في دجى الليل، لأنه يكون مُدركاً أنه في صلاته أصبح بين يدَي الله تعالى. من هنا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. أي يخشعون في إقامتها، لأنهم يقيمونها بنيّة الخشوع لله تعالى ذكره. فهناك: يأتون كمظهر، وهنا يقيمون كجوهر.

﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. يُخرجون زكاة أموالهم فيعطونها لأهل الاستحقاق. ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.يُنفّذون شرع الله الذي حمله إليهم رسوله، ويتفاعلون مع هذا الشرع عبادةً لله تعالى الذي يؤمنون به. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾. سيغدق الله عليهم بمكرمات رحمته. والسين هنا دلالة جازمة على التأكيد بأن ذلك وعدٌ قاطعٌ يعدهم به الله في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. يعزالذي يؤمن به، ويجعله في حكمةٍ من أمره.

الباب الثاني والسبعون | مرتبة رضوان الله الأكبر

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ٧٢

الوعد هو تأكيد بالوفاء بِما يوعَد به. هنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾. الذين في الآية السابقة تفاعلون مع إيمانهم وأصبح ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ﴾. ثم انتهت الآية: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. الآن يأتي البيان المُفصَّل لقوله تعالى: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾. وهذا اليان المُفصَّل هو: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾. درجاتٍ امتيازيّةٍ متقدّمةٍ من درجات الجنّة، وهي درجاتٌ تكون لصفوة عباده، لأنهم كانوا من الصفوة الأكثر صلاحاً، والأكثر إخلاصاً في طاعة الله.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. ليس لوقتٍ مُحدَّدٍ، بل بشكلٍ دائمٍ، وهي ملكيّة مُطلقة تبقى لهم، ولا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تؤخَذ منهم، أو يعودون إلى درجاتٍ أقل من الجنة. لأن الجنة درجات بحسب درجات صلاح الإنسان، كما أن جهنّم دركات بحسب درجات فساد الإنسان. وهذا يمكن له أن يكون شبيهاً بنتائج الامتحانات الدراسيّة، فهناك أماكن امتيازيّة، لا ينالها مَن يكون دونهم. وهناك مَن نجح بالكاد، وهناك مَن كان متوسّطاً، وهناك مَن كان جيداً، لكن هناك مَن كان ممتازاً بالدرجة الأولى. والجميع قد نجحوا، لكن كل ناجحٍ يذهب إلى الموضع الذي تؤهّله إليه علامات اجتهاده في الدراسة. فهنا أيضاً يذهب كل داخلٍ إلى الجنة إلى الموضع الذي تؤهّله إليه درجات اجتهاده في العِبادة. فهذه درجاتٌ امتيازيةٌ خاصّةٌ أعدّها الله تعالى خصيصاً لهم، ووعدهم بها. ووعد الله عز وجل مُحقَّقٌ لا محالة.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾. يجدون بيوتاً بالغة الفخامة والجودة، فيها كل مقوّمات الراحة ورَغَد العَيش، وقد أُعِدَّت لهم في: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾.

ليست فقط ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾. لأن ليس كل مسكن هو طيِّب، فبيَّن الله تعالى شأنه: ﴿طَيِّبَةً﴾. أي تطيب النفس بكل ما في هذه المساكن في كل ركنٍ من أركانها، ولا شيء فيها قط غير طيِّب، فهم خالصة الطِيب. فكل ما فيها هو طيّبٌ في طيِّبٍ، ويبعث على الطِيب، تطيب به النفس، وتتطيَّب به.

فإذن هذه درجة متقدّمة من درجات جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ. فهنا: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾الرعد. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾الكهف٣١. ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾مريم. ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾فاطر٣٣. ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢﴾ص.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾.إضافةً إلى ذلك،فإن الله سبحانه وتعالى يكون راضياً عنهم، وهذا الرضا أيضاً يكون في درجاتٍ متقدّمة من الرضا الإلهي عن الناس. فهؤلاء يكونون في الدرجات الأولى من رضا الله عنهم من أبناء آدم عليه السلام. فهم صفوة الناس، ويكونون من جميع الأزمنة والأمكنة، وبمختلف أممهم، وقوميّاتهم، وعروقهم، وألوانهم، في هذه الدرجات لعليا من﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتَعالَى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ، فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا: يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ: أُحِلُّ علَيْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا"[1].

لعلّ هنا إشارة بأن رضا الله أيضاً يكون وفق درجات عن الناس، فهؤلاء رضا الله سبحانه وتعالى يكون عليهم ﴿أَكۡبَرُۚ﴾. ولذلك جاءت خاتمة الآية الكريمة:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدَّم في الآية أعظم فوز يمكن أن يُحقّقه أي إنسان.

[1] صحيح البخاري

الباب الثالث والسبعون | الاجتهاد وتأويل الجهاد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ٧٣

هذه الآية متّصلة اتّصالاً وثيقاً مع الآية ١٦، عندما قال المُنافقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾. فأثنى الله عز وجل على بادرة حُسن النيّة التي تعامل بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرشده كي يجيب عليهم: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾. ويستمرّ بأن يبقى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى هذا الوصف الجميل.

الآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾.

ظاهر الآية يجعل القارئ في إرباكٍ من أمره إذا استند إلى المفهوم الذي أشاعته غالبيّة التفاسير بأن الجِهاد، إنّما هو قِتالٌ بالدرجة الأولى، والمُجاهِدُ الجيّدُ هو المُقاتِلُ الجيِّد. ومن ثَمَّ كلّما كان المرءُ مُقاتِلاً أكثر، كان مُجاهِداً أكثر. وقد حصل شيءٌ من هذا الإرباك حتى في هذه التفاسير مع هذه الآية الكريمة، عندما رأت بأن الجِهاد هو قِتالٌ، وكذلك فإن التغليظ هو قِتالٌ، أو تعنيفٌ مع﴿ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

وإذا تتبّعناهذه التفاسير وفق تسلسل الزمن، انتهاءً بالعصر الحديث، نرى حجم الترديد الهائل الذي تنتهجه هذه التفاسير، كما لو أن الزمن لبث جامداً، دون أن يتقدَّم، وأن كل شيءٍ تقدَّم مع سيرورة الزمن، إلاّ التفاسير التي لبثت في ذاك الماضي السحيق من غيرتقدّم. فما قاله مفسّرٌ منذ ما يزيد عن ألف سنة، أو أقل، بقي ثابتاً، ومن ثمَّ ما عَمِلَ به أولئك الناس، وفق هذا التفسير، يُفرَض على الناس في كل زمانٍ ومكانٍ كما لو أنه عملٌ مقدّسٌ يصلح أن يُعمَل به في كل زمانٍ ومكان إلى الأبد. وأي خروج عنه يكون كالخروج عن المقدَّس. وفي أفضل الأحوال يكون هناك جمع بين عدّة تفاسير بشكلٍ مختَصَرٍ، بحيث تكون تفاسير اختصاريّة جامعة لِما قد قيل. ولم يقتصر هذا على التفاسير فحسب، بل امتدّ إلى سائر العلوم الإسلاميّة من فقه، وفتيا، ودراسات، ورسائل جامعيّة، وما إلى ذلك.

لأن هذه العلوم لا تملك من أمرها سوى أن تستند إلى علم التفسير الذي هو أصلُ ومرجُ أي علم من هذه العلوم. ولذلك لبث الترديد مستمراً من جيلٍ إلى جيل، ومن قرنٍ إلى قرن. فلبث التفسير جامداً في مكانه رغم أن كل شيءٍ يتقدَّم، فكان من الطبيعي أن يلبث المسلمون في تراجع، بينما الأمم الأخرى في تقدّم، وأن يلقى المسلمون كل هذا الإخفاق نتيجة الانفصال عن الحداثة، والانفصال الواقع، فأصبح لديهم ما يشبه الفِصام، لأن هذا الانفصال هو فقط في التفكير، وما دون ذلك، فإنهم يلتصقون باستخدام منجزات الحداثة، ومنجزات الواقع.

ونرى أن ذلك كلّه جهدٌ مبذولٌ، لعلّه كان متوافِقاً مع مستجدّات تلك الأزمنة الغابرة، وقدَّم خدماتٍ للناس وفق مستجدّات تلك الأزمنة. ولكنها ليسّت دِيناً، ومن ثَمّ ليسَت مُقدَّسة، وهي محض اجتهادات، أو تقديرات، أو تصوّرات، وفي بعض منها تكهّنات، تثبت سيرورة الزمن والمنجزات البشريّة الحديثة عكس الكثير منها.

وهذا أمرٌ طبيعيٌ جداً، لأن ما لا يحتمل الخطأ بشكلٍ مطلقٍ، هو التنزيل الحكيم، ثم السنّة النبويّة المُطهَّرة. فذلك يمتاز بالثبات في صحّته بالنسبة المئويّة مهما تقدَّم الزمن، كونه يحتوي على ما يصلح لكل زمن، وفيه نصيبُ أبناء كل زمن بِما يخص المستجدّات التي يكونون فيها، لأنها من الله العالم بالغيب بِما سوف يستجدّ. والله هو حاضرٌ في كل زمانٍ ومكان، وهو الذي يرشد الناس إلى اكتشاف المُنجزات بمختلف أشكالها، وألوانها، وتفرّعاتها وفق ما يراه من ترتيبٍ في الزمن، فتأتي مُنظَّمة للناس بحكمة الله تعالى شأنه. وهذا ما لا يكون لأي مفسّرٍ، أو أي عالِمٍ مهما ضلع ونبغ في علمه.

فالله عز وجل، وضع هذه المُستجدّات التقنيّة الحديثة، وهو الذي يوفّق بعض الناس للعمل في اكتشافها، لكن المفسّر لم تكن تخطر له هذه المُنجزات مهما شطحَت به المُخيّلة عندما وضع تفسيره، ولذلك كان منفصلاً تماماً عن كل هذه المُنجزات الهائلة.

من هنا فهو لم يكن مؤهّلاً ليضع تفسيراً ثابتاً يلح لبناء كل زمانٍ ومكان. ومن الطبيعي أن يُصيب بدرجات، ويُخطئ بدرجات، لأنه كان يعمل بمقتضى المُثابرة في الاجتهاد فحسب، وليس لديه علمٌ بالغيب كونه لم يكن يوحى إليه.

من هنا، فحتى الأنبياء والرسل، عندما اجتهدوا دون وحي، لم يصيبوا بدرجاتٍ مئويّةٍ كاملة، فصوَّب الله تعالى لهم، ذلك أن الكَمال يبقى لله وحده.

فكان من الطبيعي عند التزمّت في التمسّك بهذه التفاسير، وإضفاء طابع القداسة عليها، واتّباعها كما لو أنّها دِينٌ، أن ينتج كل مالحق بالمسلمين من ويلاتٍ وانشقاقاتٍ وأهوال، لأن ذلك يؤدّي إلى الخروج عن التشريع الإلهي. فعلى سبيل المِثال: كيف تقتل وتُعنِّفَ الكافر، وفق هذه التفاسير، وكيف تعطيه مساعدةً إنسانيّةً كي تتحسّن حياته وفق القرآن والسنّة. وكيف يُبارك الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وسلم منهج حُسن النيّة مع المنافقين، ويصفه أنه بذلك: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾. ثم هنا يكون التعنيف بحسب هذه التفاسير.

الأمر الآخر، فإن ذلك يفتح باباً بتعنيف بعض الناس بتهمة النفاق، وفق هذه التأويلات، لبعض تصرّفاتهم، أو مواقفهم، أو أحاديثهم. ثم يفتح ذلك باباً للتكفير، فيصبح المسلمون يُكفّرون بعضهم بعضاً، ثم يبيحون لأنفسهم أستحلال أموال وأعراض ودماء بعضهم البعض. ويُشكّلون فيالق وميليشيات لقتال بعضهم البعض. وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كما جاء عنه: " لا يتحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه". لكن متَبعي هذه التفاسير والفتاوى المتمخّضة عنها من أمَّة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم أصبحوا يقتلون بعضهم بعضاً، وينحرفون عن كتاب الله وسنّة رسوله.

فالحقيقة حتى لو كان الإنسان مُنافِقاً، فيكون التعامل معه على أنه مؤمن مادام يُظهر الإيمان، وفق إرشاد﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾. ثم لعلّه يكون مسلماً، ولكن تبدر منه بعض التصرّفات غير الإسلامية، مثل الكذب، أو عدم الوفاء بالوعد، أو خيانةالأمانة.

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"[1]. وهذا الحديث هو تحذيري حتى لا يسلك المؤمن هذه المسالك في حياته. لأن ذلك يُخرجه من الإسلام، فيكون إسلامه زَعماً فحسب، وفي الحديث بيانٌ بأنه لو تراجع عن ذلك، واستغفر ربه،

---

[1] رواه البخاري

ما عاد مُنافِقاً، لأنه أصبح في منأى عن مسالك المُنافقين، فباب التوبة يبقى مفتوحاً أمام المُنافقين كي يتوبوا ويصلحوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾. نداء من الله سبحانه وتعالى إلى كبير المسلمين وأسوتهم الحسنة، وكذلك نبيّهم. ولذلك لم يرد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ الرسول. بل: ﴿ ٱلنَّبِيُّ﴾. وبذلك يكون الكلام عاماً إلى أمّة﴿ ٱلنَّبِيُّ﴾ أيضاً في كل زمانٍ ومكان.

﴿جَٰهِدِ﴾. ابذل جهداً بكونك﴿ أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. واستمرّ في هذا المنهج السليم، ولا تفقد الأمل مع: ﴿ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾. فإذن هو جهاد حَسن النيّة، وجهاد الحوار، ما دام الطرف الآخر يكتفي ببعض الأطماع، أو الارتزاق. فليكن، لينتفع غير المسلمين أيضاً من خيرات المسلمين، وليعلموا أن الخير الموجود لدى المسلمين، ينتفع به غير المسملين أيضاً. لأن الناس في منهج المسلمين في النهاية هم أخوة من أب واحدٍ، وأمٍ واحدةٍ. والله لا يُحرّض الأخوة على بعضهم بعضاً من أجل العقائد، بل يدعوهم للتواصل مع بعضهم البعض رغم اختلاف عقائدهم. وليسوا هم الذين يُحاسبون بعضهم بعضاًعلى هذه العقائد، لأنهم إن فعلوا ذلك تدخّلوا في شأن الله مع عباده. وهو القادر أن يجعلهم جميعاً يؤمنون بالاسلام دون قطرة دمٍ واحدةٍ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾يونس٩٩. فالتعدّديّة في المُعتَقَد مكفولة في التنزيل الحكيم، وفي سنّة النبي صلى الله عليه وسلم. ويكمن الخَيرُ عندما تطرق البابَ على جارِك الكافر، أو المُنافق، وتُقدّم له عَوناً إنسانياً إن كان بحاجة، لا أن تقتحم عليه بيته الآمن، وتقتله، وتيتّم أطفاله، ترمّل امرأته، تنهب أمواله، وتدّعي بأن الله أمرك بذلك. لأن هذا المنهج المنحرف إذا اتّبعته، لن تتوقّف عند حدّ، بل ستمتد إلى إثارة فتنٍ ونعرات تفكّك بُنيّة المُجتمع كله عن بعضه البعض، ويُصبح الفَلَتان الأمني سائداً تحت ذرائع التكفير، أو النفاق، أو حتى التقصير في أداء بعض الشعائر، ففلانٌ مسلم، لكنه لا يصلّي، أو لا نراه في المسجد، أو شوهد وهو مفطر في رمضان، او أنه لا يُخرج زكاة أمواله، أو أنه لا يؤازر (المُجاهدين) بالمال والمواقف، أو أنه موظَّف حكومي، وإلى كل ما هو إنحرافٌ عن منهج التآخي الإنساني الذي أرساه التنزيل الحكيم في الناس، وبالتالي يؤدّي ذلك إلى عزلة

المسلمين عن سواهم الكثرة، لأنهم لا يُشكّلون إلاّ جزءاً من سكّان العالم، ولا تستوي حياتهم إذا عاشوا في قطيعةٍ عن العالم، ثم إن المسلم إذا أجاز لنفسه هذا الإعتداء، فلعلّ ذلك يجعل غيره أيضاً في ديارٍ غير إسلاميةٍ أن يُجيز ذلك لنفسه بحق المسلمين الذين يعيشون ضمن مجتمعه. فكيف ترى غير المسلمين يُحسنون إلى المسلمين في مجتمعاتهم، ويُحقّقون لهم الأمن، ويمنحون المحتاجين حتى الرواتب الشهرية، وأنتَ تسبي نساء غير المسلمين وتنهب أموالهم، وتسفك دماءهم، وتيتّم أطفالهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾الحج١٧. فالناس جميعاً يُرجى فيهم الخير، وكثير من المُنجزات البشريّة النافعة قدّمها

غير المسلمين، وما يزالون، ويخدمون البشريّة بكل ما هو نافعٌ في العلاج، والنظافة، ونشر الوعي، والمواصلات، وإتاحة فُرَص العَمل، والتواصل الاجتماعي شبه المجاني بين الناس مهما كانوا بعيدين عن بعضهم بعضاً.

وإذا نظرنا إلى سِيَر بعض الصحابة، نرى بأنهم لم يكتفوا بالشرك فقط الذي هو أعلى درجات العصيان، بل كانوا يُقاتلون شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، و الصحابة رضوان الله عليهم، و كل مَن يؤازر المسلمين ولو بكلمة. وقد فجّوا رأس النبي صلى الله عليه وسلم في معركة أحد. وكان خالد بن الوليد قبل إسلامه يُقاتل المسلمين، وكان أبو سفيان بن حرب قائد معركة أحد التي فُجَّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأسه، وانتصر فيها المشركون على المسلمين وألحقوا بهم الخسائر في الأرواح والأموال. والسلسلة طويلة من الذي عِلموا الحق فيما بعد، وأسلموا وصلح إسلامهم، بل وأصبحوا من أعمدة الدعوة إلى الإسلام، والدفاع عن المسلمين. ولذلك ما فقد المسلمون فيهم الأمل، وكانوا يرجون فيهم الخَير رغم كل ما ارتكبوه من فظائع. وعندما أتوا إلى المسلمين وقد ندموا على كل ما فعلوا استقبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبحوا من صحابته الكرام.

ثم تقول الآية الكريمة بعد التوجّه السلمي: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

التغليظ هنا أيضاً يرجع إلى قوله تعالى شأنه: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. أي أشعرهم بأنهم لا يستهزؤون بك عندما تُظِهر لهم حُسن النيّة، بل تُقدّرهم وتُكرمهم، ولا تريد أن تُحرجهم. وهذا تطبيقٌ عمليٌ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾. فاجعلهم يشعروا بأنك ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾ من خلال حُسن نيتك بهم، وأنهم عندما ينظرون إليك، يشعرون بالخجل من أنفسهم من كثر ما تتمتَّع به من حُسن النيّة، ومن كثر ما لديهم من نفاق. وهنا يعلم المُنافق بأنك أكبر من أنه يستطيع الاستهزاء بك، من خلال بعض نظراتك، أو بعض سحنات وجهك. والغاية من ذلك أنك توصل إليه إشارات بطريقةٍ غير مُباشَرةٍ بأنك تمهله حتى يصلح من شأن نفسه، وبذلك فإنك تُريد له كل

﴿خَيۡرٖ﴾. لأن سَمعكَ هو سَمَعُ ﴿خَيۡرٖ﴾. وهذه ترجمة عمليّة بأن سمعك إنما هو سمع ﴿خَيۡرٖ﴾. فعليكَ أن تُزيح عنه شعوره بأنه يستهزئ بك، وتستبدله بشعورٍ جديدٍ بأنك تريد خيره. وهذا هو الجهاد السلمي الصحيح الذي تدعو إليه الآية الكريمة، كي تبقى العلاقات الإنسانيّة قائمة بين الناس وفق مختلف المُعتقدات. ولذلك انتهت الآية الكريمة نهاية غاية في الدقّة والبيان بالنسبة لِمَن يستمرّ في الكُفر والنفاق بعِناد، فيكون شأنه مع الله:

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾. أي وبعد كل هذا التعامل الحَسَن معهم، فالذين يُصرّون على الكفرِ والنِفاقِ بعنادٍ شديدٍ ولا يتّعظون تكون ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ لهم مأوى ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾. يصيرون إلى أدنى درجات السوء.

الباب الرابع والسبعون | فرصة التراجع عن الضلال

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ ٧٤

الكلمة في الآية هي مُختصَر مجموعة كلمات. ففلانٌ يُلقي كلمة، فلايعني ذلك أنه سيلفظ فقط كلمة واحدة، بل يلقي كلمات.

المنافقون بعد أن ﴿قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾. وتسرّبَت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يتحقَّق منهم لأنهم أظهروا إسلامهم، فكيف يظهرون إسلامهم أمامه ويقولوا ﴿كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ خلفه؟. ولذلك يتحقَّق منهم. فيأتون إليه و ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أنهم ﴿مَا قَالُواْ﴾ ذلك خلفه.

هنا يفضحهم الله تعالى شأنه ويُخبر بالحقيقة: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾. ﴿وَلَقَدۡ﴾ سَمِعَهم الله، فكيفَ ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾.

ثم جاءت الجملة المُردِفة من الآية الكريمة: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾. أي ﴿بَعۡدَ﴾ أن أظهروا ﴿إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾. أمام النبي صلى الله عليه وسلم، عادوا إلى إظهاركفرهم خلفه.

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾. حاولوا اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا خمسة عشر من المُنافقين- بحسب بعض مصادر أسباب النزول- وقد ترصّدوا في مكانٍ مرتفعٍ تحته واد، ليلة العقبة، وهو عائدٌ من معركة تبوك. وكان المخطط أنه صلى الله عليه وسلم عندما يصل إلى ذاك الموضع ليلاً، يتهجّمون عليه بغتةً ويدفعونه عن راحلته إلى الوادي. وكان عليه الصلاة والسلام يمضي، وقد أخذ عمار بن ياسر بحطام راحلته يقودها، وكان حُذيفة بن اليمان يسوقها. فأحسّ حُذيفة بهم عندما سمع بوقع أحقاف الإبل ومَعمَعة السلاح، فصاح بهم: (إليكم إليكم يا أعداء الله). فلاذوا بالفرار.

من هنا جاء البيان الإلهي: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ ﴾. أي﴿ لَمۡ يَنَالُواْ ﴾ ما قد خطّطوا له.

ثم: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ ﴾. ﴿ وَمَا ﴾ تحقَّقَت نقمتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ ﴾. حيث كان أهل المدينة فقراء، لكن عندما حلّ بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كثر فيهم الخير والنماء، وصلحت أمورهم. فجاء عطف ﴿ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إلى اسم الجلالة. أي ﴿ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ كرامةً لحلول رسوله بينهم.

﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ ﴾. رغم كل ما فعلوه، يبقى باب التوبة مفتوحاً أمامهم، وقد حصل ذلك، ومن الذين تابوا وحسن إسلامهم: الجلاس بن سويد.

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ ﴾. يُصرّوا على ﴿ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ و﴿ يَتَوَلَّوۡاْ ﴾ عن الحق: ﴿ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾. لا يمكن لهم أن يموتوا بأي حالٍ من الأحوال قبل أن يلقوا عذاب ﴿ ٱلدُّنۡيَا ﴾ الأليم.

﴿ وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾. كذلك يلقون فيها ﴿ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾. ﴿ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ ﴾. يمكن له أن يقيهم، أو يُخفّف عنهم أوجاع العذاب الأليم.

﴿ وَلَا نَصِيرٖ ﴾. يجعلهم يخرجون منتصرين من الحياة، بل يخرجون مُنكَّسين، مذلولوين، وهم في ذروة أوجاعهم وخنوعهم.

الباب الخامس والسبعون | نعمة المال ونقمته

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٧٥

وجودُ المال يُفصِحُ عن معدنِ الإنسان أكثر، فإذا كان كريماً، ظهركرمُه من خلال الإنفاق، وإذا كان بخيلاً، تجلّى بُخلُه من خلال الإمساك.

وإذا كان المالُ بالنسبة للبعض نعمة، فهو بالنسبة للبعض نقمة، وعدم وجوده له، لهو أفضل من وجوده. فقبل المال، كان شخصاً بسيطاً، واصلاً لرحمه، مؤدّياً واجباته الاجتماعيّة، وكان مرتاحاً يتمتّع بسَكينة النفس، وصفاء الذهن. لكن بغتةً عندما كثر مالُه، انقلب من حالٍ إلى حال، فبات قليل صلة الرحم، قليل أداء واجباته الدينيّة والاجتماعية، متعب النفس، مشتَّت الذهن. فبعد أن كان مستكيناً، ومستقرّاً، بات يشعر بأنه يركض طوال الوقت، ولا يشعر بالراحة حتى في الفراش. وهو الذي كان يقف بخشوعٍ وتأنٍ على سجّادة الصلاة، تنتشي نفسه، وينشرح صدره مع كل ركعةٍ، بات لا يُطيق الوقوف إلاّ بِعُجالةٍ، فلايعرف كم ركعة صلّى، وماذا قال، فذهنه يشرد في مكان، وجده في مكان، بل إنه حتى لم يعد يدعو لنفسه بالخير بعد الصلاة بنسبة عشرة بالمئة مما كان عليه قبل الغِنى. والحقيقة فإن ما هو به من غِنى، كان استجابةٍ لدعائه الطويل بأن يجعل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وهو الذي كان لا يمضي عليه أسبوعٌ واحدٌ دون أن يقرأ شيئاً من القرآن ولو يوماً واحداً، ولم يعد يقرأ القرآن إلاّ من السنة إلى السنة، في شهر رمضان، ولأيامٍ معدوداتٍ بِما هو أقل من ربع ختمةٍ. وكان في السنة يختم القرآن مراتٍ عديدةٍ، وفقط في رمضان كان يختم ختمتَين.

وهو الذي كان يستقبل أي طارقٍ لبابه بترحاب وبشاشة وجه، ويدعوه للدخول حتى لو كان الطارق في عُجالةٍ. بات يختبئ في البيت عندما يُطرَق عليه الباب، فيقول أحد أهل بيته للطارق بأنه غير موجود في البيت. وإذا صدف رآه الطارق داخلاً إلى البيت، فيقف في مدخل الباب متجهم الوجه، ويردّ باختصارٍ دون أي ترحيب به، ودون أن يُشير له ولو بحركةٍ

كي يتفضَّل إلى البيت، ولعلّ الطارق قد أتاه بحاجةٍ تستلزم أن يجلس معه بعض الوقت، ويشرح له أمرحاجته، فيُفجَع به، ويُعاود أدراجه مكسور الخاطر، وكان قد توسَّم به خيراً بناءً على علاقتهما حيث كان جاراً قديماً له، أو زميلاً له في الدراسة، وكانا دوماً يلتقيان ويتسامران، وتجمعهما ذكريات حميمة مشتركة.

وهو الذي كان عندما يُرن هاتفه، يفرح لأن أحداً ما قد تذكّره، وعندما يرى الاسم على شاشة الهاتف، ما يلبث أن يفتح الخط مُرحِّباً به وشاكراً إيّاه على اتّصاله. بات ينظر إلى أسماء الأشخاص الذين يُهاتفونه، ولا يفتح الخط.

وهو الذي ما كان يدري كيف يأوي إلى الفراش حتى يستغرق في لفائف نومٍ هادئٍ عميق، فبات يتقلَّب في الفراش حتى ساعات متأخّرة من الليل مُشتَّت الذهن، مضطرب النفس، وأحياناً يمتد به ذلك حتى الصباح. فينهض من الفراش دون أن يغفو لحظةً واحدةً من كل تلك الساعات التي أمضاها في التقلّب ومحاولاتٍ يائسةٍ للنوم. فكم يحنّ إلى تلك الحياة الجميلة التي كان يرفل في هدوئها، ولكنه عندما ينظر إلى أمواله الطائلة يتمتم بيأس: هيهات. فينتهي نهاية مذلّة وقد جرّده هذا المال من كل خصلةٍ إنسانيّةٍ، وجعله خاسراً في الدنيا، والآخرة.

فهذا النموذج يأتي عليه قول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فكان الله لا يعطيه لخيره، لأنه يعلم معدنه، ويعلم كيف ستتقلَّب به الأحوال إن أعطاه، لكنه كان يُصرّ في الدعاء، ويُعاهِد الله بأنه لو وسّع عليه، فسوف يكون خيّراً ويُقدّم المُساعدات للمحتاجين، ويكون صالحاً في استخدام هذه السعة. ومع التكرار، يستجيب له الله، وكذلك ييسّر له سبل الصلاح، لكنه كلّما تنفتح عليه أبواب الرزق، يفسد أكثر، ويعوَج أكثر، ويجور أكثر. لكن يبقى باب الصلاح مفتوحاً أمامه، وتبقى فُرَص الله الذهبيّة تتوالى عليه كي يُصلح من شان نفسه، وكل أموره أصبحت ممتازة، ولا شيء يعيقه عن الصلاح.

لكن كيف نعرف هذه الحقيقة؟.

الجواب: نعرفها ونحن ننظر إلى شخصٍ آخر كان مثله تماماً، يُكثر الدُعاء ليوسّع الله عليه، واستجاب له الله عز وجل، لكنه بدأ يغتنم كل فُرَص الصلاح التي ييسّرها له الله، فيزداد صلاحاً واستقامةً.

وبقدر ما تنفتح عليه أبواب بركات الله، يصلح أكثر، ويستقيم أكثر، وينفع نفسه، وينفع الآخرين أكثر. وصار يفتح بابه لأي سائل، ويمشي في قضاء حوائج الناس بنفسه، وإذا سمع عن محتاجين، يرسل لهم المعونات دون أن يكشف عن نفسه. فإذا نظرتَ إلى سلسلة مُنجزاته التي تحقّقَت له بعد المال، ستيقن بأن ذلك كله ما كان ليتحقق له دون وجود المال لديه. كما أنك لو نظرتَ إلى سلسلة الإخفاقات التي مُني بها الآخر، ستيقن أن ذلك كلّه ما كان ليصيبه لولا وجود المال لديه.

الباب السادس والسبعون | إنكار الحق

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ ٧٦

هذا بيانٌ تفصيليٌ آخر لحيثيّات الآية السابقة، من أجل ترسيخ هذه الحقيقة أكثر عن قارئ القرآن، فالله عز وجل: ﴿ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾. واستجاب لهؤلاء الذين عاهدوه قائلين: ﴿ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

نحن هنا مع لامَين عهديتين: الأولى، شرطيّة،: نُعاهِد الله ﴿لَئِنۡ﴾. في حال ﴿ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ﴾. وتليها مباشرةً اللام العهدية الثانية، وهي جوابيّة: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾. لنخرجنَّ الصدقات المترتّبة علينا. لماذا: المترتبة علينا؟. الجواب يكمن في هذه الآية: ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾.أي﴿بَخِلُواْ ﴾ بإخراج الزكاة المُستحقّة على أموالهم.

والإنسانُ مهما كان حَذِراً في إنفاق المال، فإنه لا يكون بخيلاً مادام يعطي للآخرين جميع حقوقهم، بل ويزيد بين حينٍ وآخر من خلال بعض المُساعدات، وهي ليست حقوقاً لهؤلاء، بل زيادة منه في سبيل الله تعالى. وإن لم يعطها، لا شيء عليه، ولا يوصَم بالبخل. فإذن، يكون ذلك الحذر من باب الحرص على المال، وعدم تبذيره، وعدم إنفاقه إلاّ في موضعه بحسب الحاجة.

فهؤلاء وصمهم الله سبحانه وتعالى بالبخل، لأنهم أكلوا الزكوات التي لها أصحابها الشرعيون بمقتضى شرع الله. ولذلك جاءت الكلمة التالية معطوفةً: ﴿وَتَوَلَّواْ﴾. أداروا ظهورهم لهذا الحق. ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾. ينكرون بأنه حقٌ متوجّبٌ عليهم، فأعرضوا عنه وهم يُديرون ظهورهم إليه.

الباب السابع والسبعون | تتبّع الله سلوك المنافقين

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ ٧٧

هذه الآية متّصلة بالآية ٧٤: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾. ثم الآية التي تليها: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾. ثم الآية التي تليها: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾. إذن: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾ الله ﴿مِّن فَضۡلِهِۦ﴾. هنا: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ الله ﴿نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾. لم يتركهم الله عز وجل، بل: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾. فتتبّعهم وهم على نفاقٍ فِي قُلُوبِهِمۡ. إِلَىٰ متى؟. إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ. يضعهم أمام عهدهم في الآية ما قبل السابقة: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقد ﴿ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾. في الآية السابقة. لكنهم لم يفوا، بل: ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

الآن، يضعهم الله جل شأنه، أمام عهدهم، وأمام استجابة الله لهم استناداً إلى ذلك العهد الذي نكثوه مع الله: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾. لماذا؟. حتى يثبت لهم الله سبحانه وتعالى أنه لا يُكذَب عليه. فيمكن للإنسان أن يكذب على أي مخلوقٍ كائناً مَن كان، لكنه لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يكذب على الخالق.

هنا بيانٌ في غاية الأهمية، وهو أن يكون الإنسانُ صَريحاً وحقيقيّاً مع الله، لأن الواقع الذي يعلمه الله، هو ذلك، وسيأتي يومٌ، يضعه الله فيه أمام حقيقته، وليس في الآخرة فحسب، بل في الدنيا أيضاً. فدوماً يواجهه الله بحقيقته، سواء أمام نفسه، أو أمام الآخرين، ومهما حاول أن يتهرَّب أو ينكر، فلا بدّ له أن يُواجَه بهذه الحقيقة في الدنيا أيضاً.

لماذا جاء هذا البيان؟. جاء حتى يحفز الإنسان إلى التراجع عن الإزدواج، ويفتح صفحةً ناصعة البياض في حياته. ومن هنا فإن هذه الآية الكريمة تكون بمنزلة بشارة لأهل الإزدواج هؤلاء حتى يكونون طبيعيين، ويعيشون حياتهم على سَويّتها.

الباب الثامن والسبعون | علم الغيب

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ ٧٨

إذن، كل هذا البيان حتى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾. السرّ، ما يسرّه الإنسان ويخفيه بينه وبين نفسه. والنجوى، ما يتناجى به بينه وبين نفسه. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾. يعلم ما تُغيّبه حتى عن نفسك، وبالفعل يغيب عنك وتنساه، وكذلك ما تستحضره بينك وبين نفسك وتتناجى به على شكل خواطر.

فالله عز وجل يصله ما تناجيه بينك وبين نفسك مهما كنتَ في صمت، وحتى لو لم تتحرّك شفتاك، فكل كلمة تناجيه بها تصله، ويسمعها.

وجاء الكلام بصيغة السؤال، أي يفعلون ذلك في السر والنجوى كما لو أنهم لا يعلمون: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾. ولذلك: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾. أي لـ﴿يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ جيداً ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ ﴾. ما يضمرونه في أنفسهم. ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾. خواطرهم التي يتناجون بها في أنفسهم على شكل تداعيات. ثم في خاتمة الآية الكريمة: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ليكن بعلمهم جميعاً ﴿ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾. جمع غيب، أي يعلم أي غيب وأينما كان، الغيب الذي لا أحد قط يعلمه سواه، ولا شيء قط يملك أن يغيب عنه. حتى الملائكة، فإن الله عز وجل يوجّههم بفعل الجديد الذي لم يكن لهم به علم. وبذلك فإن الله عزّ شأنه لوحده يتفرَّد بأنه﴿ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾.

الباب التاسع والسبعون | عقاب اللمز والسخرية

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٧٩

هذا هو هو ديدن المُنافقين الذي دأبوا عليه، وما يزالون يتوارثونه عن بعضهم بعضاً. فلا يكتفي المُنافق أنه يمسك يده ويبخل عن مساعدة المحاويج في سبيل الله، بل يستهزئ بالمؤمنين وهم يؤدّون شعائر إيمانهم. وهذه الشخصيّة يمكنك أن تراها في العديد من الأماكن، والعديد من المناسبات، ولذلك جاء الخِطابُ بصيغة المضارع: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾. وكذلك: ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾. أي أن لمزهم وسخريتهم، قابلتان للتكرار من جيلٍ إلى جيل.

و﴿يَلۡمِزُونَ﴾. مَن؟، ﴿يَلۡمِزُونَ﴾ أناساً نافعين يقدّمون الخدمات المالية للناس: ﴿ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. وكلمة ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾. دقيقة، أي طَوعاً، بمعنى إضافةً إلى الزكاة المفروضة، يزيدون ما هو ليس فرضاً، بل طَوعاً في سبيل الله تعالى. ويبدو أن التاء أُدغِمَت في الطاء، أي المُتبرّعون من تلقاء أنفسهم تبرّعاً بِما هو أكثر من الفَرض، ابتغاء مرضاة الله، وابتغاء رجاء الزيادة في الثواب من الله عز وجل.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾.

وكذلك يلمزون هؤلاء، وهم على الأرجح ﴿ لَا يَجِدُونَ ﴾ نصاب المال كي يُقدّموا الصدقات المتوجّبة عليهم، مثل الذي دخله فقط مائة ألف شهرياً، والنصاب مليون، وهو في نهاية كل شهر، لا يبقى لديه شيء من راتبه، بل يبقى مديوناً طوال شهور السنة، لأنه كلّما يفي تراكم شهر، يحل بدلاً عنه دَين الشهر الذي يليه حتى يستطيع أن يؤمّن حاجاته الأساسية للمعيشة. لكن رغم ذلك، فإنه لا يحرم نفسه رجاء الثواب من الصدقات، فيتطوَّع بجهد البدن، مثل أن أحد الفقراء احتاج إلى تمديد كهرباء إلى بيته، فيقوم بذلك دون أجر، أو بعض الترميم، أو الدهان، أو بعض إصلاحات الأدوات المنزلية، وما إلى ذلك بالنسبة للمحتاجين، تبرّعاً خالصاً في سبيل الله تعالى. وهذا أيضاً يأتي إلى بذل الجهد

الفكري دون أجر، أو التبرّع بالأجر لأهل الحاجة ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾. أي﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا﴾ طاقتهم البدنية أو الفكرية. هنا ماذا يفعل المُنافقون المُتقاعسون عن نفع الناس لا بالمال، ولا بالجهد: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾. يقذعونهم بعبارات استهزائية، فجاء رد الله سبحانه وتعالى عليهم: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾. جعل سخريتهم تكون عليهم، فيُصبحون هم موضع سُخرية. وذلك دفاعاً عن ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾. فقد جعلهم الله في عهدته، كونهم عباد الله الصالحين على الأرض، وتولّى الدفاع عنهم، فنال الساخرون بأن ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾. واختُتِمَت الآية الكريمة ببيان الله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.عقاباً لهم نظير تماديهم على أهل الصلاح.

الباب الثمانون | الاستغفار

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ٨٠

تؤكّد هذه الآية الكريمة أن بادرة الإصلاح الأولى عليها أن تبدأ من الشخص ذاته، فيُغيّر ذاته بذاته من الفساد إلى الصلاح، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة. ذلك أن العلاقة هي شخصيّة وفرديّة بين كل شخصٍ كفردٍ مستقل، وبين الله عز وجل. والآية هنا مُرَكَّزة على حالةٍ بعينها، وهي الإصرار على الكفر والفسوق دون أيّة نيّة للتراجع، بل ورفض مجرَّد فكرة التراجع عن الكفر والفسوق.

لقد متَّع الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم بمشاعر إنسانيّةٍ متقدّمةٍ جدّاً، وعلى ذلك فإنه صلوات الله وسلامه عليه، يريد الخير للبشريّة جمعاء دون أي تمييز، لأي إنسانٍ بكونه إنسان، وفرد في العائلة البشرية الكبيرة. ويريد أن يجنّب هذا الإنسان أي ضرٍّ يمكن أن يصيبه.

من هنا فإنه عليه الصلاة والسلام، كان يستغفر حتى للكفار والفاسقين في مُحاولةٍ منه كي ينسوا كل ما مضى، ويبدأوا صفحةً طيّبةً جديدةً من حياتهم، فتصلح أحوالهم بذلك. إذن، الاستغفار لهدف إتاحة بداية جديدة إيجابية على أنقاض الماضي السلبي. لكن الذي حصل أن هؤلاء كانوا يُسيؤون فهم هذه المشاعر الإنسانية الطيبة من النبي صلى الله عليه وسلم نحوهم، رغم أنهم يُظهرون له العكس تماماً كقولهم وهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾النساء٦٢. وفي السياق:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ٦٢

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾النساء.

فهؤلاء في حقيقتهم كما بيّنت الآية ٦١: ﴿يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾.

وعندما يتواجهون معه صلى الله عليه وسلم كما بيَّنت الآية ٧٤: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾.

وليس مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فحسب، بل مع الله تعالى شأنه، أيضاً:

﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

فرغم كل هذه الاستجابات من الله ورسوله، إلاّ أنهم كانوا يُصرّون على نفاقهم، بل ويوسّعون من دائرة سخريتهم حتى أوصلتنا الآيات إلى الآية السابقة، حيث باتوا:

﴿يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾.

الآن يأتي البيان الإلهي بشأنهم إلى رأس المؤمنين، رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بعده إلى سائر أمّته في كل زمانٍ ومكان. وهذا البيان دقيقٌ جداً، ومشترطٌ بالاستمرار في النفاق، والاستمرار في السخرية، وإلحاق الأذى بالمؤمنين الذين يُحسِنون التعامل معهم.

الآن وبعد كل تلك الحثيّات والتفاصيل: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾. تَرَكَ له الخيار، ولكن في الآن ذاته، بيّن له: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن﴾ بجزم ﴿يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾.

لماذا، وهذا أمرٌ غريبٌ لأن الإنسان مهما تعاظَمَت ذنوبُه، فإنّ باب التوبة لا يُغلَق في وجهه؟.

جاء الفِصالُ البيِّن: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سبب –﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ –: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾. لبثوا في كفرهم وسخريتهم وأذاهم لك يا رسولنا، ولصحابتك، ولسائر

المؤمنين، وما تنازَلوا أن يطلبوا هم أنفسهم الاستغفار، بل إنهم يسخرون حتى من فكرة الاستغفار الذي شغلتَ نفسك به من أجلهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. فديدَنهم الفسوق، ولا يتراجعون عنه قيد شعرة.

إمّا إذا أي شخصٍ من المُنافقين، يتراجع عن نفاقه، مهما أسرف على نفسه:

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾الزمر٥٣.

لكن وإزاء هذا البيان، ما الذي حصل؟

الذي حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قرأ هذه الآية بشكلٍ دقيقٍ، كما الأمر بالنسبة لكل آية تتنزَّل عليه، وهو أكثر الناس دقّةً في قراءة التنزيل الحكيم، وأكثرهم استيعاباً له، وفهماً لمعانيه ودلالاته.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾. هنا لا يوجد نهي، بل على العكس، يوجد تخيير، وقد ترك له الله حريّة الخَيار في مُبادرة الاستغفار، أو عدم الاستغفار.

ويظهر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجد الترخيص في الاستغفار، ولم يُنه عنه، فاستناداً إلى النزعة الإنسانية المتقدّمة التي متّعه الله بها، لبث لديه أمل العودة إلى الحق بالنسبة لهؤلاء. بل يُروى أنه صلّى حتى على أحد كبار المنافقين عبد الله بن أبي سلول، عندما مات. وذلك حين أتاه ابنه عبد الله، وسأله أن يصلي على أبيه، فلم يردّ الابن خائباً، بل استجاب له وصلّى عليه. وعندها قال عمر للنبي: (قد نهاك ربك أن تصلي عليه). أجابه النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما خيّرني الله".

هذه هي القراءة النبويّة الدقيقة للقرآن التي لاتفوقها قراءة في دقّتها، حتى قراءة عمر رضي الله عنه. وعلى ذلك، فإن كثيراً من تأويلات المُفسّرين لا تكون في موضعها، بل وتُلحق الضرربالمسلمين أنفسهم قبل غيرهم، وتُحدث فيهم انشقاقات مروعة. ولذلك فإن أكثر الناس فهماً للقرآن، هم أكثرهم تمتّعاً بنزعاتٍ إنسانيّةٍ متقدّمةٍ. وقراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم خير سبيلٍ لفهم القرآن، ثم سِعة الاطّلاع على آداب وفنون البشريّة، خاصةً بالنسبة للمفسّرين الحديثين، وقد باتت هذه الاطّلاعات مُتاحةً من خلال التقنيات الحديثة،

فلم يعد الإنسان يحتاج إلى قطع مسافاتٍ طويلةٍ للحصول على بعض الكتب، كما كان يحصل في السابق، بل بات بإمكانه ذلك سواء بقراءة الكترونية، وإن كان يميل إلى القراءة الورقية، يقوم بطباعتها وقراءتها ككتب ورقية.

فكثيرٌ من الدُعاة، لا ينتهجون المنهج السليم بسبب قصور قراءاتهم واطّلاعهم على الخبرات، والتجارب، والآداب، والفنون البشريّة، بل وقبل ذلك قصورهم في قراءة سيرة حتى مَن أُنزِلَ القرآن على قلبه، أو سيرة صاحبته، وبعض أهل الصلاح، وأحياناً حتى قصورهم في قراءة القرآن. ورغم ذلك يعتلون المنابر، ويتزيّون بأزياءٍ تديّنيّةٍ، ويتحصّلون على إجازاتٍ جامعيّةٍ بطرقٍ غير مشروعة. فكانت النتيجة طبيعية، بأن أحدثوا كل هذه الانشقاقات في الناس من خلال التأويلات الموبوءة التي أشاعوها عن القرآن الكريم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم، في الناس، سواء في برامجهم في وسائل الإعلام، أو في مطبوعاتهم. وتسبّبوا في سفك دماءٍ كثيرة، حتى إنها تقحم على نفسها أسماءً دينيّة، فتقوم بنهب الناس وذبحهم واغتصابهم، وتفتيت العائلات، وإشاعة الفلتان الأمني، وبث الفتن. ولم تسلم منهم حتى بيوت الله التي أباحوا لأنفسهم تفجيرها بِما فيها من مصلّين، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً. وكل هذا استناداً إلى هذه التأويلات التي تصدر من أناسٍ لا يتمتّعون بشيءٍ من الروح الإنسانيّة العالية، ولا من القيم والمبادئ الإنسانيّة، ولا تمت إلى الحضارة البشريّة بصلة.

هاهوذا النبي صلى الله عليه وسلم، بنزعاته الإنسانيّة المتقدّمة، وبقراءته القرآنية المُستنيرة، يسأل الله كما جاء عنه: "اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون". رغم أن من

هذا القوم مَن ألحقوا به أفدح الأضرار، وأبعدوه عن دياره، وكالوا إليه التُّهم مثل: مجنون، ساحر، كاذب، وإحاكة المؤامرات لقتله، بل حتى لم يسلم عرضه منهم في السيدة عائشة رضي الله عنها. ورغم ذلك يقول بإنسانيّته الكبيرة بِما جاء عنه: "إن الله رخّص لي فلأزيدن على السبعين لعلّ الله يغفر لهم".

وعندما قيل له بأن يدعو على ثقيف، ودوس، فعل العكس، ودعا لهم كما جاء عنه: "اللهم اهد ثقيفاً، اللهم اهد دوساً".

الباب الواحد والثمانون | الذكاء السلبي

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ ٨١

اعتقد المُنافقون أنهم بترك ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وصحابته، يتركون أهاليهم، ويُجاهدون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. من خلال صدّ العدوان، ودِفاعاً عن المُنافقين أنفسهم، كونهم يُقيمون معهم في ذات المكان، قد جنّبوا أنفسهم أي أذى يمكن أن يصيبهم.

وعلى هذا، عندما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم، مع صحابته إلى الجِهاد، لبث المُنافقون في بيوتهم وقد فرحوا بهذا الإذن الذي حصلوا عليه من ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

في هذه الجملة كلمتان: ﴿فَرِحَ﴾. و﴿خِلَٰفَ﴾. فلماذا لم يقل: خلف ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. لأن ذلك كان من شأنه أن يُضيّق المعنى ويجعله مقتصراً على التخلّف عن الذهاب إلى الجهاد. بَيدَ أن ﴿خِلَٰفَ﴾. تعني التخلّف، وكذلك يكمن فيها أنهم فعلوا ذلك خلافاً لمنهج ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. في نشر الدعوة. أي قدّموا هذه الأعذار، لأنهم يُخالفون عقيدة الإسلام، رغم أنهم يدّعون الإسلام، ويتمظهرون به.

إذن: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. أي مُخالَفةً لعقيدة ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. ومن هنا كان الفرح بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ. أي بقعودهم في بيوتهم على خلفيّة مخالفتهم لدين الإسلام، وليس على خلفيّة ما ادّعوا من أعذارٍ حتى تحصّلوا على الإذن﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾. بالقعود في بيوتهم.

وهذا يفصل بينهم وبين المؤمنين الذين لديهم بالفعل أعذار شرعيّة تجعلهم عاجزين عن الذهاب إلى الجهاد، وقد حصلوا على الإذن ذاته. فكلمة ﴿خِلَٰفَ﴾. تكون بمثابة الفَصل بين هؤلاء، وبين أولئك. وعلى ذلك: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تصنّعوا الأعذار وادّعوها ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

ولكن لماذا ﴿فَرِحَ﴾؟.

لأن المسلمين إن انتصروا، سينتفعون من الغنائم التي يتركها الجيش المهزوم في أرض المعركة، ويحصل عليها المسلمون، كون قائد المعركة قد أذن لهم بالبقاء.

وإن انتصر المشركون، سينتفعون أيضاً، لأنهم سيقولون لهم لأنهم كانوا قالِباً مع المسلمين، ولكن قلباً معهم. ودليلهم أنهم ما آزروا المسلمين عليهم، وتذرّعوا ببعض الأعذار كي يلبثوا في بيوتهم. ثم إنهم تحوّلوا إلى قوّة داخليّة، وسيطروا على الوضع تماماً في الداخل.

على هذا يتبيَن بأن هؤلاء وأمثالهم في كل زمانٍ ومكان، هم خلايا نائمة لأي شكلٍ من أشكال العدوان على المسلمين، رغم أنهم من بني جلدة المسلمين. وقد حصل ذلك في العصر الحديث، عندما بدأت بعض الاضطرابات في بعض ديار المسلمين، فهبّ هؤلاء وسعّروا الناس على بعضهم بعضاًوآزروا دخول السلاح ودخول مَن هم على شاكلتهم من كل أنحاء العالم ليجعلوا من ديار المسلمين ساحةً للاقتتال فيما بين بعضهم بعضاً. وصاروا يضعون أنفسهم تحت تصرّف التدخّلات الخارجية إلى بلادهم، على أخوتهم وبني جلدتهم.

وهم بذلك يفرحون كما: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فهؤلاء هم منافقو كل زمانٍ ومكان، يُلحقون أفدح الأضرار بالناس في أموالهم، وأعراضهم، وأنفسهم، وتفتيت عائلاتهم، واحتكارهم، وبثّ الفتن فيهم. ولا يُقصّرون في أذى يلحقونه بهؤلاء الناس، وبذات الوقت، يُظهِرون النقيض حتى يستدرجوا الناس إلى موالاتهم، ولا يمسوا منبوذين منعزلين في المجتمع.

ويكون ذلك بمستوياتٍ متفرّعةٍ، حتى من خلال علاقاتٍ فرديّةٍ، فيمكن لواقعةٍ ما أن تكشف النقاب عن شخصٍ مقرَّبٍ إليك، ولكنه كان يخفي عنك النقيض، وكان يطعنك في الظهر، يطعنك في عرضك، ومالك، في ولدك، في صحّتك، في منزلتك الاجتماعية، في أخلاقك، في عفافك.

كل هذا وأنتَ كنتَ على علاقةٍ وثيقةٍ به، فتكتشف أنه ألحق بك ما ألحق. ثم إنك عندما تقع من قوّتك، وتضعف، يكون أوّل الشامتين بك، فتُصدَم به ربما أكثر من صدمتك ممّا أصابك.

هذه الآية الكريمة تنبّهك، حتى لا تدع أحداً يستغفلك، أو يستخفّ بك مستغلاّ طيبتك، وحُسن تعاملك معه. فتكون يقظاً ومحتاطاً، لأن من الناسِ ناساً يستغلّون أية بادرة طيبة منك ليؤسّسوا عليها مؤامرة تلحق بك الأذى. وحتى لا يلتبس عليك الأمر، فإن الآية الكريمة لا تدعوك بالاّ تكون طيّباً، أو لاتُحسن التعامل مع الناس، بل النقيض من ذلك، فهي تدعوك إلى الطيب، وإلى التعامل الحَسَن حتى مع المُنافقين، ولكن بشرط أن تعلم ما الذي تفعله، وتكون في حيطةٍ. أي يكون ذلك ضمن حدود مع المنافقين.

لكن كيف تعرفهم؟.

هنا عليك أن تبذل جهداً، أو حتى اختبارات لتعرفهم. وهذا بذاته شكلٌ من أشكال الجِهاد، جِهاد أن تقي نفسك أذّى هؤلاء، وبذات الوقت تكون طيّباً معهم، وتُحسن التعامل معهم، في محاولةٍ منك كي يصلحوا مع الأيام، ويتحوّلوا إلى منتجين ونافعين في المجتمع.

وهذا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع منافقي زمانه، ولذلك جاء وصف الله سبحانه وتعالى له: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. ونحن حتى هذه الآية الكريمة، ما نزال نكتشف أبعاد قوله تعالى: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. فتكون كذلك ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. أسوةً برسول الله صلى الله عليه وسلم وفق حدود، وألاّ تتجاوَز ذلك إلى درجة الإفراط.

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾. أي لندع الرسول والصحابة تلفحهم حرارة الصيف الشديدة، ونقعد في برودة بيوتنا. ﴿قُلۡ﴾. بيِّن لهم يا رسولنا ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾. الحقيقة أنكم تتجنّبون ﴿ٱلۡحَرِّۗ﴾، إلى ما هو ﴿أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾. ولذلك: ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾. أي أبلغهم كي يفقهوا هذه الحقيقة. وجاءت كلمة الفقه، لأنها في هذا المقام أبلغ من العلم، والفقه أن تعلم، ثم تترسَّخ في هذا العلم، وهؤلاء يعتقدون بأنهم مترسّخون في الذكاء، فإن كانوا ذلك حقاً، عليهم أن يفقهوا أن﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾. التي تنتظرهم﴿أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾.

الباب الثاني والثمانون | بين الندم على الذنوب والإصرار عليها

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ٨٢

أحياناً عندما يظفر الإنسانُ بشيءٍ ما بطريقةٍ غير شرعيّةٍ، يضحك ويبتهج، ويظن بأن ذلك حصل نتيجة فطنةٍ منه. لكن الحقيقة فإن هذا الذي كسبه بطريقةٍ غير شرعيّةٍ، يستدعي البُكاء أكثر قيل أن يستدعي الضحك.

والأجدر بهذا الشخص أن يبكي ﴿ كَثِيرًا ﴾. على المُصيبة التي جناها على نفسه، وإن كانت تُضحكه ﴿ قَلِيلًا ﴾. وثمّة بيانٌ آخرٌ تُفصح عنه الآيةُ الكريمةُ، وهو أن الكَسب غير الشرعي، لا يُضحِك﴿ كَثِيرًا ﴾. مهما أضحَك. أي لا يجعل الإنسان يسرّ في أعماقه، فهو ضحكٌ تصنّعيٌ، وليس ضحكاً حقيقيّاً. فهو يفتقد عنصر التفاعل مع حالة السرر الطبيعيّة، لأن السبب الذي من أجله يكون الضحك، هو سبب غير طبيعي، كون أساسه غير مشروع. فهو سرورٌ منبثقٌ من أساسٍ فاسدٍ، مثل الزنا، والزواج. فهي ذات العمليّة الجسديّة بين رجلٍ وامرأةٍ، لكن لا يُمكن لنشوة جِماع الزنا أن ترتقي إلى نشوة جماع الزواج بأي حالٍ من الأحوال. لأن الشعور الداخلي بالخطيئة يُطفئ هذا الألق من عمليّة الجماع، في حين أن الألق يتكلّل ويتكامل مع الشعور الداخلي بشرعيّة هذه العمليّة. ومثالٌ على ذلك، أن امرأةٍ زنت منذ خمسين سنةٍ مرةً واحدةً، ثم في ذات السنة تزوّجت، أي لاقت الجماع مع زوجها آلاف المرات. لكن تبقى كلّما تسمع كلمة الزنا، تذكر تلك المرة التي زنت فيها، أي تبقى تلك المرة تلاحقها كاللعنة رغم أنها تابت، وأن الله يغفر ذنوب التائب مهما تعاظَمَت ذنوبه:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾آل عمران١٣٥.

فأي ضحكٍ جلبه ذاك الزنا لهذه المرأة، وأي نشزةٍ حققّها لها. في حين أن الضحك الحقيقي، والنشوة الحقيقية، تذوَّقت عَسيلتهما الطبيعيّة في الزواج، هذا الزواج الذي أثمر إلى أولاد، وعائلة، ووضعٍ اجتماعي ممتازٍ في المجتمع.

ومن كل تلك الآلاف من المرات في الجماع، لا توجد مرة واحدة تشعر فيها بالإثم، بل على نقيض ذلك، فهي تشعر بأن كل مرة كانت عبادة على عبادة، وصلاح على صلاح، واستقامة على استقامة. وهي تكون راضية عن ذلك كل الرضا، لأنها تشعر بأنها ترضي الله في سنّة الزواج. لكن الأمر لا يخلو رغم مرور نصف قرنٍ على تلك الخطيئة التي حصلت معها لمرةٍ واحدةٍ، بين حينٍ وآخر، وفي مواقف ما، أن تشعر بأن تلك المرة الوحيدة، كانت وصمة عار في حياتها، وتخجل منها أمام الله، ثم أمام نفسها.

ولذلك تبقى تستغفر الله، وتتوب إليه، وتذرف دموع الندم مدراراً على تلك المرة اليتيمة، رغم يقينها أن الله يقبل توبة التائب.

ولذلك فإن الرجل الذي يحب المرأة حقاً، يتحاشى أن يزني بها، بل لا يفكّر مجرّد تفكير أن يفعل معها ذلك، وكل مسعاه ينصبّ في العمل على الزواج، فيضع يده بيدها، وعلى هذا الأساس يعملا معاً حتى يوفقهما الله إلى شرعه.

وإن أصرّ الرجل على طلب الزنا، فلا تؤثر المرأة رضاه على رضا الله بأية حالٍ من الأحوال، وتسأل الله أن يجد لها مخرجاً طيّباً، بأن يصرف عنها ذاك الذي كان سيفسد عليها حياتها حتى لو تزوّجته بعد الزنا، أو يهديه فيعتذر، ثم يتزوّجها، فتكون مثال العفّة بالنسبة له، ويبقى يكنّ لها كل احترام وتقدير، ويمنحها كل ثقته، فتسعد المرأة معه في حياتها.

إذن: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا ﴾. لأنه ضحكٌ محكومٌ بالقلّة، فليس كل ضحك يصدر من نفس ضاحكة، بل لعلّه يصدر من نفس كئيبة، ضحكٌ به كآبة حتى من خلال نبراته، وإيقاعاته، مهما بلغ من قهقهة. إنه ضحك الخيانة، ضحك تثاقل الأوزار.

ولذلك جاءت مباشرةً الكلمة النقيض للضحك، وهي البكاء. وهنا فإن البُكاء هو خيرٌ من الضحك، لأنه يخفّف عن النفس أكثر من الضحك، وهو في هذا المقام سبيلٌ للصلاح.فقال جل شأنه بالكثرة، لأنه كلّما أُكثِرَ البكاءَ، كثُر الصلاح:

﴿ وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾. كونهم يحتاجون البكاء الكثير على معاصيهم الكثيرة. والبكاء دليل الندم، في حين أن الضحك، دليل الاستمرار في المعصية. والعاصي يحتاج إلى بكاءٍ

كثيرٍ على معاصيه، لأن هذا البُكاء هو سبيلُه إلى التوبة، وفتح صفحة جديدة في حياته، والتخلّي عن كل ما مضى كما لو أنه لم يكن. فهذا هو البُكاء الذي يُنقّي النفس من كل شائبةٍ، والذي يحتاجه كل إنسانٍ، لأن لا إنسان يخلو من الذنوب وفق درجات هذه الذنوب. فأفضل ما يمكنك أن تفعله عند الخطيئة، هو أن تبكي ندماً على خطيئتك، لا أن تضحك مفتخراً بالخطيئة.

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾. لماذا؟

أجابت خاتمةُ الآية القصيرة ضمن محور السياق: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

بمعنى أن تُجازي نفسكَ قبل أن تُجازَى. والخاتمة هنا تبشيريّة، فقد أتاح لك الله أن تُجازي نفسك لا بالاعتداء عليها، ولا بعقابها، بل بالبكاء الذي هو بالأصل ينقّي النفس من لوثة الآثام، ويجعلها في سَكينة من اضطرابات وتداعيات هذه الآثام.

من هنا فإن: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾. حتى لا ترجح كفّة الضحك على كفّة البكاء، وبذلك حتى لا ترجح كفّة الإصرار على المعاصي على كفّة الندم عليها.

الباب الثالث والثمانون | النهي عن صحبة المنافقين

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾ ٨٣

مع الكلمة الأولى من هذه الآية الكريمة، يتأكّد لنا أكثر وأكثر أن علم الغَيبِ مقتصرٌ على الله وحده، دون أي مخلوقٍ قط من مخلوقاته، حتى وإن كان خاتم أنبياء الله ورسله، عليه وعليهم الصلاة والسلام، بِما هو فيه من هذه المنزلة عند الله تبارك وتعالى. والكلمة الأولى تبثّ إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الجليّة، فهو لا يعلم إن كان سيُرجعه الله سالِماً إلى أهله من هذه المعركة، أو لا يُرجعه.

و﴿ فَإِن ﴾. في هذا المقام، هو البيان الأكثر دقّةً عن هذا المضمون. وكان يمكن القول: إذا ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾.رغم أن إذا، اسم إشارة. لكن ﴿ فَإِن ﴾. تعبّر عن هذا المضمون بشكلٍ أقوى، وكذلك هي ذاتها تتضمَّن معنى إذا وبذلك: إذا ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾سالماً. وهذا لا يمكن له أن يكون قبل﴿ فَإِن ﴾. بل يُقدَّر بعد﴿ فَإِن ﴾. لماذا؟ لأنه ذاهبٌ إلى ساحة معركة، وناهيك عن ذلك كله، فمخاطر الطريق واردة تماماً، سواء في طريق الذهاب، أوحتى في طريق الإياب منتصراً. فالفاء هنا تتضمَّن كل هذه المخاطر القابلة الحدوث ببساطةٍ شديدةٍ. ﴿ فَإِن ﴾. جعلك الله تجتاز كل هذه المخاطر بأمان. ثم ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾. وهي الطائفة المنافقة، لأننا أمام طائفتَين، إحداها بأعذار شرعيّة، مثل المرضى، وذوي العاهات، والمسنّين، والأطفال، والنساء، وما إلى ذلك. والأخرى بأعذار غير شرعيّة، وهم المُنافقون. فقال: ﴿ مِّنۡهُمۡ﴾. أي من جميع هؤلاء الذين قدّموا الأعذار.

والرجوع هنا، هو الإيّاب إلى مكانك الذي خرجتَ منه، فالرجوع هو إيّابٌ إلى ذات مكان الخروج بعينه، وليس إلى مكانٍ آخر. ﴿ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ ﴾ طه٤٠. ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ ﴾ طه٨٦.

فالرجوع هنا مقتصرٌ على العودة إلى ذات الموضع الذي انطلقتَ منه، فلو خرجتَ من موضعكَ الذي انطلقتَ منه، فإنك أينما ذهبت، ومهما تنقّلت من موضعٍ إلى آخر، لا تكون قد رجعت، إلاّ برجوعك إلى ذات الموضع. والرجوع يكون ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾. أي إلى المنافقين، للفصل بين جماعة الطائفتين. ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾. الآن، وامتداداً للفاء الأولى تأتي فاء ثانية، أي ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ إلى جهادٍ آخر، بعد جهاد تبوك. ما الذي يرشد به الله عز وجل، رسوله عليه الصلاة والسلام، إذا حصل ذلك منهم؟.

الإرشاد: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾.

شخصٌ رأيتَ منه خيانةً جليّةً، ورأيتَ منه البغضاء المُبطّنة، وعند الشدّة، تخلّى عنك، وتركك تواجه المخاطر لوحدك. فعند الشدائد تظهر معادن الناس الحقيقيّة أكثر ما تظهر، فهؤلاء وكانوا اثني عشر شخصاً من المُعافين السليمين، تعذّروا بذرائع مختلفة، استناداً إلى معدن النفاق في قلوبهم. بل لم يكتفوا بذلك، فوضعوا احتمال أنه سيعود سالِماً، فذهبوا وترصّدوه في طريق العودة كي يغتالوه، ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾. كما تقدم في الآية٧٤.

الآن ما الذي يمكن فعله تجاه هؤلاء بعد أن تبيَّن نفاقهم ولؤمهم، إذا أتوا وادّعوا بأنهم سيُشاركون في مراتٍ قادمة. يكون الرد عليهم بالحُسنى، ودون أي اعتداء، أو تضييق، فقط يتم إبعادهم عن الدخول في صفوف المُجاهدين عند ذهابهم إلى الجِهاد، وكما أنهم هم الذين تذرّعوا بالأعذار، فهنا، لا يُقبَلوا حتى لو أرادوا الذهاب. والسياق متّصلٌ بالآية ٧٤: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾. إذن، سيكونون وبالاً على المُجاهدين،لأنهم لا يمتلكون نيّة الجِهاد، ولا يؤمنون بالإسلام، بل قد يغدروا بالمُجاهدين، أو يسعون إلى إحباط عزائمهم.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾الفتح١٥.

وهذا إرشادٌ بأنك إذا رأيتَ نفاقاً من شخص، فلا تأمنه، ولا تصحبه معك إلى حيث مصالحك، ولا تفش أمامه سرّاً. فهو شخصٌ يُتوَقّع منه الغدر في أية لحظة، وقد نهى الله، رسوله عن مصاحبة المُنافقين معه إلى الجِهاد.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾. الآن، تأتي فاءٌ ثالثة، وهي كذلك حاسمة، وكان يمكن القول: قل. لكن الفاء أكّدَت الأمر أكثر، ولعلّها بمنزلة الإشارة الحمراء التي تكمن فيها درجة مرتفعة من الخطورة. ثم إن كلمات الجملة جازمة، وحاسمة: ﴿فَقُل﴾، ﴿لَّن﴾، ﴿أَبَدًا﴾، ﴿وَلَن﴾. ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾. وليس هذا فحسب رغم أنه كان كافياً، لكن لمزيد من الحسم: ﴿وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

لكن لماذا هذا الحسم؟. الجواب: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وعبارة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. هنا بالغة الدقّة، لأن البدايات في كل شيء دوماً تكون صعبة، وتحتاج إلى جهودٍ استثنائيّةٍ لاجتيازها بنجاح. وبعد أن تستوي على قدَميك، وتجني ثمار حصادك.

الآن يأتي هؤلاء الذين ما آزروك قيد شعرة، بل فعلوا ما بوسعهم كي يلحقوا به أفدح الضرر، ويريدوا أن يجعلوا من أنفسهم كمثل الذين بذلوا الغالي والنفيس، وهم يقفون معك، ويؤازرونك لحظةً بلحظةٍ بكل إمكاناتهم الماديّة والمعنويّة. أليس من الإجحاف أن تساوي هؤلاء بأولئك الذين حتى وأنتَ قد بلغتَ ما بلغت من توفيق الله، أنهم لو استطاعوا، لوجّهوا لك الضربة في الصميم، لأن معدنهم النفاق، واللؤم، والغدر.

وهذه حقيقة جليّة بيّنها لك القرآن لتأخذ بها، وتجعلها في اعتبارك مهما كنتَ طيّباً، لأنك مهما ارتقيتَ في طيبك، فلن تكون أطيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهذه الحيطة. ولكن، دوماً، دوماً، دوماً، ألاّ تفكّر مجرَّد تفكير أن تلحق بهذا المُنافق أذى، وتكتفي بأن تُبعد أذاه عنك. وحتى لو مرّ بضائقةٍ وأتاك طالباً مساعدة، قدّم له المساعدة، لتثبت له مجدّداً بأن كل ما فيك هو خيرٌ في خير، واجعله يستشعر بأنه لا يتحايل عليك، أو يستغفلك، بل إنك تعلم نفاقه، من خلال حركةٍ في وجهك، أو نظارتٍ ما، حتى لا يظن بأنه يستخفّ بك، بل أنك تشفق عليه وتُقدّم له العون كحالة إنسانيّة، عزّزها ورسّخها فيك إيمانك.

وهنا، فإنّك مُجدّداً تتيح له فرصةً ذهبيّةً كي يتغيَّر نحو الأفضل، ويصلح. فلعلّ هذه المواقف تهزّه. لماذا؟، لأنه في النهاية هو أخوك، ومن أمك، وأبيك، ومهما كان، فإن رائحتكَ تفوح منه، ورائحته تفوح منك.

لننظر إلى سلميّة الإرشاد الإلهي في تشكيل شخصيّة الإنسان المؤمن: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾. وليس مع المنافقين فحسب، بل حتى مع أشد الناس ظلماً وطغياناً، مثل فرعون: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾طه.

لكن المُفارقة أننا نرى أناساً بعد كل هذه الحالات الإنسانيّة المترسّخة في القرآن الكريم، والسنّة النبويّة المطهّرة، يقومون بذبح الناس، ويدّعون بأن الإسلام قد أمرهم بذلك، وأنه يتّبعون بذلك تعاليم الإسلام. ثم نرى أناساً يُشكّلون جيوشاً، ويحمّلون عليها أسماءً إسلاميّة، مثل: (جيش محمّد). وما إلى ذلك، ويفتك هذا الجيش بأطفال ونساء وشيوخ المسلمين، ويدمّرون بيوتهم، وينهبون ممتلكاتهم، تحت ذرائع شتّى، مثل أنهم ملحدون. ثم يقطعون عنهم حتى مياه الشرب. والحقيقة، أنهم يفعلون ذلك لغاياتٍ بعيدة كل البعد عن الإسلام، مثل إزاحة بعض الأنظمة، أو امتلاك بعض الأراضي، أو لنعراتٍ طائفيّة، أو قوميّة، فيقحمون هذه الأسماء المقدّسة على تجاوزاتهم غير الأخلاقيّة وغير الإنسانيّة تلك.

إذن، بمنتهى الحُسنى، وكما ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم﴾ أنتم من تلقاء أنفسكم ﴿بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ﴾. وهذه الفاء الرابعة في الآية، أي فابقوا في بيوتكم ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾. لأن الجِهاد نعمة كُبرى من الله، وعلى الإنسان أن يسعى إليه برغبةٍ وإيمانٍ، لا أن يُقاد إليه مُكرَهاً، وهو غير مؤمنٍ به.

الباب الرابع والثمانون | الكفر

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ٨٤

إن كان التعامل مع المنافق، لا يكون كالتعامل مع المؤمن في الحياة، فيبقى ذلك أيضاً حتى في الموت. فلا يُعامل النبي صلى الله عليه وسلم، شخص المنافق عند الموت، كما يُعامل شخص المؤمن.

والارشاد الإلهي في هذا الفصل في التعامل ما بين المؤمن، والمنافق حتى في الموت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾. كان في الاستغفار فسحة للخَيار بين أن يستغفر، أو لا يستغفر. لكن هنا في الصلاة، فإن الأمر جازمٌ لا خَيار فيه. وليس هذا فحسب، بل: ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾. أي لا تزر حتى قبره. السبب: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. ولبثوا في عِنادهم الشديد، متمسّكين بالكفر: ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. دون أن يتراجعوا. ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾. في ذروة ممارسة الفسوق.

والفسوق هنا، هو إنكار الحق، وإعمال الباطل.

الباب الخامس والثمانون | عقاب الأموال والأولاد

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾

أحياناً قد تتعجَّب لشخصٍ يرتكب كل الموبقات، ورغم ذلك تبدو لك أموره ميسّرة، فهو يتمتّع برغد العيش ويملك أموالاً طائلة، وله أولاد حوله، ويستكين في دفء عائلته، ويملك نفوذاً في المجتمع. كل هذا وهو في ذروة انتهاكاته وتجاوزاته على حدود الله. هذه الآية الكريمة تتناول تفاصيل هذا الواقع الذي يبدو في ظاهره عجيباً، فتشرح التفاصيل الدقيقة التي ترفع عنك ما يمكن أن يعتريكَ من عجب بشأن هذا الشخص. في البداية، تنبّهكَ الآية الكريمة بصيغة الأمر، وهو أمرٌ استدراكيٌ، يُجنّبكَ التعجّل في إبداء هذا التعجّب.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾. يا محمّد ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾. ﴿وَلَا﴾ تعجبكم يا أمّة محمّد ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾.

السبب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾. وهذا خيرُ مبرّرٍ لإبعاد أي عجب يمكن له أن ينتابك. والآن، حتى لو خطر لك أن ترى شيئاً من العجب في ذلك، فإنه لن يحدث. لماذا؟ لأن الله تعالى ذكره، أخبرك وبيَّن لك بأنه: ﴿يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾. وهذه إرادته ردّاً على انتهاكاتهم المروعة بحق الناس، وتجاوزاتهم لحدود الله، دون أي رادع. فيردعهم الله من خلال ذلك. وهنا أيضاً أمرٌ بالغ الدقّة، وهو أن ما يرتكبوا من أجله كل هذا الظلم، إنما هو بذاته يُعاقِبهم وفق إرادة الله. فبقدر ما يجورون للحصول على الأموال، فإن هذه الأموال التي يُحققها لهم الله، تعذّبهم، وبقدر ما يرغبون في إنجاب الأولاد، فإن هؤلاء الأولاد الذين يهبهم الله لهم، يُعذّبونهم.

هنا، تتّبع لترى وتسمع كيف يحصل ذلك على أرض الواقع بعد أن بيّنه لك القرآن، لأن القرآن هو كتاب الواقع في كل واقع، وكل واقع أينما كان، وكيفما كان، لا بد أن يكون متجلّياً في القرآن. وليس من ذرةٍ واحدة على أرض أي واقعٍ، مهما كانت صغيرة، إلاّ وتكون متجلّية في القرآن. ولذلك كلّما قرأتَ القرآن بشكلٍ جيدٍ، تعرَّفتَ على واقعكَ بشكلٍ جيدٍ،

ومهما ادّعيتَ علمكَ بحيثيّات الواقع، فلن يكون لك ذلك دون أن تكون قرأتَ القرآن بشكلٍ جيدٍ، مهما بحرتَ في العلوم. فأكثر الناس إلماماً بحيثيّات الواقع، هم أكثرهم قراءة للقرآن. ولذلك ترى بعض النوابغ البشريّة، يُصابون بهلاوس، أو بحالات هستيريّة، أو أمراض نفسيّة، أو يُقبلون على الانتحار، رغم نبوغهم. وما ذلك إلاّ للتشويش الفكري الذي يصيبهم من خلال مسعاهم للتعرّف على الواقع، وعندها يزدادون غموضاً، وهذا بذاته ما يُعزّز التشاؤم لديهم، وينتهون إلى اليأس أو إلى العزلة، أو أي نهايةٍ مأساوية رغم ما هم عليه من تاريخٍ في النبوغ في مجالاتهم. والحقيقة فإنهم لم يكونوا لينتهوا إلى كل تلك المآسي، لو قعدوا إلى القرآن، وقرأوه بشكلٍ جيدٍ. والدليل أن هذه الأوبئة النفسية لم تقرب النبي صلى الله عليه وسلم رغم كل ما لقيه من مشاقٍ في حياته، وهذا ما يعلمه حتى الذين لا يؤمنون بنبوّته، أو حتى الملحدون. فقد عاش حياته بطولها وعرضها، وعاشها بشكلٍ سويٍ دون أية منغّصاتٍ نفسيّةٍ. ولم يستمد ذلك إلاّ من خلال قراءته الجيدة للقرآن الكريم. ويكون هذا أيضاً لصحابته رضي الله عنهم، فقد عاشوا حياتهم بنجاحاتٍ، بعيداً عن مثل هذه الأوبئة النفسيّة، أو الاستسلام لليأس. وكذلك يكون هذا لكلّ شخصٍ يتّخذ من القرآن منهاجاً لحياته. فأهل القرآن يبقون في عزّهم، وفي تألّقهم، وفي سويّة حياتهم، يمتلؤون بالحيويّة والنشاط، والتجدّد، ويستمدّون سكينتهم النفسية من كل آيةٍ يقرؤونها.

فإذن، المالُ الذي بدأت بها هذه الآية الكريمة، يكون مصدر إحاكة مؤامرات للإيقاع بهؤلاء، وسلبهم هذه الأموال، فيعيشون في قلقٍ دائمٍ، ولا يحبطون مؤامرة، حتى يُباغَتوا بأخرى. فيتحوَّل هذا المال إلى مصدرٍ لتعذيبهم وفساد حياتهم عليهم. فلا صفاء ذهن، ولا راحة نفس، ولا هدوء أعصاب. فيشعر أحدهم بأنه منهكٌ من الداخل، وأنه يلبث يركض طوال الوقت. ومهما استقرّ في جلوسه، أو تمدّد على فراشه، فإنه يبقى يلهث في داخله، لأن فكره مشغول، وأعصابه مضطربة، ونفسيّته منهكة. والسبب هو وجود هذا المال بحوزته. أمّا السبب الثاني، فهو: ﴿ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ ﴾. بعطفٍ مُباشَرٍ على ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾.

الولد هنا، يكون مصدر إزعاجٍ مستمرٍّ لأبيه، ويتسبّب بحلول الكارثة تلو الأخرى عليه، حتى إنه يفسد عليه حياته. لذلك تراه دوماً جهم الوجه، مضطرب الأعصاب، والسبب الوحيد هو ابنه الذي سلّطه الله عليه، ليُعكّر عليه صفو حياته، كما أنه سلّط عليه المال.

وليس بالضرورة أن يجتمع المال والولد عند شخصٍ واحدٍ من هؤلاء، فقد يجتمعاً أو قد يكون المال فحسب، أو الولد. وقد يكون ولداً واحداً، أو أكثر، لأن الجمع جاء نظير الجمع، أي عدد من الأولاد، لعدد من المنافقين. وأموالٌ طائلةٌ لعددٍ منهم. ولكن الغاية واحدة، كي تكون هذه الأموال، ويكون هؤلاء الأولاد، أو يكونا معاً سبباً لعذاب هؤلاء المنافقين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾. أي سلّطها عليهم كي يلقوا العذاب ﴿بِهَا﴾. والتعذيب هنا يمكن أن يكون تعذيباً بدنياً، أو تعذيباً نفسياً. مثال أن يعتدي الابن على شخصٍ ما بالضرب، فيعتدي ذاك الشخص، أو غيره على أبيه بالضرب، أو يتعرَّض للضرب بسبب نزاعاتٍ ماليّةٍ. فلا بدّ لهذا المال أن يكون سبباً لعذابه، كما لا بدّ لهذا الولد أيضاً أن يكون سبباً لعذابه، سواء بدنياً، أو نفسياً، أو بدنياً ونفسياً معاً. وهذا بمقتضى إرادة الله. فـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾. ويبقى هذا العذاب يتوالى عليهم حتى نهاية حياتهم. وعندها تبيّن الآية الكريمة في خاتمتها: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾. تتقطّع أنفاسهم من العذاب الذي يلقوه حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة﴿ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وبعد هذا البيان الإلهي: هل﴿ تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾. مهما كثرت لديهم الأموال، ومهما كثر لديهم الأولاد.

الباب السادس والثمانون | مقتدروا المنافقين

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ ٨٦

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾. هم مقتدرون، ووجهاء المُنافقين المنافقين في كل زمانٍ ومكان. فليس بالضرورة أن يكون الشخصُ طويل القامة، بل قد يكون قصيراً، ولكن تكون يده طائلة أكثر من أي طويل قامةٍ. والشخص عندما تكثر لديه الأموال، تقول بأنه يملك أموالاً طائلة.

﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ ﴾النساء٢٥.

وكذلك عندما يكون طويل القامة: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولًا ﴾الإسراء٣٧.

وإن كان الطول في سورة النساء يقتصر على سعة المال، وفي سورة الإسراء على القامة، فهو في آيتنا هذه، لا يعني طول القامة، لكنه يعني سعة المال، وكذلك النفوذ والقوّة ايضاً.

وذلك وفق سياق كل آية. ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾. بمعنى ﴿وَإِذَآ﴾ أنزل الله عز وجل شيئاً من القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾. بمعنى﴿ ءَامِنُواْ ﴾ بوحدانية الله، واتّباع شرعه وفق ما يتضمَّن هذا التنزيل الحكيم.

﴿وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾. شاركوا في الجهاد﴿ مَعَ رَسُولِهِ﴾ في زمانه، ومع المُجاهدين في كل زمانٍ ومكان، عندما تتعرَّض ديار المسلمين لغزوٍ بقوّة السلاح، لنهب خيراتكم، وسبي نسائكم، وقتل حماة دياركم، واحتلال أراضيكم.

هنا، ماذا يكون موقف المُنافقين من ذلك بدلاً عن الإيمان والجهاد؟.

الموقف: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾. وهنا فصلٌ بين المُنافق المُقتدر والمُنافق غير المقتدر. وبطبيعة الحال فإن غير المقتدر يكون قعوده في البيت قعوداً شرعياً سواء أكان من المؤمنين، أو من المنافقين.

و ﴿مِنۡهُمۡ﴾. بيانٌ بأن ليس كل منافق مقتدر سواء مادياً أو بدنياً، أو أنه من ذوي النفوذ. فمن المنافين مَن لا يملكون أموالاً، ومنهم مرضى أوذووعاهات. و ﴿مِنۡهُمۡ﴾. تركيزٌ على مقتدري المال والبدن والنفوذ، واستخلصَتهم من عموم المنافقين.

﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا﴾ اذهب أنتَ إلى الجِهاد، واتركنا ﴿نَكُن مَّعَ ﴾ الذين لا مقدرة لديهم على الجِهاد. وكلمة﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾ التي سبقت هذه الجملة، بمعنى قدّموا له أعذاراً غير حقيقيّة حتى يحصلوا على استئذانه بالبقاء في البيوت ﴿مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾. من ذوي الأعذار الحقيقيّة.

الباب السابع والثمانون | عندما يُطبع على القلوب

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾

هم الذين اختاروا لأنفسهم هذا الخيار رغم أن القرآن يدعوهم إلى ما هو لصالحهم سواء في الدنيا، أو الآخرة. إلى جانب تحذيرهم من مغبّة ما قد وضعوا أنفسهم فيه من ازدواج.

﴿رَضُوا۟﴾. اختاروا و﴿رَضُوا۟﴾ ما اختاروا لأنفسهم ﴿ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾. الذين اتّخذوا من مخالفة الحق منهجاً لحياتهم، يتّبعون كل ما هو معوَج، ويتجنّبون كل ما هو مستقيم. مِن كثر ما يُمارِسون النِفاق، ويترسّخون في ممارسته، تطبّعوا عليه﴿ وَطُبِعَ﴾ النفاق ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾. وهم الذين يودون بأنفسهم إلى ذلك، وعليه جاء بيانُ الله بشأنهم: ﴿ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾. اللافقه، هو درجة متدنّية من الجهل، كما أن الفقه هو درجة متقدّمة من العلم.

عن مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ") [1]. أي يجعله في درجةٍ متقدّمةٍ في علوم الدين. والفقه هو الفَهم، كما أن اللا فقه هو اللافهم. فالمُنافق مهما ادّعى بأنه يفهم، فهو يكون بعيداً عن الفَهم، كونه لا يفقه، كما وصفه الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَهُمۡ ﴾ –المنافقون بشهادة الله عز وجل–: ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾. مهما ادّعوا أنهم ﴿ يَفۡقَهُونَ﴾. وهذه رسالة للمُنافق كي يُراجع نفسه، ليخرج نفسه من وهم أنه يفقه، إلى حقيقة أنه ﴿لَا﴾ يفقه. فهو في واقع الأمر من خلال إصراره على منهج النفاق، لا يأخذ العبرة من آيات الله في القرآن، ولا من آياته في وقائع حياة الناس.

إذن: ﴿ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾. كبيانٍ على اعتقادهم أنهم يتّبعون ذلك عن فهم، وبذلك يعتقدون بأنهم ﴿يَفۡقَهُونَ﴾. لكن الحقيقة أنهم يعيشون في حالةٍ من الوهم.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

الباب الثامن والثمانون | خيرات الفلاح

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

﴿لَٰكِنِ﴾. ونظير ذلك، هناك المنهج السليم الذي يمكن أن يتّبعه الإنسان، ويستمدّ منه توازنه واعتداله، فتكون له ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ بتفرّعاتها في الدنيا، وفي الآخرة.

و ﴿ٱلرَّسُولُ﴾. هو الأسوة الحسنة في هذا المنهج السليم، واتّبعه في هذا المنهج، صحابته الكرام رضوان الله عليهم. فـ ﴿ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾. وكانوا حقيقيين، وكانوا أسوياء بقدر ما رشدوا بإرشاد الله لهم.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾. أي ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾. جعلها الله تبارك وتعالى بفضله حقاً ﴿لَهُمُ﴾. ومادام الله عز وجل هو الذي تفضّل بها عليهم، فلن تُستردّ منهم بأي حالٍ من الأحوال، وتبقى ملكية مطلقة ﴿لَهُمُ﴾. وهي كلها بركة في بركة، لأنها خالصة من الله، ولا شيء قط يمكن أن يُنغّصها عليهم، فيستمتعون بها، ويرفلون في نعيمها.

وهذه﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الإلهية كذلك تكون لأهل الصلاح في الدنيا، فيسرّوا بها. وقد تحقّق وعد الله لـ ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. من خلال الفتوحات الذهبيّة، وعودتهم إلى مكّة أقوياء، بعد خروجهم منه ضعفاء. ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، ووفرة الأموال، ومصادر النماء والعَمار، ورغد العيش.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. من خلال المنهج السليم الذي اتخذوه في حياتهم.

الباب التاسع والثمانون | الإعداد الإلهي لأهل الصلاح

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ٨٩

بعد أن رأينا بأعيننا خيرات الدنيا في الآية السابقة، الآن يأتي وعد الله﴿لَهُمۡ﴾. ولكل مَن يتّبع منهجهم في كل زمانٍ ومكان، بأن ذلك لا يقتصر على الدنيا فحسب، بل: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾. بذكر لفظ الجلالة في المقام.

والإعداد، هو التجهيز الكامل الذي لا نقص فيه، أي أن هذا المُعَدّ، أصبح في ذروة جاهزيّته، وهو مكتوبٌ﴿لَهُمۡ﴾. من الله سبحانه وتعالى. وقد أرى الله عز وجل، رسوله عليه الصلاة والسلام، أماكن بعض صحابته في الجنة. وبشّر أم المؤمنين الكُبرى خديجة رضي الله عنها ببيتٍ من القصب في الجنة، وبشّر عشرةً من صحابته الكرام بالجنة. وبذلك فإن الإنسان الصالح هو موعودٌ بوعدٍ قاطعٍ من الله تبارك وتعالى، بالجنة. وليس بالضرورة أن يترعرع الإنسان ويكبر على الصلاح، بل قد يترعرع ويكبر على الفساد، ولكنه فيما بعد يصلح وفق التوبة التي تركها الله مفتوحةً أمام أي إنسانٍ مهما أسرف على نفسه. ثم إنه قد يترعرع ويكبر على الصلاح، ولكنه فيما بعد يضل ويفسد، أو يرتدّ عن الدين. فلاييأس المُسرف على نفسه من رحمة الله، لأنه يمكن في لحظة يقظة أن يصلح، وإصلاحه ممكن ووارد.

ولا يثق الصالح كل الثقة بأنه يبقى صالحاً، وعليه أن يكون على حذر من الاستدراج إلى الضلال الذي هو ممكن ووارد إذا لم يكن على حذر. فكما أن ذاك قابل، فهذا قابل.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾. وهذا تأكيدٌ أكثر وأكثر لقول الله عز وجل: ﴿لَهُمۡ﴾. في مفتتح الآية الكريمة. فلا يؤخَذ قط منهم، ولايتحوّل إلى غيرهم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. فهو أعظم فوزٍ يمكن أن يُحقّقه الإنسان في مسيرة حياته.

الباب التسعون | زمرة الكفر

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٠﴾

بعد أن أدخلتنا الآيات السابقة إلى تفاصيل ما حصل داخل المدينة، عندما حصل النفير العام للذهاب إلى معركة تبوك. الآن، ما الذي حصل في بادية المدينة. ﴿وَجَآءَ﴾. إضافة إلى ذلك، ومن حيثيّات ما حصل، ونحن في ذروة مشهد النفير العام والاستعدادت للتحرّك إلى الجِهاد: ﴿وَجَآءَ﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قَدِموا إليه من البادية: ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾. يلتمسون منه الإذن بعدم الذهاب، وهم يُقدّمون له الأعذار التي تحول دون تمكّنهم من الذهاب معه إلى جهاد تبوك.

ويبدو أن هؤلاء كانوا يقيمون ما بين تبوك، وما بين المدينة، بحيث إذا شاركوا، سيتعرّضون للأذى من كفّار تبوك. ويُروى في ذلك أن بعض أهل عامر بن الطفيل قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: (إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا). فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "سيغنيني الله عنكم". وكذلك كقول بعض أهل أسد وغضبان: (إن لنا عيالاً وإنا بنا جهداً فاذن لنا بالتخلف). وما إلى ذلك من تقديم الأعذار للحصول على الإذن بعدم الذهاب إلى المعركة.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾. هؤلاء لم يظهروا، ولم يأتوا لا للجهاد، ولا لطلب الإذن. ويبدو أنهم اختبؤوا، أو تمارضوا، وهؤلاء: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾. أنكروا أوامر الله التي أُنزِلَت على رسوله. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. هذه الخاتمة أفصحت أكثر عن مضمون ما تقدَّم في الآية. فـ ﴿مِنْهُمْ﴾مَن ﴿كَفَرُواْ﴾. و﴿مِنْهُمْ﴾مَن ما ﴿كَفَرُواْ﴾. ولذلك: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ – من مجموعهم –: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. السين هنا جاءت توعيديّة للتأكيد أكثر فأكثر. وكان يمكن القول: يصيب﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لكن: ﴿سَيُصِيبُ﴾. كما لو أنه قسمٌ من الله تبارك وتعالى. فلا بدّ أن يصيب هؤلاء، والذين يحذون حذوهم﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. في الدنيا، قبل الآخرة. وعلى هذا فإنهم لن يموتوا قبل أن يُصيبهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. كائناً من كان هذا الشخص، ومهما بلغ نفوذه في الدنيا، فإنه لن يفلت من ذلك. وإذا استرجعنا تاريخ الجبابرة، تتجلّى لنا هذه الحقيقة، كما أنها تتجلّى في جبابرة العصر الحديث، وذلك وفق مختلف مستويات النفوذ. ﴿مِنۡهُمۡ﴾. ليست مُغلَقة، بل مفتوحة، فيمكن لبعض هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أن يتوبوا بعد أن كانوا ﴿مِنۡهُمۡ﴾. وبذلك فإن السين التوعيديّة، تُرفع عنهم، فينجون من توعّد الله لهم بهذا العذاب الأليم. فإذن: ﴿سَيُصِيبُ﴾فقط ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾. ولبثوا في الكفر﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهذه دعوة كريمة من الله تعالى شأنه، تُتيح للكافر بكل تفرّعات الكفر، أن يرفع هذا التوعد عن كاهله، وينجو من وقوعه عليه بسلام. فهذا هو القرآن، كونه خِطابٌ للأحياء الذين يمكن لهم أن يصلحوا باتّباعه مهما كانوا على ضلال. وهو بذلك يفتح باب التوبة أمام الناس جميعاًمهما تعاظمَت وتثاقلَت بهم الذنوب، كي يبدأوا صفحةً جديدةً ناصعة البياض في حياتهم، على أنقاض ذاك الماضي الأثيم كما لو أنه لم يكن قط، كما لو أنهم لم يرتكبوا ذنباً واحداً قط.

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة"[1]. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها"[2].

[1] رواه الترمذي
[2] صحيح مسلم

الباب الواحد والتسعون | رفع الحرج عن المعذورين

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٩١

تقترنُ العِبادةُ بالاستطاعةِ، وعلى قدر الاستطاعة نؤدّى التكاليف. وهذه الآية تتضمَّن اساسيّات العلاقة التفاعلية بين المؤمن، وبين التكاليف الإلهيّة، لتحويل هذا الإيمان إلى منهاجِ عمل، منهاج حياة. حتى تتميَّز شخصيّةُ المؤمنِ عن غيرِ المؤمن.

فغيرُ المؤمن، قادرٌ على الإيمان، وله مطلقُ الحرّيّةِ في أن يؤمِن، أو لا يؤمِن. بَيد أنه يختار بمحض إرادته ألاّ يؤمن، وتفاعُلاً مع عدم إيمانه، فهو ينكر التكاليف رغم مقدرته البدنيّة والماليّة عليها، فيتفاعَل عدمُ الإيمانِ مع رفض العمل بالتكاليف.

أمّا المؤمن، فهو أيضاً بمحض إرادته وحرّيّته يختار الإيمان، وتفاعُلاً مع إيمانه، فهو يتقبَّل التكاليف، فيتفاعَل الإيمان، مع العمل بالتكاليف.

وتبيِّن الآيةُ الكريمةُ بعض الطوارئ التي تحدّ بين المؤمن وبين أداء بعض التكاليف، فيقعد عنها، وبذلك قد يرى بأنه أصبح شبيهاً بالكافر الذي هو أيضاً يقعد عنها. وهذا ما يُسبّب حَرَجاً للمؤمن، فأتت هذه الآيةُ الكريمةُ لترفع عنه هذا الحَرَج. فهو في عهدة الله، وليصدّقه مَن يُصدّقه، وليُكذّبه مَن يُكذّبه. فالحقيقة هي بينه وبين الله، وقد رفع الله عنه هذا الحَرَج، فهو ما دام لا يشعر بالحَرَج أمام الله، وأن العلاقة بينه وبين الله سليمة، فلا يعنيه ما يُقال. بل إن الذي يأتي ويُحرجه، سواء بحضوره، أو بغيابه، سيكون له شأنٌ مع ربّ العزّة، بكونه يُقحم نفسه في صلب هذه العِلاقة التعبّديّة الخاصّة بين هذا الشخص، وبين الله، وقد مَنَحه الله عز وجل، العفو من أداء هذه التكاليف بشكلٍ استثنائيٍ مُعلَنٍ في كِتابِ الله. ورغم ذلك يأتي هذا الشخص ويُريد أن ينالَ منه.

ولهذا، جاءت خاتمةُ الآية دقيقة ومتكاملة مع مضمونها: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فإذا كان الله غَفَرَ، فأي إنسانٍ هو ذاك الذي يُكيل التُهَم، أو يبثّ الشائعات عن هذا المؤمن.

بلّغ يا مُحَمَّد بيان ربّ العالمين: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾. الضعيف في بُنيته، وإن لم يكن مريضاً، فبعض الناس تكون بنيتهم الجسديّة ضعيفة، ولا تُمكّنهم من أداء بعض التكاليف. والضعف هو عكس القوّة، كما أن الوهن البدني، هو عكس اللياقة البدنية. إذن، لعلّ الضعف هنا هو العاهات المُزمنة التي تكون لبعض الأشخاص، مثل العمى، أو العرج، أو بعض العوارض الجسديّة التي تكون منذ الولادة، أو ما يُعرَف بالمنغوليين، أو الوهن العقلي، وما إلى ذلك. فلا يجوز لك أن تستهزئ بشخصٍ أو تُحرجه مثل: ها أنذا أفعل هذا، فلماذا لا تفعله أنت، وما إلى ذلك.

هُنا تُبيِّن الآية بأن الله تعالى، قد متّعكَ باللياقة البدنيّة بِما لم يُمتّع بها ذاك الشخص، ونظير ذلك، أوجَبَ التكليف عليكَ، وأسقطه عن ذاك الشخص الضعيف، ووعده بالمغفرة والرحمة.

فإذا كان الله لا يُحرجه، وقد غفر له ورحمه بسبب هذا الضعف في تركيبته البدنيّة، أو حتى العقليّة، كون ضعيفُ العقل، مثل ضعيف البدن، فلا يجوز لك أن تُسبّب له الحرج سواء في حضوره، أو في غيابه. وبذلك، لعلّ درجته عند الله تعالى، هي أعلى من درجتك، لأنك تكون قد قصّرتَ في هذه التكاليف التي قدّركَ الله عليها، لأن المؤمن الذي يعتقد أو يقول بأنه يخلو من المؤاخذات في التزاماته، أو أنه بلا ذنوب، لا يكون ذلك دقيقاً مهما كان على صلاح واستقامة، ولذلك كان الله عز وجل يصوّب حتى للأنبياء والرسل في بعض تصرّفاتهم دون وحي، فكان الوحيُ بالتصويب يُزيدهم صلاحاً واستقامةً. فالمؤمن يُخطئ، لكنه يتوب، ولا يُصرّ على أخطائه، لأنه يشعر بأنه أخطأ، وهذا الشعور بذاته هو الذي يدفعه إلى التوبة، في حين أن الكافر، يُخطئ ولا يشعر بأنه أخطأ، ولذلك يُصرّ على ارتكاب الأخطاء، ولا يتوب. وبذلك يتقدّم المؤمن في درجات الصلاح والاستقامة، ويتقدّم الكافر في درجات الفساد والانحراف.

﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾. بعد الضعف جاء المرض، وهذا تأكيدٌ بأن الحالة الأولى لا علاقة لها بالمرض، بل لها الأولويّة على المرض. فبعطفٍ على أولي الأولوية: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾. كذلك: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾. ذلك أن المريض هو الشخص القوي في بدنه وعقله، لكنه يتعرَّض

لمرض يجعله قعيد الفراش، فيحتاج إلى راحةٍ حتى يتعافى من مرضه. فرغم لياقته البدنيّة وعدم ضعفه، فقد أقعده المرض الذي دَهَمه، فأصبح بذلك ضعيفاً بالدرجة الثانية، لأن بعض حالات المرض تجعل المريض منهوك القوى إلى درجة أنه لم يعد قادراً على رفع لقمةٍ إلى فمه، أو يتقلّب في الفراش من جهةٍ إلى أخرى، وهو الذي كان منذ قليل يتمتّع بلياقة بدنية، ويصول ويجول كحصان. ولعلّ هذا الشخص ذاته كان يستهزئ بذاك الضعيف الذي يبقى محتفظاً بأولويّته على المريض، ومهما كانت درجة المرض خطرة، فهو يبقى في حكم المريض، كونه قابلٌ للشفاء والعودة إلى نشاطه كما لو أنه لم يكن مرضاً.

عن أبي مُوسَى رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا"[1].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾. أحياناً يريد الإنسان أن يُنفق في سبيل الله في سدّ حاجة محتاج، في تأمين دواء لمريض غير مقتدر، في مشروع علمي نافع. فيريد أن يكون له إسهامٌ ماليٌ في ذلك عند الله، لكنه لا يملك ما يريد أن ينفقه. فهي بذلك آية سقوط التكاليف عن العاجز، وبيان تفصيلي بأن كل مَن عجز عن تكليف، سقط عنه: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾المؤمنون٦٢.

وهذا لا يُسقط عنه العِقاب فحسب، بل يجعل له الثواب كما لو أنه أدّى هذا التكليف على أكمل وجهٍ دون نقصان. ولعلّ هذا لا يكون لكثيرٍ من المُعافين الذين يؤدّون هذه التكاليف، لأنها قد لا تبلغ تلك الدرجات المتقدّمة من كمال الأداء. وبذلك فعند عودة النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك، قال كما جاء عن أنس بن مالك: "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ"، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: "وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ"[2]. أصبحنا الآن أمام الحالات الثلاث التي قد يجد أهلها حرجاً في عدم الاستطاعة، فيرفع الله عنهم هذا الحرج ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. أن يُقدّموا النصح لأهل المقدرة بعدم التقصير، ويُحفّزوهم لأداء هذه التكاليف. فمثلاً يقول المعذور: ليتني

---

[1] صحيح البخاري

[2] صحيح البخاري

استطعتُ أن أقضي حاجة ذاك المحتاج، ليتني أسهمتُ في ذاك المشروع الخيري. وما إلى ذلك مما يعجز أهل الحالات الثلاث عن فعله، ويقدر عليها غيرُهم. ثم يُحفّز المقتدرين وينصحهم بهذه التكاليف،لا أن يُحبط من عزائمهم، أو من هممهم. والكلمة مفتوحة ومتفرّعة المضمون، فهي من النصح، أي يكونون ناصحين.

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ" قُلْنَا لِمَنْ؟ قال: "لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ"[1].

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾. كيف ينصح الإنسان ﴿لِلَّهِ﴾؟.

تكون النصيحة هنا خالصةً في سبيل الله، فيقوم بها عِبادةً لله تعالى، وهذه النصيحة تكون ممّا شرَّع الله، وكذلك تكون النصيحة لشخصٍ ضالٍ، فيُقدّم له النصح بالكلمة الطيّبة والموعظة الحسنة.

فما يهم أن يفعل ما باستطاعته أن يفعل، لا أن يتّخذ من عجزه ذريعةً لعدم القيام حتى بما يقدر القيام به. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[2].

بعد النصيحة ﴿لِلَّهِ﴾. أي ممّا ورد في كِتاب الله، وخالصاً في سبيل الله:

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾. النصيحة هنا تكون أيضاً من صحيح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتستشهد بآياتٍ من القرآن، ثم تذكر شيئاً من السنّة النبويّة المُطهّرة. فالوحي كان في القرآن الكريم، وبعض الوحي أيضاً كان في غير القرآن. ولذلك جاء أمر الله بطاعة الرسول، سواء بما جاء في القرآن، أو بما جاء في صحيح الحديث النبوي الشريف.

ومن ذلك ما جاء مرتين في سورة النور:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾. كذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾.

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

من هنا، فإن: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾. بمعنى: تخلّقوا بأخلاقه الكريمة، واعملوا بِما ثبت عنه من الأمر والنهي، وكذلك خُذوا النصح من حديثه.

لذلك فإنهم يبذلون قُصارى جهدهم لينهضوا، لا ليقعدوا حتى لا يتخلّفوا عن التكليف بِما استطاعوا. رُوي أن عمرو بن الجموح الذي كان من نقباء الأنصار، كان أعرجَ، ورغم ذلك التحق بالجِهاد، وجعل نفسه في أول الجيش. وعندما قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله قدد عذرك". قال: (والله لأحفرنّ بعرجتي هذه في الجنة).

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾. أحياناً يُقدّم الإنسانُ عملاً خيريّاً، لكن ينجم عنه أذى يُصيب ذاك الذي أراد أن يُقدّم له الخير. مثل أن يرى سائقٌ شخصاً على طريقٍ بعيدٍ عن المدينة، وهو يشير له بالوقوف، فيقف ويحمله في سبيل الله تعالى. وبعد مسير بعض المسافة والسيارة ماضية في كبد الطريق، يحصل إرباك في القيادة بسبب عارضٍ ما، فيتأذّى ذاك الشخص نتيجة حادث. هنا يبيِّن الله بأن لا جناح على هذا السائق، لأنه كان مُحسِناً: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾. أي ﴿مِن﴾ إثم، أو ذنب. وقس هذا على سائر أعمال الإحسان التي يمكن أن يقوم بها الإنسان تجاه الإنسان.

طبعاً مثل هذه الآية الكريمة، أتت ببعض التفاسير، وأوّلت بِما يُشبه تبرير بعض عمليّات الإعتداء على الناس على خلفيّة أن النيّة هي نيّة إصلاح، أو إزاحة أذى. والحقيقة فإن إزاحة الأذى لا يكون بإلحاق المزيد من الأذى. وربما ما تراه أذى، يراه ذات الشخص غير ذلك، وأنك تزحزح ما هو به من أمن نتيجة تدخّلك السافر هذا. وهذه التفاسير تمخّضَت عنها فتاوى، ألحقت الويل بأعداد هائلةٍ من المسلمين وغير المسلمين، سواء في ديار المسلمين، أو في غير ديارهم. والحقيقة فإن الآية بعيدة كل البعد عن كل هذه التأويلات التي أُقحِمَت عليها، وهي آية سلميّة وإرشاديّة، وحتى الكلمة فيها بالغة السلميّة﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وأي قتلٍ يمكن أن يقوم به إنسانٌ محسنٌ. وأي إحسانٍ هذا الذي يهدم البيوت على رؤوس أصحابها، أو يحرق حتى الأطفال والنساء بغازات فتّاكة. وبذلك تم تشكيل ميليشيات، وألوية، وأفواج، وكتائب، وجبهات، وما إلى ذلك، بحيث يُقاتلون بعضهم بعضاً، وليتهم فعلوا ذلك بعيداً عن تجمّعات المدنيين، بل جُبنهم يجعلهم يختبؤون

بين المدنيين الآمنين في بيوتهم وأعمالهم، ويتّخذونهم ذروعاً، وهم يقولون: ﴿ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾. وعلى ذلك تتعالى هتافات (الله أكبر) من حناجر هؤلاء الذين يفتكون ببعضهم بعضاً وبمدنيي بعضهم بعضاً ،ولسان حال أي المدني يقول: ألا كفّ عني إحسانك هذا، وأنا بألف خير.

فكل ذلك لا يمت إلى هذه الآية الكريمة بصلةٍ، ولا إلى سائر التنزيل الحكيم الذي هو في غالبيته تعزيزٌ للأخلاق والقيم والتسامح والمحبة والتآخي. وما تبقى من هذه الغالبيّة من أحكام، فهي أيضاً تعزيزٌ وترسيخ لهذه الخِصال الإنسانيّة الطيّبة.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾البقرة٢١٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾المائدة٨.

دوماً فإن كفّة العفو في العقيدة الإسلاميّة ترجح بكفّة العِقاب، والخطأ بالعفو، هو خيرُ من الخطأ بالعقوبة. عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلُّوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئَ في العفو خيرٌ له من أن يخطئَ في العقوبة"[1].

فالآية الكريمةُ تركّز من خلال كلمة الإحسان على كل ما هو نفع، وتجنّب كل ما هو ضر.

والقرآن لا يُبيح لأحدٍ كائناً مَن كان أن يعتدي سواء على نفسه، أو على غيره. أمّا الأحكام فتكون وفق الجناية التي يرتكبها الإنسان بحق غيره، ويتولّى القضاءُ الشرعي الرسمي في البلاد تنفيذها. فالكلمة هي دعوةٌ إلى إشاعة الإحسان في صفوف الناس، بشكله التركيزي على المساعدة المُباشَرة لشخصٍ أو أكثر في أزمةٍ إنسانيّةٍ ما. أي يكون إحساناً استغاثيّاً لأناسٍ طرأت عليهم طوارئ.

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. هذه الخاتمة هي للحالات الثلاث، وأيضاً لـ ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. سواء أكانوا ضمن الحالات الثلاث، أو غيرهم.

---

[1] أخرجه البيهقي

الباب الثاني والتسعون | احتياجات الجهاد

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ ٩٢

الآية معطوفة على سابقتها، ومضمونها معطوفٌ كذلك عليها في بيان الذين رفع الله تعالى عنهم الحَرَج لأسبابٍ تفوق طاقاتهم. لكن هنا عنصر جديد، وهو المقدرة البدنيّة التامّة للجِهاد، وبذات الوقت، عدم الاستطاعة على التجهيز المادّي لذلك. والخلاف بين أولئك الذين كانوا في الآية السابقة، وبين هؤلاء، أن أولئك لم تكن لديهم إمكانات بدنيّة للجهاد، في حين أن هؤلاء، لديهم هذه الإمكانات، لكن ما أعاقهم هو عدم مقدرتهم للحصول على احتياجات الذهاب.

﴿وَلَا﴾ حَرَج كذلك: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾. تصطحبهم معك إلى جهاد تبوك. جاءت كلمة ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾. لأن المسافة طويلة بين المدينة، وتبوك، وتبلغ نحو ٥٢٠ كم، وفي وقتنا إذا ذهب المرء بسيارة، يحتاج إلى نحو ست ساعات من المسير. ونحن في زمنٍ يعود إلى ما يزيد عن ١٤٠٠ سنة، والطرقات كانت وعرة، وغير مخدومة بالشكل الذي هي عليه الآن، إضافةً إلى وسائل النقل المتواضعة، ناهيك عن مخاطر الطريق. وبذلك فإن الوصول إلى تبوك لم يكن سهلاً، اضطر هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً إلى الطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجد لهم ما يُمكّنهم من الذهاب معه.

تبيِّن الآية الكريمة كيف أن الله سبحانه وتعالى، كان ينظر إلى المشهد، ويسمع ما يُقال فيه، ثم يضع جواب النبي لهم في آيةٍ قرآنيةٍ: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾. فهؤلاء قد وضعوا أنفسهم تحت تصرّف النبي صلى الله عليه وسلم على أمل أن يؤمّن لهم بعض المستلزمات الضروريّة كي يستخدموها للذهاب معه إلى المعركة. ولكنهم عندما سمعوا جواب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾.

والعين لا ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾. إلاّ في حالاتٍ خاصةٍ جداً، فلا تملك العين من أمرها سوى أن تنهمر منها الدموعُ بغزارةٍ.

فإذن، لم تَذرِف أعينهم الدموع كما يحصل في بعض المواقف، بل باتت ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾. فيمكن أن ينهمر المطر، أو يأتي على شكل رذاذ، لكن عندما يشتدّ، يحصل نتيجة ذلك فيضان، لأنه يكون قد انهمر بغزارةٍ شديدة. وهنا نحن أمام فيضان الدموع نتيجة انهمارها بغزارةٍ من الأعين حتى وصفها الله عز وجل بأنها: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾. لماذا حصل ذلك؟ الجواب: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾. وهؤلاء بالرجوع إلى أسباب نزول الآية، هم سبعة أشخاص سُمّوا بالبكائيين. وأنه عندما ى أبو موسى أصحابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، طالبين منه أن يحملهم معه بسبب عدم مقدرتهم على تأمين ذلك. قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه". فانصرفوا وهم يبكون، عندها دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأعطاهم ذوداً. فقال له ابو موسى: أستَ حلفتَ يا رسول الله؟

فقال: "إني إن شاء الله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيراً منها، إلاّ أتيتَ الذي هو خير". وفيما بعد سيُصبح هذا المنهج قاعدةً في حياة المسلمين، فقد يرى المرء أمراً ويحلف عليه، لكن بعد ذلك تحصل مستجدّات، إذا فعلها سيكون أفضل، فيكفّر ويتبّع المُستَجدّ الذي هو أفضل.

وكذلك الأمر إذا حلف على إلحاق الأذى بشخصٍ، أو ارتكاب معصي، فيكون التكفيرُ هو المَخرجُ من تجنّب الأذى، أو المعصيّة.

الباب الثالث والتسعون | السبيل

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

بعد أن قال في الآية ما قبل السابقة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾. ثم: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾. ثم في الآية السابقة: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾.

الآن، وضمن سياق الاستئناف: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾. وهو استئنافٌ دقيقٌ كتأكيد مجدّداً على رفع الحرج على جماعة ﴿لَّيْسَ﴾. وبيان مَن يقع عليهم الحرج، وهم جماعة﴿إِنَّمَا﴾.

فَمَن هم هؤلاء؟.

الآن تبيِّن لنا الآيةُ الكريمةُ.

﴿ٱلسَّبِيلُ﴾. هو الطريق، أي أن أشخاص الآية ما قبل السابقة، لا يسلكون طريق حلول العِقاب عليهم. ﴿إِنَّمَا﴾ يسلكه أشخاصُ هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ بالتخلّف عن الجِهاد في سبيل الله ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾. وسبق أن قال عنهم الله سبحانه وتعالى في الآية٨٦: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾. ولننظر كيف يمضي النسَق الروائي للمضون القرآني:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

ثم بعد التفاصيل الدقيقة التي وردت خلال الآيات التي هي بين الآية ٨٦، وبين هذه الآية، يأتي بيانٌ تعريفيُ آخر يُعرّفنا أكثر على هؤلاء الذين هم ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾.

إذن: ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾. بمعنى أغناهم الله عن العذر، ولكنّهم يعتذرون. فهذا ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾الذي ارتضوه لأنفسهم، يودي بهم إلى عقاب الله. لكن لماذا؟.

الجواب: لأن الإنسان لا يملك حريّة أن يكون عالةً على الآخرين. يأكل، ويشرب، ويتزوّج، ويجمع الأموال، ويعيش في رفاه، دون أن يقوم بواجباته تّجاه هذا المجتمع الذي يعيش فيه، وهو مُقتر، وقد أغناه الله مالاً وصحّةً، خاصّةً وأن هذا المجتمع الذي يعيش في ظهرانيه، بات يتعرَّض لخطر، ويحتاج إلى رجالٍ يُدافعون عنه، ويُبعدون عنه هذا الخطر. فكما يأخذ، عليه أن يعطي، ويكون مُشارِكاً في تحقيق الأمن إذا استدعى الأمر، ويدافع عن هذا الأمن سواء بماله، أو بنفسه، فلا يكون مُتخاذلاً، فيترك الناس يذهبون للدفاع عنه وعن ممتلكاته، وهو قاعدٌ في بيته يتدرّع بالأعذار، فلا يُشارك بنفسه، ولا يُسهم بماله، وفوق هذا يريد أن يحصل على الصدقات، ويلمز رسول الله صلى الله عليه وسلم في توزيعها كما تقدّم في الآية٥٨: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

وكذلك يلمز ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. كما جاء في الآية٧٩: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم يدّعي بأنه مسلم وينتمي إلى هذا المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، وعندما تأتي الخيرات، يريد نصيباً منها. وقد رأينا كيف حتى الذين لم يملكوا مالاً، قَدِموا ووضعوا أنفسهم تحت تصرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يحملهم معه إلى معركة الدفاع في وجه الجيش الروماني المكوَّن من أربعين ألف مقاتل، والذي بات يتقدّم ليجعل البلاد والعِباد تحت احتلاله. أمّا هؤلاء فرغم غِناهم، لاتبدر منهم بادرة إسهام عندما تتعرَّض البلاد لخطر. بل يسعون إلى إحباط همم الذين يشعرون بالمسؤوليّة تّجاه المجتمع فيُقدّمون ما يستطيعون أن يُقدّموا، ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾.

وإذا نظرنا إلى ما هم فيه من ادّعاء الإسلام، وحصولهم على المزايا التي يتمتَّع بها المُسلِمون نظير الواجبات التي يُقدّمونها، أو التكاليف التي يُكَلَّفون بها، وهم لا يقومون بالواجبات الاجتماعيّة التي تترتَّب على أفراد المجتمع، ولا يُنفّذون التكاليف التي تترتَّب على المسلم، بل يستهزؤون بالمسلمين وبالإسلام. كل هذا وهم يمتلكون حريّة ألاّ يكونوا

مسلمين، وأن الله عز وجل قد جعل العلاقة موصولة بينهم وبين المُسلمين، إن كان من أهل الكِتاب، مثل تلبية دعوته لتناول طعام، وتقديم الدعوة له لتناول الطعام، أو التقدّم للزواج من إحدى بناته دون أي إرغام لها على اعتناق الإسلام.

أمّا إن كان مُلحِداً، فلا أحد يحقّ له أن يُرغم عليه اعتناق الإسلام كُرهاً، كما جاء في القرآن والسنة، بل يعيش في المجتمع الإسلامي وفق معتقده، لأن ذلك شأن الله مع عباده. والذي يرى أن على المسلمين قتل غير المسلمين جميعاً في الأرض، يكون بذلك قد خرج عن تعاليم القرآن والسنة.

وهذا ما تبيّنه الآية الكريمة بشأن المُنافق، فهو استناداً إلى ما يتمتّع من حريّة المُعتَقَد، يستحق عِقاب ما يقوم به من احتيال، حيث يدّعي الإسلام نفاقاً. فهو عِقابُ الاحتيال كونه ينتحل شخصيّة الإنسان المسلم.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾. العِقابُ يقع: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾. أغناهم الله عن الإستئذان. نظير عدم العِقاب على الذين رخَّص الله لهم بالاستئذان بسبب عدم المقدرة. وهذا بيانٌ بأن المُنافق لا يكتفي بالبقاء في البيت متذرّعاً الأعذار فقد، بل لا يخرج منه إحسانٌ قط، لأنه يستهزئ حتى بفكرة الإحسان، وبكل ما يكون مُحسِناً. فهذه نماذج متطفّلة في المُجتمعات، تعيش فقط على الأخذ والاستهزاء بالمسلمين وبمقدّساتهم، ولا يصدر منها نفع، وكل ما فيها أذى في أذى.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾الشورى٤٢. فالعِقابُ يكون نظير التمادي، وعدم التراجع عنه استكباراً.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾. أي يكونون في غير أماكنهم وبين مَن هم ليسوا منهم، وليسوا مثلهم لا عقيدةً، ولا مقدرةً. فقد وضعوا أنفسهم في ازدواجٍ من خلال التصريح بالإيمان لِساناً، ورفضه قلباً. كذلك أقحموا أنفسهم نفاقاً ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾الذين لهم أعذار شرعيّة.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾. مع الإصرار على النِفاق وجعله منهاجاً يومياً في الحياة، يترسّخ النِفاق في القلب، ويُصبح طَبعاً يتطبّع عليه، كما لو أنه أمرٌ عادي. وجاء هذا البيان

للمرة الثانية، بعد الآية٨٧: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾. وهكذا يتكامل المعنى ويتماسك السياق القرآني بعضه ببعض من خلال الآيتين.

فهناك: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾. طبّعوا قلوبهم على الإزدواج، ولذلك: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾. يعتقدون بأنهم أذكياء، لكنهم في الواقع غير ذلك. ثم وفق الإيضاحات في الآيات الواردة بين الآيتين، الآن: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾. تركهم في طبعهم الذي طبّعوا قلوبهم عليه.

ولذلك وردت كلمة: ﴿ وَطَبَعَ ﴾. دقيقة كونها متفرّعة في مدلولاتها ضمن الأجواء التي نحن فيها: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾. فبعد بيان الآيات القرآنية لهم، وإصرارهم بعنادٍ شديدٍ على الإنكار، والتمسّك بالنفاق، تركهم الله في ممارسة ماطَبّعوا قلوبهم عليه. فهم من تلقاء أنفسهم وبمحض إراداتهم: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾. وجاءت خاتمة الآية بمنزلة بيانٍ آخر:

﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. لأنهم ﴿لَا﴾ يريدون أن ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة، ولا يريدون مواجهة أنفسهم بها، رغم كل بيانات الإعلام التي أصبحت بين أياديهم.

فأي إنسان، يعلم الصواب من الخطأ، ويعلم الإيمان من الكفر، فبعض الناس لا يريد أن يواجه نفسه بهذه الحقيقة، ومهما أردتَ أن تثبت له، فهو يتهرَّب منها، و يأبى أن يعلمها.

الباب الرابع والتسعون | بين صلاح العمل وفساده

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ٩٤

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ المُنافِقون الذين وردوا في الآية ٩٠: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾.هؤلاء ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾منتصرين من تبوك، يأتون و ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

عندما جاء المسلمون من معركة تبوك، جاءهم المُنافِقون، يُقدّمون لهم الاعتذار على تخلّفهم عن المُشاركة. هنا ينزل الوحيُ فيُخاطِب النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة المُفرَد: ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد

﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾. ويتبيَّن هنا بأن الإعتذار لم يكن جاداً وصادقاً، بل ليزدادوا تمسّكاً بنفاقهم من خلال كذبهم مرة أخرى بعد العودة من تبوك، كما حصل قبل الذهاب إلى تبوك. فيأتي ردّ النبي صلى الله عليه وسلم، باسمه ونيابة عن الصحابة: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾. أي لن أأمن ﴿لَكُمۡ﴾.

ولن يأمن الصحابة ﴿لَكُمۡ﴾. والكلمة متّصلة بقوله تعالى في الآية٦١:

﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. فهنا يتبيَّن بأن هؤلاء ما يزالون على موقفهم النفاقي، وهم يتلفّظون كلمات الاعتذار ولا يقصدونه، ووفق خاتمة تلك الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. هنا يبقى السياق الروائي متماسكاً في السورة: ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾. فقد تأكّد بأنهم لم يتوبوا، بل لبثوا مصرّين على

نفاقهم. لماذا؟ لأن باب التوبة مفتوح لكل مذنب، ومِن المُنافقين مَن تابوا، وصلحوا، بل حتى من المُشركين مَن تابوا وصلحوا. ولذلك: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾. فأرادوا الصلاح، لكانت أخبار الصلاح، ولكن يظهر بأنها أخبار إصرارهم على الفساد، فـ: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾. بمعنى ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ بحقيقتكم التي تُضمرونها، وتُظهرون خلافها. فالإنسان يكون موضع أمانٍ على قدر ما يكون مؤمناً، فتأمنه بقدر ما تلمس لديه من علامات الإيمان. وبذلك فإن المُنافق لا يؤتَمَن لا على سر، ولا على مال، ولا على عرض، حذراً لنفاقه، ولكن المؤمن يؤتَمَن طمأنينةً لإيمانه.

وإذا خذلك، فإنه يكون مُنافِقاً وقد تمظهر بمظهر الإيمان، وسيكون بذلك قد كشف لك عن معدنه.عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلاَّ قَالَ: "لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ" ١.

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم" ٢.

وقد وردت كلمة المُفتتَح ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ بصيغة المُضارع إشارةً بأن ذلك قابلٌ للتكرار في كل زمانٍ ومكان. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾. أنبأ الله عز وجل رسوله ببعض خفايا وأسرار المنافقين، فأخبر بها المسلمين حتى يكونوا على بيّنةٍ عندما يعتذر إليهم المنافقون.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾. بعطفٍ على: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾. فإن كُنتم صادقين، توبوا إلى الله، واعملوا بِما يُثبت أقوالكم: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

الآن، رغم كل ما مضى، وكل ما بدر منكم أيها المُنافِقون، فيمكن أن تنسوا كل ذلك كما لو أنه لم يكن، وتفتحوا صفحةً جديدةً في حياتكم من خلال التوبة، والعمل الصالح.

وهذا فيه إيضاحٌ لِما سبق في الآية: ﴿ لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾. إذ يُمكن أن يُفهَم من ذلك بأن باب التوبة قد سُدّ أمامهم، فعدم قبول التوبة عائدٌ إلى أخبارهم السيّئة التي أنبأ الله بها. فعندما تكون هذه الأعمال صالحة،

[1] رواه الإمام أحمد
[2] رواه البخاري

يكونون قد تابوا عن النفاق، ولذلك وردت الكلمة بالمُضارع، ﴿وَسَيَرَى﴾. فإن عملتم صالحاً سيُسجَّل لكم. فعندما يصلحوا، ويتخلّوا عن تلك الأخبار، ويتوبوا عمّا فعلوا، سيتغيَّر موقفهم عن الله عزّ ذكره، وعند رسوله صلى الله عليه وسلم. وفق الصلاح الحقيقي الذي باتوا فيه، فكما أن العمل السيّء، يُرى، كذلك فإن العمل الصالح يُرى.

وهذا مزيدٌ من الإثبات بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو﴿ أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. كما جاء في الآية٦١. وهذا إرشادٌ بأن يكون المؤمن﴿ أُذُنُ خَيۡرٖ﴾. فلا يفقد الأمل بصلاح أي شخصٍ مهما كان فاسداً في مرحلةٍ ما من حياته، ذلك أن الله تبارك وتعالى قد ترك باب التوبة مفتوحاً أمامه مهما تعاظَمَت به الذنوب.

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. كلمتان، إحداهما تتكامل مع الأخرى. و ﴿ ٱلۡغَيۡبِ﴾، هو ما لا تراه ويكون غائباً عنك. ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، ما تراه رأي العَين وتشهده. وهذا يحصل من خلال الخروج من ﴿ عَٰلِمِ﴾ الدنيا الحاضر، والذهاب إلى﴿ عَٰلِمِ﴾ الآخرة الغائب. فيُصبح ذاك الغائب حاضراً، كما الأمر تماماً بالنسبة لحاضر﴿ عَٰلِمِ﴾ الدنيا. ويكون الإنسان فيه ببدنه، وشاهِداً يرى ويتفاعل مع ذاك العالم كما كان في ﴿ عَٰلِمِ﴾ الدنيا.

﴿ فَيُنَبِّئُكُم﴾. هنا تكرَّرَت كلمة النبأ في الآية مرتَين، الأولى: ﴿ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾. والثانية: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم﴾. يضعهم أمام أعمالهم في ﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. إن كانوا قد لبثوا في نفاقهم حتى النهاية، أم تابوا وأصلحوا.

إذن: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. فالأعمال موجودة ومحفوظة، وهكذا تبقى الآية دعوة إلى التوبة والصلاح.

الباب الخامس والتسعون | رجس النفاق

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ٩٥

ما تزال السورة الكريمة تكشف النقاب عن معدن الإنسان المنافق، وتُطلعك على تفاصيل شخصيّته المُزدَوَجة.تُبيِّن لك هذه الآية بأنه شخصٌ كثيرالحلفان ﴿بِٱللَّهِ﴾، يحلف في كل شاردةٍ وواردةٍ، ومردّ ذلك أنه كثير الكَذب، فيتّخذ من الحلفان﴿بِٱللَّهِ﴾، مطيّةً حتى يستمرّ في خِداع الناس والتحايل عليهم، فيُصدّقوا كذبه على أنه صواب من خلال هذا الحلفان ﴿بِٱللَّهِ﴾. ويحصل هذا في مواضع متعدّدة، ومنها شهادة الزور. فالمُنافق يُمكن له بكل بساطةٍ أن يكون شاهد زور، ويمكن أن يتّخذ من ذلك وسيلةً للتكسّب. وكذلك يحلف لإثارة الفِتَن وتحريض الناس على بعضهم البعض، أو في النَيل من أعراض الناس، أو كيل الاتّهامات جزافاً لبعض الناس. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ محمد٣٠.

عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"[١].

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: "وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاك"[٢]. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ" قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ" قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "الْيَمِينُ الْغَمُوسُ" قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: "الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ"[٣].

---

[1] صحيح مسلم
[2] صحيح مسلم
[3] صحيح البخاري

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ"[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: ("ثَلَاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يومَ القِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَجُلٌ كانَ له فَضْلُ مَاءٍ بالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إمَامًا لا يُبَايِعُهُ إلَّا لِدُنْيَا، فإنْ أَعْطَاهُ منها رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطِهِ منها سَخِطَ، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ العَصْرِ، فقالَ: وَاللَّهِ الذي لا إلَهَ غَيْرُهُ لقَدْ أَعْطَيْتُ بهَا كَذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ" ثُمَّ قَرَأَ هذِه الآيَةَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾آل عمران٧٧[2].

فالمُنافق هو كائنٌ وبائيٌ، أينما حل أثار الفِتَن والنِزاعات في الناس، ويستخدم في كل ذلك الحَلَفان بالله.

افتُتِحَت الآية بـ: ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾. فيتّخذون من الحَلَفان بالله وسيلةً لتصديق كذبهم على أنه صواب: ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾. هذا بعد العودة من تبوك، وهو استئنافٌ لِما ورد قبل الذهاب إلى تبوك كما جاء في الآية ٤٢: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وتُبيِّن الآية الكريمة غايتهم من هذا الحَلَفان: ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ ﴾. لماذا؟.

الجواب: لأنّهم يدّعون الإسلام ويحصلون على الحقوق التي تكون للمسلمين نظير الواجبات التي يؤدّونها، ومن ذلك الدفاع عن البلاد والعِباد إذا اقتضى الأمر، وإخراج الصدقات، ومختلف المؤازرات الاجتماعيّة. فهم بذلك يقتسمون مستحقّات أصحاب الحق، ويكونون شركاء معهم دون أن يستحقّوها. فكل المؤشّرات تؤكّد استطاعتهم المشاركة سواء بأنفسهم أو بأموالهم في الدفاع عن الدين الذي يقولون بأنهم مؤمنون به،

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] صحيح البخاري

والمجتمع الذي يقولون بأنهم ينتمون إليه. هنا يأتي الإرشاد الإلهي بتركهم: ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ ﴾. هنا ترى عظمة الإسلام، فحتى الحقوق لا تؤخَذ بالقوّة، بل على المسلم أن يعطي الحقوق بطيب، نظير أنه يحصل على المستحقّات بطيب. والله سبحانه وتعالى يثيب الإنسان في الدنيا والآخرة على ما يبذل بطيبٍ ما باستطاعته في سبيل الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله طيبٌ لا يقبلُ إلاّ طيباً"[١].

فدعوهم في نفاقهم، ولا تؤذوهم، ما داموا قد ارتضوا بذلك، وقد أذوا أنفسهم بأنفسهم من خلال التمسكن، والتمارض والتذلل، والإيغال في قعر النِفاق. ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ ﴾. وليس الرجس في البدن، بل هو رجس النفاق، فعندما يتوب المُنافق عن نفاقه، لم يعد رجساً، وهو بذات البدن. والإنسان يكون رجساً مادام يعتنق النِفاق، ويكون الرجس مرتهناً بالاستمرار في النفاق. وفي اللحظة التي يتراجع فيها، يكون بنفسه قد أزاح الرجس عن نفسه، نظير أنه كان قد جلب الرجس على نفسه بنفسه. وقد عَمِل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الإعراض﴿ عَنۡهُمۡ ﴾. فقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لصحابته الكِرام: "لاتُجالسوهم ولا تُكلّموهم". دون أي إلحاق أذى بهم، وقد بيَّنَت الآية الكريمة بأن الذي يحلف بالله كذباً ليحتال على الناس، يكون شأنه مع الله، فجاءت خاتمة الآية الكريمة: ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾. في حال استمرارهم في النِفاق، وعدم التوبة. فإن تابوا، تنفتح صفحة جديدة من حياتهم. ويبقى باب التوبة مفتوحاً أمام مُنافقي كل زمانٍ ومكان ليرفعوا عن كواهلهم رجس النِفاق، ويصلحوا. ولذلك جاءت خاتمة الآية الكريمة: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. الكَسب الذي كانوا يُحققونه من تداعيات رجس النِفاق، وهو كسبٌ غير مشروع، كونهم يكسبونه عن حلفانهم بالله كذباً، وادّعاء الإسلام كذباً. فُيجازَون ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. من خلال مسلك النِفاق، لكن إذا صلحوا، يُثابون﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. من خلال مسلك الصلاح.

[1] صحيح مسلم

الباب السادس والتسعون | بين المؤمن والفاسق

﴿ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ٩٦

ما يزالون﴿ يَحۡلِفُونَ﴾. وهذه المرة: ﴿ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾.

الرضا، هو التأييد، سواء أكان بطريقةٍ مُباشرةٍ، أو غير مُباشَرة، عندما ترضى عن شخص، فإنك تقبل عمله وتوافق عليه، لأن الإنسان لا ينفصل عن عمله، فهوجيّدٌ لأنه يُقدّم عملاً جيّداً، وهو سيّءٌ لأنّه يُقدّم عملاً سيّئاً. من هنا وكما أنه لا يجوز أن ترضى عن الفاسد، كذلك لا يجوز لك أن تُقاطع الصالح. فمادمتَ صالحاً تبقى على صلحٍ مع الصالح، وما دام صالحاً يبقى على صلح معك.

﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ النساء١١٤.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلا رَجُلا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا"[1].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ"[2].

عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَيسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا" [3].

---

1 صحيح مسلم

2 رواه أبو داود والترمذي

3 صحيح البخاري

عن أبي خراش السلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ"[1].

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلامِ"[2].

عندما ترى إنساناً صالحاً، تُرحّب به، وتُشعره أنك راض عمّا هو عليه ومن صلاح، لكنك عندما ترى الفاسد، تعرض عنه دون أن تجعله عدواً لك، فتكون العلاقة به سطحيّة بحكم الجوار، أو العمل، أو القرابة أو ما شابه. فتُشعِره أنك غير راضٍ عن انحرافه. والآية تنبيهيّة: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. ﴿فَإِن﴾ رضيت عنه، فاعلم بأنك ترضى عن شخصٍ، رب العالمين غير راضٍ عنه.

---

[1] رواه أبو داود

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

الباب السابع والتسعون | آفة الأعراف والتقاليد

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ ٩٧

الـ ﴿ أَشَدُّ ﴾، مِن الشدَّةِ، فالأعراب ليسوا شديدي الكُفر والنفاق فحسب، بل ﴿ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا ﴾. أي بلغوا الذروة في كُفرِهم ونِفاقِهم. وهم العرب أنفسهم، أبناء القوميّة العربيّة، وليسوا من أي قوميّة أخرى، أو أمّة أخرى وقد سُمّوا ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾. لأنهم من سكّان البادية. فبعد أن كنّا في بيئة المدينة مع الآيات السابقة، الآن يأخذنا السياق القرآني إلى بيئة البادية العربية، ليُعرّفنا على سكّانها أيضاً، فمن العربي الحضري، إلى العربي البدوي.

وهنا يتبيَّن كيف أن البيئة تؤدّي دوراً فعّالاً في تكوين شخصيّة الإنسان، ففي البادية يكون الوعيُ مُتدَنّياً، عكس المدينة حيث تتوافر مراكز نشر الوعي بمختلف تفرّعاتها. كذلك تُتيح المدينة، الاختلاط بين محتلف أطياف الناس، فيمكن للمدني أن يرى في اليوم الواحد مئة شخصٍ لم يرهم من قبل، في حين أن البدوي تبقى علاقته محدودة بأناسٍ مُحدّدين لا يرى غيرهم، ولا يسمع سوى كلامهم، وإذا صدف وأن حلّ ضيفٌ ما، فيكون ذلك بشكل طارئ ولوقت قصير، مثل أداء بعض الواجبات الاجتماعيّة، وما إلى ذلك، ثم ما يلبث أن يعود ربما من غيرأن يراه أو يُجالسه أغلب السُكّان. فهو إذن يكون مُنغلقاً على أناسٍ مُحدّدين، وبذلك يكون محدود المعرفة يعيش تحت حكم بعض العادات والتقاليد ويعمل بها، رغم أنه يعرف بأنها تُناقض الدين. مثل عدم إعطاء حقوق النساء في الوراثة، وأن المرأة التي تُطالب بحصّتها في الأرض، تُصبح منبوذة، ناهيك عن أنهم لا يعطونها إلاّ في حال لجوئها إلى القضاء، وعندها أيضاً ستُصبح في قطيعةٍ عن أهلها. وكذلك خيار النساء، أو البَدَل، أو حرّية الأب في تزويج ابنته لِمَن يشاء دون أن يكون لها أن تعترض، وحتى لو اعترضت، سيحصل الزواج رغماً عنها، ومسائل الثأر، مثل أن يعتدي شخصٌ على شخصٍ بالقتل، ويتوارى عن الأنظار، فيتم التهجّم على أحد المُربين له وقتله، مثل أن يكون أبوه، أو أخوه، أو ابن أخيه، أو عمّه، أو ابن عمّه، وما إلى ذلك. والشجارات التي تحصل من أجل بيان

حدود الأراضي، أو دخول بعض المشاشية في زروع البعض. وبذلك تستشري المشاكل وتتفاقم في أوساطهم، ويكون التسامح قليلاً، لأنه في كثيرٍ من الأحوال يُعدّ جُبناً بالنسبة لتلك العادات والتقاليد، فيمضي البدوي وفقها رغم قناعته بأنها تتناقض مع التشريع الإلهي، فيفعلها مُكرها فقط حتى ينجو من انتقادات السكّان، لأن الانتقاد سيبقى وصمة عار في تاريخه وتاريخ أسرته، وقد يتسبّب في عزلته، وكذلك في بقاء أبنائه وبناته دون زواج، لأن به نقيصة اجتماعية في نظر المُجتمع. وكل هذه العوامل تجعل من الإنسان البدوي خشناً، وتُنمّي فيه القسوة حتى مع نفسه، أوأولاده.

عن عائشة رضي الله عنها: (جَاءَ أعْرَابِيٌّ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَما نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "أوَأَمْلِكُ لكَ أنْ نَزَعَ اللَّهُ مِن قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ")[1].

فهو يجد حرجاً حتى في تقبيل أبنائه، ويعدّ ذلك انتقاصاً من رجولته، كون النسوة هن يُقبّلن أبناءهن، وإذا فعل ذلك، مال إلى النعومة.

وتبيِّن الآية الكريمة أن الكفر والنفاق ينموان ويتكاثران عند البدو، والبدوي لديه استعداد لذلك، كونه قد ترعرع على هذه العادات والتقاليد البدوية، وتفاعل معها فتكون قد هيّأته للكفر والنفاق.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾.

تلازم الكفر مع النفاق في شخصيّة الإنسان الأعرابي، وفي زماننا ليس بالضرورة أن يكون المرء من سكّان البادية حتى يكون﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾. بل قد يكون من سُكّان المدينة، ولكنه يحمل تلك المورّثات البدوية، ويتفاعل معها في حياته المدنيّة، فيكون بذلك: ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾. وهو يعيش في قلب المدينة، أو ربما في العاصمة، فيتحوّلون في هذه المدن أو العواصم إلى أوبئة يُحرّضون الناس على بعضهم بعضاً أو يُشكّلون أحزاباً متطرّفةً، أو يسعون إلى إحداث البلبلة، والفلتان الأمني في البلاد. ومن جهة أخرى يميل بعض منهم إلى الوصوليّة، فيفعل ما باستطاعته حتى يتقرَّب من الحُكّام

---

[1] صحيح البخاري

أو من بعض النافذين في الأنظمة، حتى يتم تعيينه في بعض المناصب. والنفاق متفرّع، فيمكن له أن يحوّل نفسه إلى بوقٍ للحاكم، ويؤيّده في كل شيء سواء أكان صواباً، أو كان خطأً. والأمر الآخر أن الحاكم الذي يريد أن يتجاوز في بعض الانتهاكات، يأتي بأحد هؤلاء كي يفتي له، لأن المدني المترعرع في تربية مدنيّةٍ مستنيرةٍ، لا يفتي له بذلك، بل يقول له بأن ذلك تجاوزاً، فيُبعده الحاكم عن منصبه، ويجعل البدوي بدلاً عنه، فيكون مرجعه في الفتاوى الجائرة، وفي انتهاكاته، أو اختلاساته، أو تصفية بعض المنتقدين، أو الاعتداءات المختلفة عليهم وعلى أسرهم، أو حجز حرياتهم، أو ممتلكاتهم، وذلك حتى يكفّوا عن الانتقاد.

﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. فإضافةً إلى: ﴿أَشَدُّ﴾. فهم أيضاً: ﴿وَأَجۡدَرُ﴾. أي ليسوا جديرين فحسب، بل: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. والجدير هو الأَولى. تقول أن فلاناً جدير بهذه المِنحة، لكن فلاناً هو أجدر، أي أكثر جدارةً منه بهذه المِنحة، وبذلك تكون الأولويّة له. من هنا فإن﴿وَأَجۡدَرُ﴾ في الآية يكون بمعنى أَولى. فهم يكونون الأوائل في ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. إذن: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. فهم أكثر الناس تجاوزاً على ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. وهذا كلامٌ دقيقٌ، ولذلك جاءت خاتمةُ الآية لتؤكّد هذه الدقّة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل ما تعلمون وما لا تعلمون ﴿حَكِيمٞ﴾. في بيان التفاصيل أمام الناس.

الباب الثامن والتسعون | المتربّصون

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ ٩٨

هذه الآية الكريمة تُبيّن قِسماً من ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. أي ﴿وَمِنَ﴾ مجموع ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾. الاتّخاذ، بمعنى أنه يأخذ من ما له كي يُنفقه، ولكن هذا الإنفاق لا يكون طوعاً ولا يكون في سبيل الله، بل يكون ﴿مَغۡرَمٗا﴾. أي لا يشعر بأنه يعطي الحق الذي أوجبه الله تعالى في ماله، بل يشعر بأنه يدفع غرامة عن كره ورغماً عنه، وهو لا يُريد أن يدفعها، وبذلك فهو ﴿يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾. دون إرادة، ودون قناعة بجدوى ﴿مَا يُنفِقُ﴾.

والكلمةُ من الإرغامِ، فشخصٌ يغرمك، أي يرغم عليك دفع غرامة، والغرامة تُدفَع عادةً دون رغبة، لأنها تكون مُرغمة عليه ويدفعها رغماً عنه، شاء أم أبى. فهذا القسم من مجموع ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الذي يُنبّه الله سبحانه تعالى إليه، هو: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾. فنظير الذي ينكر الإنفاق فيما سبق من الآيات، ويتذرّع كي لا يدفع، الآن قسمٌ جديدٌ لا يتذرّع، بل يُنفق، لكن دون إيمان بجدوى ما يُنفق، و﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾.

وعلى هذا النحو يبدأ تقسيم﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ بنحوٍ مُتفرّعٍ من الآية السابقة وهي الأولى في مِحوَر ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. وكما رأينا أنها مفتوحة: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾. هكذا بشكلٍ عامٍ. فالآن ومع هذه الآية الثانية، يبدأ الفرز من الخِطاب، وأوّل الفرز: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾.

لأنه إن رفض الإنفاق، يتبيَّن بأنه يُخالف التشريع الذي يدّعي بأنه يؤمن ويعمل به، فكيف يقول بأنه يؤمن بالتشريع، وكيف يأبى تنفيذه. فعندما يأتي جابي الزكاة إلى البادية، فإن هؤلاء أيضاً مع المسلمين يُخرجون زكاة أموالهم، لكن ليس إيماناً كما يفعل المُسلمون،

بل اضطراراً، وهم يشعرون بأنهم قد غُرِموا. ولذلك جاءت الجملة التالية مُفصحة عن مكنوناتهم: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾. يترقَّب أي فرصة تضعفوا فيها، أو يروا بأنهم استطاعوا أن ينالوا منكم، عندها يُظهرون غلّهم كلّه عليكم، ويفعلوا بكم من الأذى ما يستطيعوا أن يفعلوا. فهم أناسٌ انتقاميّون ينتظرون أي فرصةٍ سانحة للإيقاع بكم وإلحاق أفدح الأضرار بكم، وبذلك يشعرون بأنهم ينتقمون منكم. من هنا جاءت كلمة ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾. بالغة الدقّة، فالذي يتربَّص، هو ذاك الممتلئ حقداً، ولكنه غير قادر على التعبير عن حقده، أو يُحيل هذا الحقد إلى فعل، فيلبث في حالة تربّصٍ وهو ملغومٌ حِقداً، لاقتناص أي فرصةٍ كي يُفجّر لُغم حقده في المُتربّص به.

و﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾. في الآية، بمعنى: يتتبّعونكم على أمل أن تُصبحوا في دائرةٍ ضيّقةٍ، وعندها يأتون ويُضيّقون عليكم أكثر، ويسعون إلى النَيل منكم. وهؤلاء ما باتوا يُعرفون في زماننا بـ (الخلايا النائمة). فهم يعيشون في ظهرانينا، ويُظهرون أنهم معنا في السراء والضرّاء، والحقيقة أنهم أعداؤنا. ولمجرَّد حدوث خللٍ أمنيٍ بسيط، تراهم ينشطون، ويُسعّرون الاضطرابات، ويضعون أنفسهم تحتَ تصرّف أيدٍ خارجيّةٍ لتنفيذ التوجيهات، وهم بأنفسهم يحملون الأسلحة ويقتلون الناس الذين عاشوا في ظهرانيهم. ويمكن أن يحدث هذا سراً، كما يمكن أن يحدث علناً، وأحياناً يكون بالسلاح، وأحياناً من خلال التسعير الإعلامي.

والأمر يشمل كذلك الحالات الفرديّة، فيمكن لشخصٍ يعيش في حيٍ منذ سنواتٍ طويلةٍ، ويُظهر محبّته للسكّان، لكنه يُضمر عنهم حقده بهم، ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ بهم ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾. وعندما يتمكَّن من إلحاق أي أذى خلسةً، فإنه لا يتردَّد طرفة عين، فينتهك أعراض الجوار، ويسطو على أموالهم، ويبث فيهم الفتن. وإن اضطرَّ إلى بعض الأعمال النفعيّة، فإنه يفعلها ﴿مَغْرَمًا﴾. حتى لا يكتشف السكّان حقيقة غلّه. وهؤلاء لا يكتفون فقط بإلحاق الأذى بالكِبار، بل يفتكون حتى بالأطفال إذا تمكّنوا منهم.

هذه هي سورة التوبة، إنها سورة الحقائق الكُبرى التي يبيّنها الله سبحانه وتعالى، للناس، ويكشف النقاب عن معادن بعض الناس وفق تفاصيل بالغة الدقّة، ليكون كل شيءٍ على بيّنة، ويعيش الناس بأمانٍ وطمأنينةٍ، كونهم يكونون في إحاطةٍ وحذرٍ. فليس بالضرورة

أنك تحتاط من الذئب، فربّ شخصٍ قريبٍ منك، ينهشك ويفترسك، أو ينهش ويفترس أحد أفراء أسرتك بشكلٍ أسوأ مما يمكن لأي ذئبٍ أن يفعله.

فهي سورةٌ تُحذّرك من مغبّة الغفلة، وأن الضربة القاصمة يمكن أن تتلقّاها في الصميم نتيجة غفلة دقيقة واحدة في ظرفٍ ما، ومن شخصٍ لم تكن تحسب له حساباً، بل كنتَ تراه كل يوم، وتسلّم عليه ويُسلّم عليك، لكنه في الواقع كان يتربَّص هذه الغفلة منك. فيستغلّها بخفّةٍ وينال ما يريد منك، أومن مالك، أو من عرضك، أو من ولدك. فكما غفلتك في دقيقة، فهو ببالغ الخفّة في تلك الدقيقة يُنفّذ ماربه، لأنه يكون قد أمضى وقتاً وهو يتربَّص دون أن يتمكَّن، ولذلك يُسارع في أول فرصة تمكّن. وهؤلاء هم العدوانيون والشريرون الذين يتواجدون في كل زمانٍ ومكان، وهم عادةً يتربّصن بالخَيّرين.

﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾. هذا غضبٌ من الله ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾. وتوعّدٌ بأنهم سيقعون في سوء أعمالهم. ولذلك ترى أن هؤلاء لا يسلمون، بل يلقون الجزاء، فهو توعّدٌ بالاقتصاص منهم في الدنيا قبل الآخرة، لكنه في العين ذاته، تحذيرٌ للناس كي يحتاطوا منهم، وألاّ يجعلوا أنفسهم فرائس في أنياب هؤلاء.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، يسمع الله كل ما يقول هؤلاء في أنفسهم.﴿عَلِيمٌ﴾. بِما يفعلون مهما تّسمت أفعالهم بالسرّية.

الباب التاسع والتسعون | قاعدة الاستثناء

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ٩٩

هذه الآية تُبيِّن قِسماً آخر من مجموع ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. وهم: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. وهذا بيانٌ توضيحيٌ يخص الآية ما قبل السابقة في مبتدأ محور ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. و التي أتت عامةً: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

فإذن، ليس كل: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. بل من ضمنهم: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

وإذا كان منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾. كما ورد في الآية السابقة، فمنهم ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. رغم أنه نفس الإنفاق، لأن مقدار الزكاة بالنسبة للمغرَمين هو هو. لكن هناك كان دون نفاقٍ ودون إيمان، وهنا وفق يقينٍ وإيمان. فاستثنى الإيمان هذا القسم من ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. كونهم قد خرجوا عن الكفر والنفاق، إلى الإيمان والاستقامة. ويُستَنتَج من صفة العموم الواردة في الآية ما قبل السابقة وهي الأولى في هذا المحور، بأن سكّان البادية كانوا كفّاراً، وعندما أُنزِلَ القرآن، وبلغهم الشرع الإلهي، لبثوا في كفرهم، وادّعوا الإيمان نفاقاً. ولذلك وردت عبارة: ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾. على قدر ما تمسّكوا بالكفر بشدّة، وأصرّوا عليه بشدّة إلى درجة أنهم جعلوا أنفسهم منافقين حتى يلبثوا في كفرهم.

والآية السابقة التي تلتها قالت بأن منهم: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾. وليس هذا فحسب، بل: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾. تأكيداً على مدى تشدّدهم في الكفر.

﴿وَمِنَ﴾. في الآية السابقة، أعطتنا إشارة بأن﴿وَمِنَ﴾ أخرى سوف تعقبها، لأنها وردت تقسيميّة من المجموع. فالآن، جاءت الـ﴿وَمِنَ﴾. الثانية ومضمونها: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. آمَنَ بوحدانيّة الله عز وجل، وآمَنَ بنبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم، واستناداً إلى ذلك، خرج عن المجموع، وصارَ يُنفّذ التشريع عن إيمانٍ حقيقيٍ. وأفصحت جملة: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. عن حقيقة هذا الإيمان النقي الذي لا تشوبه شائبة. ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾. بصدقٍ من أمواله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فهم بهذا الإنفاق يبتغون أن يتقرّبوا﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

وجاءت﴿ عِندَ ﴾. بالغة الدقّة، وهذه إشارة على قوّة إيمانهم، وقوّة إخلاصهم في الإنفاق في سبيل الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾ القمر.

فلا يهمهم مَن رآهم، أو مَن لم يرهم، ما يهمهم بالدرجة الأولى أن الله عز وجل يراهم.

و﴿قُرُبَٰتٍ﴾. جمع قربة، جاءت جمعاً لأنهم يُداومون على الإنفاق.﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء٥٧.

لبثت صيغة الجمع في الآية، فجاءت الجملة التالية: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. بمعنى دعوات ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾. فيدعو لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل إنفاقٍ كانوا يُقدّمونه للنبي صلى الله عليه وسلم، كان يدعو لهم، ومع تكرار الإنفاق، يُصبح الدعاء دعوات، من أجل تحقيق هذه القربات التي أملوا فيها.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم عندما كان يأتون من البادية إلى المدينة في أوان الزكاة، ويُقدّمون له الزكاة حتى يوصلها إلى المستحقّين. ويُروى أن أبا أوفى عندما جاء بصدقته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "اللهم صل على آل أبي أوفى". والنبي صلى الله عليه وسلم ما كانت الصدقة تجوز له، فكان يوزّعها على أهل الاستحقاق دون أن يترك شيئاً منها لنفسه، أولأهله.

ثم جاءت البِشارة الكُبرى في الآية الكريمة بتحقيق هذه الأمنية لهم وفق وعدٍ قاطعٍ من الله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾.

ثم اختُتِمَت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾. يغفر ذنوبهم ويُطهّرهم منها كما لو أنهم لم يرتكبوها قط. ﴿رَّحِيمٌ﴾. يجعلهم في سعة رحمته التي وسعت أي ذنبٍ قد ارتكبوه.

الباب المائة | فضل الإحسان

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ١٠٠

السبق في عمل الخير يكون ممتازاً؛ لأنك تأخذ أجر ما تعمل من خير، وتأخذ أجر الاستباق إليه أيضاً، وهذا ما يكون لك وحدك دون غيرك. لأنك تكون قد سننتَ هذه السنة، والناس الذين يستنّون بها، يصيبك أيضاً أجر عملهم بها دون أن ينقص من أجورهم شيء، فالاستباق يكون بمنزلة وضع أساس هذا العمل الخيري.

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ"[1].

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾. النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر رضي الله عنه، كانا أوَّل المُهاجِرين دون أن يسبقهما أحدٌ قط. وكان أبو بكر؛ وهوعبد الله بن أبي قُحافة التَّيمي القُرَشي، مُلازِماً للنبي صلى الله عليه وسلم لحظةً بلحظة منذ الخطوة الأولى في طريق الهجرة إلى المدينة. وأبو بكر كما يُروى، هو أوَّل رجل آمَنَ بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن أم المؤمنين الكُبرى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، كانت أوَّل امرأة آمَنَت بنبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم. وهذا الشخصان قدّما الكثير للنبي صلى الله عليه وسلم في بدء نشر الدعوة، حيث كانت خديجة من عائلة متمكّنة، وكانت تاجرة غنية، وساندَت النبي صلى الله عليه وسلم بكل إمكاناتها المالية والمعنوية، وأنجبت أبناءه جميعاً باستثناء إبراهيم. وكان أبو بكر صديق طفولة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان تاجراً غنياً، وإضافة لذلك كان وجيهاً، ويثق بنضوجه وخبرته في الحياة الكثيرون. ونظراً لعلاقة الصداقة الوثيقة بينهما، فقد ذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1] صحيح مسلم

عندما أُنزِل عليه الوحي، وأبو بكر كان يصغره بسنتَين، أي كان إذ ذاك في الثامنة والثلاثين من عمره، فلم يتردَّد وقال: (صدقت). لأنه كان يخبر شخصيّة النبي صلى الله عليه وسلّم بحكم علاقة الصداقة الطويلة بينهما.

ثم استطاع أن يُقنع بعض معارفه وأصحابه عندما ذهب إليهم وشرح لهم عن نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم، ومن هؤلاء: طلحة، والزبير، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص. وبعد أن أقنعهم، جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلموا على يدَيه. كما أنه رضي الله عنه فيما بعد زوّجه من ابنته عائشة رضي الله عنها، وهو أوَّل المُبَشّرين بالجنة. وقد لقّبه النبي صلى الله عليه وسلم بالصدّيق، فغدا يُعرَف بهذا اللقب، واسمه. وبالنسبة لخديجة رضي الله عنها فقد تزوّجته قبل النبوّة، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت في نحو الأربعين من عمرها، وعندما أصبح في الأربعين، وأُنزِل عليه الوحي، آمَنت بنبوّته وآزرته.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ﴾. وهم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم الذين كان لهم السبق في الهجرة. ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾. كان لهم الأسبقيّة بالنصرة، نظير أسبقيّة ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾. فكانوا سبّاقين إلى استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإيمان به، ومؤازرته.

﴿ وَٱلۡأَنصَارِ﴾. جمع نصير، أي الناصر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الحشر ٩. ولمناصرة في الهجرة غاية في الأهميّة، كون المُهاجر يكون غريباً، فهؤلاء جعلهم يشعرون أنهم في موطنهم وبين أهاليهم، وبذلوا ما بوسعهم أن يبذلوا حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أصبحوا أيضاً من أعمدة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾. هذا هو القرآن الذي دوماً يجد فيه قارئ كل زمان ومكان نصيباً له، وهكذا يبقى القرآن مُتفاعِلاً مع الناس على مدار الزمن. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾. سلكوا مسلك ﴿ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾. واقتدوا بهم واستأنفوا مسيرة الدعوة بإخلاصٍ في العمل على نيّة الإيمان الصادق.

هنا لبث الأسبقيّة إلى عمل الخير لبثاً مفتوحاً ومتفرّعاً أمام الناس في مختلف مناحي الحياة، فيمكن لشخصٍ أن يكون سبّاقاً في إيجاد تقنية تمنع البرامج المؤذية من الوصول إلى أجهزة التواصل بين الناس.

يمكن لشخصٍ أن يؤسّس لمشروعٍ خيريٍ نافع لم يسبقه إلى ذلك أحد. يمكن لأناسٍ في منطقةٍ ما، يتّبعون بعض العادات والتقاليد التي تتعارَض مع الشرع الإلهي، فيكون شخصٌ أوَّل مَن يتجاوَز تلك العادات والتقاليد، ويعمل وفق الشرع. يمكن لشخصٍ أن يكون سبّاقاً في إماطة أذى عن طريق الناس، أو إيجاد سبيلٍ للماء لأناسٍ يُعانون العطش، وحتى في حيٍ صغيرٍ يمكن لشخصٍ ما أن يسنّ فيه سنّةً حسنةً، فيتّبعه الناس فيها. وهذا يشمل كل ما يُمكن له أن يُخفّف المُعاناةعن الناس، ويُحسّن حياتهم. لكن المهم في الأمر، ألاّ يكون ذلك إتجاراً، بل إحساناً لوجه الله تعالى، فيكون بفضل الله تعالى من ضمن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾. وبذلك يرتقي إلى مرتبة كِبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾. وهؤلاء جميعاً من أبناء كل زمانٍ ومكان: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾. ذلك أنهم متّبعو أولئك

﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾. فجعلهم الله عزوجل بفضله في ذات المرتبة. فرضوان الله لا يقتصر على أهل زمانٍ ومكان فحسب، بل يتّسع ليشمل أناس كل زمانٍ ومكان. وأن ما فعله أحد الصحابة من خيرٍ، وأثابه الله عليه، يمكن أن يفعله أي شخصٍ في أي زمانٍ ومكان، ويثيبه الله بمثل ثواب مَن صاحَبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. جاءت الجملة باللامَين التعريفيتين، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليس فوزٌ عظيم، بل ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. أي إنه أعظم فوز يمكن للإنسان أن يُحقّقه في حياته. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أنه ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. الذي لا فوز قط يبلغ مرتبته، وهو مُتاحٌ لأناس كل زمانٍ ومكان كي يفوزوا به.

الباب مائة وواحد | جزاء النفاق

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ١٠١

ضمن الصالحين الصادقين ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين يقطنون حول ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ يتواجد ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾ يدّعون الإيمان سواء عندما يأتون مع المؤمنين إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، أو عندما يكونون في مناطقهم ويدّعون الإيمان. ﴿وَمِمَّنْ﴾. تبعيضاً للكل، أي بعض الكُل الذين يقطنون ﴿حَوْلَكُم﴾. هؤلاء يدسّون أنفسهم بين صفوف المؤمنين ويدّعون الإيمان نفاقاً.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾. كذلك: ﴿وَمِنْ﴾ سكّان داخل ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي أنتم فيها: ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾. من كثر رسوخهم في ﴿ٱلنِّفَاقِ﴾. غدوا يُمارسونه بحرفيّة خبيثة ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾. شخصٌ يصلّي الصلوت الخمس خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويُخرج الزكاة، وما إلى ذلك من أركان الإسلام وشعائره، فيكون في المظهر مؤمناً، وفي الجوهر كافراً، وهذا هو النفاق. وفي الإسلام قاعدة هي الأخذ بالمظهر، لأن لا أحد يعلم حقيقة أحد، فقد ترى شخصاً في موضع نفاق، ويكون مؤمناً، وترى شخصاً في موضع إيمان، ويكون منافقاً، فالحل يكمن في الأخذ بالظاهر؛ تفادياً لمسائل التكفير وإثارة النعرات بين المسلمين.

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ"[1].

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

عن أنس بن مالك: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ"[1].

﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾. إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم سرائر الناس وخفاياهم، فيكون بذلك شأنهم مع الله، وليس بوسع أحدٍ أن يعلم حقيقة الإنسان سوى الله عز وجل. والكلام موجّه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾. وهذا تنبيه لهم كي يتراجعوا عن النفاق، وأنهم مهما استطاعوا أن يخفوا عن الناس نفاقهم، فإن الله يعلم ذلك، وهؤلاء ينتشرون في كل زمانٍ ومكان.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾. لعلّ العذاب هنا يكون أكثر، وهو عذاب الدنيا، مثل أن يلقى العذاب، فيتعافى، وبعد ذلك مرة أخرى يُعذّبه الله.

﴿ثُمَّ﴾ بعد أن يلقوا العذاب ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ في الدنيا ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وهو أشدّ من عذاب الدنيا. فكما أنهم جلبوا لأنفسهم عذاب الدنيا﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾. كذلك جلبوا لأنفسهم عذاب الآخرة العظيم. وهذا هو حصاد النفاق في الدنيا، والآخرة. وهذا هو وباله، لكن المهم أن ذلك لم يقع بالنسبة للمنافق، وهو بمنزلة التحذير الشديد كي يتلافى وقوعه عليه، ويصلح من شأنه. فهي دعوة للتراجع عن النفاق، والتوجّه إلى الله بالتوبة وتقديم العمل الصالح.

---

[1] صحيح البخاري

الباب مائة واثنان | أهميّة الاعتراف بالذنوب

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ١٠٢

﴿وَءَاخَرُونَ﴾. أُناسٌ غير المُنافقين، وهم مؤمنون لكنهم اقتدوا بالمنافقين في تقديم الأعذار غير الشرعيّة، ولعلّ ذلك يكون كسلاً، أو تقاعساً، أو حتى خوفاً، لكن ورغم ذلك لبثوا في إيمانهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم ينقطعوا عن تأدية الشعائر، وأدركوا أنهم بذلك أذنبوا، وندموا عن ارتكاب تلك الذنوب، فيخبر الله تعالى شأنه بأنهم: ﴿ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾. وهذا الإعتراف هو أساس الصلاح وأساس الاستقامة، فالإنسان مهما كان على صلاح، ومهما كان على استقامة، تبدر منه بعض الذنوب، والذي يقول أنه يعيش دون ذنوب، لا يكون كلامه دقيقاً.

ولذلك فإن المؤمن عندما يقع في ذنب، فإنه سرعان ما يستغفر الله على ما بدر منه، ويندم على ذلك، ويعود إلى جادة الصواب. وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحب هذا الإنسان الذي أقرّ بذنبه وتاب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ البقرة٢٢٢.

فالتائب هو ذاك الشخص غير المُصرّ على الذنب إذا ارتكبه، بل ينفر من ذنبه ويسأل الله المغفرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ آل عمران١٣٥.

وهنا يكون الاعتراف بالذنب، فقد: ﴿ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾. على قاعدة إيمانهم الحقيقي.

ونحن الآن في أجواء معركة تبوك، فهؤلاء بعد أن تخلّفوا عن الجِهاد لأسباب غير شرعيّة، صار هذا الإيمان الحيُّ الذي في قلوبهم، يؤنّبهم على التخلّف وقد تركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى الجهاد مع صحابته، وكان بوسعهم أن يذهبوا معه، وقد قدّرهم الله على ذلك، لكنهم ادّعوا عدم المقدرة.

الآن بدأت مشاعر التأنيب تتحرّك في دواخلهم، فكيف حصل ذلك، وهم يقعدون في بيوتهم كالنساء، والمرضى، والأطفال. ويُروى أنهم قالوا عند ذاك: (نكون في الظل مع النساء، ورسول الله، وأصحابه في الجهاد واللأواء، والله لنوقفن في السواري).
وقد لبثوا خارج بيوتهم وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وحلفوا ألّا يحلّوا أنفسهم، وألاّ يحلّهم أحد قط حتى يعود رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجهاد، ويحلّهم بنفسه.
وهم: الجد بن قيس، وكردم، وأرس بن ثعلبة، ووديعة بن حزام، ومرداس، وأبوقيس، وأبو لبابة. وعند عودة النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك قيل له بأن هؤلاء حلفوا ألاّ يحلّهم غيره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أأمر بإطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين".
ونزلت عليه هذه الآية، فحلّهم.

هنا لا بدّ من الأخذ بتغيير معاني الكلمات وفق الزمن، أو وفق المجتمع الذي يستخدم هذه الكلمات. فبعض الكلمات تكون معانيها إيجابيّة عند بعض المجتمعات، ولكنها تكون سلبيّة عند مجتمعاتٍ أخرى، رغم أنها ذات الكلمات. وكذلك فإن عامل الزمَن أيضاً يجعل بعض معاني الكلمات تتغيّر. وهذا ما أريد أن أقوله في مسألة كلمة الغزو.
ففي السابق كان الغزو يعني المعركة التي يقوم بها طرفٌ لمواجهة جيشٍ يأتي ليحتلّه. لكن في وقتنا أصبحَت الكلمة تعني العكس تماماً، أي المعركة التي يقوم بها جيشٌ لاحتلال أراضي الآخرين، والسيطرة على الناس والممتلكات. والدليل أن معركة تبوك كانت لردّ جيش العدوان الروماني من غزو المسلمين، ورغم ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في نص الحديث: "رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين".
والحقيقة أنه صلى الله عليه وسلم لم يذهب ليغزو، وفق مفهوم الكلمة في زماننا، بل إنه ذهب ليصدّ الغزو الذي أراده الجيش الروماني، وقد تقدَّم بالفعل نحو ديار المسلمين ووصل إلى الأردن. فهم لم يذهبوا إلى الشعب الروماني لاحتلاله في أرضه، بل ليُخرِجوا الجيش الروماني المسلَّح من أراضي المسلمين. والدليل أن الكلمة لا تُستَخدَم في وصف الغُزاة الحقيقيين، فلا يُقال غزوات الرومان مثلاً. بل غزوات المسلمين.
وفي معركة بدر كان المسلمون قد ذهبوا إلى المدينة، وجيش المشركين أراد أن يلحق بهم

إلى هناك، ولم يقل بأنها غزوة المشركين، بل غزوة المسلمين الذين تصدّوا لهم ووقعت المعركة بين مكة والمدينة، في المكان الذي كان جيش المشركين قد وصله قادماً لغزو المسلمين في المدينة. من هنا فإنها مُغالَطة عندما نقول غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، ونقصد بها المعنى الحالي للغزو. فهي إذن معارك النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك يُعدّ الغزو جِهاداً، بمعنى المشاركة في معركة صدّ العدوان عن المجتمع، وليس شنّ العدوان لاحتلال أراضي الآخرين.

تبيِّن الآية الكريمة بأن الإنسان المؤمن يمكن له أن يَزِلَّ في لحظة ضعف ما، أو لفكرة ما خطرت له، لكنه يندم على الفور. لكن بعضهم قد يستصغر بعض الذنوب، فيستمر فيها. لكن مع التكرار تتراكم هذه الصغائر على بعضها بعضاً. عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ"، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلا: "كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا"[1].

لأن الصغائر أيضاً من شأنها في حال المداومة عليها، أن تؤدّي إلى الكبائر. والله عز وجل يقبل التوبة عن الكبيرة، ويقبلها عن الصغيرة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝﴾ الشورى٢٥.

والإنسان الذي يتوب بكل الأحوال هو خيرٌ من الذي لا يتوب سواء أكان الذنب كبيراً أو صغيراً.عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون"[2].

وما يمكنك أن تستنتجه من هذه الآية الكريمة في حياتك اليومية، لأن أسباب النزول تكون مُتفرّعة على مدار الزمن، فأحياناً يُخطئ الإنسان في ظرفٍ ما، لكنه بعد قليل، يتبيَّن له بأنه كان على خطأ في تصرّفه بحقّك، وانه تسرَّع في ذلك، فيأتيك ويُقدّم لك الإعتذار. هنا عليك أن تتيح له فرصة العودة إلى جادة الصواب، وتمنحه فرصة أن يُصلح خطأه،

---

[1] رواه أحمد

[2] رواه الترمذي وابن ماجه

لا أن تأخذ موقفاً حاسماً منه، وترفض حتى أن تستمع منه إلى كلمةٍ واحدةٍ. فعلّك ترى خيراً كثيراً من هذا الشخص الذي سبق له أن أخطأ بحقّك. ودوماً يكمن الخير في العفو، وأن الله عز وجل يعوّض الإنسان الذي يعفو خالصاً في سبيله.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾. تبيّن خاتمة الآية الكريمة بأن هؤلاء كانوا بالفعل صالحين، ولكن بدرت منه تلك الذنوب، فانتبهوا إلى ذلك وتراجعوا، و﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾ بندمٍ شديدٍ ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾. وما هي هذه الذنوب؟

هي: أنّهم ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ عملوه بإخلاصٍ لوجه الله تعالى ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾. عملوه الآن. فأحسّوا أنهم أقحموا هذا العمل السيّء على عملهم الصالح، وأرادوا أن يتطهّروا منه من خلال الإعتراف أمام الله، وأمام الناس﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾.

والتوبة غير مُشتَرَطة أن تكون أمام الناس، لكنها هنا حصلت أمام الناس، لأنهم رأوا أن جنس الذنب كان يتطلّب ذلك حتى يستطيعوا أن يستمرّوا في المجتمع، كما لو أنهم لم يرتكبوا ذلك الذنب.

فهذا الاعتراف العلني من شأنه أن يجعل الناس يثقون بندمهم، لكن بعض الذنوب يُكتَفى بالاعتراف بالذنب أمام الله فقط، دون أن يفضح الإنسان نفسه، أن يتسبّب في إحداث عداوات مع بعض الذين أخطأ بحقهم دون أن يعلموا، فيُصلح ما أمكنه من الخطأ. كما أن بعض الأخطاء في حال الاعتراف بها قد تؤدّي إلى إحداث ردود أفعال، مثل الاعتراف بالزنا، فهنا تكون الأولويّة للتوبة والستر، وعدم الاعتراف حتى لو حامت حوله شبهات، لأن الله قد ستره، وستر تلك المرأة. وقد منحهما الله عز وجل فرصة أن يتوبا ويصلحا كما لو أن شيئاً لم يحدث، وهذا شأن الله مع عباده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾. عن أي ذنب ارتكبه الإنسان مهما كان كبيراً، أو صغيراً.

الباب مائة وثلاثة | منزلة الصَدَقة

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ١٠٣

تُبيِّن الآية الكريمة بأنهم لم يكتفوا بذلك بعد أن حلّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أتوا ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إليه. ويُروى أنهم قالوا: (هذه أموالنا التي خلفتنا، فتصدّق بها وطهّرنا، فقال: "ماأُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً". فنزلت ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ﴾. التطهير هنا، مِن حبّ المال الذي أعاقهم عن المُشارَكة في جِهاد تبوك. وهنا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كما أمره الله، ولكن لم يأخذ كل ﴿ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ لأن الآية قالت: ﴿ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. ويُروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ﴿ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ فقط الثلث، وترك لهم الثلثَين، وبذلك يكون قد أخذ ﴿ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. وفق ﴿ مِنۡ﴾. ولعلّه كان يمكن أن يأخذ النصف، أو الثلثَين أو أكثر، لأن ﴿ مِنۡ﴾. مفتوحة تشمل أي جزءٍ ﴿ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. التي أتوا بها إليه. ولننظر رأفة الله عز وجل بهم حيث أمَرَ بـ الـ ﴿ مِنۡ﴾. دون الكل الذي أتوا به. فلم يقل: ﴿خُذۡ﴾ ﴿ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. بل ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. ثم إلى تقليل هذا الـ ﴿ مِنۡ﴾. إلى الثلث من قِبَل النبي صلى الله عليه وسلّم. وهذا الثلث يكون للتصدّق به على المستحقّين.

﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. التزكية هي التأهيل، فأنتَ تُزكّي فُلاناً لعملٍ ما، أي تؤهّله له.

من هنا فإن الصدقة هي تطهيرٌ للإنسان من ذنبٍ ارتكبه، وكذلك تجعله مؤهَّلاً للندم على ذاك الذنب، ليستأنف حياته في صلاحٍ كما لو أن ذاك الذنب لم يكن: ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ هود ١١٤. فالإنسان الذي يُريد التوبة، يرى باب التوبة مفتوحاً أمامه في أي وقت، وبعد أي ذنب مهما كان. وليس بوسع أحدٍ أن يُغلق باب الله هذا أمامه.

﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾. الصلاة هنا الدعاء، فهم عندما يستمعون إلى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالمغفرة، يتشجّعون أكثر للاستمرار. وقد بيَّن الله تعالى شأنه، الغاية من الدُعاء في الجملة التي تليها: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾. أي يشعروا بالسَكينة النفسيّة بعد الاضطراب النفسي الذي عانوه، فتطمئن قلوبهم وتهدأ روعاتهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل ما يقولوه سراً وعلانية. ﴿عَلِيمٌ﴾. بكل عملٍ يعملونه سراً وعلانية.

الباب مائة وأربعة | بين الله والإنسان

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ١٠٤

بيانٌ من الله سبحانه وتعالى للناس جميعاً، تائبين وغير تائبين، بأنه: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. مهما أسرفوا على أنفسهم، ومهما تعاظَمَت بهم ذنوبهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾. بمعنى: اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾. وجاءت ﴿هُوَ﴾. تأكيداً وتثبيتاً بأن ﴿ٱلتَّوْبَةَ﴾ تكون بين العبد وربّه. وكان يمكن أن يكون السياق دون ﴿هُوَ﴾. ويبقى المعنى. لكن ﴿هُوَ﴾. بعزّته وجلاله ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. في علاقةٍ مُباشرةٍ بذات في ذات الثواني التي يتوب فيها الإنسان، دون أية وساطة. وجاءت ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. كذلك لتُشعِر الإنسان أكثر بقربه إلى الله، وقرب الله إليه، بقربٍ أقرب من أي قُرب.

و﴿عَنْ﴾. هنا أكثر دقّةً في صلب المَعنى. فلو قال: من ﴿عِبَادِهِۦ﴾. فلا يكون بوزن ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. بمعنى التوبة التي تصدر ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. بصدقٍ وإخلاص نيّةٍ.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. بعد أن يتوب الإنسان، يُنفق من ماله في سبيل الله. وهنا بيانٌ بأن هذه الصدقات يحفظها له الله عز وجل. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الصدقة قد تكون قدر اللقمة يأخذها الله بيمينه فيربيها لأحدكم، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل".

فلا أحد يقول أو يعتقد بأن الله لا يقبل صدقاته، بل: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

وهذا عهدٌ من الله بأن كل ما ينفقه الإنسان خالصاً في سبيل الله تعالى، يُقبَل. فرغم أنك تكون قد أطعمتَ مُحتاجاً، أو كسوته، أو قدمتَ له مبلغاً مالياً كصدقةٍ لوجه الله تعالى، فإن الله يأخذها من يدك في ذات اللحظة التي تضعها في يد المُحتاج.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. يعدك الله تبارك وتعالى بأن هذا كله يكون لك، مهما بدرت منك ذنوب سابقة. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الذي فتح باب﴿ ٱلتَّوۡبَةَ ﴾. وليس بمقدور أحدٍ أن يغلقه، ولا ذنب قط مهما تعاظَم يضيق به باب التوبه. ولذلك اختُتِمَت الآية الكريمة بـ ﴿ ٱلرَّحِيمُ﴾. لأن رحمته وسعت كل ذنب ارتكبه الإنسان وتاب عنه.

الباب مائة وخمسة | صلاح العمل

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ١٠٥

ما تزال البشائر تتوالى، وعهود الله للإنسان تتوالى.

﴿وَقُلِ﴾. يا محمّد لعِبادي: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ الخير ما استطعتم ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾. فالإنسان يُعرَف بعمله، وهو يمثّل عمله كما أن عمله يُمثّله. وهنا دعوة من الله جلّ شأنه ليُقدّم الإنسان أعمالا صالحةً، لأنه يرتقي بقدر ما يُقدّم من أعمالٍ صالحة، كما أنه ينحدر بقدر ما يُقدّم من أعمالٍ فاسدة.

والآيةُ تُخاطِب الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لكن يبقى ذلك مفتوحاً على مدار الزمن، فإن الله عز وجل يرى الأعمال، ويُري ما يشاء للمؤمنين، فيُعرَف الناس بأعمالهم.

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ عنـــــــــد ذاك ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. يضعكم أمام أعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

الباب مائة وستة | الرجاء

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ١٠٦

الرجاء هو محوَر هذه الآية الكريمة، ويمكن أن نقول بأنها آية الرجاء بامتياز، وألاّ يفقد الإنسانُ الأملَ برجاء الله سبحانه وتعالى، حتى بالنسبة للذين لم يتوبوا. أجل فإن الله عز وجل يُبقي الأمل حتى في قلوب أولئك. فلا جواز لأحدٍ أن يقول بأن فلاناً في النار، مهما كان عاصياً في حياته. فهنا ليس بوسع أحدٍ أن يحسم حكم الله بحقّه، لأنه يدخل ضمن: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾ مؤخّرون انتظاراً ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. وفحوى الأمر هو: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ﴾. فإذن يوجد احتمال الـ﴿إِمَّا﴾ الأولى، كما يوجد احتمال الـ﴿وَإِمَّا﴾ الثانية. فهي ﴿إِمَّا﴾ احتماليّة خاضعة لمشيئة الله عز شأنه، وليست حاسمة للأولى، أو للثانية. ومن هنا فلا يجوز لأحدٍ قط أن يحسم أمراً لم يحسمه الله، بل تركه لمشيئته وفق ﴿إِمَّا﴾ أو ﴿وَإِمَّا﴾.

ولكن هناك استثناء واحدٌ في هذه القاعدة، وهو الشرك، والإصرار عليه حتى النهاية دون تراجع. وذلك بمقتضى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ النساء٤٨. لكن المشرك يمكن له أن يتراجع عن شركه ويتوب، وبذلك لم يعد مشركاً، وبعض الصحابة كانوا مشركين ولكنهم تابوا، ويبقى باب التوبة مفتوحاً أمام أي مشركٍ في كل زمانٍ ومكان. وجملة: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾. تتكامل مع هذه الآية، ويدخل ضمن ذلك كل ما هو دون الشرك، فمغفرة الله عز وجل مرجوّة لهم. وبذلك لا جواز للتدخّل في شأن مغفرة الله مع عباده.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلِيَّ أنْ لا أغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ"[1].

---

[1] رواه مسلم

فإذن، نحن في هذه الآية الكريمة مع فرزٍ ثالثٍ تفرزه سورة التوبة، فبعد المُنافقين الذين ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾. كما في الآية ١٠١. ثم الذين تابوا: ﴿ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾. كما في الآية١٠٢.

الآن تم فرز الموقوفين. لماذا؟

لأنهم نظير ذلك لبثوا متردّدين في الاعتذار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهم مؤمنون، وليسوا منافقين، ولكنهم تخلّوا عن الاستجابة للتشريع بالذهاب إلى الجهاد في تبوك، تكاسلاً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. يعلم الله ما يحدث مع الناس، وكل ما يأتي منه يكون وفق حكمة.

الباب مائة وسبعة | الحذر من مظاهر نقيض الجواهر

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ١٠٧

يبلغ النفاق بأشخاصٍ أن يبنوا ﴿مَسۡجِدٗا﴾ حتى يجعلوا الناس يثقون بادّعاءاتهم الإيمانيّة، فيمكن لمُنافقٍ أن يبني ﴿مَسۡجِدٗا﴾. ويمكن لمنافقٍ أن يكون إماماً، أو خطيباً، أو مُفتيّاً. أن يتزيّا بأزياء تُشير إلى مدى تديّنه، ويكون في الجوهر عدوَّ الدين، ويستخدم الدين لتحقيق مآربه. هذه الآية تفضح هؤلاء، وهم فئة جديدة تُطلِعنا السورة عليها ضمن فرزها لشرائح الناس. وهكذا تتبيَّن لنا مقامات الناس ودرجاتهم سواء في السلب، أو في الإيجاب. وهذا كلّه يُزيد قارئ القرآن وعياً واستنارةً وانفتاحاً ونضجاً.

تأتي الآية الكريمة بمثالٍ واقعيٍ جرى على أرض الواقع لأناسٍ من المُنافقين: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ بنوا ﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ ليلحقوا به الضرر بقوّة المؤمنين. ﴿وَكُفۡرٗا﴾ لنشر الكفر بدل الإيمان. ﴿وَتَفۡرِيقَۢا﴾ للجمع الذي حصل في مسجد قباء ﴿بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. حيث كانوا يجتمعون ويُصلّون في المسجد جماعةً. فأراد المُنافقون تفتيت هذا الجمع وتشتيته من خلال بناء مسجد قريب من بيوت بعض المسلمين الذين كانوا يقطعون مسافة طويلة حتى يصلوا إلى مسجد قباء. وقد استغلّوا ذلك حتى يتفرّدوا بهؤلاء في مسجدهم هذا، ويدعونهم للردّة عن الإسلام. ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾. الإرصاد هنا، بمعنى أنهم كانوا يترصّدون المسلمين نيابةً عن شخصٍ مُرصَدٍ له ليُحققوا غايته. وجاءت كلمة الإرصاد هنا دقيقة، وهي الترقّب الدقيق والمُركَّز. وهذا الشخص يظهر الآن في السورة، وتبيِّن الآية بأنه كان على عداوة سابقة مع الإسلام، و﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

ولكن لماذا﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ لهذا الشخص؟. لأنه لم يكن موجوداً في المدينة، فكان هؤلاء المُنافقون؛ ويُروى أنهم كانوا اثني عشر شخصاً في المدينة يأتمرون بأمره، وكان يُحرّكهم

وفقما يريد، ويمدّهم بالدعم. وهو أبو عامر الراهب، لكنه لم يكن مُنافِقاً، وكان يُعادي المسلمين علناً دون أن يتظاهر بالإيمان نفاقاً. وهو رجل من الخزرج ومن سكّان المدينة القُدامى قبل أن يأتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مُهاجِراً، وكان قد تنصَّر. وعندما أتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجهه هذا الرجل علناً بالإنكار وقال له: (ماهذا الذي جئتَ به. قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "جئتُ بالحنيفيّة دين إبراهيم". قال أبو عامر: فإنّا عليها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لستَ عليها".

فحارَب النبي صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب، ومع ثقيف وهوازن. تقول الآية الكريمة﴿ مِن قَبۡلُۚ ﴾. أي﴿ مِن قَبۡلُ ﴾. بناء هذا المسجد.

﴿ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾. يعود الصوت إلى رجال أبي عامر الراهب، فبعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك، يحلفون له بأنهم أرادوا أن يُحسنوا من خلال بنائهم هذا المسجد، فتأتي شهادة الله تعالى بكذبهم: ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

جاءت شهادة الله، لأنهم ادّعوا أنهم بنوا بيتاً لله، وهم أبعد ما يكونون عن الله عز وجل، بل أرادوا عكس ﴿ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾. تماماً، أرادوا السوء بالمسلمين، وان يُفرّقوهم ويبثّوا فيهم الفتنة من خلال هذا المسجد المُزوَّر الذي ادّعوا أنه بيت الله، وذلك من خلال مظهره الذي هو مظهر لبيت الله، وكان مجمع بن جارية يصلّي بهم، وهو أحد الذين بنوا هذا المسجد. فكم من مسجدٍ له أناقة المسجد، وقبّة المسجد، ومئذنة المسجد، وفرش المسجد، وإمام وخطيب المسجد، لكنه في الواقع يُدار لبث الفتنة في الناس، لتحريض الناس على بعضهم البعض، لإشاعة المفاهيم المتطرّفة وإقحامها على الدين، لإلحاق أفدح الأضرار بالناس، وهولا يقل ﴿ ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. من هذا المسجد الذي تبرّأ منه الله عز وجل.

وجاءت كلمة: ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾. بصيغة المضارع لبيان أن ذلك ممكناً في كل زمانٍ ومكان، فتبقى شهادة الله لِمَن يقومون بإدارته: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾. مهما حلفوا ﴿ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾.

الباب مائة وثمانية | مؤازرة المُتّقين

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ ١٠٨

عندما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الجِهاد في تبوك، طلب منه المُنافقون كي يصلّي في هذا المسجد، ورأوا أنه صلى الله عليه وسلم إذا جاء وصلّى فيه بالفعل، سيكون مثله مثل مسجد قباء، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون قد باركه بالصلاة فيه. وهكذا تتضاعف أعداد لناس الذين سوف يجتمعون للصلاة فيه، وبذلك يتمكّنون من التفرّد بهم، وبث الفتن والانشقاقات فيهم. فجاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين كما يُروى: (بنينا مسجداً لذي العلّة والليلة المطيرة ونحن نحب أن تصلّي لنا فيه).

لم يكتفوا بكل ما فعلوه، بل أرادوا أن يحصلوا على تأييدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما لو أن الله لا يراهم ولا يسمعهم، فأوحى الله إلى رسوله بيان الواقع: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾. وكلمة ﴿أَبَدٗاۚ﴾. هنا تبقى مفتوحة للمستقبل. فيجوز أن تشمل صالحي أمّة محمّد صلى الله عليه وسلم في كل زمانٍ ومكان بأخذ الحذر والحيطة من هذه المساجد، التي يبنيها أو يديرها المُنافقون، وهي تتّخذ هيأة بيوت الله مظهراً، ولكنها أبعد ما تكون عن بيوت الله جوهراً. ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾. لأنه مسجد مُعدّ بأكمله وبشكب مُمَنهَج لوظيفة إلحاق الضر بالمسلمين.

ونظير ذلك: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾.

أي منذ اليوم الأول لتأسيسه، وهو مسجد يدعو إلى توحيد المسلمين: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾. من المسجد الضرار والكفر والتفريق ذاك. ﴿فِيهِ﴾. في هذا المسجد المؤسَّس ﴿عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾: ﴿رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ من آثام وبراثن الجاهليّة. فهؤلاء عندما جاء الإسلام، آمنوا به وتركوا الماضي الأثيم كلّه خلفهم.

و: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾. أي جاؤوا عن حب، وليس عن كره، فقد حُبّب إليهم الإيمان، فأتوا مسجد قباء كي ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾. بطهارة الإسلام. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾. هنا وكما أن الله عز وجل شهد لأولئك المُنافقين بالكذب، بشَّرَ هؤلاء بحبه لهم، وهذه بشارة عظيمة من الله بأنه يحب كلّ مَن يحب أن يتطهر من آثامه.

الباب مائة وتسعة | الهداية

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ١٠٩

هذه الآية الكريمة تُعزّز مسؤوليّة الإنسان تّجاه حياته، وأن يأخذ هذه الحياة بجدّية، ويكدّ ويُطافح فيها حتى يُحقّق المُنجزات تلو المُنجزات، ويثبت لربه بأنه جدير بهذه الحياة التي وهبها له.

الكلمة الأولى من الآية، دقيقة جداً وتتّسم بعمق المعنى، حتى إن كل حرف منها بحدّ ذاته يكتنز بقوّة المعنى. وكان يمكن أن تكون: (فَمَن). أو (أَمَن). لكن: ﴿أَفَمَنْ﴾. تجتمع فيها مئات الأسئلة المُتفرّعة على صيغة سؤالٍ واحدٍ. كما لو أن الآية الكريمة تقول لك: واجه نفسك بهذا السؤال، اطرحه على نفسك، ثم أجب عليه.

فجاءت كلمة المُفتتَح على شكل سؤالٍ عامٍ مفتوحٍ وعامٍ يشمل الناس جميعاً في كل الأزمنة والأمكنة.

الأمر الآخر، فإن الآية تُحيلك إلى التاريخ البشري لِتَنظر إلى سِيَر الصالحين، وسِيَر الفاسدين، سِيَر المُنتصرين، وسِيَر المُنهزمين. ثم تنظر إلى واقعك الذي تعيش فيه، فترى أصحاب المنافع الكُبرى لأنفسهم وللناس، وأصحاب الكوارث الكُبرى بأنفسهم وبالناس، في مختلف المستويات ومجالات الحياة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾. وضع منهاج حياته ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ وفق تشريع ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ بفعل ما يُرضي ﴿ٱللَّهِ﴾ وتجنّب ما لا يُرضيه: ﴿خَيْرٌ﴾ لنفسه وللناس ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ وضع منهاج حياته ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ كجرف السيل الذي يجرف ما يأتي بطريقه ويقتلعه من أصله، أي هو الآن على وشك أن ينجرف، وهذا الشخص يكون قد وضع نفسه على حافة وادٍ عميقٍ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ جاء هذا الجرف وجرفه أولاً في ذاك الوادي السحيق في الدنيا، وفي الآخرة ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

ونظير ذلك، فالمُحتاط الذي لم يؤسّس ﴿بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾. بل: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾. يكون في مأمنٍ سواء في الدنيا، أو في الآخرة. فهل هذا هو﴿خَيْرٌ﴾. أم ذاك؟

هذا هو السؤال الكبير الذي تطرحه الآية الكريمة عليك، وتدعوك أن تطرحه على نفسك، وأنت تنظر سواء إلى نماذج من التاريخ البشري، أو في حياتك المُعاصرة.

ثم اختُتِمَت الآية الكريمة بخاتمةٍ بيانيّةٍ تُنير لك طريق حياتك: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فتحذَر كل الحذر سواء أن تُلحق الظلم بنفسك، أو بغيرك، لأن هذا الظلم سوف يُبعدك عن هداية الله لك حتى يترسّخ سلوك الظلم فيك، وتؤسّس بُنيانك ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾. وتكون قد خسرتَ كل ذاك الخير الذي كان مُتاحاً بين يدَيك، إذا أسّستَ بُنيانك﴿ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾. وقد فاز به غيرك.

و﴿خَيْرٌ﴾. هنا ما ينعم به الإنسان في الدنيا، وكذلك في الآخرة. وهذا هو الخير الذي يعد به الله عز وجل عباده المتّقين الذين يبتغون رضوانه.

هذا مثالٌ يضربه الله سبحانه وتعالى من خلال هذه الواقعة، وهي واقعة بناء المسجد الضرار الذي بناه المنافقون.

الباب مائة وعشرة | بُنيان النفع وبُنيان الضر

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ١١٠

كما أن المُتّقي يكون مُستقرّاً يعيش في مأمنٍ في حياته، فإن المُنحَرف عن التقوى يكون مُرتاباً يعيش في اضطرابٍ حياته، فقلوب هؤلاء تكون مرتابة غير آمنة وغير مستكينة. وجاءت كلمة

﴿تَقَطَّعَ﴾. دقيقة جداً، وهي مقترنة بالكلمة الأولى ﴿لَا يَزَالُ﴾. فالتقطّع يبقى ما دام الإنسانُ﴿لَا يَزَالُ﴾ مستمرّاً في المعاصي دون أن يتوب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل هذه المعاناة التي جلبوها لأنفسهم بأنفسهم ﴿حَكِيمٌ﴾. بأمر هدم البنيان الذي يظهر أنه المسجد، حيث تم هدم هذا المسجد.

والبنيان هنا هو رمز لكل بنيانٍ يلحق الضرر بالناس، وكان يمكن القول: (مسجدهم) ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾. لكن: ﴿بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾. فيه سعة ليشمل كل بنيان يُبنى بعد ذلك ويتأذّى الناس منه.

الباب مائة وأحد عشر | المؤمنون

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ١١١

الشراء هنا بمعنى أن يُخضع الإنسان نفسه لتشريع الله، ويجعل هذا التشريع منهاجاً لحياته.

عندما يفعل هذا، فإنه يكون مؤمناً، ولذلك جاء: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالمؤمن هو الشخص الذي يشعر بالأمان وفق درجات امتثاله لشرع الله، ولذلك فهو يريد أن يمتثل أكثر، كي يشعر بالأمان أكثر، وعندها يرتقي في درجات إيمانه. على هذا النحو يتفاعل مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾. وثواب الله نظير امتثال ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. لشريعته هو: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. ولكن كيف يكون الشراء؟.

يأتي البيان في الجملة التالية من الآية الكريمة: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. استناداً على أنهم اعتبروا أنفسهم جنوداً ﴿ٱللَّهِ﴾. وجملة: ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هنا بالغة الدقة، أي يكون القِتال مُقتصراً على أولئك الذين يمنعون المُسلمين من أداء شعائرهم، فيكون القِتال من أجل السماح لهم بأداء هذه الشعائر، وعندما يتحقّق لهم ذلك، يتوقّفوا عن القِتال. من هنا فإن قتال المسلم للكافر لا يكون﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ما دام لا يمنعه من أداء شعائره الدينيّة، بل يكون لغاياتٍ ومآرب دنيويّة. وكذلك الأمر إن قاتل المسلم مسلماً، ما دام لا يمنع المسلمين من أداء شعائرهم الدينيّة.

﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾. هذه الآيات التي يرد فيها القِتال بالغة الدقّة، وبالغة التركيز الشديد على الحالة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس ليسلّطهم على بعضهم بعضاً، بل خلقهم ليحبوا بعضهم بعضاً ويتسامحوا ويتكاتفوا مع بعضهم بعضاً. فأتت بعض التفاسير التي تجعل الناس في عداوة بين بعضهم بعضاً، بسبب المُتَقَد، والحقيقة فإن المُعتقدات مكفولة في الإسلام مهما كانت، والقرآن يدعو إلى التعايش السلمي بين المسلمين

وبين المشركين، والكفار، ومختلف المعتقدات، ولا يحق لأي مسلمٍ أن يُكره أحداً على الإسلام رغماً عنه. وإذا فعل ذلك يكون قد خرج عن تعاليم الإسلام. فالذي يُقاتل كما تبيّن الآية الكريمة، يكون على استعدادٍ أن يقتل، أو يُقتَل. وهنا تحذير بالغ الدقّة، ففي حال أن ذلك لا يكون﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي يقتل أشخاصاً لأهداف أخرى، تلبيةً لأوامر حزبيّة، أو ما إلى ذلك، وأن أولئك الأشخاص لم يكونوا ليمنعوا المسلمين من شعائرهم، بل لعلّهم من المسلمين الذين يؤدّون هذه الشعائر. وهنا لا يكون هذا القِتال جِهاداً﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. بل يكون انتهاكاً لحدود الله، وبذلك يكون قاتلاً مُحترفاً لتحقيق مآربه.

وكذلك إذا قُتِل، فيكون مجرماً أراد أن يقتل ظلماً وعدواناً، فلقي حتفه في ساحة الجريمة.

فإن تحقّقت الغاية الدقيقة والمركّزة من قتالهم﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هنا يعدهم الله: ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾. يكون لهم حق عند الله وفق هذا الوعد: ﴿ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾. فهذه الكتب السماوية الثلاثة تجمع على هذا الحق، وهو وعدٌ من الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾. أكيد لا أحد على الإطلاق ﴿ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾. لأن لا أحد يقدر على ما يقدر عليه الله عز وجل، فمهما عاهد أي إنسانٍ، حتى لو كان يحكم الأرض كلها، فيمكن أن يحصل ما يمنعه من الوفاء بما عاهَد. لكن الله سبحانه وتعالى يفي ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾. ومجرّد العهد من الله عز وجل، إنما هو وفاء مُحقَّق لا محالة بالنسبة لِمَن لهم حقوق أحقّها الله لهم. فأي إنسانٍ مهما كان على ذنوب، عند التوبة يكون له عهد من الله بالمغفرة.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾الأنفال٣٨. وهذه هي عظمة الله، فأي عمل صالح يفعله الإنسان يُثاب عليه، لكن كل تلك الذنوب التي ارتكبها، يرفعها الله عز وجل عنه إذا تاب، كما لو أنه لم يرتكبها. ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾. خذوا البشارة بهذا العهد. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العهد الذي تظفرون به من الله ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾. الذي أتاحه الله أمام الإنسان.

الباب مائة واثنا عشر | الحدود

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١١٢

جاء في الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾.

الآن تتّسع تلك الآية بهذه الآية التي نرى أنها مرادفة لها، والعطف لم يأت في مبتدأ الآية، بل في منتهاها، والعطف في خاتمة هذه الآية يعود إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. في الآية السابقة، وبذات الوقت شملت الأوصاف التي أرودتها هذه الآية. أي: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. الذين يتّسمون بالصفات التي ذكرتها الآية الكريمة. فمَن هم الذين يُبشّرهم الله، لتتّسع الآية السابقة التي قالت للبائعين: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾.

هم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾. الذين ارتكبوا ذنوباً سواء من المؤمنين، أو الكفار، أو المشركين، أوالمنافقين، الملحدين، وما إلى ذلك. فالتّائب هو النادم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾. الذين ندموا عمّا كانوا على تجاوزات لحدود الله، وكفّوا عنها، ثم رجعوا إلى الله تائبين يرجونه المغفرة. فهذه بشارةٌ عظيمة من الله عز وجل، لهم.

﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾. مهما كانت التوبة سليمة وبنيّة صادقة، عليها أن تتفاعل من خلال العمل، كي لا تبقى محض أقوال، بل تُترجم إلى أفعال، وهي العبادة. أي عندما تُقدّم عملاً، تُقدّمه بنيّةٍ خالصةٍ لله تعالى، حتى إذا أمَطتَ أذى عن طريق، أو أعنتَ محتاجاً، أو أدخلتَ السرور إلى قلب شخصٍ، أو سترتَ شخصاً في معصية، بل حتى لو قدّمتَ شربة ماء، أو شيءٍ من طعامٍ لحيوان. فهذا كله يكون لك بمنزلة العبادة.

﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾. المؤمن لا يُصاب باليأس، لأن إيمانه بالله عز وجل، يقيه اليأس. عن عائشة رضي الله عنها: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ"، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ

حَالٍ")[1]. الحَمد هو سَكينة نفسية ينعم بها المؤمن، كون الإيمان يجعله في حالة حمدٍ دائمة في مختلف الأحوال.

﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾. كلمة السياحة هنا مفتوحة الآفاق ومتفرّعة المعاني، فالسياحة يمكن أن تكون من خلال الترحال في مناكب الأرض بحثاً عن فرص عمل من أجل إعداد عائلة متفوّقة، وأيضاً من أجل المساهمة في تحسين الأوضاع المعيشيّة لعائلاتٍ أخرى من خلال المساعدات التي يرسلها لهم بين حين وآخر.و يجوز أيضاً أن تكون طلباً للعلم من أجل اكتساب العلوم، فيعود وينفع مجتمعه بهذه العلوم التي اكتسبها، وكذلك السفر لنشر القيم الاسلاميّة في المجتمعات الأخرى، والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة. ويجوز أن تكون السياحة فكريّة أيضاً، فيسيح المرء من خلال قراءة القرآن في رحاب المعاني القرآنية، وهو يتأمّل هذه المعاني ويشرد فيها بعيداً عن موضعه الذي يكون فيه، وقد يستغرق ذلك ساعات، أي يكون المُسافر بجسده خلال تلك الساعات، يكون قد وصل إلى دولةٍ أخرى، فيكون مثله سائحاً بشروده البعيد في آيات الله تعالى. فيرى كيف أن هذه الآيات تتجسّد في الطبيعة، وفي الوقائع التي تحصل ويعيشها يوماً بيوم. ولذلك يُقال عن المكان الواسع: ساحة. أي هي فسحة، وهذه الساحة يمكن أن تكون صغيرة، ويمكن أن تكون كبيرة. ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ الصافات.

إذن، السياحة هي خروجُ الإنسان من الموضع الذي يكون فيه إلى مواضع أخرى، سواء أكان خروجاً مادياً أو خروجاً معنوياً.

﴿عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾التحريم٥. يجوز أن يكون ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متأملات في ملكوت الله تعالى، وكذلك فإن الصوم يمكن أن يُعدّ من السياحة، لأن الإنسان يبتعد عمّا ألفه من طعام وشراب، ومختلف منقضات الصوم. فالكلمة تتّسع لكل هذه المعاني، ذلك أن السياحة هي سعة.

---

[1] رواه ابن ماجه

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾. هو ركوع الصلاة، وكذلك ركوع الخشوع أمام آيات الله في الطبيعة ومجريات الحياة اليوميّة عندما تتجلّى للإنسان فيها حكمة الله.

﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾. السجود قريبٌ من الركوع، وهما يجتمعان في الصلاة، لكن يمكن ألاّ يجتمعا عند حصول بعض الوقائع، مثل أن يعود المرء من غربةٍ إلى موطنه، وعندما يصل، يسجد على أرض الوطن شكراً لله تعالى، أو عندما يدخل إلى بيته الذي غاب عنه زمناً، وأول شيء يفعله، أن يسجد فيه شكراً لله تعالى، أو عندما يتلقّى خبراً ساراً، فيخرّ ساجداً، وكذلك عندما يطلب شيئاً من الله، فيسجد سواء سجود صلاة، أو غير صلاة، ويسأل الله أن يُحقّق له مطلبه. وفي القرآن الكريم أيضاً سجدات، يتوقّف عندها القارئ ساجداً، لكنها ليست مشترطة بالسجود الذي يكون في الصلاة، لأنه قد يكون في موضع لا يتمكّن من ذلك، فتكون السجدة ببعض الذكر.

﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. كلمة الأمر تعني النصح والتحاور حتى تنجح في إقناع شخصٍ ما كي يعمل المعروف عن قناعةٍ تامةٍ بجدوى وأهمية ذلك في حياته. والمعروف، من العُرف، والعُرف من المعرفة، والمعرفة هي استنارة، أي تستنير بالأعمال التي تفعلها، وكذلك يستنير بها غيرُك، تنتفع بها، وينتفع بها غيرُك. وليس بالضرورة أن تكون مُبادِراً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ دوماً. فقد يطلب منك شخصٌ ما أن تفعل معرفاً معه، فتستجيب وتفعله، سواء أكان هذا المعروف مادياً أو معنوياً.

الأمر الآخر: هل يُشترَط أن يكون الآمر بالمعروف عاملاً به، والناهي عن المُنكر منتهياً عنه؟. الجواب: هذا ليس شرطاً، فليس بالضرورة أن يدعو الفاسد إلى الفساد، مثل المُدمن على المخدّرات، فيمكن له أن يعظ الناس حتى لا يُدمنوا مثله، وبيّن لهم معاناته مع الإدمان. وما إلى ذلك، كما يمكن أن يصدر عمل طيّب من شخص تصدر منه أعمال غير طيّبة. وبذلك يبقى أمل الخير والصلاح معقوداً على الناس جميعاً، فلعلّ موقفاً طيّباً يُقدّمه شخصٌ مذنبٌ يتسبّب في مغفرة ذنوبه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما كلبٌ يُطِيفُ بركيَّةٍ، كاد يقتُلُه العطشُ، إذ رأَتْه بغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ، فنزَعَت مُوقَها، فسَقَتْه فغُفِر لها به"[1].

وقد يكون الإنسان طيّباً، ولكن تصدر عنه أعمال غير غير طيّبة. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ"[2].

فإذا رأى شخصٌ يرتكب المُنكر، حقيبةً فيها أموال وبطاقة تبيِّن عنوان صاحبها، هل يأخذ هذه الأموال لنفسه لأنه يرتكب المُنكر، أم يعيدها إلى صاحبها؟.

الجواب: يعيدها إلى صاحبها، ولعلّ الله سبحانه وتعالى بموقفه هذا يغفر له ما رتكب من منكر. وهكذا إذا صادف حادثاً على الطريق، وأسعف مُصاباً، أو قدَّم مساعدة لشخصٍ ما في ضائقة ألمّت به. أو يكون قد بُلي بمعصية، ويرى شخصاً يُريد أن يرتكبها، فيُقدّم له النصح لوجه الله تعالى، بألاّ يقربها، كأن يقول له: لا تدمِّر نفسك كما دمّرتُ نفسي. فهذا يكون عكس الذي يشيع المُنكر في المجتمع، من خلال استدراج بعض الناس، وتقديم المُغريات لهم كي يأتوا المُنكر مثله. ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ البقرة٤٤.

فعلى الإنسان ألاّ ينسى نفسه من أفعال البر، وأن يفعلها، وقد رأينا في حديث البغي التي سقت كلباً أنه قد صدر منها فعل معروف. ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ آل عمران١٠٤. ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ الحج٤١.

---

[1] صحيح البخاري

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

إذن، المعروف هو نقيض المنكر، كما أن المنكر هو نقيض المعروف، وثمة أعمال يمكن أن يفعلها الإنسان، مُتعارَفٌ بإجماعٍ على نفعها، وأعمالٌ مُتعارَفٌ بإجماعٍ على ضرّها.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. جاء النهي ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. معطوفاً على: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. لأن إحداها لا تتكامَل إلاّ بالأخرى، فالذي يفعل الخير، يُدين الشر. من هنا فالذي يأمر﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾،: ينهى ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. وإلاّ فإن عدم نهيه﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. يأتي على حساب أمره﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. ففي كل الأحوال عليه أن يستنكر وفق المُستطاع.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"[1].

عن حذيفة بن اليمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ"[2].

عَنْ دُرَّةَ بِنْتِ أَبِي لَهَبٍ، قَالَتْ: (قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَآمَرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ")[3].

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ" قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: "يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ" قَالَ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: "يُعِينُ ذا الحاجَةِ المَلْهُوفَ" قَالَ: قِيلَ له: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: "يَأْمُرُ بالمَعروفِ أَوِ الخَيْرِ" قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فإِنَّها صَدَقَةٌ"[4].

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه الترمذي وابن ماجه

[3] رواه أحمد

[4] صحيح مسلم

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ" [١].

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الْمَعْرُوفَ وَالْمُنْكَرَ خَلِيقَتَانِ يُنْصَبَانِ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمَعْرُوفُ: فَيُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ وَيُوعِدُهُمْ الْخَيْرَ، وَأَمَّا الْمُنْكَرُ فَيَقُولُ: إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُ إِلَّا لُزُومًا" [٢].

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمِدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ"[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا" [٤].

الآمر بالمعروف والناهي عن المُنكر هو إنسانٌ طيّبٌ، نظير الآمر بالمُنكر، والناهي عن المعروف الذي هو إنسانٌ خبيث. فالطيّبون يؤازرون الطيّبين، لأن الخبيثين يترصّدون لهم، وأي مرصدٍ لأي إنسانٍ طيِّبٍ، هو مرصدٌ للطيِّبين جميعاً، لأنه ليس إرصاداً لشخص ذاك الطيِّب، بل هو إرصادٌ لخصلة الطيب فيه، لزحزحته عن جماعة الطيبين، واستمالته إليهم، وإذا حصل ذلك، فإن عدد الطيّبين يكون قد نقص، وعدد الخبيثين يكون قد زاد. ولذلك يتوجَّب على الطيبين ألاّ يكتفوا بمؤازرة الطيَّبين فقط، بل أن يسعوا إلى إصلاح الخبيثين أيضاً ليكونوا طيّبين. فكم من خبيثٍ أصبح طيّباً على يد إنسانٍ طيِّب، وكم من طيِّبٍ أصبح خبيثاً على يد إنسانٍ خبيث.

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه أحمد

[3] صحيح مسلم

[4] صحيح مسلم

﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. الحدّ هو الفاصل الذي يحدّ بين شيئين، وحفظك﴿ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. هو عدم إجازتك لنفسك يتجاوز ما لم يجزه الله لك، لأن ذلك يكون انتهاكاً ﴿ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. من هنا فإن ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. بمعنى الوقّافون عند الحدود التي حدّها الله، فتكون حافظاً﴿ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. على قدر ما تكون وقّافاً عند حدوده.

لكن هل الوقّاف يلبث وقّافاً دون أن يزل؟. الجواب: يمكن له أن يزل، فإذا حصلت معه زلّة في موقف ضعفٍ ما، وزلّت به قدمه إلى تجاوز تلك الحدود، هنا يشعر بحجم الإثم، وأن كل ما فيه ينفر من المكوث في ذاك التجاوز، فيعود على الفور﴿ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾. نادماً على ما بدر منه في مُنعَرَج التجاوز، ويسأل الله أن يُطهّره بالتوبة من الإثم الذي أوقع نفسه في براثنه.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. أتت خاتمة الآية بعطفٍ على بداية الآية التي تقدّمتها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾. فهذه بشارة الله الكُبرى يُبشّرها النبي صلى الله عليه وسلم، كل مؤمن.

الباب مائة وثلاثة عشر | وبال الشرك

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ١١٣

هذا كما في ظاهر الآية مقتصرٌ على الشرك، من غير أن يمتدّ لغيره:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ النساء٤٨.

وبذلك يجوز الاستغفار لغير المشركين مهما كانت ذنوبهم.

وهذه الآية تحذيريّة للمشرك كي يُراجع نفسه، وينتبه إلى حجم خطورة ما وضع نفسه فيه، فهو في أية لحظة يمكن له أن يتراجع عن الشرك، ويتوب إلى الله، ويقي نفسه أن يكون من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾. الذين نهى الله حتى عن الاستغفار لهم.

الباب مائة وأربعة عشر | التبرئة

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ ١١٤

هنا يعيد الله عز وجل، رسوله، وكذلك المؤمنين إلى الذي حصل بين إبراهيم عليه السلام، وأبيه آزر: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾. وعده أن يستغفر له حتى يتراجع عن شركه. ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾مريم٤٧. وقد حصل ذلك وأوفى بوعده في الاستغفار له. لكن وبعد الاستغفار: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾ كونه أصرّ على الشرك ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾.في استغفاره له. ولذلك فإن هذا الاستغفار كما لو أنه لم يكن.

ولننظر إلى استثناء الاستغفار في الآية ٤ من سورة الممتحنة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ثم يأتي الاستثناء من التأسّي به في ذات الآية: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾. وهذا كله تعزيز للآية السابقة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

هنا يتوقّف النبي صلى الله عليه وسلم، ويتوقّف المؤمنون من الاستغفار للمشركين الذين يصرّون على الشرك ويرفضون التوبة. وقد وصف الله المشرك بأنه ﴿عَدُوّٞ لِّلَّهِ﴾. فكيف تستغفر لشخصٍ وهو يصرّ بعنادٍ على عداوته ﴿لِّلَّهِ﴾. وتبقى الدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فإن تابوا ما عادوا بحكم المشركين، بل أصبحوا بحكم المؤمنين.

ما يمكنك استنتاجه هنا، أنك إذا صادفتَ شيئاً كهذا، أن تبقى تدعو هذا المشرك إلى التوبة دون أن تُقاطع شخصه، خاصة إذا كان من ذوي صلة الرحم. فالتبرؤ هو للمعتقَد الشركي، وليس لصلة الرحم التي تبقى قائمة. وقد لبث النبي صلى الله عليه وسلم مع

عمّه أبي طالب يدعوه إلى الإيمان ولم يُقاطعه رغم بقائه على الشرك، وإبراهيم عليه السلام كان يتحاوَر مع أبيه ويدعوه إلى الإيمان. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

الأوّاه، بمعنى كثير التضرّع إلى الله، والكلمة تذكّر بالتأوّه الذي يخرج بصدقٍ من القلب، أي يصل بتضرّعه إلى مرحلة التأوّه، ليس ألماً، بل خشيةً من الله عز وجل. وهذا يكون من قوّة الإيمان.

﴿حَلِيمٌ﴾. كما أنه أوّاه في علاقته بالله، هو ﴿حَلِيمٌ﴾. في علاقاته بالناس، والحلم في هذا المقام من الرفق، أي رفيق بالناس ويريد لهم الهداية.

الباب مائة وخمسة عشر | حدود الإيمان وحدود الضلال

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ١١٥

عندما يهدي الله عز وجل الإنسان إلى الإيمان، يُبيِّن له بنود هذا الإيمان حتى لا يقع في أخطاءٍ دون أن يعلم بأنها أخطاء، وكذلك حتى لا يستغلّه أرباب المآرب، لتجاوزات عن الدين تحت ذرائع دينيّة. ولذلك جاءت العِبارة بالغة الدقّة: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾.

فبيَّن لهم الله الخطأ حتى يتجنّبوه، والصواب حتى يتّبعوه.

في هذا المَفصَل البياني، يتبيَّن لنا بأن أهل الضلال من المؤمنين ليسوا مُغفَّلين، وهم يعلمون ما يفعلون، وأن ما يفعلونه هو مُخالِفٌ للشرع. ولذلك يتمسّكون بتأويلاتٍ ضالّةٍ عن بعض الآيات القرآنية من خلال اجتزائها سواء من سياق موضوع السورة، أو من السياق العام للتنزيل الحكيم، ويتّبعون ذلك ايضاً من خلال بعض الأحاديث النبوية. فالمؤمن الذي ينحرف، يعلم بأنه قد انحرف، كالسائق الذي يمضي بسيّارته، ويرى إشارة حمراء لابدّ أن يتوقَّف أمامها، لكنه يجتازها دون أن يتوقَّف.

كذلك فإن الإيمان مع الخطوة الأولى للإنحراف يُنبّىء المؤمن أنه بذلك يتجاوز الخط الأحمر لإيمانه، لكنه يتجاهَل ذلك ويتجاوَز.

من هنا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾. أي أن الله سبحانه وتعالى، لا يأخذ هدايته من أي إنسانٍ، كما أنه عز وجل، عنما يجعل الجنّة من نصيب أي إنسانٍ، فإنها تبقى له، ولا يُخرِجه منها إلى النار. لكن إذا دخل النار، يمكن أن يُخرِجه منها إلى الجنة، كما أنه إن كان ضالاًّ، يُهديه إلى الإيمان.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾. الآن عندما ترى مؤمناً قد ضلّ، فاعلم بأنه غير مغفَّل مهما ادّعى بأنه كان مُغفَّلاً، لأن الإيمان يكون قد حذّره كثيراً وكثيراً من الانحراف، ووضع أمامه إشاراتٍ حمراء كثيرة لكنه تجاوزها، ولم يأبه بإشارات الخطر التي بثّها إليه إيمانه.

فجـــاءت خاتمـــة الآيـــة الكريمـــة لتأكيـــد هـــذه الحقيقـــة أكثـــر فـــأكثر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. لـيعلم الإنسـان بأنـه مهمـا ادّعـى، فـإن الله ﴿عَلِيمٌ﴾. بالحقيقة كلّها ﴿عَلِيمٌ﴾. بكل صغيرةٍ وكبيرة، كل شاردةٍ وواردة في أي تحوّلٍ يتحوَّل إليه الإنسان في مسار حياته.

الباب مائة وستة عشر | المُلك

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ ١١٦

لا شيء على وجه الأرض قط يستحقّ أن يخسر الإنسانُ من أجله إيمانه، ومهما ربح نظير الإيمان، فإنه يكون في خسارةٍ فادحةٍ.

ولذلك ذكَّرَت الآية الكريمة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. فأي شخصٍ يجعلك تنحرف عن إيمانك لا يُمكن له أن يملك ربع الأرض، ناهيك عن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. مهما امتدَّت ملكيّته. فأنتَ بذلك تكون قد تركتَ الذي: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وأتيتَ إلى مَن لا يملك سوى جزءاً صغيراً من بقعة الأرض، هذا في إذا كان أكبر ملوك الأرض.

ثم قال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾. ذاك الشخص الذي انحرفتَ عن إيمانكَ طِمعاً بشيءٍ منه، لا يملك أن﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾. أما الله الذي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾.

الأمر الآخر، أن الله هو السند الحقيقي للإنسان، فبيَّن جلَّت قُدرته: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾. فوليّكم ونصيركم هو الله، ولا أحد لكم دونه.

الباب مائة وسبعة عشر | الإمهال

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾

لا أحد لا يحتاج إلى التوبة، والتوبةُ هي فضلٌ كبيرٌ من الله عز وجل على الإنسان، يتجدّد بها الإنسان ويتعرَّف من خلالها على الله أكثر.

التوبة هي تسامحٌ، وهي عفوٌ، وإتاحة الفُرَص للإنسان كي يقلع عمّا اقترفَ من ذنوب، ويبدأ صفحةً جديدةً بيضاء في حياته. فالتوبة تمنح الإنسان صفحة ناصعة البياض كما لو أنه ولد للتو.

والتوبة بذاتها عِبادة، لأنها تدخل ضمن الذِكر، والذِكر، وحَسن الظن بالله عِبادة. والله سبحانه وتعالى توّابٌ، وقد قَبِلَ التوبةَ من الرجل الأوَّل الذي خلقه، ومن المرأة الأولى التي خلقها، وجعل فرص التوبة من نصيب ذريّتهما في كل زمانٍ ومكان. ومذ ذاك، بدأت التوبة تشمل مختلف الناس حتى الأنبياء والرسل منهم، ومن ضمنهم خاتم أنبياء الله ورسله عليه وعليهم صلوات الله وسلامه.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾. وتقدَّم معنا في الآية٤٣: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. فالنبي صلى الله عليه وسلم، بشرٌ، ولم ينزع الله عنه صفته البشريّة.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ غافر٥٥. ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ الفتح٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ تَابَ قَبْل أَنْ تَطْلُع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا تَابَ اللَّه عَلَيْهِ"[1].

[1] صحيح مسلم

عن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي"[1].

عَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ"[2].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[3]. رواه مسلم (٢٦٧٥)

عن عَمْرِو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه قال: (لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي. قَالَ: "مَا لَكَ يَا عَمْرُو"؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: "تَشْتَرِطُ بِمَاذَا"؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ")[4].

عَنْ أَبِي طَوِيلٍ شَطَبِ الْمَمْدُودِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً، وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: "فَهَلْ أَسْلَمْتَ"؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُهُ قَالَ: "نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ" قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى)[5].

---

[1] رواه الترمذي

[2] رواه ابن ماجه

[3] صحيح مسلم

[4] صحيح مسلم

[5] أخرجه الطبراني

عن الأَغَرِّ بْن يَسار المُزنِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "يَا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إِلى اللَّهِ واسْتغْفرُوهُ فإِني أَتوبُ في اليَوْمِ مائة مَرَّة" [1].

تتحدَّث الآية الكريمة عمّا يمكن أن يحصل مع المؤمن ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. وهنا يكون النبي صلى الله عليه وسلم، مع القوم، وهم صحابته الكِرام، المُتقدّمون في درجات الإيمان. وهذا خير مثالٍ للناس عندما تبدر منهم مؤاخذات، سواء في الشدائد أو في غير الشدائد، فيسرعوا إلى التوبة والاستغفار.

تضعنا الآية الكريمة في قلب الحدث، وهو في ذروة سخونته، فهاهو الجيش الذي شكّله النبي صلى الله عليه وسلم، من المُهاجرين والأنصارالذين اتّبعوه، ينطلق إلى الجهاد في تبوك. وهنا لا بدّ من بيان أن ذلك حدث بأمرٍ من الله لنشر القِيَم الإسلاميّة الجديدة في مجتمعٍ جاهلي يلحق أفدح الأضرار ببعضه بعضاً نتيجة اتّباع مفاهيم جاهليّةٍ لا تمتّ إلى القِيَم الإنسانيّة. ومن ذلك: وأد البنات، عبادة الأوثان، إشاعة الزنا، استعباد بعض الناس، الجمع بين الأختَين في الزواج، وما إلى ذلك، إضافةً إلى الأذى الصحّي، مثل: أكل الميتة، والدم، وإرغام الناس على الرضوخ والاستجابة لتلك المُعتقدات. ولذلك ما كان باستطاعة أحد أن يُمارِسَ حرية الرأي في مُعتَقَده، أو في طريقة حياته.

هنا كان الجِهاد في سبيل إتاحة فسحة الحرية أمام الناس، سواء ألبثوا في مُعتقداتهم الجاهليّة، أو آمنوا بالإسلام عن قناعةٍ تامّةٍ دون أي شكلٍ من أشكال الإرغام، وتحت راية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن﴾ البقرة٢٥٦. ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران١٥٩. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ الأنعام١٠٧. ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ يونس٩٩.

---

[1] صحيح مسلم

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ النحل ١٢٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ الحج١٧.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ فصلت٣٤.

فالإيمان تحت التهديد وبالإكراه لا يكون إيماناً، مهما تلفَّظَ المرء عبارات الإيمان، وبالتالي فإنه لا يكون جِهاداً، بل يكون خروجاً عن تعاليم القرآن حتى لو آمَنَ مليون شخصٍ كافرٍ في يومٍ واحدٍ بهذه الطريقة، لأن هذا الذي أشهر عليهم السيف جعلهم يزدادون بُعداً عن الإسلام في قلوبهم على قدر ما أرغم عليهم ترديد عبارات الإيمان بألسنتهم.

من هنا فإن المسلم يوصل القِيَم الإسلامية إلى الناس، ثم يتركهم أحراراً فيما يُقرّرون، ومن الطبيعي عدم جواز شرعي لأي اعتداء على أموال أو أعراض أو حريات غيرالمؤمنين مهما كانت مُعتقداتهم، سواء أكانوا في المجتمعات الإسلامية، أو في مجتمعاتهم غير الإسلامية.

فالإيمان هو بادرة شخصيّة يقدم عليها المرء بمحض إرادته ومن تلقاء نفسه في خلوةٍ بينه وبين ربّه، وذلك بعد أن تبلغه الدعوة، وهنا يكون إبلاغ الدعوة في سبيل الله تعالى جِهاداً.

لكن هناك أمرٌ قد يستجدّ في طريق الدعوة، وهو وجود أناسٍ يحملون سيوفاً ويعترضون الدعاة، ويرفضون مجرَّد أن يُفكّر شخصٌ بتغيير مُعتَقده الجاهلي. هُنا لا ينبغي الرضوخ والاستسلام لهؤلاء، فإذا كان الاعتراض بالكلام، يكون الرد بالكلام دون تجاوز، وإذا كان الاعتراض بالسلاح، فيكون الردّ كذلك بالسلاح، ليس لإرغام الإسلام عليه، ولكن لعدم الرضوخ والاستسلام له كونه يريد إرغام مُعتقده على الناس ويمنعهم من حريّة المُعتَقَد، ولم يكتف بذلك في دياره، بل يأتي أيضاً إلى ديار المسلمين كي يمنعهم بقوّة السلاح من ممارسة شعائر معتقدهم. وبالضبط هذا الذي حصل في أجواء هذه الآية الكريمة، حيث هجم الجيش الروماني المؤلَّف من أربعين ألف مقاتل ديار المسلمين لاحتلالهم واحتلال أراضيهم، ومنعهم من نشر الدعوة الإسلامية.

فالآية تبيِّن أن هؤلاء تحمّلوا كل هذه المَشاق من أجل دفع الجيش الروماني عنهم، وليس من أجل الذهاب إلى ديار الرومان وإرغام الإسلام عليهم. ولذلك فإن مفهوم كلمة الغزو مختلفٌ تماماً عن مفهوم الكلمة في عصرنا. فهم الآن يصدّون جيشاً أتى لاحتلالهم، ورغم ذلك يقولون: (غزوة تبوك). والحقيقة أنه صدٌّ للغَزو الذي كادوا يتعرّضون له. فكلمة الغزو، هي نظير كلمة المعركة. لماذا؟

لأن الإسلام لا يُجيز لك بأي حالٍ من الأحوال مداهمة بيت جارك غير المسلم، وتستحلّ لنفسك ماله وعرضه ودمه لمجرّد أنه غير مسلم، وهو لم يحمل عليك السلاح ليُخرجك من مُعتقدك، ولم يمنعك من أداء شعائر دينك، بل لعلّه منتجٌ في مهنته وينفع الناس بنتاج عمله الجيّد أكثر من كثيرٍ من المسلمين، والمسلمون يثقون بخبرته وبجودة نتاجه، أكثر ممّا يثقون بكثيرٍ من المُسلمين. فالإسلام حافَظَ على بقاء هذه العلاقات الإنسانيّة سليمة، بل تتقدَّم إلى غير المسلم من اليهود، أو النصارى، وتطلب ابنته للزواج سواء لك أو لابنك، فتكون هناك علاقة قرابة بينكم، وتُصبح هذه المرأة غير المُسلمة أهلك، وأم أولادك، وما إلى ذلك من تفرّعات قرابة النسابة، ولا يجوز لك أن تُرغم عليها الإسلام، أو حتى تجعله شرطاً لزواجك منها، ولعلّها ترضخ لشرطك لا إيماناً بالإسلام، بل حتى لا تخسر فرصة الزواج منك، أو لعلّ حبك قد وقع في قلبها، لوتكون بذلك قد ابتدعتَ شرطاً لم يشترطه الدِين في زواجك منها.

من هنا، فكما: ﴿ تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾. يتوب على الذين يتّبعوه في كل زمانٍ ومكان، فهم أتباع ﴿ ٱلنَّبِيِّ﴾.

وجاء البيان: ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. لأن الإنسان أحياناً في الشدائد قد تبدر منه مؤاخذات في إيمانه، فاستؤنفَ البيان: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾. أي بلغوا ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. درجةً أصبحوا فيها على وشك زيغ قلوبهم.

والزيغ هنا بمعنى: المَيل. ويُستَنتَج من أجواء الآية أن هؤلاء البعض خطر لهم أن يعودوا إلى بيوتهم ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البقيّة يُكملون إلى تبوك. ولعلّهم حاولوا ذلك، وذلك بسبب المُعاناة العَسيرة التي وجهتهم، لكن سرعان ما ندموا واستغفروا الله.

وكما جاء في بعض أسباب النزول، كان كل عشرة أشخاصٍ يتناوبون على بعيرٍ واحدٍ، يركب أحدهم ساعة ثم ينزل ليركب غيره. وكان يقتسم اثنان تمرةً واحدةً، يضعها في فمه ويشرب عليها الماء. وفيما بعد نفذ حتى الماء، كانوا يتناوَبون على مصِّ التمرة حتى لا يبقى منها غير النواة. وكانوا يأكلون الشعير، ويتحمّلون درجات الحرارة

المُلتهِبة عليهم، خاصةً في أوقات الذروة حيث كانوا يمضون في العراء تحت أشعة الشمس المُلتهبة. وفي ذلك جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله لنا.. قال: "أتحب ذلك" قل: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر).

وصف الله سبحانه وتعالى ما كانوا فيه بـ ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. و﴿سَاعَةِ﴾. بمعنى الوقت، أي الوقت العسير الذي احتملوه في الذهاب والإياب. ولذلك سُمّي هذا الجيش (جيش العسرة). فالرجل المؤمن عليه أن يكون رجل﴿ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾. ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. والمرأة المؤمنة عليه أن تكون امرأة ﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾. أنهما يؤمنان: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ الشرح٦. والذي لا يحتمل العسر، لا يبلغ اليسر. بل أن الطريق إلى اليسر، يكون عبر العسر.

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ قَبِل منهم التوبة ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾. يرأف الله بالإنسان، ويرحمه بأن يمنحه فُرَص التوبة كي يصلح من شأنه.

الباب مائة وثمانية عشر | الملجأ

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ١١٨

هذه الآية الكريمة تدخل ضمن الذنوب التي يمكن للمؤمن أن يرتكبها وهو مؤمن، ومعترفٌ بأنه مذنب، لكن لظرفٍ ما، وهذا الظرف غير مشروع، بل هو تجاوز.

إذن، هؤلاء﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾. لهم وضعٌ خاص، وهم غير الذين ذُكِروا في الآية ٨١: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾. أو في الآية ٩٠: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾. بل على العكس، فهؤلاء﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾. عن الذهاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد، لم يكونوا فرحين بذلك، ولا منشرحي الصدور، بل: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ فرغم رحابة أرض الله والواسعة، أحسوا بأنها ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾. وليس هذا فحسب، بل: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾. هنا تصوّر الآية الكريمة وضعهم النفسي الصعب الذي آلوا إليه بعد ذهاب النبي صلى الله عليه وسلم مع الصحابة رضي الله عنهم. ويبدو أن أحداً قبل ذلك لم يعلم بتخلّفهم، وربما رأى تخلّفهم أيضاً بشكلٍ مُباغتٍ، وفي اللحظات الأخيرة. وهؤلاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن الأنصار الذين آزروه وآمنوا به، وهم كما في بعض أسباب النزول: كعب بن مالك من بني سلمة، ومُرارة بن الربيع العَمْري من بني عمر بن عوف، وهلال بن أميّة الواقفي من بني واقف.

لكن كلمة ﴿خُلِّفُواْ﴾. هنا يمكن أن نتّخذها كمفتاحٍ لفتح باب الآية والدخول إلى رحابة معانيها.

﴿خُلِّفُواْ﴾. بضمّ الخاء وكسر اللام، وكان المعنى سيختلف كلياً فيما لو كانت الكلمة بفتح الخاء وفتح اللام. فهم﴿خُلِّفُواْ﴾. تحت ظرفٍ ما، ولم يكن ذاك الظرف مفروضاً عليهم، أو خارجاً عن إرادتهم، لكنهم رضخوا له. ولذلك: ﴿خُلِّفُواْ﴾. أي أخلفهم ذاك الظرف عن الذهاب إلى الجهاد، ولعلّه أيضاً أخلفهم عن المشاركة الماليّة في تجهيز الجيش، وإذا كان ذلك، والله أعلم، فيكونون ﴿خُلِّفُواْ﴾. بحضورهم، وأيضاً ﴿خُلِّفُواْ﴾. بمشاركتهم الماليّة. فأصبح من الطبيعي ﴿إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أحسوا بضيقها عندما رأوا الجيش ينطلق في فسحتها إلى الجهاد، ومكثوا هم في ضيق البيوت ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾. كونهم بخلوا في إمداد الجيش أيضاً بالأموال. فأصبحوا يُعانون انتكاسات ضيقَين هما من أصعب ما يمكن أن يواجهه الإنسان نفسياً: ضيق رحابة الأرض، وضيق فسحة النفس. فيشعر الإنسان بأن صدره يضيق حتى بالتنفّس، فلا يتنفّس إلاّ بالكاد، وحتى إذا خرج من البيت، وجد الأرض أيضاً تضيق به.

ووفق هذا الذي يُستنتَج، جاءت الجملة البيانيّة التالية: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾. هنا عندما عاد النبي صلى الله عليه وسلم، أتوا إليه معتذرين ومُعترفين بتقصيرهم في التخلّف، سواء بالحضور، أو بالمشاركة الماليّة. فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم الحقيقة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾. وهذه علامة كُبرى من علامات ثبات الإيمان لديهم، رغم التقصير الذي بدر منهم. وهنا لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم غذرهم بشكلٍ مباشَرٍ، وكذلك نهى الناس عن التحدّث معهم، حتى أنزل الله سبحانه وتعالى بأنه قَبِلَ توبتهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. ﴿ثُمَّ﴾.

أي بعد أن ندموا على ما بدر منهم﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾. قَبِلَ توبتهم بمنحهم فرصةً إصلاح تقصيرهم، فصاروا من التوّابين الذين ﴿تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. شرَّع الله التوبةَ لعِباده وترك بابها مفتوحاً، رحمةً منه للعِباد. وقد حصل هذا العفو كما يُروى بعد خمسين ليلةٍ من مُقاطَعة الناس لهم، لكن بعد ذلك عاد كلُ شيءٍ بالنسبة إليهم إلى ما كان عليه، كما أن الذي حصل لم يكن.

عَن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: (سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي: أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ، فِي تِلْكَ الغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ، وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلاَلُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطُفْتُ فِيهِمْ، أَحْزَنَنِي أَنِّي لاَ أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ،

فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: "مَا فَعَلَ كَعْبٌ" فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلاَنِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: "تَعَالَ" فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: "مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ". فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لاَ وَاللَّهِ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ". فَقُمْتُ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلاَنِ، قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي

نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ، وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ البَلاَءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لاَ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ

كَلاَمِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا، بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ"، قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: "لاَ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ". وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ". قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا، مَا بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ

﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]. **فالإنسان يمكن أن يبدر منه تقصير في بعض واجباته الإيمانيّة، لكن المهم أن ينتبه إلى ذلك، ويكون صريحاً وواقعيّاً مع نفسه دون حرج، ويطلب من الله العفو، على الذي بدر منه.**

[1] صحيح البخاري

الباب مائة وتسعة عشر | بين التقوى والصدق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ١١٩

بعد التجربة التي حصلت مع أولئك الثلاثة، تتحدَّث هذه الآية الكريمة عن وجود ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في حياة الإنسان المؤمن. وهنا أيضاً يمكن أن نستنتج شيئاً يفيد شرحنا للآية السابقة. فالثلاثة لو استشاروا ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما خطر لهم، لقدَّم لهم الصادقون النصح. وليس بالضرورة أنك لا تكون صادقاً عندما تستشير ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

بل ورغم صدقك، فإنك تحتاج إلى استشارة ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الإنسانُ الصادق يبدر منه الصدق، وهو ينبّه الذي يستشيره ويُصارحه بالحقيقة، وهذا ما يجعل الحقيقة مترسّخة أكثر عند الإنسان.

الأمر الآخر، أن الآية الكريمة بيَّنَت العلاقة بين الصدق وبين التقوى، فالإنسان يكون تقياً عندما يكون ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وأهل الصدق يصدقون بعضهم بعضاً، ويتآزرون مع بعضهم بعضاً. ولذلك جاءت التقوى قبل الصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. لأنهم يُعزّزون التقوى لديكم من خلال صدقهم معكم. والكلام هنا موجّه للمؤمنين كي يتّقوا ﴿ٱللَّهَ﴾ ويكونوا ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وكما أنك تحتاج أن يصدقك الصادق، فأيضاً عندما يأتيك المؤمن مستشيراً إياك، فعليك أن تصدقه القول.

الباب مائة وعشرون | الأجر

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ١٢٠

الآية بمنزلة التنبيه والعِتاب، بمعنى: فعلتم شيئاً ما كان جديراً بكم أن تفعلوه. الخِطابُ هنا موجَّهٌ ﴿لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الذين يقطنون فيها ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. الذين يقطنون حولها مثل: مزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم.

﴿مَا كَانَ﴾ لهؤلاء ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾. جاء الكلام عاماً ومفتوحاً، سواء بالنسبة ﴿لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾. أو ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾. فهؤلاء ﴿مَا كَانَ﴾ لهم﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾. ويتركوه مع صحابته يُجاهِدون كما لو أن الأمر لايعنيهم. ولذلك جاءت الجملة التالية: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾. كلمة الرغبة هنا بمنزلة التفضيل، أي يُفضّلوا ألاّ يُشارِكوا معه في الجِهاد: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾. أي يؤمنوا به ولكن لا يريدون لأنفسهم أن تلقى مشقّة الجِهاد، كما يتلقّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه.

ثم يأتي التحفيز إلى الجِهاد بأنهم ﴿بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾. عطشٌ ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾. إرهاقٌ ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾. جوعٌ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. خالصاً لله تعالى ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾. يبلغون ﴿مَوۡطِئٗا﴾. بقعة أرض ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾. من خلال نشر شرع الله الذي يتعارض مع أهواء ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾. ولذلك يغتاظون ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾.

عبارة بالغة التركيز، وبالغة الدقّة، وكلماتها متماسكة ومتكاملة بعضها بعضاً، بحيث إنك لو حذفتَ كلمةً، سيخلّ المعنى، وتصُبح الجملة ركيكة.

النَيل، هو الحصول على شيءٍ مشروعٍ، مثل الذي يزرع، فينال نتاج زرعه عند المحصول.

وقد وردت الكلمة مرَّتَين في الجُملة، ثم ورت كلمة﴿ عَدُوٍّ ﴾. فما العلاقة بين العَدو، وبين النَيل، والعدو يريد منك أمراً غير مشروع، والنَيل هو أمرٌ مشروعٌ؟.

كلمة﴿ عَدُوٍّ ﴾. مِن الاعتداء، أي أن شخصاً ما يعتدي على غيره دون حق، فيكون بذلك عاداه من خلال اعتدائه عليه. وقد يكون الاعتداء من خلال الضرب المُباشَر، أو من خلال الكلام، أو الاعتداء على ماله، أو عرضه، وما إلى ذلك.

في الآية الكريمة، العَداوة هي للعَقيدة، فيجيز شخصٌ غير مسلم لنفسه الاعتداء على شخصٍ مسلمٍ، لا لشيء، فقط لأنه مسلم. ولذلك جاءت كلمة ﴿ عَدُوٍّ ﴾. دقيقة ومُرَكَّزة في صميم المعنى، لأن المُسلم إذا اعتدى على غير المُسلم، فقط لأنه غير مُسلم، فلا يكون قد نالَ منه، بل يكون قد اعتدى عليه، وبادره بالعداوة، وأصبح عدوّاً له. وهنا عندما يصدّه غير المُسلم، سيكون قد نال منه.

ولذلك فإن الإسلام يدعو المُسلم إلى العلاقة السلميّة مع غير المُسلمين، في التجارة، والمؤازرة، والواجبات الاجتماعيّة، وحقوق الجيرة، ودعوتهم إلى تناول الطعام في بيته، وتلبية دعوتهم لتناول الطعام في بيوتهم، أو يتزوَّج من امرأة كتابيّة.

من هنا كانت كلمة ﴿ عَدُوٍّ ﴾. بمعنى أن هذا الشخص غير المُسلم لا يكتفي بأنه لا يؤمن بالإسلام، أو يؤمن بعقيدة مُناقِضة للإسلام، بل يُعادي كل شخصٍ مسلمٍ، فيجعل بذلك نفسه عدوّاً للمسلمين، ويُبادرهم بعداوته، يستبيح لنفسه كل اعتداء عليهم.

في هذا الموقف يكون النَيل من خلال صدّ هذا الشخص وإيقافه عند حدّه، وفقما هو يُعاديك به. فإن كان يُعاديك بالكلام، تردّ عليه بالكلام دون تجاوز، إلاّ إذا بادر هو بالتجاوز. فتكون بذلك قد نلتَ منه ﴿ نَّيْلًا﴾. أي رددته عن نفسك ردّاً. بكل ما سبق من تفرّعات الجِهاد ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ بكل ما سبق من تفرّعات الجِهاد ﴿ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾.

لأنك لم تستسلم ولم تخنع، بل أصررتَ على الصلاح، وبذلك أكرمك الله سبحانه وتعالى بمرتبة الصالحين. فتكون من ذوي الأعمال الصالحة عن الله عز وجل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. أي شيءٍ تفعله خالِصاً لوجه الله تعالى، يؤجركَ عليه، وفق عهد الله الذي عاهدك به في خاتمة الآية. فلا أجر قط يضيع عند الله، ومهما كان كبيراً، أو صغيراً، فإن الله يثيبك عليه.

والكلمة الأخيرة من الآية الكريمة، تُبشّرك أيضاً بأن الله عز وجل أكرمك بمرتبة ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. فيكون سجلّك عند الله أنك من عباده الصالحين﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

الباب مائة وواحد وعشرون | الجزاء الأحسن

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾

لا يُشتَرَط في الإنفاق في سبيل الله تعالى أن يكون كثيراً، لأن بعض الناس لا يملكون الكثير، ولكنهم يُريدوا أن يُنفقوا بالقليل الذي يقدرون عليه.

والأمر هنا ماديٌّ وكذلك مَعنَوي، أي يتكاتَف المُسلمون مع بعضهم بعضاً في السرّار والضرّاء، نساؤهم ورجالهم، شيوخهم وشبّانهم، فقراؤهم وأغنياؤهم، سواء من خلال بذل المال، أو بذل الجهد.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فيما يملكون ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾. لم يقل: قليلة. رغم أن الصغير هنا جاء بمعنى القليل، والكبير بمعنى الكثير. لأن الصَغير هما معنويّاً هو مقام الكَبير، وهو بالنسبة للمُنفق المُتواضع الدَخل، كبير. فقد يكون أكثر من نصف ما يملك، وقد ترك أقل من النصف لنفقات عياله، ولذلك هو صَغيرٌ كَمّاً، وكَبيرٌ مَعنىً.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾. هناك كان البذل بالمال، وهنا البذل بالجهد. والبذل بالجُهد يختلف وفق التقنيات المُستجدّة عبر الزمن، فقد يكون الجهد إعلاميّاً، فيُسافِر هذا الباذل لجهده بين حينٍ وآخر في الأرض من أجل هداية الناس إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة. خاصةً إذا سافر إلى بلادٍ غير إسلاميّةٍ، فلا جواز له أن يعتدي على أي شخصٍ غير مسلمٍ بغية إرغامه على اعتناق الإسلام، لأنه حتى لو نجح في ذلك، سيكون هو قد خرج عن تعاليم الإسلام، ويكون الآخر مُسلِماً باللسان دفعاً للأذى عن نفسه، وبذات الوقت محتفظاً بالكفر في قلبه. وبالنتيجة، سيكون ذاك الكافر قد أخرج المُسلم عن تعاليم الإسلام، دون أن يتزحزح هو عن كُفره.

وقد ورد ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾. لأن قطع المسافات من خلال الوادي يكون شاقاً، ولا يكون ميسّراً مثل قطع المسافات على أرضٍ سهلةٍ.

ويمكن قياس ذلك فيما بعد، بالذهاب إلى أماكن تحتاج إلى بذل جهودٍ شاقّةٍ رغم استحداث وسائل ركوبٍ حديثةٍ. أصبح مكتوباً ﴿لَهُمْ﴾ عند الله.

﴿إِلَّا﴾ بتأكيدٍ قاطعٍ من الله عز وجل: ﴿كُتِبَ لَهُمْ﴾ الأجر عن ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على عملهم الذي أصبح مكتوباً ومحفوظاً عنده: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أكثر ممّا يستحقّوه نظير ما قدّموه من أعمالٍ في سبيل الله. فإن قال الله لك: افعل هذا وسأجزيك بِما هو ﴿أَحْسَنَ﴾. من أجرك. ومهما تخيَّلتَ هذا الأجر، فإنه يكون﴿ أَحْسَنَ﴾. من كل ﴿أَحْسَنَ﴾. يمكن للإنسان أن يتخيّله.

الباب مائة واثنان وعشرون | منزلة الفقهاء

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾

ما تزال الآيات تُفرّع وتفرز ما تم ذكره بالعموم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الآن في هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾. هنا تبيِّن الآية أهمّية فرز كفاءات الناس، فاستُثنى بعضهم من المشاركة في الحرب إذا وقعت، وذلك بسبب حاجة الناس إلى بقاء هؤلاء بينهم، فهم بمنزلة المصابيح التي إذا خرجت من المكان، عمَّ الظلامُ على المكانِ كلّه بِما فيه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى، التفقّه ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾. لأن معرفة الشرع الإلهي، أصل كل معرفة، وأنفع كل معرفة. فهؤلاء يُستَثنوا من الاستجابة للنفير ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

تبيِّن الآية الكريمة مدى حاجة المتفقّه﴿فِى ٱلدِّينِ﴾. إلى الوقت والجهد، كي يتبحَّر ويتعمَّق ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾. حتى يستنبط الإجتهاد السليم والدقيق، والفتيا السليمة والدقيقة ما أمكن، ذلك أنه يتعامَل مع الوحي الذي هو أثقل من جِبال الأرض، وأوسع من سِعة الأرض. ويمكن لغير المتبحّر والمتعمّق أن يَضل، ويُضل غيره، يَهلَك، ويُهلِك غيره. فتعمّ بذلك الفِتَن وأشكال التناحر بين المُسلمين.

ويحصل هذا عندما يتّخذ بعض الإعلاميين، الدِين وسيلة لمآرِب شخصيّة يبتغونها، فيُطلقون لُحاهم، ويتزيّون ببعض الأزياء التدينيّة، أو يجعلون بعض العلامات على جباههم، ليُظهِروا للناس كثرة سجودهم، وما إلى ذلك. وهؤلاء أحياناً يكونون من معدّي بعض البرامج، أو الصحفيين، أو مراسلي بعض وسائل الإعلام. وبغتةً يتحوّلون إلى دعاة،

ومع شيءٍ من الشهرة بسبب برامجهم في بعض القنوات، وظهورهم الكثير في وسائل الإعلام عند كل شاردةٍ وواردة، يتقرَّبون إلى ولاة الأمور، ويتحوّلون إلى مفتين لهم، يُقدّمون لهم الفتاوى الضالّة.

ذكرت الآية الكريمة عبارة تنبيهيّة بالغة الدقّة والتركيز: ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾. فأكرم الله عز وجل، المتفقّه بصفة النذير، والنبي صلى الله عليه وسلم نذير: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ البقرة١١٩.

والنذير هو الذي يعلم شيئاً لا يعلمه الناس، فيُنذرهم به، والكلمة هنا متّصلة اتّصالاً مُركّزاً ووثيقاً بكلمة التفقّه، أي التفقّه في المُنجزات البشريّة التي تتحقّق للإنسان بفضل الله. فلا بدّ من أشخاصٍ مجتهدين يستنبطون الأحكام الشرعيّة الصحصيحة ما أمكن، بكثيرٍ من التعمّق والتبحّر والدرس وصرف الجهد والوقت. كونه يتفقّه في الواقع على قدر ما يتفقّه في علوم الدين، وهذا هو المتفقّه الذي يحتاجه الناس، والذي يملك أن يُنذر قومه. ولذلك يبقى في المجتمع لأن ذلك أنفع للمجتمع من ذهابه إلى الجِهاد عند نشوب الحرب. وكلمة الرجوع في الآية الكريمة تُشير إلى أهميّة أن تكون للمؤمن مرجعه الشرعي الموثوق به، والمشهود له بسعة العلم، ورجاحة الفتيا.

ثم تكلل المعنى الأكثر بياناً في الجملة الخاتمة للآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. أي يأخذوا حذرهم من خلال الإنذار الذي أنذرهم به المتفقّه ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾. فإذن: ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾. لماذا؟ الجواب: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. مِمّاذا؟ مِن مضمون الإنذار الذي ينذروهم به. وهذا المضمون لم تُحدّده الآية الكريمة، كوننا في فسحة الاجتهاد. وبذلك لبث هذا المضون مفتوحاً ليشمل كل يكون المؤمن على وشك الوقوع فيه. ويكون بأمس الحاجة إلى مَن ينذره.

لذلك: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾. ويتركوا فراغاً هائلاً في الناس الذين يكونون دون المُنذرين في ظلماتٍ من أمرهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم: "النَّاسُ مَعادِنُ كَمَعادِنِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ، خِيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلامِ إذا فَقُهُوا، والأرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وما تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ"[١].

عَنْ أَبِي الدَّرْداءِ رضي اللَّه عَنْهُ قَال: (سمِعْتُ رَسُول اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، يقولُ: "منْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ علْماً سهَّل اللَّه لَه طَرِيقاً إِلَى الجنةِ، وَإِنَّ الملائِكَة لَتَضعُ أجْنِحَتَهَا لِطالب الْعِلْمِ رِضاً بِما يَصْنَعُ، وَإنَّ الْعالِم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ من في السَّمَواتِ ومنْ فِي الأرْضِ حتَّى الحِيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ الْعَالِم عَلَى الْعابِدِ كَفَضْلِ الْقَمر عَلى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وإنَّ الْعُلَماءَ وَرَثَةُ الأنْبِياءِ وإنَّ الأنْبِياءَ لَمْ يُورِّثُوا دِيناراً وَلا دِرْهَماً وإنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ، فَمنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وَافِرٍ")[٢].

عن أبي موسى الأشعري رضي اللهُ عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: " مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ "[٣].

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن علَّمَ عِلمًا فلَه أجرُ من عَمِلَ بِه لا ينقُصُ من أجرِ العامِلِ"[٤].

عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"[٥].

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه أبو داود والترمذي

[3] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[4] أخرجه ابن ماجه

[5] صحيح البخاري

الباب مائة وثلاثة وعشرون | أوان الغِلظة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٣﴾

الكافر الذي يكون قريباً منك، ويشنّ عليك حملات العداء، يكون الردّ عليه بالمثل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ﴾ دافعوا عن أنفسكم وصدّوا ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يُجانبونكم ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾. في حال بادّروا إلى قِتالِكم. ﴿ وَلْيَجِدُواْ﴾. ليلمسوا ويروا ﴿فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾. إمكانيّةً للتصدّي لهم بالمثل. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ ثقوا تمام الثقة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ﴾ يؤازر وينصر ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

كلمة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾. في خاتِمَة الآية تُشير إلى أهميّة الالتزام بالتقوى من خلال الردّ على الأعداء المُبادرين بالعداوة. فيمكن أن تكون ممارسة التقوى ذاتها شكلاً من أشكال الدِفاع السلمي. ولذلك ورَدَت المُجاوَرة في الآية الكريمة، فيمكن أن يكون هذا الشخص جاراً لك في البيت، أو العمل، وتبدر منه تصرّفات سلبيّة في علاقاته مع الناس من أرضيّة كُفره. فتردّ على ذلك بطريقةٍ غير مُباشرةٍ من خلال تصرّفاتٍ إيجابيّةٍ في علاقاتك بالناس من أرضيّةِ إيمانك. وهكذا يأمنك الناس، ويحذروه، فتكون قد أهزَمته وانتصرتَ عليه.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. يكون معكم أينما كنتم ما دمتم تتّقوه.

الباب مائة وأربع وعشرون | البشارة

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾

دَيدَن المُنافِقين هو الاستهزاء، وهذا الاستهزاء يُخفونه ويتداولونه فيما بين بعضهم بعضاً بسرّيةٍ. هذه الآية الكريمة تكشف النقاب عن هذه السريّة التي يتحاورون ضمنها، وتنقل جملةً من حواراتهم: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾. فهم يريدون أن يفرضوا كفرهم على الآخرين أيضاً. فما داموا لا يؤمنون، فلا يجوز لأحدٍ غيرهم أن يؤمن، وإلاّ سيستهزؤون به.

تكشف الآية الكريمة النِقاب عن هذا المفهوم الموبوء عند هؤلاء، وتجيب عليهم بفصاحَتِها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾. وفي هذا بيانٌ بأن القرآن يُزيد المؤمنين ﴿إِيمَٰنٗا﴾. لأنه يقرؤوه قراءاتٍ إيمانيّةٍ.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال٢. لأنهم يُقبلون على قراءة آيات الله بخشوعٍ كي يزدادوا إيماناً. في حين أن المُنافقين إذا قرأوا آيات الله، يزدادون نفاقاً لأنهم يُقبلون على قراءتها باستهزاء حتى يثبتوا في نفاقهم أكثر. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ الإسراء٨٢. وهذا بيانٌ بأن الإنسان حتى لو كان على معتقدٍ مُنحرف، فإن القرآن قادر أن ينجيه من معتقده ويجعله في المعتقد المستقيم، إذا قرأ القرآن باستنارة في منأى عن ظلاميّة مُعتقده.

قالت الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾. ذلك أن الإيمان بذاته هو قناعة تستقرّ في القلب، وبعد ذلك يتفاعل المؤمن مع ما استقرّ في قلبه، ومن خلال هذا التفاعل في حياته اليوميّة وعلاقاته بنفسه، وبالآخرين، يزداد إيماناً.

لأنه يقرأ آيات الله ليتفاعل مع مضامينها، ويجعلها منهاجاً في حياته. فكلّما يزداد قراءةً، يزداد ﴿إِيمَٰنًا﴾. ومعنى ذلك أنه يزداد في صلاح العمل.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾. كلمة ﴿أُنزِلَتۡ﴾. في هذا المقام تُشيرإلى الصوت، كون القرآن أُنزِلَ وفق الوحي الصوتي، وكل آية من آياته أُنزِلَت بالصَوت، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ويحفظ ما يسمع ثم يبلّغ.

فالقرآن الكريم يتمتّع بهذه الخصوصيّة، ولذلك كثرت واشتهرت الأصوات التي تقرأ القرآن، وهذه الأصوات تؤثّر في المستمعين، وتوصل الآيات القرآنيّة حتى إلى المكفوفين، وقاصري النظر، والأميّين، فعندما يُقرأ القرآن بصوت قارئٍ، يستمع وينصت له المؤمنون، ويزدادون إيماناً وخشوعاً من خلال الاستماع والإنصات إليه. وعلى النقيض من ذلك يكون المُنافق، لأنه لم يؤمن بالقرآن بالأصل حتى يزداد به. ولذلك لا يُستبعَد أنهم قصدوا بقولهم لبعضهم بعضاً:

﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾. بمعنى أنهم ما تزحزحوا عن نفاقهم الذي لبثوا مصرّين عليه. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾. لعلّ المعنى: كلّ ﴿مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾. من القرآن. وهذا بيانٌ بأن التمظهر بالإيمان بانسبة إليهم هو رسوخٌ في النفاق أكثر، وكلّ ﴿ مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾. ازدادوا نفاقاً. وهنا يُمكن الفهم بأن هذه السور القرآنية تجعلهم يُظهرون نفاقهم أكثر، وسبب ذلك أنهم لم يؤمنوا كما تؤكّد الجملة التالية التي هي جوابٌ عليهم: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾. على إيمانهم ﴿ وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾. يحملون بشارات الإيمان إلى بعضهم بعضاً. ويجوز أن تكون البشارة للمنافقين أيضاً، بأنهم إذا آمنوا سيزدادون ﴿ إِيمَٰنٗاۚ﴾. بالقرآن.

الباب مائة وخمسة وعشرون | مرض النِفاق وعلاجه

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾

المرض في الآية هو وباء النِفاق الذي يتمكَّن من القلب، ويكون صاحبه هو الذي استدعاه وجلبه لنفسه، وتفاعَل معه حتى صار قلبه مُصاباً بوباء النِفاق. كلمة ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾. تكرَّرَت بذات التشكيل في الآيتَين المُتتاليتَين، ولكن في موضعَين نقيضَين. في الأولى بيانٌ بأن الذي يريد أن يزداد إيماناً بالقرآن، فيزيده. ونظير ذلك في الثانية أن الذي يُريد أن يزداد نِفاقاً من خلال عدم الإيمان بالقرآن، يكون له ذلك.

﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾. وهذا بيانٌ بأن أصل الرجس لا بدّ أن يكون موجوداً، حتى يزداد، كما أن أصل الإيمان لا بدّ أن يكون موجوداً حتى يزداد. ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾ خبثاً ﴿إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾. خبثهم الذي كان موجوداً لديهم. ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾. أصرّوا على الكُفر دون أن يؤمنوا. وفي ذلك بيانٌ بأن الكُفر يزداد في القلب مع المُمارَسة حتى يُصبح مُترسّخاً فيه، ولا سبيل إلى علاج ذلك سوى الإيمان الذي يُطهّر ذاك القلب من الرجس مهما كان مُترسّخاً فيه. ومع المُداوَمة على قراءة القرآن، يتطيَّب ويرتقي في درجات زيادة الإيمان.

الباب مائة وستة وعشرون | فُرَص التنبيه

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ١٢٦

تُبيِّن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى، لا يتخلّى عن عبده حتى لو كان مُنافِقاً، بل ومهما ترسَّخَ في النِفاق. فدوماً يُتيح له الفرصة تلو الفرصة كي يتوب إلى الله، ويُصبح إنساناً صالحاً في المُجتمَع. فلا يمرّ على المُنافِق عامٌ واحدٌ دون أن يُهيّيء له الله سبحانه وتعالى أسباب التوبة ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. والفتنة هنا تكون متفرّعة، مثل الابتلاء بالأمراض، أو الفقر، وأيضاً بالعافية بعد المرض، والغِنى بعد الفقر، والنجاة من حادث بأعجوبة، والتخلّص من كربٍ، وما إلى ذلك. ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾. بمعنى تأتيهم نفحات إيمانيّة من الله ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. يتوب مَن يتوب ويصلح، و يبقى مَن يكون شديد العِناد متشبّثاً بنفاقه، فيأتي عليه قول الله: ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد النفحات الإيمانية ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾. ﴿لَا﴾ يغتنموها للتوبة.

﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. دون أن يأخذوا العظة، فيلبثوا في نفاقهم.

وبذلك فإن الإنسان عليه أن ينتبه إلى إشارات الله إليه، فيتّعظ ويتراجع من غير أن يصرّ، وأحياناً يمكن أن تفعل شيئاً من غير أن تكون منتبهاً أنك بذلك تتجاوز على حدود الله، وهنا ينبّهك الله عز وجل بأن يجعل عائقاً بينك وبين هذه المعصية، مثل الإبتلاء بالمرض، وما إلى ذلك. وهذا يكون حتى تتراجع لأنك قد تكون في غفلةٍ وأنت تستمر في التجاوز. هنا تكون قد اغتنمتَ هذه الفرصة التي أتاحها الله لك كي تتوقّف عن التجاوز وتصلح العمل.

إذن، الآية هنا تحض على التفكّر في كل الأحداث التي تقع سواء لك أو لغيرك، وبذلك تستمدّ معالم النضوج قرآنياً، لأنك تُقارن بين الآيات التي تقرأها في المصحف، والمُجريات التي تراها تحصل أمامك سواء معك أو مع غيرك.

الباب مائة وسبعة وعشرون | العظة

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ ١٢٧

تُصوّر الآية المُنافقين عندما يكونون في المسجد، أو في موضعٍ آخر، والنبي صلى الله عليه وسلم يتنزَّل عليه الوحي.

﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾. كون ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ يخبر معادن ﴿بَعۡضٍ﴾. فالمكان هنا عامٌ ولا يستطيعون التحدّث فيه كما يشاؤون، كما حصل في قولهم عندما كانوا مع بعضهم: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾. الآن، لغة النظرات فيما بينهم هي التي تعمل وهم يستمعون القرآن. ويبدو أن الآية الكريمة نقلت جملةً كانت تدور في دواخلهم، وأرادوا التعبير عنها بنظراتهم إلى بعضهم بعضاً.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾. أي: ﴿وَإِذَا﴾ تواجدوا في مكانٍ وقُرئَت ﴿سُورَةٞ﴾ من القرآن ﴿أُنزِلَتۡ﴾ على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾. وهي نظرات تعجيبيّة يصوّبونها إلى بعضهم بعضاً بخائنة الأعين. وهم قبل ذلك كانوا على حذر من فضح أمرهم كما ورد في الآية ٦٤: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾. وقد حصل هذه الذي كانوا يحذروه.

وهنا ردّة فعلهم أنهم يريدون أن يخرجوا، ولذلك: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾. بمعنى: ﴿هَلۡ﴾ عندما نتحدّث فيما بيننا، يرانا ﴿مِّنۡ أَحَدٖ﴾. وقد كشف أمرنا.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾. من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يتّعظوا، ليعلموا بأن الله هو الذي يسمعهم، ويبيِّن لهم ذلك حتى يتوبوا.

فقد منحهم الله عز وجل فرصةً ثمينةً كي يؤمنوا، وهذه من الفرص التي قالت بها الآية السابقة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

ولكن: ﴿ٱنصَرَفُواْ﴾. دون أخذ العظة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾. والموقف يستدعي أن يخشعوا ويقولوا: بل رآنا الله. لكن لم يقولوا ذلك، بل: ﴿ٱنصَرَفُوٓاْ﴾. من فرصة الإيمان الثمينة التي أتاحها الله عز وجل لهم، لكنهم لم يأخذوا العظة.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾. فماداموا أصرّوا بعنادٍ شديدٍ أن ينصرفوا عن كل فرص الإيمان: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾. ولم يُرغم عليهم الإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَّا﴾يُريدون أن، ولذلك ﴿لَّا﴾ يتّعظون من هذه الفرص الثمينة.

الباب مائة وثمانية وعشرون

بين الرسول صلى الله عليه وسلم والناس

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ١٢٨

الخطاب في الآية عامٌ بحرفَين تأكيديَين في كلمةٍ واحدةٍ افتُتِحَت بها الآية: اللام، وقد. ﴿لَقَدۡ﴾. بتأكيدٍ دقيقٍ: ﴿ جَآءَكُمۡ﴾. - أيها الناس جميعاً بشكلٍ عامٍ في كل زمانٍ ومكان-: ﴿ رَسُولٞ﴾. اصطفاه الله ﴿ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾. بشرٌ مثلكم ﴿ مِّنۡ ﴾ صلبكم. ﴿ عَزِيزٌ﴾. شديدٌ ﴿ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾. ﴿ مَا﴾ تعانونه من معاناة نتيجة عدم إيمانكم. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾. راغبٌ بحرصٍ شديدٍ أن يرفع عنكم معاناتكم. ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾. يحمل للمؤمنين الرأفة والرحمة.

يُعرِّف الله تبارك وتعالى، الناس بجبلة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو رجل خير، وحرص ورحمة، وتعزّ عليه معاناة الناس بسبب انحرافهم عن التشريع الإلهي.

الباب مائة وتسعة وعشرون | التولّي

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ١٢٩

التولّي هنا بمعنى الإعراض، فرغم كل ما تحمله إليهم من الخير يارسولنا، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾. أعرضوا عنك، ولم يأبهوا بك، ﴿ فَقُلْ ﴾ محافِظاً على سلميّة دعوتك: ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ كفاني الله نتائج إعراضكم عن الحق الذي أدعوكم إليه.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ ﴾ فوّضته أمري ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. الذي بيده ملكوت كل شيء.

****

تم بفضل الله تعالى

في مدينة أربيل،

يوم الإثنين

١٦ ربيع الأول ١٤٤٢هـ

٢ نوفمبر ٢٠٢٠م

الفهـــــــرس

مقدمة ١٣

الباب الأول | صفحة البراءة ٢٤

الباب الثاني | بين فسحة الأرض وفسحة النفس ٢٨

الباب الثالث | إيصال الأذان إلى الآذان ٣١

الباب الرابع | أحبّاء الله ٣٨

الباب الخامس | رخصة الإمهال ٤٥

الباب السادس | الاستجارة ٥١

الباب السابع | سلوك الاستقامة ٥٦

الباب الثامن | أخذُ الحذرِ من الفاسِقين ٥٨

الباب التاسع | شراء الدنيا بالدِين ٦١

الباب العاشر | منهجُ الاعتداء ٦٣

الباب الحادي عشر | حُسنُ الظنِّ في صلاحِ الآخَر ٦٨

الباب الثاني عشر | الحذر من الانجرار إلى العنف ٦٩

الباب الثالث عشر | مُباركةُ الصَّدّ ٧٥

الباب الرابع عشر | إدانة الخنوع ٧٧

الباب الخامس عشر | مَحوُ الغيظِ من القلوب ٧٩

الباب السادس عشر | الوليجة ٨٢

الباب السابع عشر | شهادة الكفر ٩١

الباب الثامن عشر | عَمَار المساجد ٩٤

الباب التاسع عشر | بين العبادة والعمل ٩٨

الباب العشرون | مقوّمات الفَوز ١٠١

الباب الواحد والعشرون | بِشارة الرب ١٠٣

الباب الثاني والعشرون | الأجر العظيم ١٠٥

الباب الثالث والعشرون | حُسن الولاية ١٠٧

الباب الرابع والعشرون | الأحَب ١٠٨
الباب الخامس والعشرون | نتائج الأعمال ١٢٧
الباب السادس والعشرون | سَكينة الله ١٣٨
الباب السابع والعشرون | المشيئة الإلهية ١٤١
الباب الثامن والعشرون | بين نجاسة الشرك وطهارة البَدَن ١٤٣
الباب التاسع والعشرون | الجزيـة ١٤٧
الباب الثلاثون | آفة الإفك ١٥١
الباب الواحد والثلاثون | التوحيد ١٥٤
الباب الثاني والثلاثون | نور الله ١٦٠
الباب الثالث والثلاثون | كَرامة الإنسان عند الله ١٦١
الباب الرابع والثلاثون | الباطل ١٦٧
الباب الخامس والثلاثون | عِقابُ الاكتناز ١٧٢
الباب السادس والعشرون | تنظيم الشهور ١٧٧
الباب السابع والثلاثون | زينةُ السوء ١٨٣
الباب الثامن والثلاثون | آفة التثاقل ١٨٦
الباب التاسع والثلاثون | قدرة الله ١٨٧
الباب الأربعون | سَكينة الله ١٩٠
الباب الواحد والأربعون | خَيرُ الخَير ١٩٦
الباب الثاني والأربعون | تهلكة النفس ١٩٨
الباب الثالث والأربعون | إجازاتٌ غير شرعيّة في الشريعة ٢٠١
الباب الرابع والأربعون | تقوى المؤمنين ٢٠٥
الباب الخامس والأربعون | ريبة القلوب ٢٠٦
الباب السادس والأربعون | الإرادة ٢٠٨
الباب السابع والأربعون | أهل الخبال ٢١٠
الباب الثامن والأربعون | تقليب الأمور ٢١١
الباب التاسع والأربعون | آفة العِناد ٢١٢
الباب الخمسون | الفاشلون السلبيون والفاشلون الإيجابيون ٢١٤

الباب الواحد والخمسون | نعمة التوكل	٢١٧
الباب الثاني والخمسون | التربص السلبي والتربص الإيجابي	٢١٨
الباب الثالث والخمسون | وبال الفسوق	٢٢٠
الباب الرابع والخمسون | الثبات في الإيمان والتزحزح عنه	٢٢١
الباب الخامس والخمسون | لا عجب	٢٢٤
الباب السادس والخمسون | وخزات التأرجح	٢٢٥
الباب السابع والخمسون | فكرة التواري	٢٢٦
الباب الثامن والخمسون | لمزات النفاق	٢٢٧
الباب التاسع والخمسون | حسبة الله	٢٢٩
الباب الستون | استحقاقات الصدقات	٢٣١
الباب الواحد والستون | فضل بادرة حُسن النيّة	٢٤٨
الباب الثاني والستون | أحقّيّة الرضا	٢٥٣
الباب الثالث والستون | المُحاددة	٢٥٥
الباب الرابع والستون | الحذر	٢٥٦
الباب الخامس والستون | آفة الاستهزاء	٢٥٧
الباب السادس والستون | المصداقيّة	٢٥٨
الباب السابع والستون | متاهة النفاق	٢٥٩
الباب الثامن والستون | الوعد الإلهي	٢٦٢
الباب التاسع والستون | الخسارة الفادحة	٢٦٣
الباب السبعون | ظلم النفس	٢٦٦
الباب الواحد والسبعون | مُناظَرة الإيمان والنفاق	٢٦٩
الباب الثاني والسبعون | مرتبة رضوان الله الأكبر	٢٧١
الباب الثالث والسبعون | الاجتهاد وتأويل الجهاد	٢٧٤
الباب الرابع والسبعون | فرصة التراجع عن الضلال	٢٨٠
الباب الخامس والسبعون | نعمة المال ونقمته	٢٨٢
الباب السادس والسبعون | إنكار الحق	٢٨٥
الباب السابع والسبعون | تتبّع الله سلوك المنافقين	٢٨٦

الباب الثامن والسبعون | علم الغيب ٢٨٧
الباب التاسع والسبعون | عقاب اللمز والسخرية ٢٨٨
الباب الثمانون | الاستغفار ٢٩٠
الباب الواحد والثمانون | الذكاء السلبي ٢٩٤
الباب الثاني والثمانون | بين الندم على الذنوب والإصرار عليها ٢٩٧
الباب الثالث والثمانون | النهي عن صحبة المنافقين ٣٠٠
الباب الرابع والثمانون | الكفر ٣٠٤
الباب الخامس والثمانون | عقاب الأموال والأولاد ٣٠٥
الباب السادس والثمانون | مقتدروا المنافقين ٣٠٨
الباب السابع والثمانون | عندما يُطبع على القلوب ٣١٠
الباب الثامن والثمانون | خيرات الفلاح ٣١١
الباب التاسع والثمانون | الإعداد الإلهي لأهل الصلاح ٣١٢
الباب التسعون | زمرة الكفر ٣١٤
الباب الواحد والتسعون | رفع الحرج عن المعذورين ٣١٦
الباب الثاني والتسعون | احتياجات الجهاد ٣٢٢
الباب الثالث والتسعون | السبيل ٣٢٤
الباب الرابع والتسعون | بين صلاح العمل وفساده ٣٢٨
الباب الخامس والتسعون | رجس النفاق ٣٣١
الباب السادس والتسعون | بين المؤمن والفاسق ٣٣٤
الباب السابع والتسعون | آفة الأعراف والتقاليد ٣٣٦
الباب الثامن والتسعون | المتربّصون ٣٣٩
الباب التاسع والتسعون | قاعدة الاستثناء ٣٤٢
الباب المائة | فضل الإحسان ٣٤٥
الباب مائة وواحد | جزاء النفاق ٣٤٨
الباب مائة واثنان | أهميّة الاعتراف بالذنوب ٣٥٠
الباب مائة وثلاثة | منزلة الصَدَقة ٣٥٤
الباب مائة وأربعة | بين الله والإنسان ٣٥٦

الباب مائة وخمسة | صلاح العمل ٣٥٨
الباب مائة وستة | الرجاء ٣٥٩
الباب مائة وسبعة | الحذر من مظاهر نقيض الجواهر ٣٦١
الباب مائة وثمانية | مؤازرة المُتّقين ٣٦٣
الباب مائة وتسعة | الهداية ٣٦٥
الباب مائة وعشرة | بُنيان النفع وبُنيان الضر ٣٦٧
الباب مائة وأحد عشر | المؤمنون ٣٦٨
الباب مائة واثنا عشر | الحدود ٣٧٠
الباب مائة وثلاثة عشر | وبال الشرك ٣٧٧
الباب مائة وأربعة عشر | التبرئة ٣٧٨
الباب مائة وخمسة عشر | حدود الإيمان وحدود الضلال ٣٨٠
الباب مائة وستة عشر | المُلك ٣٨٢
الباب مائة وسبعة عشر | الإمهال ٣٨٣
الباب مائة وثمانية عشر | الملجأ ٣٨٩
الباب مائة وتسعة عشر | بين التقوى والصدق ٣٩٦
الباب مائة وعشرون | الأجر ٣٩٧
الباب مائة وواحد وعشرون | الجزاء الأحسن ٤٠٠
الباب مائة واثنان وعشرون | منزلة الفقهاء ٤٠٢
الباب مائة وثلاثة وعشرون | أوان الغِلظة ٤٠٥
الباب مائة وأربع وعشرون | البشارة ٤٠٦
الباب مائة وخمسة وعشرون | مرض النِفاق وعلاجه ٤٠٨
الباب مائة وستة وعشرون | فُرَص التنبيه ٤٠٩
الباب مائة وسبعة وعشرون | العظة ٤١٠
الباب مائة وثمانية وعشرون | بين الرسول صلى الله عليه وسلم والناس ٤١٢
الباب مائة وتسعة وعشرون | التولّي ٤١٣
الفهرس ٤١٥